التفسير الموضوعي

لسور القرآن العظيم

تأليف

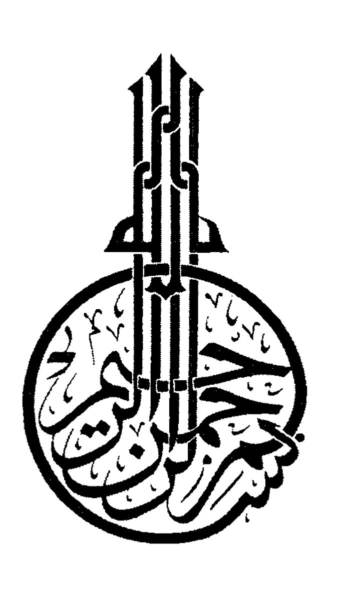
عبد الحميد محمود طهماز

المجلد الخامس:

ويحتوي على تفسير هذه السور

الكهف - مريم - طه - الأنبياء - الحج - المؤمنون





التفسير الموضوعي

لسور القرآن العظيم

٥



الطبعة الثانية
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

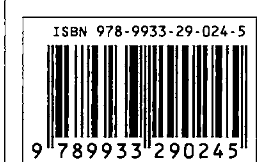
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤


ISBN 978-9933-29-024-5



١٨

تفسير سورة الكهف

العَواصِمُ مِنَ الفِتَنِ في سُورَةِ الكَهْفِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد خاتم النبيين وأشرف المرسلين، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن عصرنا هذا من أشد العصور فتناً، وأكثرها مِحناً، يتعرَّض المسلمون فيه لشتى أنواع البلاء من فِتنٍ ومِحَن، وإنَّ مِنْ أوجبِ الواجبات أن نبحثَ عن طريق السلامة في ديننا، وسبيل العافية في حياتنا.

ولابدَّ لنا لنعرف طريق السلامة من الرجوع إلى كتاب ربنا، وإلى سُنَّة نبينا محمد ﷺ، فهما كهفُ السلامة والعافية في الدين والدنيا، وسبيلُ السعادة في الآخرة.

ويمكن لنا أن نتبيَّن طريقَ السلامة وسبيلَ العافية من خلال سورة كريمة من سور القرآن الكريم، هي سورة الكهف، على ضوء الصَّحيح الثابت من سُنة رسول الله ﷺ.

وقد جاء تفسير هذه السورة في ستة فصول بعد هذه المقدمة:

- **الفصل الأول: مقدمة في الفتن: تعريفها، المراد منها، أسبابها، سبل الوقاية منها.**
- **الفصل الثاني: سورة الكهف: فضلها، وموضوعها، وصلتها بأسباب السلامة من الفتن.**
- **الفصل الثالث: قصة أصحاب الكهف.**
- **الفصل الرابع: قصة الغني والفقير.**
- **الفصل الخامس: قصة موسى والخضر** عليهما السلام.
- **الفصل السادس: قصة ذي القرنين.**

وجاءت **خاتمة السورة** للتعقيب الأخير المنسجم مع موضوع السورة، للتأكيد على ارتباط آيات السورة ببعضها ارتباطاً محكماً.

وإنني لأسال الله العلي القدير أن يحفظني من الفتن، ويجنبني الزلل والخطأ، وأن يثبتني على دينه، ويديم عليَّ نعمة العافية، وأن يعفوَ عني ويسترني بستره الجميل.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.



الفَصْلُ الأَوَّلُ

مُقَدِّمَة في الفِتَن

تَعْرِيفُها، المُرَادُ مِنْها، أسْبَابُها، سُبُلُ الوقايَةِ منها

• **تعريف الفتن:**

الفتن: جمع فتنة، ولها في اللغة عدة معانٍ، أهمها:

١ ـ الابتلاء والاختبار:

وأصل هذا المعنى مأخوذٌ من قولك: فتنتُ الفضَّةَ والذهبَ، إذا أذبتُهما بالنار لتمييز الرديء من الجيد، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت] أي: لا يبتلون ولا يختبرون.

وقال ﷻ أيضاً: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: نحن ابتلاء واختبار.

وقال ﷻ أيضاً: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ﴾ [التوبة: ١٢٦] أي: يختبرون.

ولمَّا كانت الأموال والأولاد اختباراً للإنسان وامتحاناً، قال الله سبحانه فيهم: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وتأتي الفتنةُ أيضاً بمعنى قريب من معنى الابتلاء والاختبار، وهو معنى: الإحراق، وجاء في هذا قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣].

٢ ـ الإعجاب بالشيء:

وتأتي الفتنةُ بمعنى الإعجاب بالشيء، ولهذا يقال: فتنه: أي جعل فيه فتنةً، وأفتنه: أوصل الفتنة إليه، وفُتن الرجلُ بالمرأةِ: إذا أعجبته وأحبَّها، وأهل الحجاز يقولون: فتنته المرأةُ، وأهل نجد يقولون: أفتنته، وجاء قوله تعالى بهذا

المعنى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥] أي: لا تظهرهم علينا فيعجبوا ويظنوا أنَّهم خير منَّا.

٣ ـ الميل عن الحق:

وتأتي الفتنة بمعنى الميل عن الحق، والفاتن: المضلُّ عن الحق، كما في قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ [الصافات: ١٦٢] أي: مضلِّين عن الحق.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٧٣] أي: يميلونك ويزيلونك.

فكل ما يؤدِّي إلى الميل عن الحقِّ من كفر وضلالٍ وإثم يُسمَّى فتنة، وجاء بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾ [التوبة: ٤٩] أي: لا تؤثمني، وردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ [التوبة: ٤٩] أي: في الإثم والضلال.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١] أي: الكفر والإثم والضلال.

٤ ـ الاختلاف والاقتتال:

وتأتي الفتنةُ أيضاً بمعنى الاختلاف والاقتتال الذي يقع بين الناس، وبهذا المعنى جاء قول رسول الله ﷺ حين أشرف على أُطُم من آطام المدينة ثم قال: «**هل تَرَوْنَ ما أرى؟ إنِّي أرى مواقعَ الفِتَنِ خَلالَ بيوتِكُم كمواقعِ القَطْرِ**» [رواه البخاري (١٨٧٨) ومسلم (٢٨٨٥)] أي: القتل والحروب والاختلاف.

تلك هي أهمُّ المعاني اللغوية للفتن التي ذكرها اللغويُّ المشهور ابن منظور في كتابه «لسان العرب»، ولا يخفى على المتأمل فيها أن بينها صلة، فالإعجابُ بالشيء يؤدِّي إلى الميل عن الحق، وهذا يوقع الناس في الفتنة، التي هي بمعنى الاختلاف والاقتتال، أو يوقعهم في الفتنة التي هي بمعنى الكفر والإثم والضلال، والإعجاب بالشيء نتيجة اختبار الله لنا وابتلائه بما خلق لنا في هذه الحياة من أسباب الابتلاء والاختبار.

- **المراد من الفتن:**

ونحن لا نقصِدُ بالفتن تلك التي تكون مِنَ الله سبحانه على وجه الابتلاء

والاختبار، وإنما نعني بالفتن ما يكونُ للعبدِ فيها كسبٌ واختيارٌ، وهي التي تُميله عن الحقِّ، وتُضِلُّه عنه، وتوقعه بالإثم والضلال والكفر، وتسبب الاختلاف والاقتتال بين الناس.

• **أسباب الفتن:**

وأسباب هذه الفتن يكون من التغيير والتبديل والانحراف عن دين الله سبحانه، وقد بوَّب الإمامُ البخاري في أول [٩٢] كتاب الفتن في «صحيحه» فقال:

١ ـ بابُ ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وما كان النبيُّ ﷺ يحذِّرُ من الفتنِ.

٧٠٤٨ ـ حدَّثنا عليُّ بن عبد الله، حدثنا بِشْرُ بنُ السَّرِي، حدَّثنا نافعُ بنُ عمَر[١]، عن ابن أبي مُلَيكةَ قال: قالتْ أسماءُ: عن النبيِّ ﷺ قال: «**أنا على حوضِي أنتظرُ مَنْ يَرِدُ عليَّ، فَيُؤخَذُ بناسٍ مِنْ دوني، أقولُ: أُمَّتي، فيُقالُ: لا تَدْرِي، مَشَوْا على القَهقرى**».

قال ابنُ أبي مُليكة: اللهمَّ إنَّا نعوذُ بك أن نرجعَ على أعقابنا أو نُفْتَنَ.

٧٠٤٩ ـ حدَّثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عَوانة، عن مغيرة، عن أبي وائل، قال: قال عبدُ الله[٢]: قال النبيُّ ﷺ: «**أنا فَرَطُكم[٣] على الحَوْضِ، ليُرفعنَّ إليَّ رجالٌ مِنْكُم حتَّى إذا أَهْوَيْتُ لأُناوِلَهم اختُلِجُوْا[٤] دوني، فأقول: أيْ ربِّ أصحابي! فيُقالُ: لا تَدْرِي ما أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**».

٧٠٥٠، ٧٠٥١ ـ حدَّثنا يحيى بن بكير، حدَّثنا يعقوبُ بن عبد الرحمن، عن أبي حازم، قال: سمعتُ سَهْلَ بنَ سعدٍ يقول: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**أنا**

---

(١) هو نافع بن عمر الجمحي المكي، أحد الأثبات.

(٢) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أي: سابقكم.

(٤) أي: أبعدوا عني.

فرَطُكُم على الحَوْضِ، مَنْ وَرَدَ شَرِبَ مِنْهُ، ومَنْ شَرِبَ منه لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أبداً، لَيَرِدَنَّ عليَّ أقوامٌ أعرِفُهم ويَعْرِفُوْنَنِي، ثم يُحَالُ بيني وبَيْنَهُم».

قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش وأنا أحدِّثُهم هذا، فقال: هكذا سمعتَ سَهْلاً؟ فقلتُ: نعم، قال: وأنا أشهدُ على أبي سعيدٍ الخدريِّ لسمعتُه يزيدُ فيه؛ قال: «**إنَّهمُ مِنِّي؟ فيقال: إنَّكَ لا تَدْرِي ما بَدَّلوا بعدَكَ فأقولُ: سُحْقاً لِمَنْ بدَّل بَعْدِي**».

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «وما كان النبيُّ ﷺ يحذِّرُ من الفتن» يشيرُ إلى ما تضمَّنه حديثُ البابِ من الوعيدِ على التبديل والإحداثِ، فإنَّ الفتنَ غالباً تنشأُ عن ذلك... وحاصِلُ ما حُمل عليه حال المذكورين أنهم كانوا ممَّن ارتدَّ عن الإسلام، فلا إشكالَ في تبرِّي النبيِّ ﷺ منهم وإبعادهم، وإنْ كانوا ممَّنْ لم يرتد لكنْ أحدثَ معصيةً كبيرةً من أعمال البدن أو بدعةً من اعتقاد القلب، فقد أجاب بعضُهم بأنَّه يحتمل أن يكونَ أعرضَ عنهم، ولم يشفع لهم اتباعاً لأمرِ الله فيهم حتى يعاقبهم على جنايتهم، ولا مانعَ من دخولهم في عموم شفاعته لأهل الكبائر من أمته، فيُخرجونَ عند إخراج الموحدين من النار. والله أعلم»[١].

وأخرج ابن أبي شيبة [٣٨٤٤٧] عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لا تضرُّكَ الفتنةُ ما عرفتَ دينك، إنَّما الفتنةُ إذا اشتبه عليك الحقُّ والباطل.

- **أسباب السلامة من الفتن:**

إذا كان التغيير والتبديل في دين الله والانحراف عن صراطه المستقيم منشأ الفتن، فإنَّ أسبابَ السلامة منها تكون بالتمسك بدين الله سبحانه الذي شرعه لنا دون تغيير أو تبديل، وبالاستقامة عليه، وذلك بالمداومة على تطبيقه، والسير على منهجه، وهذا يستدعي منَّا عدة أمور:

أولها: العلم بالإسلام عقيدة وتشريعاً وأحكاماً:

حتى نكونَ على بصيرة ودراية، بحيث نميِّزُ بين ما هو من الدين حقيقةً، وبين ما ليس منه من البدع والضلالات وأسباب الزيغ والانحراف.

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ١٣/ ٧.

وقد تكفَّلَ الله سبحانه بحفظ دينه، وإبقائه في الأرض حجة على الناس، بعد أن ختم النبوَّةَ والرسالةَ ببعثة خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، فحفظ أصوله ومصادره الأساسية، وذلك بحفظ القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية الشريفة، ولم يتأتَّ هذا الحفظُ لأيِّ دينٍ سماوي آخرَ غير الإسلام، ولهذا فإنَّ التمسُّك بالكتاب والسُّنَّة تمسُّكٌ بدين الإسلام، وأكبر عاصم يعصم الإنسان من الزيغ والانحراف والابتداع، وبالتالي من مباشرة الفتن أو أسبابها.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يوصي أمته من بعده بأن يتمسَّكوا بالكتاب والسُّنَّة، ففي «**الموطأ**» عن الإمام مالك رحمه الله قال: بلغني أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**تركتُ فيكم أمرينِ لَنْ تَضِلُّوْا ما تَمَسَّكْتُم بِهِمَا: كتابَ اللهِ تعالى، وسُنَّةَ رسولِهِ ﷺ**».

وفي سنن أبي داود [٤٦٠٧] والترمذي [٢٦٧٦]: عن العِرْباضِ بن ساريةَ رضي الله عنه قال: صلَّى بنا رسُولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يومٍ، ثم أقبلَ علينا بوجهه، فوعظنا موعظةً بليغةً ذرفتْ منها العيونُ، ووجلتْ منها القلوبُ، فقال رجلٌ: يا رسولَ اللهِ كأنَّ هذه موعظةُ مودِّعٍ، فماذا تعهدُ إلينا؟ فقال: «**أُوْصِيكم بتقوى الله تعالى، والسمعِ والطاعةِ، وإنْ كانَ عبداً حَبشيّاً، فإنَّه مَنْ يَعِشْ منكم بَعْدِي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكُم بسنَّتي، وسنَّة الخلفاءِ الراشدين المهديِّين، تمسَّكوا بها، وعضُّوا عليها بالنواجذِ، وإيَّاكُم ومحدَثاتِ الأمور، فإنَّ كُلَّ محدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ**».

والعلم لا يكونُ إلَّا بالتعلُّم على يد معلِّم عليم بالكتاب والسُّنَّة، خبير بكيفية استنباط الأحكام منهما، مؤتَمنٍ على دين الله، يخشى الله ويتقيه، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وما أرسل الله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلَّا معلِّمين ومرشدين وهادين، قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات].

وقال أيضاً: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أي: دليل يدلُّهم ويرشدهم ويهديهم إلى دين الله وشرعه.

ولهذا فإنَّ التفقُّه في دين الله على يد فقيه **بصير بأحكام الكتاب والسُّنَّة** من أهم الضرورات وأعظم سبيل للوصول إلى الخيرات، والعصمةُ من الفتن والمنكرات، قال ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ به خَيْراً يفقِّهْهُ في الدِّيْنِ**» [رواه مسلم (١٠٣٧)].

إنَّ الرجوع إلى الكتاب والسُّنَّة لمعرفة الأحكام دون دراية وخبرة باستنباط الأحكام، ومن غير اعتمادٍ على أصول وضوابط وقواعد تحدد طريقة استنباط الأحكام؛ يؤدي إلى الوقوع في التعارض والخبط في دين الله خبط عشواء، كما تؤدي في كثير من الأحيان، إلى التشكك والانسلاخ عن الدين والمروق منه.

والجهل بالدين من أهمِّ أسباب الفتن، وكلَّما ازدادَ الناسُ جهلاً بدينهم ازدادت الفتنُ بينهم، وكثرت أسبابها، فمن علاماتِ الساعة التي ذُكِرَت في عدَّة مواضع من أحاديث النبي ﷺ: قلَّة العلم، وانتشار الجهل، وكثرة الفتن.

ومن هذه الأحاديث: ما رواه الإمام البخاري في «**صحيحه**» [٧٠٦٢]: من حديث **أبي موسى الأشعري** رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ بينَ يدي الساعةِ أياماً يُرْفَعُ فيها العِلْمُ، وينزِلُ فيها الجَهْلُ، ويكثرُ فيها الهَرْجُ**» ـ **الهرج**: القتل ـ فقد جمع النبيُّ ﷺ في حديثٍ واحدٍ بين كثرة الفتن بكثرة القتل، وبين انتشارِ الجهلِ وقلَّة العلم في دين الله وشرعه.

ثانيها: الحرص على سُنَّةِ رسول الله ﷺ، والعمل بها، وإحياء ما اندرسَ منها:

فالرسولُ ﷺ أمانٌ من الفتن، ولهذا كان عصره عليه الصلاة والسلام أنضرَ العصور وأزكاها وأنقاها، كما أنَّه كان أبعدَها عن الفتن، تمَّ الدينُ به ﷺ، وكملتْ به نعمةُ الله سبحانه على خلقه، وكان موتُهُ عليه الصلاة والسلام أوَّلَ النقصِ، وحدثت فتنةُ الردَّةِ نتيجة ذلك.

ولكنَّ وجودَ الصحابة رضي الله عنهم وحرصهم الشديد على التمسُّك بسنَّته ﷺ أغلقَ بابَ الفتنة، وقمعَ الردَّةَ، وردَّ دعاةَ الفُرقةِ والاختلاف إلى جحورهم خاسئين، وهذا يفسِّرُ لنا سِرَّ حرص خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه على تطبيق السُّنَّةِ تطبيقاً كاملاً، وإصرارِه الشديد على تنفيذ وصية رسول الله ﷺ بأن يبعثَ جيشَ أسامة إلى بلاد الشام، مع شدَّة حاجتهم إليه في المدينة المنورة، بعد أنْ

ذرَّ قرنُ الفتنةِ في عامة البلاد من حولها، وقد خالفه عامةُ الصحابة، وأشاروا عليه بتأخير بَعْثِ جيش أسامة، ولكنَّه ﵁ أصرَّ على تنفيذ وصيةِ رسول الله ﷺ، وكان في هذا الخيرُ للإسلام والمسلمين، فقد تمكَّن ﵁ من قمع فتنة الردَّة، وأعاد للدين شبابه، وللإسلام قوته وجماله، ببركة تمسُّكه بسنَّته ﷺ وحرصه الشديد على تنفيذ وصيته.

وكان موت الصحابة ﵃ ورحيلهم عن الدنيا وخلوُّ الأرض منهم ثُلمة كبيرة في الإسلام، لأنَّهم أكثرُ الناس فقهاً في دين الله، ومعرفةً بسنَّة رسول الله ﷺ، وتمسُّكاً بها، وكان عصرهم خيرَ العصور بشهادة رسول الله ﷺ عندما قال: «**خَيْرُ الناسِ قَرْني، ثم الذين يلونَهُم، ثم الذينَ يلونَهُم**» [رواه البخاري (٢٦٥١) ومسلم (٢٥٣٣)].

فوجود الصحابة ﵃ أمانٌ للأمة المسلمة من الفتن، كما كان وجوده ﷺ أمانٌ لأصحابه من الفتن، وقد جاء هذا في حديث نبوي صحيح: عن **أبي بردة، عن أبيه** قال: صلَّينا المغربَ مع رسولِ اللهِ ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتَّى نصلِّيَ معه العشاءَ، فخرجَ علينا فقال: «**ما زلتُم هاهنا؟**» قلنا: يا رسولَ الله، صلَّينا معكَ المغرب، ثم قلنا: نجلسُ حتَّى نصلِّيَ معكَ العشاءَ، قال: «**أحسنتُم أو أصبتُم**» قال: فرفعَ رأسَه إلى السماءِ، وكان كثيراً ما يرفَعُ رأسَه إلى السماءِ، فقال: «**النجومُ أَمَنَةٌ للسماءِ، فإذا ذهبتِ النجومُ، أتى السماءَ ما تُوْعَدُ، وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يُوْعَدُوْنَ، وأصحابي أَمَنَةٌ لأمتي، فإذا ذهبَ أصحابي أتى أمتي ما يُوْعَدُوْنَ**».

وقد أخرج هذا الحديث الإمام مسلم في «**صحيحه**»، وبوَّب له باباً مستقلّاً فقال: باب بيان أنَّ بقاءَ النبيِّ ﷺ أمانٌ لأصحابه، وبقاءُ أصحابه أمانٌ للأمة [رقم (٢٥٣١)].

قال العلماء: الأمَنَةُ والأَمْنُ والأمان بمعنى واحد، ومعنى الحديث: أنَّ النجوم ما دامت باقيةً، فالسماء باقيةٌ، فإذا انكدرتِ النجومُ، وتناثرتْ يومَ القيامة، انشقتِ السماءُ وذهبتْ، والنبيُّ ﷺ أمانٌ لأصحابه من الفتن والاختلاف والارتداد، والصحابةُ أمانٌ للأمة من الفتن والاختلافِ وظهورِ البدع والحوادث، وقد وقعَ كُلُّ ذلك كما أخبر ﷺ.

وجاء التحذير من مخالفة سنَّته ﷺ، وأنَّ ذلك يؤدِّي إلى وقوع الفتن في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فما من فتنةٍ أصابت المسلمينَ بعدَه عليه الصلاة والسلام إلَّا بسبب مخالفتهم لأمرٍ من أوامره، أو تركهم لسُنَّةٍ من سننه، ولهذا كان للمتمسك بالسُّنَّةِ عند انتشارِ الفسادِ في الأمةِ أجرُ مئة شهيد، فعن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**المتمسِّكُ بسنَّتي عندَ فسادِ أُمَّتي له أجرُ مئة شهيد**» [رواه الطبراني في «الأوسط» (٥٤١٤)].

كما أنَّ العملَ على إحياء سُنَّة من سننه ﷺ من أعظم العبادات وأرفع القربات، لأنَّ إحياءَ السُّنَّةِ يدرأُ عن الأمةِ سبباً من أسبابِ الفتنِ، ويرفعُ عنها بعضَ أنواع البلاء.

كما أنَّ إحياء سنَّته عليه الصلاة والسلام دليلٌ على محبته، فعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: قالَ لي رسولُ الله ﷺ: «**يا بُنَيَّ إنْ قدرتَ أن تُصْبِحَ وتُمْسِيَ وليسَ في قلبِكَ غِشٌّ لأحدٍ فافْعَلْ، يا بُنَيَّ وذلك مِنْ سُنَّتي، وَمَنْ أحيا سُنَّتي فقد أحبَّنِي، ومن أحبَّنِي كانَ معي في الجنَّةِ**» وفي رواية بلفظ: «**فقد أحياني، وَمَنْ أحياني كان معي في الجنَّةِ**» [رواه الترمذي (٢٦٧٨) وحسنه].

قال ابنُ شهاب الزُّهري رحمه الله: بلغنا عن رجالٍ من أهل العلم قالوا: الاعتصامُ بالسُّنَّةِ نجاةٌ[(١)].

وقال عبد الله بن منازل: لم يضيِّعْ أحدٌ فريضةً من الفرائضِ إلا ابتلاه الله بتضييعِ السُّنَنِ، ولم يُبْلَ أحدٌ بتضييع السنن إلَّا أوشك أن يُبْتلى بالبدعِ.

ثالثها: اللجوء إلى الله سبحانه بالإكثار من عبادته وذكره ودعائه:

فيجب على المسلم عندما يواجه الفتن بأن يلجأ إلى الله سبحانه، فيقبل بعد أداء الفرائض على نوافل العبادات، ويكثر من الصلاة في جوف الليل، فإنَّ فيها استدراراً لفضل الله ورحمته، وسبباً لحفظه من الفتن والنجاة منها، فعن **أمِّ سَلَمَةَ** رضي الله عنها زوج

---

(١) شرح الشفا، للقاري.

النبيِّ ﷺ قالت: استيقظ رسولُ اللهِ ﷺ ليلةً فَزِعاً يقول: «**سبحانَ اللهِ ماذا أنزلَ اللهُ مِنَ الفِتْنَةِ، وماذا أنزلَ مِنَ الخزائنِ؟! مَنْ يُوقِظ صَوَاحِبَ الحُجُراتِ** (يريد أزواجه لكي يصلِّينَ) **يا رُبَّ كاسيةٍ في الدنيا عاريةٍ في الآخِرةِ**» [رواه البخاري (١١٢٦)].

قال ابنُ حجر: «وفي الحديثِ الندبُ إلى الدعاءِ والتضرُّع عند نزول الفتنة، ولاسيَّما في الليلِ لرجاءِ وقت الإجابة لتكشفَ، أو يَسْلَمَ الداعي ومن دعا له»[(١)].

وقال رسول الله ﷺ أيضاً: «**إنَّ اللهَ تعالى قال: مَنْ عادَى لي وليّاً فقد آذنتُهُ بالحربِ، وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضتُ عليه، وما يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتَّى أحبَّهُ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَهُ الذي يسمَعُ به، وبصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، ويدَهُ التي يَبْطُشُ بها، ورجلَهُ التي يمشِي بها، وإنْ سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّهُ. . .**» [رواه البخاري (٦٥٠٢)].

فنوافل العباداتِ ترفعُ الإنسان إلى مقام محبة الله سبحانه، ورعايته، فإذا سأل الله أعطاه، وإن استعاذ به أعاذه.

وثوابُ العبادةِ أيامَ الفتن كبيرٌ وعظيم، يعدلُ ثوابَ هجرة إلى النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**العبادةُ في الهَرْجِ كهجرةٍ إليَّ**» [رواه مسلم (٢٩٤٨)].

والهرج: الفتنة التي تؤدِّي إلى كثرة القتل.

وسبب كثرة ثواب العبادة أيام الفتنة أن أكثر الناس يغفلون عن العبادة، ويشتغلون عنها بما ابتلوا به من الفتن، ولا ينصرف لها إلَّا القليل من الأفراد[(٢)].

- **باب الفتن:**

وشاءتْ حكمةُ الله أن يكونَ للفتن التي حدثت بينَ المسلمين ولا زالت قائمةً بينهم في ازديادٍ، بابٌ كانَ في أول الأمرِ مغلَقاً حائلاً بين المسلمين وبينَ الفتن، وقد بدأ النقصُ والخَلَلَ يظهرُ بوضوح في جسم الأمة المسلمة بفتح هذا الباب، **وفتحه كان بموتِ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب** ﷺ **غِيلة**.

---

(١) فتح الباري.

(٢) انظر كتاب: فتنة الهرج، للدكتور عبد العزيز دخان، ط مكتبة الصحابة ـ الشارقة (ن).

وقد أخبرَ النبيُّ ﷺ في بعض الأحاديث الشريفة الصحيحة: أنَّ وجودَ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه يدفعُ عن الأمة المسلمة الفتنَ، وأنَّ موتَهُ يفتحُ على الأمةِ بابَ الفتنِ، فهو رضي الله عنه الباب الذي كان يمنعُ الفتنَ أن تدخلَ إلى مجتمع الأمة المسلمة.

ولعلَّ السببَ في ذلك ما كانَ يتَّصفُ به رضي الله عنه من صلابةٍ في دينِ اللهِ، وحرصٍ شديدٍ على سنَّةِ رسول الله ﷺ، وتبصُّرٍ بالأمور، وتقدير للعواقب، فهو الذي أشارَ على رسولِ اللهِ ﷺ في عددٍ من القضايا، ونزل الوحيُ موافقاً لرأيه، وهو الذي قال عنه ﷺ: «**قَدْ كانَ يكونُ في الأمم قبلكم مُحدَّثونَ، فإنْ يكنْ في أمتي منهم أحدٌ فإنَّ عمرَ بنَ الخطابِ منهم**» [رواه مسلم (٢٣٩٨)].

وقال ابن وهب: «**محدَّثون**»: ملهمون.

وهو الذي شهدَ له النبيُّ ﷺ بكمال الدين، فعن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**بينا أنا نائمٌ رأيتُ الناسَ يعرضون وعليهم قُمُصٌ، منها ما يبلغُ الثُّدَيَّ، ومنها ما يبلغُ دونَ ذلكَ، ومرَّ عمرُ بنُ الخطابِ وعليه قميصٌ يَجُرُّهُ**» قالوا: ماذا أوَّلتَ ذلكَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**الدِّينُ**» [رواه البخاري (٢٣) ومسلم (٢٣٩٠)].

ولقد ألبسه اللهُ ثوبَ مهابةٍ ووقارٍ بسبب كمالِ دينه وصلابته في الحق، وشدته فيه، ودفع عنه بهذا مكرَ الماكرين، وكيدَ الكائدين، حتى الشيطان كان يهابُ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه، ويبتعِدُ عن طريقه، أخبرَ بذلك رسول الله ﷺ بقوله مخاطباً عمرَ رضي الله عنه: «**والذي نفسي بيدِهِ ما لقيكَ الشيطانُ قطُّ سالكاً فَجّاً إلّا سلكَ فجّاً غيرَ فجِّكَ**» [رواه البخاري (٣٢٩٤) ومسلم (٢٣٩٦)].

وقد أُثر عنه رضي الله عنه أنَّه كان يقول: «لستُ بالخَبِّ، ولا الخَبُّ يخدَعُني» **والخَبُّ**: الماكرُ المحتالُ.

- **خبير الفتن يتحدَّث:**

وشاءت حكمةُ الله وإرادتُه أيضاً أن يُكْسَرَ بابُ الفتن على الأمة الإسلامية كَسراً، ممَّا جعله لا يغلقُ بعدَ ذلك، لأنَّ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه قُتل غِيلةً بخنجر

أبي لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة، حدَّث بهذا أمينُ سرِّ رسول الله ﷺ **حذيفةُ بنُ اليمان** رضي الله عنهما[1] الذي كان رسولُ اللهِ ﷺ يأتمنه على أسراره، فكان يقولُ: واللهِ إنِّي لأعلمُ الناس بكلِّ فتنةٍ هي كائنةٌ فيما بيني وبينَ الساعةِ، وما بي إلَّا أن يكونَ رسولُ اللهِ ﷺ أسرَّ إليَّ في ذلكَ شيئاً لم يحدِّثْه غيري، ولكنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال وهو يحدِّث مجلساً أنا فيه عن الفتنِ: «**منهنَّ ثلاثٌ لا يكَدْنَ يَذَرْنَ شيئاً، ومنهنَّ فتنٌ كرياح الصيفِ، منها صغارٌ ومنها كبارٌ**» قال حذيفةُ: فذهبَ أولئك الرهط كلهم غيري. [رواه مسلم (٢٨٩١)].

وتحدَّثَ حذيفة رضي الله عنه عن كسر باب الفتنة فقال: كُنَّا عندَ عمرَ رضي الله عنه، فقال: أيُّكم يحفظُ حديثَ رسولِ الله ﷺ في الفتنةِ كما قال؟ فقلتُ: أنا، قال: إنك لجريءٌ، وكيفَ قال؟ قلتُ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**فتنةُ الرجلِ في أهلِهِ ومالِهِ ونفسِهِ وولدِهِ وجارِهِ، يكفِّرها الصيامُ والصلاةُ والصدقةُ والأمرُ بالمعروفِ، والنهيُ عن المنكرِ**».

فقال عمرُ: ليسَ هذا أريدُ، إنَّما أريدُ التي تموجُ كموجِ البحرِ.

فقلتُ: ما لكَ ولها يا أميرَ المؤمنين، إنَّ بينَكَ وبينها باباً مُغْلَقاً.

قال: أفيكسَرُ البابُ أم يُفْتَحُ؟.

قلتُ: لا، بل يُكْسَرُ.

قال: ذلك أحرى أن لا يُغلقَ أبداً.

فقلنا لحذيفة: هل كان عمرُ يعلمُ مَنِ البابُ؟.

قال: نعم كما يَعْلَمُ أنَّ دونَ غدٍ الليلة، إنِّي حدثته حديثاً ليسَ بالأغاليطِ.

قال شقيقٌ الذي روى الحديثَ عن حذيفةَ: فهِبْنا أن نسألَ حذيفةَ: مَنِ البابُ؟ فقلنا لمسروق: سَلْهُ، فسأله فقال: **عُمَرُ**. [رواه البخاري (١٨٩٥) ومسلم (١٤٤) واللفظ له].

---

(١) **حذيفة بن اليمان**: من كبار أصحاب رسول الله ﷺ، وهو معروف في الصحابة بصاحب سر رسول الله ﷺ، مات سنة (٣٦هـ). كما في: الاستيعاب، لابن عبد البر.

• **هلاك المسلمين بالفتن فيما بينهم:**

قدَّر الله ﷻ أن يكونَ بأسُ المسلمين بينهم، وأن يبتليَ بعضَهم ببعض أكثرَ من ابتلائهم بتسليط أعدائهم عليهم، أخبر بهذا النبيُّ ﷺ في عددٍ من الأحاديث ذكرَ بعضَها الإمام مسلم في «صحيحه» في باب مستقل بعنوان: (باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض).

من هذه الأحاديث: ما رواه **ثَوْبان** ﷺ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ الله زوى (جمع) لي الأرضَ، فرأيتُ مشارِقَها ومغارِبَها، وإنَّ أمتي سيبلغُ ملكُها ما زُويَ لي منها، وأُعطيتُ الكنزينِ الأحمرَ والأبيضَ، وإنِّي سألتُ ربي لأمتي ألَّا يهلِكَها بسَنَةٍ عامةٍ** (بقحط يعمهم)، **وألَّا يسلِّطَ عليهم عدوّاً من سوى أنفسِهم فيستبيحَ بيضتَهم** (أي: جماعتهم وأصلهم)، **وإنَّ رَبِّي قال: يا محمَّدُ، إنِّي إذا قضيتُ قضاءً فإنَّه لا يُرَدُّ، وإنِّي أعطيتُكَ لأمتكَ أَنْ لا أهلكَهُم بسَنَةٍ عامةٍ، وألَّا أسلِّطَ عليهم عدوّاً مِنْ سوى أنفسِهِم يستبيحُ بيضَتَهم، ولو اجتمعَ عليهم مَنْ بأقطارِها، حتى يكونَ بعضُهم يهلِكُ بعضاً ويسبي بعضُهم بعضاً**» [٢٨٨٩].

قوله: «**الكنزين الأحمر والأبيض**» المراد بالكنز الأحمر الذهب وهو كنز قيصر، والأبيض الفضة وهو كنز كسرى، إذ غلب على الروم التعامل بالذهب، وغلب على الفرس التعامل بالفضة.

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

قال البخاريُّ رحمه الله في «صحيحه»: **يَلْبِسَكم**: يخلطكم من الالتباس، يلبسوا: يخلطوا، **شيعاً**: فرقاً.

ثم روى بسنده عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما قال: لمَّا نزلتِ الآيةُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «**أعوذُ بوجهك**»، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «**أعوذُ بوجهك**»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ﴾ قال رسول الله ﷺ: «**هذِهِ أهونُ ـ أو أيسرُ**» [٤٦٢٨].

وأخرج أحمد [١/ ١٧٠] والترمذي [٣٠٦٨] وحسَّنه: عن **سعد بن أبي وقاص** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ في هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا...﴾ فقال النبيُّ ﷺ: «**أما إنَّها كائنةٌ، ولم يأتِ تأويلُها بعدُ**» وقد جاء تأويلها كما أخبر النبيُّ ﷺ، ولا يزالُ بأسُ الأمة المسلمة بينها قائماً منذ أن كُسِرَ بابُ الفتنة بقتل عمر رضي الله عنه.

- **فتنة الدجّال:**

وهي من أعظم الفتن التي تكون بين يدي الساعة، والدجَّالُ رجلٌ مشوَّهُ الخِلْقةِ، ناقصُ البنيةِ، يدَّعي لنفسِهِ صفة الألوهية، ويغترُّ به كثيرٌ من الناس، ويصدِّقونه ويتابعونه، رغم العَوَر الظاهر في عينه، الذي يدلُّ على عجزه ونقصه، ويتنافى مع ما يدَّعيه من صفات الألوهية والربوبية، لكنَّه يخدعُ الناسَ ببعض خوارق العادات التي تُجرى على يديه.

وبسبب كثرة الذين يَضِلُّون به، ويفتنون بدعوته، كانت فتنتُه من أعظم الفتن، التي تمرُّ على البشرية في تاريخها، حتى جاء في الحديث الشريف: «**ما بينَ خلقِ آدمَ إلى قيامِ الساعةِ فتنةٌ أعظمُ من الدجّالِ**» [رواه الحاكم (٤/ ٥٢٨)].

وكثيراً ما حذَّر النبيُّ ﷺ من الافتتان به، كقوله عليه الصلاة والسلام: «**ما بُعِثَ نبيٌّ إلَّا أنذرَ أمتَه الأعورَ الكذَّاب، ألَا إنَّه أعورُ، وإنَّ ربَّكُم ليسَ بأعورَ، وإنَّ بينَ عينيه مكتوبٌ: كافِرٌ**» [رواه البخاري (٧٤٠٨)].

وأدلة الحدوث التي تتنافى مع دعوى الربوبية والألوهية كثيرةٌ وظاهرةٌ في الدجال، وإنَّما اقتصر النبيُّ ﷺ منها بقوله: «**إنَّه أعورُ، وإن ربَّكم ليسَ بأعورَ**» لكون العَوَرِ أثراً محسوساً يدركُه العالِمُ والعاميُّ الذي لا يهتدي إلى الأدلةِ العقليةِ، **فإذا ادَّعى الربوبيةَ** وهو ناقصُ الخلقةِ، والإلٰه يتعالى عن النقص؛ **عُلِمَ أنَّه كاذبٌ**(١).

وقد رآه النبي ﷺ في منامه، ورؤيا الأنبياء وحيٌ وحقٌّ، فوصفه بقوله: «**بينما أنا نائمٌ أطوفُ بالكعبةِ فإذا رجلٌ آدَمُ، سبطُ الشعرِ، ينطفُ رأسُهُ ماءً، قلتُ: مَنْ هذا؟ قالوا: ابنُ مريمَ، ثم ذهبتُ ألتفتُ، فإذا رجلٌ جسيمٌ أحمرُ جعدُ**

---

(١) انظر: فتح الباري.

الرأسِ، أعورُ العينِ، كأنَّ عينَه عنبةٌ طافيةٌ، قالوا: هذا الدجَّالُ، أقربُ الناسِ به شبهاً ابنُ قطنٍ، رجلٌ مِنْ خُزاعَة» [رواه البخاري (٣٤٤١)].

وأول ما يظهر الدجال من جهة المشرق من أصبهان، حيث يصدِّقه يهود أصبهان ويتابعونه، ثم ينتشر ذكره في الأرض، ويسير فيها حتى يغلبَ على كلِّ المدن إلَّا مكة والمدينة، فإنَّ الله سبحانه يحميهما من شره، حتى ينزل عيسى عليه السلام من السماء، فيقتله في باب لُدٍّ من مُدُن فلسطين، وهذا يدل على أنَّ ظهورَه من علامات الساعة الكبرى، لأنَّ نزولَ عيسى عليه السلام من أشراط الساعة الكبرى.

روى الإمام مسلم في «صحيحه» [٢٩٠١]: عن **حذيفة بن أسيد الغفاري** رضي الله عنه قال: اطَّلع النبيُّ ﷺ علينا ونحنُ نتذاكر فقال: **«ما تذاكرون؟»** قالوا: نذكرُ الساعةَ، قال: **«إنها لَنْ تقومَ حتى ترونَ قبلها عَشْرَ آياتٍ»** فذكر: **«الدخانَ، والدجَّالَ، والدابّةَ، وطلوعَ الشمسِ من مغربها، ونزولَ عيسى ابن مريمَ، ويأجوجَ ومأجوجَ، وثلاثةَ خسوفٍ: خَسْفٍ بالمشرقِ، وخَسْفٍ بالمَغرِبِ، وخَسْفٍ بجزيرةِ العربِ، وآخرُ ذلك نارٌ تخرجُ من اليمن، تطردُ الناسَ إلى محشرهم»**.

وروى البخاري [١٨٨١] ومسلم [٢٩٤٣]: عن **أنس** رضي الله عنه: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: **«ليسَ مِنْ بلدٍ إلَّا سيطؤه الدجَّالُ إلَّا مكةَ والمدينةَ، ما مِنْ نَقْبٍ إلَّا عليه الملائكةُ صافِّين يحرسونها، فينزِلُ السبخةَ، ثم ترجفُ المدينةُ بأهلِها ثلاثَ رجفاتٍ، فيخرجُ إليه كُلُّ كافرٍ ومنافقٍ»**.

وروى مسلمٌ [٢٩٤٤]: عن **أنس** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«يَتْبَعُ الدجالَ من يهودِ أصبهان سبعونَ ألفاً عليهم الطيالسةُ الخُضْرُ»**.

ويجب حملُ هذه النصوص على الحقيقة دون المجاز، فما دامت الحقيقةُ ممكنةً في ذاتها، فإنَّ المصيرَ إليها متعيَّنٌ، كما قال الشيخ محمد الحامد رحمه الله: «وما ضلَّ مَنْ ضلَّ من الباطنيةِ وأضرابهم إلَّا بتحويل النصوصِ إلى معاني لا صلةَ لها بها، وإلغاءِ المراداتِ القطعيَّةِ منها، فكان الزيغُ وكانَ الضلالُ»(١).

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر كتاب: ردود على أباطيل، للشيخ محمد الحامد رحمه الله.

الفَصْلُ الثَّانِي

سُورَةُ الكَهْفِ

فَضَائِلُها، سَبَبُ نُزُولِهَا، مَوْضُوعُهَا، وَصِلَتُها بأسْبَابِ السَّلامَةِ والعِصْمَةِ مِنَ الفِتَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾.

- **فضائل سورة الكهف:**

ويقودنا الحديثُ عن فتنة الدجال إلى بيان فضائل سورة الكهف، إذ جاء في حديثِ النبيِّ ﷺ عن الدجال قولُه: «**فَمَنْ أدرَكَهُ مِنْكُم فليقرأْ عليه فواتح سورةِ الكهف**» [رواه مسلم (٢١٣٧)].

فمن فضائل سورة الكهف: **أنَّ فيها وقايةً وعِصمْةً من فتنةِ الدجال**، وقد تأكَّدَ هذا في عددٍ من الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة، وبوَّب الإمام مسلم في «**صحيحه**» باباً مستقلاًّ لهذا فقال: (باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي).

ثم روى بسنده [٨٠٩]: عن **أبي الدرداء** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ حفظَ عشرَ آياتٍ مِنْ أوَّلِ سورةِ الكهفِ عُصِمَ مِنَ الدجَّالِ**».

وروى هذا الحديثَ أيضاً الإمام أحمد [٦/ ٤٤٩] وأبو داود [٤٣٢٣] والنسائي [١٠٧١٩] والترمذي [٢٨٨٦] وابنُ حِبَّانَ [٧٨٥]، وجاء في بعض رواياتهم بلفظ: «**عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدجَّال**».

كما رواه الإمام مسلم بسند آخر [٨٠٩] بلفظ: «**مِنْ آخر الكهفِ**».

ورواية النسائي [١٠٧١٩]: «**مَنْ قرأَ عَشْرَ آياتٍ مِنَ الكهفِ**».

كما أخرج النسائيُّ [١٠٧٢٠]: عن **ثَوْبانَ** رضي الله عنه، عن رسولِ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَرأَ العَشْرَ الأواخِرَ مِن سورةِ الكهفِ فإنَّه عصمةٌ له مِنَ الدجَّالِ**».

ولا تعارضَ بين الروايات، فمن قرأ مِنْ أوَّلها أو آخرِها أو مِنْ أيِّ مكانٍ فيها حفظه الله تبارك وتعالى من فتنةِ الدجَّالِ.

ومن فضائل سورة الكهف أيضاً: **أنَّ الله سبحانه ينوِّرُ قلبَ قارئها**، فقد أخرجَ ابن مردويه: عن **ابن عمرَ** رضي الله عنهما مرفوعاً: «**مَنْ قرأَ سورةَ الكهفِ في يوم الجمعةِ سطعَ له نورٌ مِنْ تحتِ قدمه إلى عَنانِ السماءِ، يضيءُ له إلى يوم القيامةِ، وغُفِرَ له ما بينَ الجمعتين**» [انظر: كنز العمال (١/ ٥٧٦)].

وروى غيرُ واحدٍ عن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه: «**مَنْ قَرأَ سورةَ الكهف في يوم الجمعةِ أضاءَ له مِنَ النورِ ما بينه وبينَ البيتِ العتيق**» [رواه البيهقي في «السنن» (٣/ ٢٤٩)].

وكان الحسنُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما يقرؤها كل ليلة.

وأخرج ابن مردويه: عن **عبد الله بن مُغَفَّل** مرفوعاً: «**البيتُ الذي تُقْرَأُ به سورةُ الكهفِ لا يدخلُهُ شيطانٌ تلكَ الليلةَ**» [انظر: جامع الأحاديث (١٠٥٢٨)].

وذهبَ غيرُ واحدٍ من الأئمةِ إلى سُنِّية قراءتها يوم الجمعة وليلتها، وقالوا: يندبُ تكرار قراءتها[١].

---

(١) انظر: تفسير روح المعاني، للآلوسي.

وذكر العلَّامة ابن عابدين قراءةَ سورة الكهف في جملة ما اختص به يوم الجمعة.

وقال ابن قدامة في كتابه «المغني»: يستحبُّ قراءةُ الكهفِ يومَ الجمعةِ.

• **سبب نزول السورة:**

وقد كان سببُ نزول سورة الكهف ابتلاءً واختباراً لرسول الله ﷺ من قِبَل أحبار المدينة، ليكشفوا حقيقةَ أمرِه، ويعرفوا صحَّةَ نبوَّته.

روى ابن إسحاق في سبب نزول هذه السورة الكريمة عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: بعثتْ قريشٌ النضرَ بنَ الحارث وعقبةَ بن أبي مُعَيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سَلُوهم عن محمَّد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنَّهم أهلُ الكتاب الأول، وعندَهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء.

فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره، وبعض قوله، وقالا: إنَّكم أهلُ التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا.

فقالوا لهم: سَلُوه عن ثلاثٍ نأمركُم بهنَّ، فإنْ أخبركم بهنَّ فهو نبيٌّ مرسَلٌ، وإلَّا فرجلٌ متقوِّل، فتروا فيه رأيكم: سَلُوه عن فتيةٍ ذهبوا في الدَّهرِ الأوَّلِ، ما كان من أمرهم؟ فإنّهم قد كان لهم حديثٌ عجيبٌ، وسَلُوه عن رجلٍ طوَّافٍ بلغَ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها ما كان نبؤهُ؟ وسَلُوه عن الرُّوْح ما هو؟ فإنْ أخبرَكُم بذلك فهو نبيٌّ فاتّبعوه، وإن لم يخبِرْكُم فإنَّه رجلٌ متقوِّل! فاصنعوا في أمرِهِ ما بدا لكُم.

فأقبل النضرُ وعقبةُ حتى قدما على قريشٍ فقالا: يا معشرَ قريشٍ، قد جئناكم بفصلِ ما بينكم وبين محمَّدٍ، قد أمرنا أحبار يهودٍ أن نسأله عن أمور.. فأخبروهم بها، فجاؤوا رسولَ اللهِ ﷺ، فسألوه عمَّا أمروهم به، فقال لهم رسولُ اللهِ ﷺ: «**أخبِرُكم غداً عما سألتُم عنه**» ولم يستثنِ ـ أي: لم يقلْ: إن شاء الله ـ فانصرفوا عنه.

ومكثَ رسولُ اللهِ ﷺ خمسَ عشرةَ ليلةً لا يُحْدِثُ اللهُ له في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريلُ عليه السلام، حتى أرجفَ أهلُ مكةَ وقالوا: وعدنا محمَّدٌ غداً، واليومَ

خمسَ عشرةَ قد أصبحنا فيها لا يخبِرُنا بشيءٍ عمَّا سألناه عنه! وحتى أحزنَ رسولَ اللهِ ﷺ مُكْثُ الوحي عنه، وشقَّ عليه ما يتكلَّمُ به أهلُ مكة، ثم جاءه جبريلُ عليه السلام من اللهِ عز وجل بسورةِ أصحابِ الكهفِ، فيها معاتبتُه إياهُ على حزنِهِ عليهم، وخبرُ ما سألوه عنه من خبرِ الفتيةِ، والرجلِ الطوّافِ، وقول الله عز وجل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥][١].

- **موضوع سورة الكهف:**

إذا تدبرنا الآياتِ الأولى في سورة الكهف ظهرَ لنا الموضوع الأساس للسورة، فالآياتُ تقرر أنَّ الحمد لله وحده، الذي أنزل أعظمَ نعمةٍ أنعمها على خلقه، وهي نعمة القرآن الكريم، عندما أنزله على النبيِّ ﷺ:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ①﴾.

فهو سبحانه المستحق للحمدِ، لأنَّه أنزلَ القرآن الكريم، الذي يهدي العبادَ إلى ما فيه كمالُهم وسعادتُهم في الدنيا والآخرة، وليس في القرآن الكريم شيءٌ من العوجِ، لا في ألفاظه ومبانيه، ولا في أخبارِه ومعانيهِ، أخبارُهُ كلُّها صدق وحق، وأحكامُهُ عدلٌ، سالمٌ من جميعِ العيوبِ والخَلَلِ في ألفاظه ومعانيه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وبعد أن قررت الآيةُ الأولى في سورة الكهف استحقاق الله سبحانه للحمد، ونفت عن القرآن الكريم النقص والخلل؛ أثبتت للقرآن الكريم الاستقامة، وذلك في قوله تعالى:

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ②﴾.

﴿قَيِّمًا﴾، أو أخبرتْ أنّه قيِّمٌ بمصالح الخلق الدينية والدنيوية، وهذا يعني أنَّ

(١) انظر: تفسير ابن كثير.

القرآنَ الكريمَ كامِلٌ بنفسه، ومكمِّلٌ لِمَنْ يتمسَّك به، ويسير على هديه ومنهجه.

وأنزل الله سبحانه القرآن أيضاً:

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي: لينذِرَ الذين كفروا عذاباً شديداً من عند الله.

وحُذف المفعول الأول لأنَّ القرينةَ تدل عليه، وحتى يقتصرَ على بيان حكمةِ إنزال القرآنِ الكريم.

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الجنة.

﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾.

أي: بلا انقطاع.

ثم كرر إنذار الذين قالوا اتخذ الله ولداً، وخصَّهم بالذكر استعظاماً لكفرهم وقبح قولهم الذي لم يكن ناشئاً عن علم وتفكير ونظر، فقال:

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾.

وشأنهم في هذا شأن آبائهم الذين قالوا مثل قولهم.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾.

وكان رسول الله ﷺ يحزَنُ عندما يرى إعراضَ المشركين عن الإيمان بالله وعبادته، وهم يتمسَّكون بكفرهم وشركهم، ولهذا التفتت الآيات الكريمة إلى النبيِّ ﷺ تقول له:

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾.

أي: لا تهلك نفسَك حزناً بسبب إعراضهم عن الإيمان، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ﴾ [فاطر: ٨].

• **الحياة في الدنيا ابتلاء واختبار:**

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾.

جعل الله كلَّ ما على الأرض زينةً للأرض، فما مِنْ شيءٍ خلقه الله إلَّا وفيه حكمةٌ، وله دورٌ في زينةِ الأرض، وقد تخفى هذه الحكمةُ عنَّا، لقصورِ عقولنا عن إدراكها.

والحكمةُ الكبرى مِنْ جعل ما على الأرض زينة لها هي الابتلاء والاختبار للمكلَّفِين من المخلوقات؛ وقد بيَّن الله تبارك وتعالى هذا المعنى في عدة آيات من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك].

وبعد أن يتم الابتلاء والاختبار، يجعل الله كلَّ ما على الأرض من زينة تراباً لا نباتَ فيه:

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾.

فشأنُ ما على الأرض من أسباب الزينة كشأنِ النبات، لا تدومُ خُضرته، ولا تبقى نضرتُه.

وما أكثرَ ما ذكرَ اللهُ هذا المعنى في آيات التنزيل الحكيم، منها قوله تعالى في **سورة الكهف** نفسها: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥﴾.

هذا هو الموضوع الأساس الذي تدورُ في فلكه آيات سورة الكهف، وفي استفتاح السورة بذكر فضل الله سبحانه على العباد بإنزال القرآن الكريم بيانٌ لطريق النجاح والفوزِ في الاختبار والابتلاء، فالمعلِّم الماهِرُ الحكيمُ هو الذي يبيِّن لتلاميذه العلومَ التي سيُختبرون بها، كي يجدُّوا ويجتهدوا فيها، ليكونوا من الناجحين والفائزين.

ومن رحمته ﷻ بخلقه وعظيم حكمته أنه بيَّن لهم أولاً طريقَ السلامةِ والنجاحِ قبل أن يمتحنَهم ويختبرَهم، وهذا من فضله العظيم سبحانه على الناس، وصفَ لهم الدواءَ قبل أن يبيِّنَ الداءَ.

فالحياةُ كلها ابتلاء واختبار، وليست الدنيا دار نعيم، وكل ما على الأرض من زينة في هذه الدنيا فتنة للإنسان في حياته، وكلَّما كان تعلُّقه بهذه الزينة كبيراً، كانت فتنته فيها أعظم وأكبر: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وقال في **سورة الأنفال**: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

- **كهف السلامة:**

وطريقُ السلامةِ والنجاح في الكتاب الكريم المُنزَّلِ الكامل في نفسه، والمكمِّل لغيره، وفي سُنَّة النبيِّ ﷺ الذي أنزل الله عليه الكتاب، والذي كاد أن يهلكَ نفسَه أسفاً وحرصاً على نجاحنا في الاختبار وسلامتنا من الفتن.

إنَّ حرص النبيِّ ﷺ على سلامتنا ونجاحنا يُلزِمُنا بوجوب التمسُّك بسُنَّته، فالخطرُ كبيرٌ، والامتحانُ عظيمٌ، ولهذا كان أسفه ﷺ شديداً وكبيراً على أولئك المعرضين عن الكتاب والسُّنَّة، المفتونين بالزينة الباطلة الزائلة، وما أكثرها، وما أشدَّ خطرها! ولن نجدَ في غير الكتاب والسُّنَّة السلامة والنجاة، فهما كهفُ السلامةِ من أخطار الفتن المحدِقة بنا.

وكما كان كهفُ الجبل سبباً لسلامة أصحاب الكهف من كيد الكافرين ومكرِهم، فالكتابُ والسُّنَّةُ كهفُ السلامةِ والأمانِ لكلِّ إنسانٍ من فتن الحياة الدنيا، وهما سبيلُ السعادةِ في الدنيا والآخرة: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧] أي: ملجأ ومأوى.

وكما كان رَدْم ذي القرنين سبباً لردِّ المفسدين وحماية الناس من شر أهل الشر والفساد، فإنَّ الكتاب والسُّنَّة سبب لحماية المتمسكين بهما من الفتن في

الحياة الدنيا، وسيأتي معنا أنَّ أيَّ خرقٍ يحدث في السدِّ يمكِّن المفسدين من الفساد والشر بين العباد، وكذلك فإنَّ أيَّ خَرْقٍ لأحكام الكتاب والسُّنَّة ومجاوزة حدودهما يؤدِّي إلى التعرُّض للفتن، والوقوع في الشر، ويعطي المفسدين في الأرض فرصةً للفساد والإفساد.

والجديرُ بالذكر أنَّ سورة الكهف جاء ترتيبها في المصحف بعد سورة الإسراء التي تحدَّثت بعضُ آياتها عن بني إسرائيل ودورهم الكبير في نشر الفساد في الأرض.

ففي سورة الكهف بيانٌ لأسباب السلامة من فتن الحياة الدنيا، ولهذا سنَّ النبيُّ ﷺ قراءتها كل يوم جمعة، وهو أفضل أيام الأسبوع عند المسلمين، وأكثرهم يريحُ نفسَه في يوم الجمعة من عناء العمل الدنيوي، فقراءةُ سورة الكهف فيه مناسبةٌ طيبةٌ لتخلية النفس والقلب عن صدأ الغفلة عن الله سبحانه بسبب شدة الاهتمام بالدنيا ومشاغلها وهمومها ومشكلاتها، وفي قراءة سورة الكهف أيضاً تنويرُ القلب والنفس بنور التلاوة وهدي النبوة، وتحصينُهما بالمعاني الطيِّبة الكريمة التي ركَّزت آيات السورة عليها.

وما دام الإنسانُ في هذه الحياة الدنيا فهو معرَّضٌ للابتلاء والافتتان في كلِّ لحظة من لحظات حياته، والفتنُ معروضةٌ عليه بأشكال مختلفة وأنماط متعددة، تارة بعد تارة، ولحظة بعد لحظة، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: **«تُعْرَضُ الفِتَنُ على القلوبِ كالحصيرِ عُوْداً عوداً، فأيُّ قلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ فيه نكتةٌ سوداءُ، وأيُّ قلبٍ أنكرَها نُكِتَ فيه نكتةٌ بيضاءُ، حتى يصيرَ على قلبين، على أبيضَ مثل الصفا فلا تضرُّهُ فتنةٌ ما دامتِ السماواتُ والأرضُ، والآخر أسود مرباداً كالكُوْزِ مُجَخِّياً، لا يَعْرِفُ معروفاً، ولا يُنْكِرُ منكَراً، إلَّا ما أُشْرِبَ من هواه»** [رواه مسلم (١٤٤)].

فما دامت الفتنُ تعرَضُ دائماً على الإنسان في حياته الدنيا، فعليه أن يداومَ على قراءة سورة الكهف، متدبِّراً آياتها، ممعناً النظر في معانيها، كي ينوِّر الله سبحانه قلبه، فيكونَ أبيضَ مثل الصفا، وهو الحجرُ الأملسُ الذي لا يعلقُ به شيءٌ،

وإلَّا صار قلبُه بسبب تأثير الفتن عليه أسودَ مربادّاً كالكوز مجخِّياً، أي: منكوساً لا خيرَ فيه، لأنَّه لا يعرفُ معروفاً، ولا ينكِرُ منكراً، إلَّا ما أُشرِبَ من هواه.

كما تضمَّنت السورةُ ذكرَ أهم أسباب الفتن في الحياة الدنيا، وبيَّنت مواقف المؤمن منها، وشرعت له أسبابَ السلامة والنجاةِ بأسلوب القصة، فكانت في موضوعها موافقةً لاسمها كهفَ السلامة والأمان.

كما عرضت سورةُ الكهف عدَّة قصص استغرقت معظمَ آياتها تثبيتاً لما ذكرته في آياتها الأولى، وتمكيناً لموضوعها الأساس في نفوس قارئيها، وعقَّبت بعد كلّ قصة بتعقيب، يؤكِّدُ هذا المعنى ويقوِّيه، ففي أولها عرضت قصة أصحاب الكهف، ثم ثنَّت بقصة صاحب الجنتين، ثم ذكرت قصة آدم مع إبليس باختصار، ثم قصة موسى مع الخضر، وقبل أن تختم آيات السورة عرضت قصة ذي القرنين. ولكلٍّ قصة من هذه القصص اتصالٌ وثيق بموضوعها الأساس كما سيأتي معنا إن شاء الله تعالى.



الفَصْلُ الثَّالِثُ

قِصَّةُ أَصْحَابِ الكَهْفِ

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ

سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾.

- **مصادر القصة:**

القرآن الكريم هو المصدرُ الوحيدُ لقصة أصحاب الكهف لعدَّة أسباب؛ منها:

أولاً: قول الله سبحانه للنبي ﷺ في سورة الكهف [١٣]: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾، وإنَّ في قوله سبحانه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إشارةً إلى أنَّ هناك من يقصُّ نبأ أصحاب الكهف بغيرِ حقٍّ، ولهذا لو تتبعنا ما ذكره كثيرٌ من المفسرين من أخبار أصحاب الكهف المأخوذة عن بني إسرائيل، لوجدنا فيها تعارضاً وتناقضاً، ممَّا يجعلها أخباراً ساقطة، ليس لها أيُّ قيمة علمية.

ثانياً: ذكر الله سبحانه في سياق قصة أصحاب الكهف صورةً من صور اختلاف رواة قصتهم، تلك هي صورةُ اختلافهم في تحديدِ عددِ أصحاب الكهف، فقال ﷻ: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢].

وهذا يدلُّ على أنَّ جدلاً كبيراً قام حول عدد أصحاب الكهف، وأن الأقاويل والروايات فيهم كثيرة، ولا فائدةَ من هذا الجدل، فمهما كان عددهم فإنَّ أمرَهم موكولٌ إلى الله سبحانه، وعلمُهم عندَ الله العليم الخبير، وعند الفئة القليلة من الناس الذين شهدوا أمرَهم عند حدوثه، والعبرةُ في قصتهم لا في عددهم، ولهذا نرى القرآن الكريم يوجِّهُ النبيَّ ﷺ حتى لا يجادلَ في عددهم،

ولا يستفتيَ أحداً من المتجادلين فيهم، صيانةً لطاقة الإنسان العقلية أن تهدرَ في غير فائدة، واكتفاءً بما ذكره القرآن الكريم من أخبارهم وقصتهم، وقد عوَّدنا الله سبحانه في كتابه الكريم ألَّا يذكر من القصة إلَّا ما فيه فائدة وعبرة وموعظة.

وقوله تعالى: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ بعد ذكر قولين من أقوال المتجادلين في عددهم يدلُّ على أنَّهما قولان غيرُ صحيحين، لأن معنى: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ يقولون قولاً بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه فإنَّه لا يصيبه، والرجم: القول بالظنِّ، وبعدَ أن ذكرت الآية الكريمة القول الثالث فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ سكتتْ عنه، ولم تعلِّقْ عليه بشيءٍ، فدلَّ هذا على أنَّه القول الصحيح في عددهم.

• **فوائد وحِكَم:**

في هذه الآية الكريمة فوائد كثيرة وحِكَم جليلة:

ـ منها: **أنَّها تعلِّمنا الأدب مع الله سبحانه**، بأن نردَّ العلم إليه سبحانه، فهو العليم الخبير: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾؛ فعلينا أن نردَّ علم الأشياء إلى خالقها جلَّ وعلا وإن عَلِمْنا بها، أدباً مع الله سبحانه.

ـ ومنها: **أن المجادلة لإظهار الحق وإبطال الباطل ليست مكروهة ولا مذمومة، بل هي ممدوحةٌ ومطلوبة** إذا ترتَّبَ عليها إظهار الحق ودحض الباطل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

أما المجادلة المكروهة فهي التي تكون في أمور فيها شك وتردد، ولا يقصد منها سوى إظهار الجدل، وهي المرادةُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ **والمماراةُ**: المحاجَّةُ فيما فيه مرية، أي: تردد وشك، والمعنى المراد في الآية: فلا تجادلْ في شأنِ أصحاب الكهف إلَّا جدالاً ظاهراً، بأن تقصَّ عليهم ما في القرآن الكريم من غيرِ تجهيلٍ لهم ولا تعنيفٍ.

ـ ويعلِّمنا الله سبحانه في هذه الآية أيضاً: **أدباً من آداب السؤال في قوله**: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ فالسؤالُ إمَّا للاسترشادِ، وهو جائزٌ، وإما

للتعنُّتِ، وهو مكروهٌ، وكلاهما غيرُ لائقٍ بمقامه ﷺ، فكأنَّ الآية تقول للنبيِّ ﷺ: لا تسألْ أحداً منهم عن قصة أصحاب الكهف، فإنَّ فيما أوحي إليك لمندوحةٌ عن غيره، مع أنَّهم لا علمَ لهم بها، ولا تسألهم سؤال متعنِّت تريدُ فضح المسؤول وتزييف ما عنده، فإنَّه مخلٌّ بمكارم الأخلاق(١).

أما السؤال للتعليم والإرشاد كما يسأل المعلمُ تلميذَه عن مسألة، ثم يذكرها له، فلا مانع منه، وهو فنٌّ من فنون التعليم، وكثيراً ما كان النبي ﷺ يستعمله مع أصحابه.

● **الآيات البينات:**

إن قصة أصحاب الكهف ـ وإن استعظمها الناس وعجبوا منها ـ ليست شيئاً عجباً بالنسبة إلى قُدرة الله سبحانه، وعظيم صنعته، وبديع حكمته، فإنَّ خَلْق السماوات والأرض، وتزيين السماء الدنيا بالنجوم، وجعل ما على الأرض زينة لها، وتحويلها بعد ذلك إلى صعيد جرز لا نبات فيه: آياتٌ بيناتٌ أعظم وأعجب من آية الله في أصحاب الكهف، ولهذا قدَّم الله لقصة أصحاب الكهف بقوله قبلها:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾.

وكلمة (أم) معناها: بل، وهي للإضراب والانتقال من كلامٍ إلى كلامٍ آخرَ، له تعلُّق بما قبلها بواسطة المعنى، فقصَّةُ أصحاب الكهف لا عجَبَ فيها بالنسبةِ إلى ما خلقَ الله سبحانه في السماوات والأرض، فَخَلْقُ السموات والأرض أعظمُ مِنْ خلقِ جميعِ الناسِ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

وقال أيضاً: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات].

والكهف: النَّقْبُ الواسعُ في الجبل، فإن لم يكُ واسعاً فهو غار.

واختلف العلماءُ في **الرقيم** على أقوال؛ منها: أنها اسم بلدةِ أصحاب

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي، وحاشية الشهاب عليه.

الكهف، أو اسمُ الجبل الذي فيه الكهفُ، والأظهرُ أنَّ الرقيمَ معناه المرقوم، فهو فعيل بمعنى مفعول، من قولكَ: رقمت الكِتَابَ: إذا كتبته، ومنه: قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩] فهو كتابٌ كتبتْ فيه أسماءُ أصحاب الكهف وأنسابُهم، وسبب خروجهم من بلدِهم واختفائهم[١].

والخطابُ في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ للنبيِّ ﷺ، وأريدَ به غيره لأنَّه عليه الصلاة والسلام كان يعرفُ من قدرة الله تعالى ما يجعله لا يتعاظمُ خبرَ أصحاب الكهف، والآية تؤكد سبب النزول الذي سبق ذكره[٢].

- **صفات أصحاب الكهف:**

ذكر الله ﷻ عدَّةَ صفاتٍ لأصحاب الكهف، فقال:

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾[٣].

فهم (فتيةٌ) جمعُ فتًى، وهو من جموع القلة، ممَّا يدل على قلَّة عددهم، **والفتى**: الطري من الشبَّان. وهذا يدل على أنَّهم كانوا شباباً في مقتبل أعمارهم.

وهم مؤمنون بالله سبحانه وحده، فقد وصفهم الله بالإيمان فقال:

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾.

فقد زادهم سبحانه هدًى. وفُهِمَ من الآية الكريمة أنَّ مَنْ آمنَ بربه وأطاعه زاده ربُّه هدًى، لأنَّ الطاعة سبب للمزيد من الهداية والرشاد.

ويبدو أنَّ هؤلاء الفتية كانوا من أُسَرٍ عريقة ذات جاه وثراء في بلدهم، فبعد

---

(١) انظر: تفسير أضواء البيان.

(٢) انظر: تفسير روح المعاني.

(٣) انظر: تفسير الآية (١١) في ص ٤١، والآية (١٢) في ص ٤٦، وقد أخَّرتُ تفسير بعض الآيات وقدمتُ بعضها على بعض ليتسق لي عرض القصة متسلسلة.

أن خرجوا فراراً بدينهم افتقدهم أهل البلد، وبحثوا عنهم وطلبوهم، ولما يئسوا من وجودهم كتبوا أسماءهم، ورقموها في لوح، ووضعوه في مكان بارز في البلد، فلم يكن هؤلاءِ الفتيةُ نكراتٍ مجهولةً، بل كانوا معروفين ومشهورين في مجتمعهم.

وكان لهم ثراء ومال، وقد حملوا بعض هذا المال معهم إلى الكهف، دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ١٩]. **والوَرِق**: النقود الفضية.

ووجودُ كلبٍ معهم يدلُّ على ثرائهم، لأنَّ الكلبَ يُقتنى عادةً للصيد أو للحراسةِ، وهما شأنُ أصحاب الجاه والثراء، وقد أضافته الآيةُ الكريمة إليهم: ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾ [الكهف: ١٨]؛ فالكلبُ كلبهم، وخاصٌّ بهم، وليس كما ذكرت بعض الروايات والحكايات أنَّه كلبُ راعٍ تبعهم وانضمَّ إليهم.

- **رَبْطُ الله على قلوبهم:**

وقد تعرَّض هؤلاء الفتيةُ لخطر كبير، ووعيد شديد، يصل إلى حد رجمهم بالحجارة حتى الموت، بسبب إيمانهم بالله، وعبادته وحده سبحانَه، فثبتوا على دينهم، وتمسكوا بعقيدتهم، وواجهوا باطل وكفر قومهم بشجاعة وثبات وقوة أمدَّهم الله بها:

﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾.

وإنَّ قوله تعالى:

﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ يدل على أنَّ الفتنةَ التي تعرَّضوا لها فتنةٌ كبيرةٌ وشديدة، وأنَّ المحنةَ التي وقعوا بها محنةٌ عصيبةٌ وأليمةٌ، لأنَّ معنى **ربطنا على قلوبهم**: ثبتنا قلوبهم وقوَّيناها على الصبر، حتى لا يجزعوا ولا يخافوا من قول

الحق، ويصبروا على فراق الأهل والنعيم، والفرار بالدين إلى كهفٍ في جبلٍ موحشٍ لا ماءَ فيه ولا طعامَ.

فالربطُ على القلبِ لا يكونُ إلَّا عند الأحداث الكبيرة المخيفة المرعبة، التي تتزلزلُ لها القلوبُ، وتجزعُ فيها النفوسُ، كحال أصحاب رسول الله ﷺ عندَ مواجهتهم لجيش الكفار في بدر، وقد كانوا أكثرَ عدداً وعُدَّةً من المسلمين، فثبتهم الله ﷻ، وربط على قلوبهم، وأخبر عن ذلك بقوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

وكحال أم موسى عليها السلام عندما سمعتْ أنَّ ولدَها أصبحَ في يد فرعون وملئه، فخافت عليه خوفَ الأم على ولدها، وكادتْ أن تظهرَ أمرَها وأمره، ولكنّ الله ﷻ ثبَّتها وربطَ على قلبها، وقال تعالى في ذلك: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

وأصل معنى **الربط لغةً**: الشد المعروف، تقول: ربطتُ الدابة: شددتها برباطٍ، واستعملَ في الآية على سبيل المجاز، ربطَ اللهُ على قلبه إذا ثبته وصبَّره.

وثَبَتَ أصحابُ الكهف على دينهم، وصبروا على فراقِ أهلهم وأوطانهم، بسبب ربط الله سبحانه على قلوبهم، وقاموا يواجهون باطلَ قومهم، ويعلنون الحقَّ في وجوههم:

﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾.

ألا ما أشدَّ ثباتهم! وما أعظمَ نعمة الله عليهم بربطه على قلوبهم، فالنفي بـ (**لن**) أبلغُ من النفي بغيرها، لأنَّها تفيدُ استغراقَ الزمان كل الزمان، فلن يتجهوا بالعبادة إلى غيره سبحانه أبداً، لأنَّه وحدَه المستحق للعبادة.

﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ أي: قولاً ذا شطط، أي: بعيد عن الحق، مفرطٍ بالبعد، أو قولاً هو عينُ الشَّطط، وهو من فعل: شطَّ؛ إذا أفرطَ في البعدِ.

ومن نتائج ربط الله سبحانه على قلوبهم أيضاً أنَّهم أنكروا على قومهم عقيدتَهم الفاسدة وعبادتَهم لغير الله سبحانه:

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ﴾ فكلامُهم عن قومهم إخبارٌ بمعنى الإنكار.

﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ﴾ و(**لَوْلَا**) هنا للتحضيض والطلب مع الإنكار، و(**السلطان البيِّن**): الدليل القاطع الظاهر، فالعقيدةُ يجبُ أن تكونَ مستندةً على دليل ظاهر وبرهان واضح، والعقيدةُ التي لا دليلَ عليها مردودةٌ ومرفوضةٌ، والتقليدُ في أمر العقيدة غير جائز.

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ أي: لا أظلمَ ممن يكذب على الله، وينسب له الشريك والولد، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً: ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ [الكهف: ٥].

- **الخروج إلى الكهف:**

ولابدَّ لهؤلاء الفتية المؤمنين أمامَ التهديد والوعيد برجمهم بالحجارة حتى الموت أنْ يفروا بدينهم، فهم لا يستطيعونَ مواجهةَ قوَّةِ وجبروتِ أصحاب السلطة من قومهم، وهم بضعةُ شباب في مقتبل أعمارهم، لا حول لهم ولا قوة إلَّا قوة إيمانهم، وثقتهم بربهم، فخرجوا من بلدهم، وهجروا أهلهم وقصورهم، ولجؤوا إلى كهفٍ في جبل بعيد عن العمران، لا ماء فيه ولا طعام، ولا وطاء ولا غطاء:

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾.

وفي الآية دليل على حُسْنِ الهجرة لسلامة الدين، وقُبح المقام في دار

الكفر أو في بلد لا تستطيع أن تعبدَ الله فيه، فالعزلةُ لسلامةِ الدين أمرٌ واجبٌ في الإسلام في مثل هذه الظروف، وأرضُ اللهِ واسعةٌ، ووطن المسلم حيث يستطيع أن يعبد الله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «هذا أمرٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة»[١].

فعلى المسلم أن يفارقَ الكافرين، ويبتعد عنهم، وإنَّ له حيثما ذهب مندوحة وملجأ يتحصَّن فيه، ويأمن به على دينه ونفسه وعرضه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٠٠].

وجاء في السُّنَّةِ الشريفة عدد من الأحاديث النبوية تحضُّ المسلمَ على اجتناب مواطنَ الفتن عند وقوعها:

منها قوله ﷺ: «**ستكونُ فتنٌ؛ القاعِدُ فيها خيرٌ مِنَ القائمِ، والقائمُ فيها خيرٌ مِنَ الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، مَنْ تشرَّفَ لها تَستَشْرِفه، ومن وجدَ فيها ملجأً فليعُذْ به**» [رواه البخاري (٣٦٠١) ومسلم (٢٨٨٦)].

ومنها أيضاً قوله ﷺ: «**يوشِكُ أن يكونَ خيرُ مالِ المسلمِ غنمٌ يتبعُ بها شَعَفَ** (قمم) **الجبالِ ومواقعَ القَطْرِ، يفرُّ بدينه مِنَ الفتن**» [رواه البخاري (١٩) وأبو داود (٤٢٦٧) والنسائي (٨/ ١٢٤) وابن ماجه (٣٩٨٠)].

وقد تعرَّض أصحابُ الكهف لأعظم الفتن، وهي الفتنةُ في الدين، إذ حاول قومهم أن يفتنوهم عن دينهم، فقرروا اعتزال قومهم، وهجرة بلدهم وأهلهم، وقال بعضُهم لبعض:

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ وقوله: ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على الضمير المنصوب في ﴿ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ أي: وإذ اعتزلتم القومَ ومعبوديهم إلَّا الله، فإنَّهم كانوا يعبدون الله، ويعبدون

---

(١) تفسير ابن كثير.

الأصنام كسائر المشركين، ويجوزُ أن تكونَ (**ما**) مصدرية على تقدير: وإذ اعتزلتموهم وعبادتهم إلَّا عبادة الله، ويحتمل أن تكون (**ما**) نافية، وتكونُ جملة ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إخباراً من الله تعالى عن عقيدة الفتية، وعبادتهم الله وحده، والجملةُ على هذا المعنى معترضة بين (**إذ**) وجوابها (**فأووا**)(١).

- **منطق المغرورين:**

ولا ينبغي لمن يتعرَّضُ لمثل ما تعرَّضَ له أصحابُ الكهف أن يغترَّ بنفسِه، وأن يستجيبَ لنزغات الشيطان: بأنك قوي الإيمان، يمكنك الثبات ومواجهة الفتنة، ذلك محضُ الخطأ، وهو منطقُ المغرورين المخدوعين بأنفسهم، المستجيبينَ لنزغات شياطينهم، فمهما كنتَ قويَّ الإيمان فلستَ أقوى إيماناً من أصحاب الكهف، الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ [الكهف: ١٣] والذين ربط الله على قلوبهم كما مرَّ معنا ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].

ولك في السابقين الأولين إلى الإسلام من أصحاب رسول الله ﷺ قدوة طيبة، وأسوة حسنة، فقد هاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم، ثم هاجروا بعد ذلك إلى المدينة المنورة، لينضموا إلى رسول الله ﷺ في دار الهجرة، فأين إيمانُكَ من إيمان المهاجرين، الذين شهد الله لهم بصدق الإيمان، وأثنى عليهم بقوله الكريم: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]؟!.

- **في داخل الكهف:**

وكان للفتيةِ المؤمنين ثقةٌ كبيرة بفضل الله سبحانه، ورجاء برحمته الواسعة، فتوكلوا عليه سبحانه، وسلَّموا إليه أمرهم، وفوَّضوا إليه شأنهم، وقال بعضُهم لبعض:

﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ التجئوا إلى الكهف، واتخذوه مأوى لكم.

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي.

﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم﴾ يبسط لكم ويوسع عليكم ربكم.

﴿مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ﴾ يسهل.

﴿لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم﴾ الذي أنتم فيه، وهو الفرارُ بالدين، واعتزال الأهل والمال والوطن.

﴿مِّرۡفَقٗا﴾ ما ترتفقون وتنتفعون به.

وجاء جوابُ فعل الأمر: ﴿فَأۡوُۥٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَنشُرۡ﴾ مجزوماً، وهذا يدلُّ على نصوع يقينهم، وصفاء إيمانهم، وقوة وثوقهم بفضل الله تعالى.

ورحم الله سيد قطب عندما قال في ظلال هذه الآية: «وهنا ينكشِفُ العجبُ في شأن القلوبِ المؤمنةِ، فهؤلاء الفتيةُ الذين يعتزلون قومهم، ويهجرون ديارهم، ويفارقون أهلهم، ويتجرَّدون من زينة الأرض ومتاع الحياة، هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيِّقِ الخشن المظلم، هؤلاء يستروِحُوْنَ رحمة الله، ويحسُّون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾، ولفظة ﴿يَنشُرۡ﴾ تلقي ظلال السعة والبحبوحة والانفساح، فإذا الكهفُ فضاءٌ فسيحٌ رحيبٌ وسيعٌ، تنتشر فيه الرحمة، وتتسع خيوطها، وتمتد ظلالها، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء... إنَّ الحدودَ الضيقةَ لتنزاحُ، وإنَّ الجدرانَ الصلدةَ لترقُّ، وإنَّ الوحشةَ الموغلةَ لتشفُّ، فإذا الرحمةُ، والرفقُ، والراحةُ، والارتفاقُ، إنَّه الإيمانُ، وما قيمةُ الظواهرِ؟! وما قيمةُ القيمِ والأوضاع والمدلولات التي تعارفَ عليها الناسُ في حياتهم الأرضية؟! إنَّ هنالك عالماً آخر في جنبات القلب المعمور بالإيمان المأنوس بالرحمة، عالماً تظلُّه الرحمةُ والرفقُ والاطمئنانُ والرضوان»[(١)].

• **نومهم في الكهف:**

ونام الفتية في الكهف متوكلين على الله تعالى، ومفوِّضين أمرهم إليه، ثقة

---

(١) في ظلال القرآن.

برحمته، واعتماداً على فضله، وشاءت حكمتُهُ ﷻ وإرادته أن يمتدَّ نومهم ويطول حتى يتجاوز حدود الليالي والشهور إلى السنين والقرون:

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾.

وضربه جلَّ وعلا على آذانهم كناية عن كونه سبحانه أنامهم، ومفعول (ضربنا) محذوفٌ، أي: ضربنا على آذانهم حجاباً مانعاً من السماع، فلا يسمعون شيئاً يوقظهم، والمعنى: أنمناهم إنامةً ثقيلةً لا تنبههم فيها الأصوات.

وعبَّر بالضربِ ليدلَّ على قوَّة المباشرة واللصوق واللزوم، ومنه قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ [آل عمران: ١١٢].

وذكر الجارحة التي هي الآذان لأن منها يكونُ السمع، ولا يستحكم نومٌ إلَّا مع تعطُّل السمع، ومن ثقلَ نومُه واستحكَمَ، حتى منعه من القيام إلى صلاة الصبح يكونُ كما قال عنه النبي ﷺ: «**ذاك رجلٌ بالَ الشيطانُ في أذنِهِ**» [رواه البخاري (١١٤٤) ومسلم (٧٧٤)][(١)].

ولم تبيِّنِ الآيةُ هنا مدة نومهم، وذكر الله تبارك وتعالى في آيةٍ أخرى مدَّة نومهم فقال:

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ أي: تسع سنين، فإنَّه إذا سبق عددٌ مفسَّرٌ، وعطف عليه ما لم يُفسَّر، حُمل تفسيرُه على السابق، فمدَّةُ نوم أصحاب الكهف ثلاثمئة وتسع سنين بالتوقيت القمريِّ، وثلاثمئة سنة بالتوقيت الشمسي.

وهذا هو الحقُّ الصحيحُ الذي لا يحومُ حوله شكٌّ، فلا يعلَمُ مدة نومهم إلَّا الله ﷻ الذي ضربَ على آذانهم، ولهذا جاءَ التعقيبُ على الإِخبار بمدَّةِ نومهم بقوله سبحانه:

---

(١) انظر: أضواء البيان.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو سبحانه الذي يعلم غيب السماوات والأرض، أي: جميع ما غاب فيهما، فالغيب مصدر بمعنى الغائب والخفي.

﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ أي: ما أبصره وما أسمعه جلَّ وعلا! فعلمُ الغيبِ أمرٌ عظيمٌ، من شأنه أن يُتعجَّب منه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

والسمع والبصر صفتان من صفات الله سبحانه غير صفة العلم، وبصره وسمعه سبحانه لا يشبهان بصر المبصرين ولا سمع السامعين: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فإنَّ اللطيفَ والكثيفَ، والصغيرَ والكبيرَ، والجليَّ والخفيَّ، والسرَّ والعلنَّ على حدٍّ سواء في عدم الاحتجاب عن بصره وسمعه تبارك وتعالى[١].

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ أي: ما للفتية وليٌّ يتولَّى أمرهم، فهو سبحانه وليُّهم كما هو سبحانه ولي المؤمنين الصالحين: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

• **الحكم لله وحده:**

وختم الله الآية بقوله:

﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ فالحكمُ لله وحدهُ، يحكمُ ما يريدُ، ولا حكم لغيره سبحانه، فالحلال ما أحلَّه الله تعالى، والحرام ما حرَّمه، والدين ما شرعه،

---

(١) روح المعاني.

والقضاء ما قضاه وقدَّره، وكما أنَّ الخلقَ له، فالأمرُ له أيضاً: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ويفهم من هذه الآية: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ ومن أمثالها أن متَّبعي أحكام المشرِّعين غير ما شرعه الله مشركون بالله إن استحلُّوا ذلك، وفضَّلوا هذه الشرائعَ الوضعيةَ على شريعة الله، وقد جاء هذا المفهومُ مبيَّناً في آيات أُخَر، كقوله فيمن اتبع تشريع الشيطان في إباحة الميتة بدعوى أنها ذبيحة الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

فصرَّح بأنهم مشركون بطاعتهم الشياطين، وهذا الإشراكُ في الطاعة واتباع التشريعِ المخالفِ لما شرعه الله تعالى هو المرادُ بعبادة الشيطان في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يسٓ].

قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكرَ عدداً من الآيات القرآنية في هذا المعنى: «وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهَرُ غاية الظهور أنَّ الذين يتَّبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطانُ على ألسنة أوليائه مخالفةً لما شرعه جلَّ وعلا على ألسنة رسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أنه لا يَشُك في شركهم وكفرهم إلَّا مَنْ طمسَ الله بصيرته، وأعماه عن نورِ الوَحي مثلهم»(١).

• من آيات الله سبحانه:

وإذا العنايةُ راقبتْكَ عيونُها نَمْ فالحوادثُ كلُّهنَّ أمَانُ

ونشر الله سبحانه رحمته على الفتيةِ وهم نائمونَ في الكهف، وتولَّاهم بعنايته، وحفظهم هذه المدَّة الطويلةَ بحفظه ورعايته، فلم تمتد إليهم يدُ البلى، ولا نالتْ منهم رطوبةُ الأرض وبرودتُها، ولا أثَّرت فيهم حرارةُ الشمسِ ويبوستُها، ولم يطَّلعْ عليهم إنسانٌ، ولا اقتربَ منهم حيوانٌ، كانوا طولَ مدَّةِ

(١) انظر: أضواء البيان.

نومهم محفوظين بحفظ الله تعالى الذي لا يُرام، محروسينَ بعينه سبحانه التي لا تنام.

حبس الله عنهم بقدرته شعاعَ الشمسِ فما مسَّهم، ولا أصابَ أجسادهم:

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: تميلُ عنهم إلى جهةِ يمينِ الكهفِ، فلا يقعُ شعاعُها عليهم فيؤذيهم.

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: تعدلُ عنهم إلى شمالِ الكهفِ.

﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ وهم في وسطِ الكهفِ بحيثُ ينالُهم الهواءُ، ولا يؤذيهم حَرُّ الشمس.

وصرْفُ أشعةِ الشمس عنهم من الأمور الخارقةِ للنواميس الكونية، وهو مِنَ الآياتِ الدالَّة على قدرة الله ﷻ، ولهذا قال بعدها:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ أي: مَنْ يدله اللهُ سبحانه على الحقِّ، ويوفقه للعمل به.

﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الفائز والناجح في الدنيا والآخرة، وهذا ثناءٌ مِنَ الله سبحانه على أصحاب الكهف، فقد هداهم الله سبحانه، ووفقهم ونشر رحمته عليهم، وجعلَ لهم في الكهف مرفقاً.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ ومَنْ يخذله الله ويصرفه عن الحق.

﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

- **الحارس الأمين:**

وطول النوم يستدعي عادةً تغيُّراً في جسد الإنسان من استرخاء وهيئات خاصة يكونُ عليها النائم، فما بالُكَ إذا طالَ النومُ، وامتدَّ إلى سنين وقرون!

ومع ذلك فإنَّ الله سبحانه حفظهم بحفظه، وأحاطهم بعنايته ولطفه، فلم تتغيَّر أجسادُهم، ولم يطرأْ عليهم طولَ مدَّةِ نومهم ما يؤثر فيها، حتى إنَّ الناظر إليهم يظنُّهم مستيقظينَ لا نائمينَ:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ وهذا تأكيدٌ لقدرةِ اللهِ سبحانه وعنايته بهم وحفظه لهم، فالفتيةُ طولَ مدَّةِ نومهم كانوا أحياء نائمين لا أمواتاً هامدين، فقد كانوا يتحرَّكون ويتقلَّبون.

ونام كلبُهم أيضاً مثلهم:

﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ في مدخل الكهف.

وإنَّ ذِكْرَ الآيةِ لكلبهم يدلُّ دلالةً واضحةً أنَّ جميعَ أسباب الحفظ والحراسة الأرضية التي يلجأُ إليها الإنسانُ، وهو في مثل حال أصحاب الكهف قد تعطَّلت وتوقَّفت، فقد نام حارسُهم، ولم يبقَ ثمَّةَ أحدٌ يحرسُهم، وليس ثَمَّةَ بابٌ يُغلق دونهم، ولا جدران تمنعُهم، ولا عمران يحيطُ بهم، فمَنْ يتولَّى حراستهم دون طوارق الليل في هذا الجبل البعيد المقفر؟!.

إنها عنايةُ الله، وإنَّهم في كنف الله، سخَّر اللهُ لهم جنديّاً من جنوده تولَّى حراستهم على مدى ثلاثة قرون كاملة، لم يغفل خلالها، ولم ينم، ولم يتبدَّلْ أو يتغيَّرْ، حرسهم اللهُ بالرعبِ:

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ ألقى اللهُ عليهم وعلى كهفهم من الهيبة والجلال والرعب بحيث لم يجرؤ أحدٌ من إنسانٍ ولا حيوانٍ يدنوَ منهم، والرعب من جنود الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وقد سخَّرَ اللهُ الرعبَ لنبيه ﷺ، ونصره به على أعدائه، وبينه وبينهم مسيرة شهر، فبعدَ أنْ جمعَ الرومُ جموعَهم في تبوك، وحشدوا فيها جيوشهم،

تراجعوا، وانسحبوا خائفينَ مذعورين عندما سمعوا بخروج النبيِّ ﷺ من المدينة إلى حربهم وقتالهم، ولمَّا وصل النبيُّ ﷺ إلى تبوك لم يَلْقَ جيشاً يقاتِلُه، ولا عدوّاً يحارِبُهُ، نصره الله ﷻ بجندي واحد من جنوده على أكبر دول الأرض حينئذٍ وأقواها عدداً وعُدداً، قال ﷺ: «**أعطيتُ خَمْساً لم يُعطهنَّ أحدٌ مِنَ الأنبياءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بالرُّعبِ مسيرةَ شَهْرٍ، وجُعِلَتْ لي الأرضُ مَسْجِداً وطُهُوْراً، فأيُّما رَجُلٍ مِنْ أُمَّتي أدركتْهُ الصلاةُ فليصَلِّ، وأُحلَّتْ لي الغنائمُ، ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيتُ الشفاعةَ، وكانَ النبيُّ يُبْعَثُ إلى قومِهِ خاصّةً، وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عامَّةً**» [رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١)].

وواضح ما في الآيات من الدلالات المتعددة على ثبوت الكرامات للأولياء والصالحين، فلا شكَّ في ولاية أصحاب الكهف وصلاحهم، وما أكرمهم الله به من خوارق العادات دليلٌ واضحٌ على ثبوت الكراماتِ لأهلِ الولايةِ والصلاحِ.

● **البعث من النوم:**

وبعد أن ضرب الله على آذانهم فناموا ثلاثةَ قرونٍ كاملة، أيقظهم الله سبحانه بقدرته، فبعثهم مِنْ نومهم، وأثارهم مِنْ رقادهم، فكما أظهرَ اللهُ سبحانه كمال قدرته بضربه على آذانهم سنين عدداً، أظهر سبحانه أيضاً كمال قدرته ببعثهم من نومهم، وترتب على ذلك أيضاً بيان كمال علمه سبحانه بمدَّة نومهم، ولهذا قال:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾.

فمن حِكَم بَعْثِ الله سبحانه أصحاب الكهف من نومهم أن يبيِّنَ للناس أي الحزبين المختلفين في مدَّةِ لبثهم أحصى لذلك وأضبط له، وقد سكتت الآياتُ الكريمةُ عن الحزبين المذكورين، فلم تبيِّن شيئاً عنهما، فلا يسعُنا إلَّا السكوت والإمساك عن الخوض فيهما التزاماً لما سبق ذكره في فقرة (**مصادر قصة أصحاب الكهف**)[1].

---

(١) انظر: ص ٣١ ـ ٣٢، في هذا المجلد من تفسيرنا الموضوعي.

وإنَّ المفسرينَ الذين حاولوا الكشفَ عن حقيقة الحزبين المذكورينِ لم يصلوا إلى شيء مفيد، وجاءت أقوالهم مختلفة ومضطربة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ﴾ أي: لنعلم اختلاف الحزبين واقعاً وحادثاً كما سبق أن تعلَّقَ به علمنا منذ الأزل، فليسَ في الآيةِ ما يدلُّ على أنَّه سبحانه لم يكنْ عالِماً بذلك قبلَ بَعْثِهم، فهو سبحانه عالمٌ بكل ما سيكون قبلَ أنْ يكونَ، لا يخفى عليه شيءٌ، كما سبق بيانه ودلَّت عليه آيات كثيرة.

• محاورة بعد النوم:

ومن الطبيعيِّ أن يتساءلَ الفتيةُ بعد بعثهم من النوم عن مدة نومهم، وأن تختلفَ آراؤهم:

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ واللامَ في قوله تعالى: ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟﴾ لامُ العاقِبة، فبعد أن بعثهم الله من نومهم، تساءلوا بينهم، وليست لامَ التعليل، فلم يبعثهم الله ليتساءلوا.

والحوارُ الذي حدث بينهم بعد استيقاظهم حولَ مدَّةِ نومهم يدلُّ على أنَّهُ سبحانه حفظ أجسادَهم طول هذه المدة من التغيُّر، فلم تطُلْ شعورُهم وأظفارُهم، ولم تصفرَّ وجوهُهم وتبلى ثيابهم، كما زعم بعضُ المفسِّرين، فلو كان أصحابُ الكهفِ بتلك الصفات لأنكروا أحوالَهم عند استيقاظهم، ولم يقولوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[1].

---

(١) انظر: روح المعاني.

وإن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ يدل على عدم حدوثِ التغيُّر في أجسامهم، لأنَّ معناها: كما أنمناهم وحفظنا أجسامهم طول هذه المدة؛ بعثناهم[١].

- **النقود الفضية:**

وصرفهم الإحساسُ بالجوع عن التفكير في مدَّةِ نومهم إلى التفكير في تدبير طعام يسدُّون به جوعهم، فأحضرَ أحدُهم نقوداً فضية كانتْ معهم وقال:

﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ المعهودةِ التي عاشوا بها، وخرجوا منها.

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ فليبحث عن أحلِّ الطعام وأطيبه.

﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي: من ذلك الطعام.

وهكذا أرسلوا واحداً منهم بالنقودِ الفضية التي كانتْ معهم ليُحْضِرَ لهم طعاماً من المدينة، وأوصوه بالحَذَرِ، وأن يحسِنَ التخفِّي، حتى لا ينكشفَ أمرهم، ويفتضحَ شأنُهم:

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

وأكدوا وصيتهم له ببيان ما يترتَّب على انكشافِ أمرهم من الخطرِ على حياتهم أو عقيدتهم:

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ بالحجارة حتى الموت.

﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ وهذا يدلُّ على أنَّ الفتيةَ كانوا حذرين خائفين أن ينكشفَ أمرُهم، ولم يعلموا أنَّ الأعوامَ قد كرَّت، وأنَّ عجلة الزمان قد دارت، وأنَّ أجيالاً قد تعاقبت، وأنَّ معالمَ المدينة التي يعرفونها قد

---

(١) لباب التأويل، للخازن.

تغيَّرتْ، وأنَّ دولةَ الظالمين والمتسلِّطين التي كانوا يخافون منها قد دالت، وأنَّ قصتهم أصبحتْ خبراً من أخبارِ التاريخ يتناقلُه الخَلَفُ عن السَّلَفِ.

ويبدو أنَّ تلك النقود الفضية كانت سببَ انكشافِ أمرهم، وظهور حقيقتهم.

• **إظهار الحقيقة:**

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ وكما ضرب الله سبحانه على آذان أصحاب الكهف فجعلهم ينامون طيلةَ ثلاثةِ قرونٍ متواليةٍ، أطلعَ الناسَ عليهم، وكشف لأهل مدينتهم حقيقتَهم.

فالإعثار: معناه الاطلاعُ والعرفانُ، لأنَّ العاثرَ الذي يسقطُ لوجهه ينظرُ إلى موضع عثرته، وكان الإعثارُ مفاجأةً كبيرةً لأصحاب الكهف، عرفوا بعدها أنَّ الدنيا تغيَّرتْ كثيراً من حولهم، وأنهم من جيلٍ قديمٍ مضت عليه قرون، وأنَّهم أصبحوا أعجوبة في نظر الناس، وأنَّ كلَّ ما يربطهم بجيلهم من قراباتٍ وصلاتٍ ومعاملاتٍ ومشاعرَ وعاداتٍ انقطعَ وانتهى، فسألوا الله سبحانه أن يميتهم، واستجابَ الله دعاءَهم، فماتوا، والناسُ خارجَ كهفهم يتنازعونَ في أمرهم.

وقد بيَّنتِ الآيةُ الكريمةُ الحكمةَ العظمى والعبرة الكبرى من إظهار حقيقةِ أصحاب الكهف: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ فالحكمةُ من إظهار أمرهم: أن يعلمَ الناسُ أنَّ وعد الله حق، وأن يومَ القيامةِ آتٍ لا ريبَ فيه، إذ دَلَّت قصةُ أصحاب الكهف على بعثِ الناسِ يومَ القيامةِ بمثلٍ واقعي محسوس، يقرِّب للناس حقيقة يوم القيامة، ولهذا بعث الله سبحانه الفتية من نومهم، وكشف شأنهم للناس؛ فمن قَدِرَ على حفظ أجسام

أصحاب الكهف مدَّةَ ثلاثةِ قرونٍ متواليةٍ من التفتت والتعفُّن والتحلُّل، مع تعرضهم للحر والبرد، والشمس والهواء، وحاجتهم إلى الطعام والشراب، صحَّت قدرتُه على إعادةِ الأجساد بعد موتها، وتفرُّق أجزائها.

والبعث من الموت يشبهُ البعثَ من النوم، النومُ قبضٌ جزئي للروح، بينما الموتُ قبضٌ كامل للروح، وفصلٌ لها عن جسدها: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

وقال أيضاً: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

- **مسجد على الكهف:**

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ﴾ ويبدو أنَّ نزاعاً واختلافاً حصل بين الناس بعد انكشاف أمر أصحاب الكهف؛ فبعضُهم أرادَ أن يسدَّ باب الكهف ببناء:

﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ﴾.

ورأى آخرون ـ وهم أصحابُ الكلمة المسموعة الذين إذا أرادوا أمراً لم يتعسَّر عليهم ـ بناء مسجدٍ عند الكهف:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

ولا تدلُّ الآيةُ على جواز بناءِ المساجدِ على قبور الصالحين، فليسَ فيها سوى حكاية رأي فريقٍ من الناس كانوا في عصر انكشاف حال أهل الكهف، إذ ليس في الآيةِ مدحٌ لهم وحضٌّ على التأسِّي بهم[١].

وقد صحَّ: أنَّ النبيَّ ﷺ نهى عن بناء المساجد على القبور؛ ففي «**صحيح مسلم**» [٥٢٨]: عن **عائشة** رضي الله عنها: أنَّ أمَّ حبيبةَ وأمَّ سَلَمةَ ذكرَا لرسولِ اللهِ ﷺ كنيسةً رَأَيْنَها بالحبشةِ فيها تصاويرُ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ أولئكَ إذا كانَ**

---

(١) انظر: روح المعاني.

فيهم الرجلُ الصالِحُ فماتَ؛ بنوا على قبره مَسْجِداً، وصوَّروا فيهِ تلكَ الصورَ، أولئكَ شِرَارُ الخلقِ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ».

وروى مسلم في «**صحيحه**» [٥٢٩، ٥٣٠] أيضاً: عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ في مرضهِ الذي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ: «**لعنَ اللهُ اليهودَ والنصارى؛ اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ**» قالتْ: فلولا ذاكَ أُبرزَ قبرُه غيرَ أنَّه خُشِيَ أن يُتَّخذَ مَسْجِداً.

ومن المعلوم: أنَّ رسول الله ﷺ دفنَ حيثُ توفي في حجرة السيدة عائشة رضي الله عنها، وكانتْ خارجَ المسجدِ، ولمَّا احتيجَ إلى توسعةِ المسجدِ ضُمَّت الحجراتُ إلى المسجدِ في عهدِ الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وأصبحت الحجرةُ النبويةُ داخلَ المسجدِ النبويِّ الشريف.

وخَتَمَتِ الآياتُ الكريمةُ قصَّة أصحاب الكهف بحكايةِ بعضِ ما وقع بينَ الناسِ من تنازع حولَ عددهم كما سبق بيانه[١]:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.

ثم التفتت الآياتُ إلى النبي ﷺ تأمُرُهُ أن يردَّ علمَ ذلك إلى الله سبحانه: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ فقصةُ أصحابِ الكهف طواها الزمنُ، وأصبحتْ من الغيبِ الموكولِ إلى علم الله سبحانه.

● **تأديب وتعليم:**

وكما أنَّ الماضي غيبٌ بالنسبة للإنسان، فالمستقبلُ أيضاً غيبٌ بالنسبةِ له، لا يدري الإنسانُ عنه شيئاً، وهو أيضاً موكولٌ إلى علم الله ومشيئته، فعلى الإنسانِ

---

(١) انظر: ص ٣١ ـ ٣٣ في هذا المجلد من تفسيرنا الموضوعي.

أَلَّا يقطع بأمرٍ سيفعلُه في المستقبل، إلَّا أن يعلِّقه على مشيئةِ اللهِ تعالى، فكلُّ شيءٍ فيه مرهونٌ بإرادته سبحانه، ولا يعلمُ الإنسانُ شيئاً وراء اللحظةِ الحاضرةِ التي يعيشُ فيها، وعينُه عاجزةٌ أن ترى ما وراء لحظة الحاضر الذي هو فيه:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ وهذا النهيُ تعليمٌ من الله تعالى للنبيِّ ﷺ، فعندما سُئل عن الروح وأصحابِ الكهفِ وذي القرنين قال ﷺ: «غداً أخبركُم» ولم يَسْتَثْنِ، أي: لم يقل: إن شاء الله، كما مرَّ معنا في سبب النزول[1].

والمعنى: لا تقولنَّ لأجل شيء تعزمُ على فعله في المستقبل: إنِّي فاعلٌ ذلك الشيء غداً: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: إلَّا قائلاً ذلك، أي: معلَّقاً بمشيئة الله، والمراد بـ (**الغد**): ما يُستقبَلُ من الزمان لا خصوصَ الغد، فمن أساليب العربية إطلاق الغد على المستقبل من الزمان، ومنه قول الشاعر زهير بن أبي سُلْمى:

وأعلمُ عِلْمَ اليومِ والأمسِ قَبْلَهُ ... ولكنَّني عَنْ عِلْمِ مَا فِيْ غَدٍ عَمِ

ففي الآيةِ الكريمةِ تأديبٌ من الله تعالى للنبيِّ ﷺ وتعليم، ممَّا يدل دلالةً قاطعةً على أنَّ القرآن الكريم كلامُ اللهِ، منُزَّلٌ على رسول الله ﷺ، ومع أنَّ الخطابَ للنبي ﷺ فحكمها عام لجميع المكلفين.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: اذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناء، فكأنَّ تركَ الاستثناءِ ذنبٌ يستدعي التوبةَ والاستغفار.

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾ أن يوفقني.

﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أي: لشيء أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف يدلُّ على صحة نبوتي، ويرشد إلى صدق رسالتي.

---

(١) انظر: ص ٢٣ ـ ٢٤، في هذا المجلد من تفسيرنا الموضوعي.

وقد فعل ﷻ ذلك، فأعطى النبيَّ ﷺ كثيراً من الآيات البينات كقصص الأنبياء المتباعدة في الماضي، والإخبار عن كثير من الحوادث المستقبلة، ففي الآيةِ تهوينٌ من الله ﷻ لقصَّةِ أصحابِ الكهف، وهذا ينسجِمُ مع تهوينه لها أولاً في قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩][1].

وقد نبَّه سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ في ظلالِ هذه الآية الكريمة إلى أمرٍ هام فقال: «ليس معنى هذا أن يقعدَ الإنسانُ ولا يفكِّرَ في أمر المستقبل، ولا يدبر له، وأن يعيشَ يوماً بيوم، ولحظةً بلحظةٍ، وألَّا يصل ماضي حياته بحاضره وقابله... كلا، لكنَّ معناه أن يحسبَ حسابَ الغيبِ، وحسابَ مشيئةِ اللهِ التي تدبِّره، وأن يعزمَ ما يعزم، ويستعينَ بمشيئة الله على ما يعزِمُ، ويستشعرَ أنَّ يدَ الله فوقَ يده، فإنْ وفَّقه الله إلى ما اعتزمَ فبها ونعمت، وإن جرت مشيئةُ الله بغير ما دبَّرَ لم يحزنْ، ولم ييئسْ، لأنَّ الأمرَ للهِ أولاً وآخراً»[2].

وما أجملَ قولَ النبيِّ ﷺ في هذا المعنى: «**المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله مِنَ المؤمنِ الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ، احرصْ على ما ينفعُكَ، واستعنْ باللهِ ولا تَعْجَزْ، وإنْ أصابَكَ شيءٌ فلا تَقُلْ: لو أنِّي فعلتُ كذا، كان كذا وكذا، ولكنْ قُلْ: قدَّر اللهُ وما شاءَ فَعَلْ، فإنَّ (لَوْ) تفتحُ عَمَلَ الشيطانِ**» [رواه مسلم (٢٦٦٤)].

- **تعقيب:**

لقد نجَّى الله سبحانه أصحابَ الكهف من الفتنة التي تعرَّضوا لها في دينهم، حين التجؤوا إلى الله وحده، فلم يسألوا سواه سبحانه، ولم يستعينوا بغيره كما مرَّ معنا، ولهذا جاء التعقيبُ على قصَّتهم بأمر النبيِّ ﷺ بتلاوة القرآن الكريم، والتوجه إلى الله سبحانه، والاستعانة به، فلا يوجدُ غير حمى الله، وقد التجأ إليه

---

(١) انظر: روح المعاني.

(٢) في ظلال القرآن.

أصحابُ الكهف، فشملهم برحمته وحمايته وهُداه، ونجَّاهُم من الفتنةِ الكبرى في دينهم، وجعلَهم آيةً وعبرةً لغيرهم:

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ وهو أمرٌ من التلاوةِ بمعنى القراءة.

أو: يكون أمراً من التلو، بمعنى الاتباع؛ أي: اتَّبعْ ما أوحيَ إليك، والزمِ العملَ به[١].

وقد يكونُ كلا المعنيين مراداً، فالأمرُ يتناولُ التلاوةَ والاتباع، والخطابُ وإن كان للنبيِّ ﷺ فهو شاملٌ لجميع المكلفين.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ لا يقدرُ أحدٌ على تبديل كلمات القرآن الكريم غيره سبحانه.

﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي: ولن تجدَ عندَ غير الله ملجأً تلجأُ إليه عند نزول نازلةٍ، فكهفُ السلامةِ في كتاب الله تلاوةً واتباعاً، وفي سُنَّة رسول الله ﷺ، ففيهما السلامةُ والسلامُ، والأمنُ والأمانُ عند مواجهة النوازل والفتن، أعاذنا الله منها.



(١) روح المعاني.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

قِصَّة الغَنِيِّ والفَقِير

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

- **تمهيد: فتنة الغنى وفتنة الفقر:**

التفاوت بين الناس من أعظم أسباب الاختلاف والفتن، وخاصة التفاوت بينهم بالغنى والفقر، فالأغنياء فتنة كبرى للفقراء، والفقراء كذلك فتنة كبرى للأغنياء، هكذا شاءت حكمة الله تعالى أن يكون الناسُ بعضهم لبعض فتنة، لأنه سبحانه جعل الحياة ابتلاء واختباراً كما سبق بيانه، قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقد كان فقراء الصحابة ﷺ من السابقين الأولين إلى الإسلام فتنةً لأغنياء المشركين، وجاء بعضهم إلى النبيِّ ﷺ، وطلبوا منه أن يجلسَ معهم وحدَهم، ولا يجالسهم بفقراء أصحابه، كبلال وعمار وصهيب وخبَّاب وابن مسعود ﷺ، فقد روي أنَّهم قالوا للنبيِّ ﷺ: لو أبعدتَ هؤلاءِ عن نفسِكَ لجالسناك، فإنَّ ريحَ جبابهم تؤذينا، فنزلت هذه الآية:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ احبسها وثبتها.

﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ أي: مع الذين يعبدون الله ويحمدونه ويكبرونه ويسبِّحونه في أول النهار وآخره.

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ يريدون رضاه ﷻ، فلا يعبدونه رياءً ولا سمعةً، ففي هؤلاء الخير كل الخير، وبهم قامت دعوةُ اللهِ، لأنَّهم لم يعتنقوها للأطماع وليكون لهم أتباع.

وبعد أن أمرتِ الآيةُ النبيَّ ﷺ أن يحبسَ نفسَه ويثبِّتها مع فقراء أصحابه، نهته أن يصرِفَ نظره عنهم إلى غيرهم:

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ ولا تصرِفْ عيناك النظرَ عنهم إلى غيرهم.

فالمرادُ نهي رسول الله ﷺ أن يزدري بفقراء المؤمنين، وتعلو عينه عن رثاثة زيهم، طموحاً إلى طراوة زي الأغنياء، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

• **الغفلة عن ذكر الله:**

إنَّ فتنة الإنسان بالمال من أعظم الفتن، لأنها تصرفُ قلبه عن ذكر ربه إلى ماله وشهواته، وقد وصف الله سبحانه أولئكَ المشركين المفتونين بمالهم وغناهم، والمتكبرين على فقراء أصحاب النبي ﷺ بقوله:

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: لا تطعْ من جعلنا قلبَه غافلاً عن ذكر الله.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ وهذا هو سبب غفلته عن ذكر الله، فحينَ اتجه قلبُه إلى ماله وشهواته لم يبقَ فيه متَّسع لذكر الله تعالى، فالقلبُ الذي ينشغل بهذه الشواغل، ويجعلها غايته لا جَرَمَ يغفل عن ذكر الله، فيزيده الله غفلة، فشر أحوال الإنسان أن يكون قلبُه خالياً عن ذكر الله، ممتلئاً بالهوى الداعي إلى الاشتغال بالمال والشهوات، وإنَّ مآل مثل هذا الإنسان إلى ضياع وهلاك.

﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ فالفرط من التفريط وهو التضييع والنقص، أي: كان أمره ضياعاً وهلاكاً، أو من الإفراط وهو الإسراف، أي: وكان أمره إسرافاً، ومجاوزةً للحد، أو من السبق والتقدم من قولهم: فرسٌ فرط؛ أي: متقدِّمٌ للخيل، ويكون المعنى: وكان متقدماً على الحق معرِضاً عنه نابذاً له وراء ظهره[١].

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ بكل هذه القوة والصراحة أمر الله سبحانه النبيَّ ﷺ أن يقول لأولئك المفتونين بمالهم المتكبرين: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ فالدينُ للهِ سبحانه، لا مجاملةَ فيه، ولا مساومةَ، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ والله سبحانه لا يبالي بإيمان من آمن، ولا بكفرِ مَنْ كفر، فليس في

---

(١) انظر كتاب: روح المعاني؛ وكتاب: أضواء البيان.

الآيةِ تخييرٌ بين الإيمان والكفر، والأمرُ بالكفر فيها غيرُ مرادٍ، إنَّما فيها تهديدٌ ووعيدٌ للكافرين، والدليل عليه قوله تعالى بعدها:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

ثم قال تعالى مبيناً ثواب من يؤمن:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

• **القصة الثانية: رجلان وجنَّتان:**

وجاءت القصة الثانية في سورة الكهف متفقةً تماماً مع ما سبق وقرره الله تبارك وتعالى من خطورة فتنة الغنى والفقر، وابتلاء الناس بعضهم ببعض نتيجة ما قدَّره الله بينهم من تفاوت في الرزق؛ قال تعالى:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ اضرب للمؤمنين الفقراء وللكافرين الأغنياء المفتونين بسبب غناهم، مثلاً رجلين:

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أعطينا أحدَهما جنتين، ولم نعطِ الآخرَ.

وقد يعترضُ بعضهم على إعطاء واحد ومنع آخر، ويرون ضرورة التسوية بينهما بالعطاء، فثمة جنتان ورجلان؛ لكل رجل جنة، لكنَّه سبحانه العليم الحكيم لو سوَّى بينهما بالعطاء، لما حصل الابتلاء، ولما وقع الافتتان، وقد خلق الله سبحانه الحياةَ بما فيها اختباراً للخلق، وابتلاء كما سبق بيانه في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

ولو جعل الله سبحانه الناس متساوين بالعطاء لما وقع بينهم تعاون

وتواصل، واستغنى كلٌّ واحدٍ بما في يده عن الآخرين، وحينئذٍ تتعطل الحياة، وتتوقف، لاستحالة أن يعيشَ الإنسان دونَ أن يتعاون مع الآخرين، قال ﷻ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

ليس للعبيد تقسيمُ الأرزاق والأعطيات، ذلك شأن السيد والمالك، ولا حقَّ للعبدِ أن يعترضَ على قسمة مالكه وخالقه فيقول: لِمَ أعطيتَ فلاناً ومنعتني؟! ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، الجميع عبيدٌ له ومِلْكُه، والرزقُ والعطاءُ من فضله، وليس لأحدٍ سابقةُ استحقاقٍ على الله تعالى، فإن أعطى فبفضله وإحسانه، وإن منع فبحكمته ومشيئته.

- **الجنتان:**

ولما كانت الجنتان سبب الافتتان والامتحان وصف الله تعالى ما جعل فيهما من ثمرات، وما خلق من خيرات، فقال ﷻ:

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ بستانين، ولم يعيِّنْ سبحانه مكانها، فلا تتعلق بذلك فائدة.

﴿مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ من كروم متنوعة، وهي أشجار العنب.

﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾ وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ لتكونا جامعتين للأقوات والفواكه.

ومن المعلوم أنَّ الثمار تنقصُ في عام وتتم في عام آخر غالباً، إلا أن الله ﷻ جعل الجنتين تعطيان الثمار كاملة دون نقص في جميع الأعوام:

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ ثمرها.

﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ ولم تنقص من ثمرها شيئاً كما هو المعهودُ في سائر البساتين.

ولكي يدومَ شِربهما ويزيد جمالهما وبهاؤهما فجَّر الله بينهما نهراً:

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾.

وأعطى الله صاحبَ الجنتين أنواعاً أخرى من المال سوى الجنتين:

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ وإلى جانب هذا كلِّه أعطاه الله الأولاد والخدم والحشم، وتلك هي الأماني التي تتعلَّق بها قلوب كثير من الناس، قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: تلك والله أمنية الفاجر كثرةُ المالِ وعزَّةُ النفر[١].

- **المحاورة:**

وكان لصاحب الجنتين صديقٌ فقير مؤمن، ويبدو من الآيات الكريمة أنَّ هذا الفقيرَ المؤمنَ كان يراجِعُ صاحبَ الجنتين بالوعظ والدعوة إلى الله ﷻ، فما كان من صاحب الجنتين إلَّا أن ردَّ عليه:

﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

ثم دخل بصاحبه إحدى جنتيه يطوفُ به فيها، وقد ملأ نفسَه البطرُ، وسيطر عليه الغرورُ:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وهو ظالم لنفسه بعُجْبه وكُفْرِه، لأنَّه وضع نفسَه في موضع الجحود والنكران بدل أن يضعَها في موضع الشكر والعرفان.

﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾.

اغترَّ بطول أمله وكثرة ماله، فأوصله ذلك إلى إنكار يوم القيامة:

---

(١) تفسير ابن كثير.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ كأنَّ الله سبحانه خلقه وأنعم عليه ليأكلَ ويشربَ ويتكبرَ ويتجبرَ، ثم ازداد بطراً وأشراً وطغياناً وكبراً فأقسم أنَّه إن رجعَ إلى اللهِ يومَ القيامة كما أخبره صاحبه المؤمن ليعطينَّه الله جنةً خيراً من جنته هذه التي في الدنيا.

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ لاعتقاده أنَّ الله سبحانه أعطاه ما أعطاه في الدنيا بسبب استحقاقه لهذا العطاء!.

وهكذا سقط صاحب الجنتين بالاختبار، وفشل في الامتحان، وفتنه ماله عن دينه.

- **عزة الإيمان:**

انتفضت عزَّةُ الإِيمان في قلب صاحبه المؤمن أمام هذا التكبُّر والتجبُّر والجحود والنكران، دون أن يباليَ بالمال والنفر، ومن غير أن ينظرَ للغنى والبطر، فواجهه بحقيقته، وذكَّره بأصله ونشأته:

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾.

جعل كفره بيوم القيامة كفراً بالله تعالى، لأنَّ منشأه الشك في كمال قدرة الله سبحانه.

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾.

وأصل (**لكنّا**): لكن أنا، حذفت الهمزة وتلاقت النونانِ فكان الإِدغامُ، وكلمةُ (**لكن**) تدلُّ على الاستدراك، كأنه قال: أنتَ كافرٌ بالله، لكنْ أنا مؤمنٌ به.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وهلَّا عند دخول جنتك قلت: ما شاء

الله، وهو إقرارٌ بمشيئة الله، إن شاء أبقاها، وإن شاء أبادها، لأنَّ معناها: الأمرُ ما شاء الله، أو: ما شاء الله كائن.

﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: وقلتَ: لا قوة إلَّا بالله، وهذا اعترافٌ بالعجز، وردُّ القدرة إلى الله سبحانه، فما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها فبمعونة الله وتيسيره.

وجاء في الخبر عن رسولِ اللهِ ﷺ: «**ما أنعمَ اللهُ على عبدٍ نعمةً في أهلٍ أو مالٍ أو ولدٍ فيقولُ: ما شاءَ اللهُ، لا قوَّة إلَّا باللهِ، إلَّا دفعَ اللهُ تعالى عنه كُلَّ آفةٍ حتى تأتيه منيتُه**» وقرأ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾. [رواه أبو يعلى، والبيهقي (٥٨٨٨)].

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ **إن**: أداة شرط، وجاء جواب الشرط في قوله:

﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي: إن ترني أفقرَ منك فأنا أتوقَّعُ أن يرزقني ربي جنةً خيراً من جنتك، ويسلبك بكفرك نعمتَه.

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ويرسل عليها بلاءً من السماء.

﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ فتصبح أرضاً ملساء، تزلق عليها الأقدامُ بسبب هلاك نباتها وأشجارها.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ غائراً في الأرض.

﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ فلا تستطيع الوصول إليه.

- **حسرة وندم:**

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ وأهلك الله أمواله، وتدلُّ الآية على وقوع الإهلاك عاجلاً

بآفة سماوية.

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ وتغيَّرَ حالُ صاحب الجنتين، فمن الغنى والازدهار إلى الهلاك والدمار، ومن حال البطر والاستكبار إلى حال الندم والاستغفار.

﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ وجنته ساقطةٌ على عروشها.

والعروش: جمع عَرْش، وهو ما يُصنعُ من الأخشاب لتوضعَ عليها الكروم.

﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ علم أنَّه أُتي من قِبَلِ شِرْكه، فتمنَّى لو لم يكن مشركاً حتى لا يصيبَه ما أصابه.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ إنكارَ يوم القيامة شركٌ بالله سبحانه وكفرٌ، لأنَّ منكِرَ يوم القيامة ينسبُ صفةَ العجزِ إلى الله ﷻ ويسويه بخلقه، وهذا من الشرك.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ﴾ وفئةُ الرجلِ: طائفتُه التي يرجعُ إليها في أموره وشؤونه، والمعنى: ولا توجدُ فئةٌ تقدِرُ على نصره بدفع الهلاك قبل وقوعه أو بردِّ الهالك.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من غير الله سبحانه، فإنَّه وحدَه القادِرُ على نصره.

﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ وما كان ممتنعاً بقوته عن انتقام الله، لأن النصرةَ في ذلك المقام الذي وقع فيه الإهلاك لله وحده، فلا قوة إلَّا قوته، ولا نصر إلَّا نصره ﷻ.

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

فثوابُ الله لأوليائه خيرُ ثوابٍ، وعاقبتُه خيرُ عاقبةٍ، فلا نجاة للإنسان من فتنة المال إلَّا بالله سبحانه، باللجوء إليه، والتمسُّك بشرعه، فإن أعطاك شكرتَ وأطعتَ، وإن منعكَ صبرتَ راضياً بحكمه، واثقاً بفضله وإحسانه.

- **التحذير من الاغترار بالحياة الدنيا:**

الاغترار بالدنيا أكبرُ البواعث التي تبعث على الفتن، ولا سبيل إلى النجاة من الاغترار بالحياة الدنيا إلّا بمعرفة حقارتها، وبيان سرعة زوالها، وقد ضربَ الله هذا المثلَ بياناً لقصر الحياة الدنيا حتى لا يغترَّ بها الإنسان:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الخطاب في صدر الآية للنبيِّ ﷺ ليذكر للناس ما يشبه الحياة الدنيا في زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها، حتى لا يغتروا بها، ويقعوا في شراك فتنتها.

﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فهي كماء أنزله الله من جهة السماء.

﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ فاختلط بالماء نباتُ الأرض حتى نما وازدهى.

﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ فأصبحَ بعد ذلك نباتاً مهشَّماً مكسَّراً.

﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ تفرقه الرياح.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ لأنه سبحانه كامل القدرة.

والمتأمل في الآية يرى أنها عرضت مثل الحياة الدنيا عرضاً سريعاً وقصيراً يتناسب مع المراد منها، فقد سِيقتِ الآيةُ للتحذير من الاغترار بالحياة الدنيا وزينتها ببيان سرعة انقضائها وحقارة شأنها، فشأنها كشأن الماء الذي نزل من السماء، واختلط بنبات الأرض، الذي لا يلبثُ أن يصبحَ هشيماً تذروه الرياح، بهذه الجمل الثلاث القصيرة تبدأ الحياة وتنتهي، فما أقصرها وما أهونها!.

- **زينة الحياة الدنيا:**

وإذا كانت الحياة الدنيا سريعةَ الانقضاء، وشيكةَ الانتهاء، فما يكون فيها من أسباب زينتها سريعُ الانقضاء وشيكُ الانتهاء، والمال والبنون أكبرُ زينة في الحياة الدنيا:

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ وقدَّم الله سبحانه ذكر المال لأنَّ زينته في الدنيا عامةً لجميع الأفراد والأوقات، وأمَّا البنون فلا يتزيَّنُ بهم إلَّا من بلغ منزلة الأبوة، ولأن حاجةَ الإنسان إلى المالِ أشدُّ من حاجته إلى الأولاد.

إنَّ فتنة الإنسان بالأموال والأولاد كبيرةٌ وخطيرةٌ، ولهذا حذَّر القرآن الكريم من الفتنة بهما في عدة آيات كريمة، منها قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

فالأموال والأولاد اختبارٌ وامتحانٌ من الله سبحانه، فمن أطاع الله فيهما وشكره عليهما فاز ونجا، ومن شُغِلَ بهما عن طاعة ربه سبحانه خاب وخسر.

والتنافس بين الناس في المال والأولاد خطيرٌ وكبيرٌ، وهو من أكبر أسباب الاختلاف والاقتتال وسفك الدماء، كما قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

هكذا حياةُ أكثر الناس، يدور محور حياتهم الدنيا في فلك التفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد، أولئك صرعى أموالهم وأولادهم، المفتونون بهم عن طاعة ربهم، وبهذا تصبحُ أموالهم وأولادهم أعداءً لهم، لأنهم سبب فتنتهم عن طاعة ربهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن].

لقد أنزل الله سبحانه بعضَ الأموال والأولاد من الإنسان منزلةَ العدو له لشدَّةِ خطر الفتنة بهم على دينه، وحذَّر الإنسان منهم حتى لا ينشغلوا بهم عن طاعة ربهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

● **الباقيات الصالحات:**

ولا ينتفع الإنسان بأمواله وأولاده يوم القيامة، الانتفاعُ يوم القيامة بالباقيات الصالحات:

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ لفظ عام يشملُ كلَّ الأقوال والأعمال الصالحة التي تُرضي الله تعالى، فهي باقية لصاحبها غير زائلة، ولا نائية.

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: هي خيرٌ يومَ القيامة لظهور أثر خيريتها في ذلك اليوم.

﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ لأنَّ صاحبها ينالُ في الآخرة ما كان يؤمِّله بها في الدنيا.

وفي الآية دليل على أنَّ المال والبنين زينةٌ وليسا قيمةً، فلا يجوز وزن الناس بهما، قيمة الناس بالباقيات الصالحات لا بالفانيات الزائلات.

وسبيل النجاة من فتنة الأموال والأولاد إنزالهما سلوكاً وعملاً في منزلهما الذي وضعهما الله فيه، فهما زينةٌ لا قيمة، والإسلامُ لم يحرِّم الزينةَ ما دامت في حدود ما أحل الله، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

● **مشاهد من يوم القيامة:**

ثم عرضت الآياتُ الكريمةُ مشاهدَ من يوم القيامة تأكيداً لقيمة الباقيات الصالحات وبياناً لأهميتها في هذا اليوم:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧)﴾.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: اذكر يومَ نُزيلُ الجبالَ عن أماكنها، وترى ـ يا محمد ـ الأرضَ بارزةً لذهاب جميع ما كان عليها من جبال وعمران، فإزالةُ الجبال يجعلُ سطحَ الأرض مستوياً لا انخفاض فيه ولا ارتفاع، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه].

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي: جمعناهم إلى أرض المحشر بعد أن بعثناهم من قبورهم.

﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ فلم نترك منهم أحداً.

ومن الحشر الشامل إلى العرض الكامل:

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ كما يعرض الجند على قائدهم، لا ليتعرَّفَ عليهم بل ليحكم فيهم.

﴿صَفًّا﴾ أي: مصطفِّين أو مصفوفين.

وتتحول الآياتُ من الوصف إلى الخطاب ليستشعرَ القارئُ أنه يعيش هذا المشهد الرهيب في هذه اللحظة.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ وهو خطابٌ لأولئك الذين كانوا ينكرون يوم القيامة، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة حفاةً عراةً غُرْلاً، وما معكم شيءٌ من زينة الدنيا، التي كنتم تفتخرون بها.

وفي الحديث الشريف: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: قام فينا رسولُ اللهِ ﷺ بموعظةٍ فقال: «**أيُّها الناسُ: إنَّكُم تُحشَرُونَ إلى اللهِ حفاةً عُراةً غُرْلاً؛ كما بدأنا أولَ خلقٍ نعيدُه**» [رواه البخاري (٦٥٢٤) ومسلم (٢٨٦٠)].

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ وهو إضراب وانتقال من كلام إلى كلام للتوبيخ والتقريع.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ والمراد من الكتاب كتب الأعمال، فالألف واللام فيه للاستغراق، جعل كل كتاب في يد صاحبه اليمين أو الشمال.

﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ خائفين مما في الكتاب من الجرائم والذنوب.

﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾ ينادون على أنفسهم بالهلاك خوفاً من العذاب، كأنهم يقولون: يا هلاكُ أقبل فهذا أوانك.

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ الاستفهام يدل على التعجُّب من دقة إحصاء الكتاب!.

﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ لا يترك معصية صغيرة ولا كبيرة إلَّا عدَّها، وذكر الصغيرة قبل الكبيرة اهتماماً بها وتنبيهاً على خطرها.

رُوي عن الفُضيل: أنَّه كان إذا قرأ هذه الآية قال: ضَجُّوا واللهِ من الصغائرِ قبلَ الكبائرِ. وقال قتادة: اشتكى القومُ ـ كما تسمعون ـ الإِحصاء، ولم يشتكِ أحدٌ ظلماً، فإيَّاكُم والمحقَّراتِ من الذنوب، فإنَّها تجتمعُ على صاحبها حتى تَهْلِكَه[1].

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ﴾ في الدنيا.

﴿حَاضِرًا﴾ مسطوراً في الكتاب.

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

- **فتنة الشيطان:**

فتنة الشيطانِ للإِنسان أعظمُ الفتن، وبلاء الإِنسان به أشد بلاء، لأنَّ الشيطانَ رأسُ الشر، ومنبعُ الكفر، وهو أكبرُ عدوٍّ للإِنسان، ويجري منه مجرى الدم من العروق، وما أكثرَ ما حذَّرنا الله سبحانه منه في آيات التنزيل الحكيم، فقد ذكر الله سبحانه قصَّةَ أبينا آدم مع الشيطان في عِدَّةِ سور من القرآن الكريم.

وفي سورة الكهف حذَّرنا الله منه بعد أَنْ بيَّنَ حال المفتونين بالدنيا والأموال والأولاد، لأنَّ الاغترار بالدنيا والأموال والأولاد أعظم الوسائل التي يتمكن الشيطان بها من فتنة الإِنسان، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾

---

(١) انظر: روح المعاني.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ يدلُّ على أنَّ الشيطان من الجن، وأنَّ ذلك سبب خروجه عن طاعة ربه سبحانه، وأنه ليس من الملائكة المعصومين من الكفر والمعاصي الذين قال الله فيهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقال فيهم أيضاً: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

وكان إبليس مُلْحقاً بالملائكة لكثرة عبادته، ولهذا شمله الأمر بالسجود لآدم.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾؟! والاستفهامُ في الآية للإنكارِ والتوبيخِ مع التعجُّبِ من حال أولئك الذين يوالون الشيطان ويتابعونه ويُفتنون به.

والظاهر أنَّ المراد من الذرِّية الأولاد، ففي الآية دليلٌ على أن للشيطان أولاداً، وهذا يؤكِّدُ أنه ليس من الملائكة، فالملائكة لا يتوالدون.

﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ وهذا تصريحٌ بعداوة الشيطان وذريته للإنسان.

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يطيعون الشيطان ويعصون الرحمن.

﴿بَدَلًا﴾ من الله سبحانه.

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾.

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ما أشهدتُ إبليس وذريته وأولياءه من المشركين خلق السماوات والأرض.

﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ ولا أشهدتُ بعضَهم خلق بعض.

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي: أعواناً ومساعدين.

ولا يخفى على المتأمل للآية ما فيها من ردٍّ على المشركين من قريش، الذين طلبوا من النبيِّ ﷺ أن يُبعدَ فقراء المسلمين عن مجلسه، كما مرَّ معنا في الآية (٢٨)؛ فكأنَّه تعالى يقول عنهم: إن هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسدِ ليسوا شركائي في تدبير العالم وخلقه، والدليل أني ما أشهدتُهم خلقَ السماوات والأرض، ولا خلقَ أنفسهم، ولا استعنتُ بهم، فهم كسائرِ الخلقِ، فلِمَ أقدموا

على هذا الاقتراح الفاسد؟! كمن يقترح عليكَ أموراً كبيرة، فإنك تقول له مستهزئاً به: لستَ بسلطانِ البلدِ حتى تَصْدُرَ منك مثل هذه الاقتراحات الكبيرة!.

• **سبيل النجاة:**

وإذا أردت النجاة من فتنة الشيطان وكيده فاذكر عدوانه لك واستعن عليه بالله سبحانه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

واذكر يومَ القيامة عندما يقول الله تعالى لأولياء الشيطان الذين أشركوا باللهِ، وعبدوا غيره، توبيخاً لهم وتقريعاً:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾.

والمَوْبِق: المهلك، من قولهم: وَبَق يَبِق، كوعد يَعِد: إذا هلك، وأوبقتْهُ الذنوبُ: أهلكته، ومنه السبع الموبِقَاتُ، أي: المهلكات، والمعنى: جعلنا بينَ الكفَّار وبينَ من كانوا يعبدونهم موبقاً، أي: مهلكاً، لأنَّ الهلاك يحيط بالجميع من كل جانب.

واحذر أن تكون بطاعتك للشيطان من المجرمين الذين يعلمون أنهم سيقعون في النار، ويُعَذَّبون بها، عندما يرونها يوم القيامة:

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾.

والظنُّ هنا بمعنى اليقين، لأنهم أبصروا الحقائق وشاهدوها، والعرب تطلِقُ الظنَّ على اليقين، فهو من ألفاظ الأضداد، استُعمل في القرآن الكريم بهذا المعنى في آيات كثيرة؛ منها: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ومنها أيضاً: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠].

• **أمثال القرآن الكريم:**

والزم القرآن الكريم حتى تصل إلى كهف السلامة من كيد الشيطان ومكره، فقد ذكر الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم كثيراً من الأمثال لهدايتك وإرشادك بعبارات مختلفة، وأساليب متنوعة، واذكر كيف بيَّن الله تبارك وتعالى في أول سورة الكهف أن إنزال القرآن الكريم هو نعمة الله الكبرى ومنته العظمى، وفي الآية التالية بيَّن الله تعالى فضله علينا بما ضرب في القرآن الكريم من الأمثال المتنوعة لتكون أسباب الهداية والرشاد؛ فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ﴾ ومعنى: ﴿صَرَّفْنَا﴾ ردَّدنا وكثَّرنا، فالأمثال في القرآن الكريم كثيرةٌ ومتنوعة ـ وقد مرَّ معنا بعضها في سورة الكهف ـ وفيها المواعظ والزواجر والحكم:

ـ **منها**: قوله تعالى في **سورة البقرة**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

ـ **ومنها**: قوله تعالى في **سورة الحج**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾.

ـ **ومنها**: قوله تعالى أيضاً في **سورة العنكبوت**: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

ـ **ومنها أيضاً**: قوله ﷻ في **سورة الرعد**: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا

فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

وهكذا ضرب اللهُ الأمثالَ، وميَّز بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ومع كل ذلك قابل الناسُ هذا البيان بالجدال والخصام:

﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ وهذا كقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤١].

- **أسباب الضلال:**

وقد **يسأل** الإنسان نفسَه عن سبب إعراضهم عن الحق مع وضوحه وظهوره بكثرة الأدلَّة الدالة عليه. **والجواب** في الآيات التالية والمبدوءة بقوله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾.

فالمانعُ الذي منعَ الناس من الإيمان والاستغفار بعد أن جاءتهم الرسل بالبينات الواضحات ما سبق في علم الله تعالى من أنَّهم لا يؤمنون، بل يستمرون على كفرهم وعنادهم حتى تأتيهم سنة الله في إهلاك الكافرين واستئصالهم، أو يأتيهم العذاب أنواعاً مختلفة يتلو بعضها بعضاً، أو عياناً يرونه بأعينهم.

وما أرسل الله الرسلَ إلَّا ليقيمَ الحجةَ على الناس، يبشرون من أطاع الله بالجنة، وينذرون من عصاه بالنار:

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ وهذا تخصيصٌ للتعميم السابق في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

فالمجادلون بالباطل هم الذين كفروا ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ ليبطلوا الحق بجدالهم وخصامهم، ومع الجدال والخصام:

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ أي: سخرية واستخفافاً.

ولا يوجدُ أحدٌ أظلم لنفسه وأعظم فتنةً من أولئك الذين وُعظوا بآيات القرآن الكريم فأعرضوا عنها:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٗاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ﴾ من المعاصي والكفر.

وسبب الإعراض عن آيات الله بيَّنه الله سبحانه في قوله بعد ذلك:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ إنَّه سبحانه جعل على قلوب الظالمين المعرضين عن آياته أغطية تغطِّي قلوبهم، حتى لا يفهموا كلام الله.

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٗاۖ﴾ وجعل في آذانهم ثِقَلاً يمنعُها من سماع ما ينفعهم من الآيات، وما فيها من الأمثال، جزاءً وفاقاً لموقفهم موقف المستهزئ والمعرض عن دعوة الرسل عليهم السلام: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وتلك هي النتيجة:

﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ فكأن هذه الآية تبيِّنُ سببَ قول الله تعالى للنبيِّ ﷺ في مطلع السورة: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾، فتأمل كيف تدورُ آياتُ السورةِ في فلك موضوعها الأساس الأول الذي ذكره الله سبحانه في آياتها الأولى.

ومن رحمته سبحانه بعباده أنَّه لا يعجِّل العقوبة للكافرين والمعرضين عن طاعته وعبادته، فهو سبحانه حليم يُمهل ولا يُهمل، فلا يظن أولئك المجادلون بالباطل والمفتونون بسبب اتباعهم الشيطان أنَّ الله سبحانه يتركهم دون عقاب وعذاب:

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾.

أي: ملجأ يلجؤون إليه يحميهم من عذاب الله.

وقد دلَّت آياتٌ كثيرةٌ على أنَّ الله سبحانه لا يؤخِّرُ شيئاً عن وقته الذي عيَّنه له ولا يقدِّمه عليه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

وقال هنا في سورة الكهف:

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.



الفصل الخامس

قصة موسى والخضر عليه السلام

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى

ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

• **موقع القصة في سورة الكهف:**

ذُكِرت قصةُ موسى عليه السلام والرجل الصالح (الخضر) في القرآن الكريم مرة واحدة في سورة الكهف، ولموقعها في السورة فوائد وحكم، كشفَ العلامة الفخر الرازي في «**التفسير الكبير**» عن اثنتينِ منها؛ فقال:

«أما نفعُ هذه القصة في الردِّ على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار، فهو أنَّ موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله وعُلوِّ منصبه واستجماع موجبات الشرف التام في حقِّه ذهب إلى الخضر لطلب العلم، وتواضعَ له، وذلك يدلُّ على **أن التواضع خيرٌ من التكبُّر**.

وأما نفع هذه القصة في قصة أصحاب الكهف، فهو أنَّ اليهود قالوا لكفار مكة: إنْ أخبرَكم محمَّدٌ عن هذه القصة فهو نبي، وإلَّا فلا. وهذا ليس بشيء، لأنه لا يلزم من كونه نبيّاً من عند الله تعالى أن يكون عالماً بجميع القصص والوقائع، كما أنَّ كون موسى عليه السلام نبيّاً صادقاً لم يمنع من أمر الله إياه بأن يذهب إلى الخضر ليتعلَّم منه، فظهر بما ذكرنا أن هذه القصة قصة مستقلة بنفسها، ومع ذلك فهي نافعة في تقرير المقصود من القصتين المتقدمتين»[(١)].

ولعلَّ ما ذكره الفخر الرازي يبيِّن لنا الحكمة من تهوين الله سبحانه لشأن قصة أصحاب الكهف بالنسبة لعجائب قدرته، كما سبق ومرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩].

• **فتنة العلم:**

وإضافة إلى ما ذكره الفخر الرازي أقول: إنَّ للقصة علاقةً بموضوع سورة

---

(١) انظر: التفسير الكبير.

الكهف الأساس، وهو الاختبار والابتلاء وسبيل العصمة من الفتن وطرق النجاة منها، وفتنة العلم من الفتن الكبرى التي يتعرَّض لها أهل العلم من علماء ومتعلِّمين، وقد بيَّن الله سبحانه في قصة موسى والخضر السبل المنجية من فتنة العلم ببيان الصفات الطيبة التي ينبغي أن يتَّصفَ بها العالم والمتعلم.

وتظهر فتنة العلم من جوانب متعددة:

ـ **فالعلم سبب من أسباب تحصيل القوة**: وقد وضعت العلوم التجريبية في يد الإِنسان المعاصر كثيراً من مصادر القوة والطاقة التي خلقها الله سبحانه، والأمم المتعلِّمة أقوى بكثير من الأمم الجاهلة والمتخلفة عن ركب العلم، والقوة تمكن الإِنسان من الغلبة والسيطرة على غيره، وحب السيطرة من النوازع القوية الكامنة في نفس الإنسان، وهي سبب فتنة كثير من الناس، وقديماً ادَّعى فرعون لنفسه صفة الربوبية والألوهية بسبب قوته وكثرة جنوده؛ قال تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات].

وحديثاً انتشر الكفر بالله سبحانه والإلحاد وإنكار وجود الخالق العظيم بين كثير من الناس، وخاصة في إبَّان الطفرة العلمية التي حدثت في العالم الغربي في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ومطلع القرن التاسع عشر، وظنَّ بعضُ الناس أنهم بما توصَّلوا إليه من الكشوفات العلمية أصبحوا أقوياء، وأنهم ملكوا زمام الأمر في الأرض، ويستطيعون الاستغناء عن الاعتقاد بوجود الخالق العظيم ﷻ.

ـ **والعلم معرفة وإدراك يجعل الإِنسان العالم يشعر بامتيازه على غيره من الناس**: فهو يعرفُ ما لا يعرفون، ويدرك ما لا يدركون، والشعور بالتميز والتفوق سببٌ لفتنة كبرى، تؤدي إلى وقوع الفرقة والاختلاف، ونشوب الاقتتال بين الناس، وإنَّ فكرة التفوق والامتياز أصلُ الفكرة النازية الألمانية التي أغرقتِ العالمَ في بحار من الدماء والنكبات والكوارث في الحرب العالمية الثانية[(١)].

---

(١) ومثلها في الجرائم والنكبات الصهيونية التي تقوم على فكرة التفوق اليهودي (شعب الله المختار) (ن).

ـ **والعلمُ أيضاً سلاحٌ خطير ذو حَدَّيْن**: يمكن أن يسخَّر للاحتيال والغش والخداع والتزوير وسلب حقوق الضعفاء والسُّذَّج والبسطاء، كما هو الحال في العصر الحاضر، إذ تمكنت بعضُ المجتمعات البشرية في أوربة وأمريكة بسبب تفوقها في بعض العلوم التجريبية أن تحقق مستويات عالية من الرفاهية والترف والسرف، لأنهم سخَّروا العلم لمآربهم الذاتية، ومصالح أممهم فقط، وسرقة خيرات الأمم والشعوب التي يسمونها الشعوب النامية أو المتخلفة أو شعوب العالم الثالث، كما سخَّروا أيضاً العلم للتدمير والتخريب بما صنعوا من آلات الحرب والدمار مما هو معروف ومشهور.

كل هذا يبيِّنُ لنا خطورة فتنة العلم، العلم البعيد عن الإيمان بالله، وفي قصة موسى والخضر بيان لأسباب النجاة من فتنته، تنكشف بإذن الله تعالى لمن تدبَّر آيات هذه القصة وأمعن النظر فيها.

- **القصة في كتب السُّنَّة النبوية الشريفة:**

ذُكِرت قصةُ موسى والخضر في أوثق كتب السُّنَّة الشريفة؛ ففي «**الصحيحين**»: أنَّ سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إنَّ نَوْفاً البَكَّالي[1] يزعمُ أنَّ موسى عليه السلام صاحبَ بني إسرائيل ليس هو موسى صاحبَ الخضِر، فقال: كذبَ عدوُّ اللهِ[2]؛ سمعت أُبيَّ بن كعب يقول: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول:

«**قام موسى عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل، فسُئلَ: أيُّ الناسِ أعلم؟ فقال: أنا أعلمُ. فَعتِبَ اللهُ عليهِ، إذْ لم يردَّ العلمَ إليه، فأوحى اللهُ إليهِ: إنَّ عبداً من عبادي بِمَجْمَعِ البحرينِ هُوَ أعلمُ مِنْكَ.**

قال موسى: أيْ ربِّ كيفَ لي به؟.

---

(١) تابعي من أهل دمشق، فاضل عالم لاسيما بالإسرائيليات، وكان ابنَ امرأةِ كعب الأحبار، وقيل غير ذلك.

(٢) **قلت**: الكذب بلغة أهل الحجاز هو ما خالف الحقيقة، سواء كان عن قصد أو عن غير قصد، فيدخل فيه الخطأ، وهو المقصود بكلمة ابن عباس رضي الله عنهما هنا (ن).

فقيلَ له: احمل حوتاً في مِكْتَلٍ، فحيثُ تفقدُ الحوتَ فهو ثَمَّ.

فانطلقَ، وانطلقَ معه فتاهُ، وهو يوشع بن نون، فحمل موسى عليه السلام حوتاً في مِكْتَلٍ، وانطلقَ هو وفتاه يمشيانِ حتَّى أتيا الصخرةَ فرقدَ موسى عليه السلام وفتاه، فاضطربَ الحوتُ في المكتلِ، حتَّى خرجَ من المكتلِ، فسقطَ في البحرِ، وأمسكَ اللهُ عنه جِريَةَ الماءِ حتَّى كانَ مثلَ الطاقِ (فتحة في الماء)، فكانَ للحوتِ سَرَباً، وكان لموسى وفتاه عَجَباً، فانطلقا بقيةَ يومِهما وليلتِهما، ونسيَ صاحِبُ موسى أَنْ يخبرَهُ، فلمَّا أصبحَ موسى عليه السلام قال لفتاهُ: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرِنا هذا نصباً.

قال: ولم ينصب حتى جاوزَ المكانَ الذي أُمِرَ به.

قال: أرأيتَ إذ أوينا إلى الصخرةِ فإنِّي نسيتُ الحوتَ، وما أنسانيه إِلَّا الشيطانُ أن أذكرَهُ، واتخذ سبيلَه في البحرِ عجباً.

قال موسى: ذلِكَ ما كُنَّا نبغي.

فارتدا على آثارهما قصصاً، يقصَّانِ آثارهما، حتى أتيا الصخرة، فرأى رجلاً مسجًّى (مغطى) عليه بثوبٍ، فسلم عليه موسى، فقال له الخَضِرُ: أنَّى بأرضكَ السلامُ؟.

قال: أنا موسى.

قال: موسى بني إسرائيل؟.

قال: نعم.

قال: إنَّكَ على عِلْمٍ من عِلْمِ اللهِ علَّمكه الله لا أعلمُه، وأنا على علمٍ من علمِ اللهِ علَّمنيه لا تعلمُه.

قال له موسى عليه السلام: هل أتبعكُ على أَنْ تعلِّمني ممَّا عُلِّمتَ رُشْداً؟.

قال: إنَّكَ لَنْ تستطيعَ معي صبراً، وكيفَ تصبرُ على ما لَمْ تُحِطْ به خُبْراً؟.

قال: ستجدنُي إنْ شاءَ اللهُ صابراً ولا أعصي لكَ أمراً.

قال له الخَضِرُ: فإنِ اتبعتني فلا تسألني عَنْ شيءٍ حتَّى أحدثَ لكَ منه ذكراً.

قال: نعم.

فانطلقَ الخَضِرُ وموسى يمشيانِ على ساحلِ البَحْرِ، فمرَّتْ بهما سفينةٌ، فكلَّماهم أن يحملوهُما، فعرفوا الخَضِرَ، فحملوهُما بغيرِ نَوْلٍ (أجرٍ)، فعمدَ الخَضِرُ إلى لوحٍ من ألواحِ السفينةِ فنزَعَهُ، فقال له موسى: قومٌ حملونا بغيرِ نَوْلٍ؛ عمدت إلى سفينتِهم فخرقتَها لتُغْرِقَ أهلَها، لقد جئتَ شيئاً إمراً.

قال: ألَمْ أقلْ: إنَّكَ لنْ تستطيعَ معيَ صَبْراً؟.

قال: لا تؤاخذني بما نسيتُ ولا ترهقني من أمري عُسْراً.

ثم خرجا من السفينةِ، فبينما هما يمشيانِ على الساحلِ إذا غلامٌ يلعَبُ مع الغلمانِ، فأخذَ الخَضِرُ برأسِهِ فاقتلَعَهُ بيدِه فقتلَهُ.

فقال موسى: أقتلتَ نفساً زاكيةً بغيرِ نفسٍ؟! لقد جئتَ شيئاً نكراً.

قال: ألم أقلْ لكَ إنَّكَ لن تستطيعَ معي صَبْراً؟.

قال: وهذِهِ أشدُّ مِنَ الأُولى.

قال: إن سألتُكَ عن شيءٍ بعدَها فلا تصاحِبْني، قد بَلَغْتَ مِنْ لدنِّي عُذْراً.

فانطلقا، حتى إذا أتيا أهلَ قريةٍ استطعما أهلَها، فأبَوا أن يُضَيِّفُوهما، فوجدا فيها جداراً يريدُ أن ينقضَّ فأقامه، يقولُ: مائِلٌ، قال الخَضِرُ بيدِهِ هكذا فأقامه (أي: أشار بيده فأقامه).

قال له موسى: قومٌ أتيناهم فلم يضيفونا، ولم يطعِمُونا، لو شئتَ لاتَّخذتَ عليه أجراً.

قال: هذا فراقُ بيني وبينكَ، سأنبِّئكَ بتأويلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عليه صبراً».

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «يرحمُ اللهُ موسى، لوددْتُ أنَّه كان صَبَرَ حتى يقصَّ علينا مِنْ أخبارِهِما».

وقال رسولُ اللهِ ﷺ: «كانتِ الأُولى من موسى نسياناً، قال: وجاء عُصفورٌ حتَّى وقعَ عَلى حَرْفِ السفينةِ، ثم نقرَ في البَحْرِ، فقال له الخَضِرُ: ما نقصَ

علمي وعلمُك من علمِ اللهِ إلَّا مثل ما نقصَ هذا العصفورُ مِنَ البحرِ» [رواه البخاري (٤٧٢٥) ومسلم (٢٣٨٠) واللفظ له].

• رحلة العجائب، مجمع البحرين:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ واذكر إذ قال موسى بن عمران عليه السلام كما مرَّ معنا في الحديث الشريف.

﴿لِفَتَىٰهُ﴾ لتابعه الذي كان يتبعه، وهو يوشع بن نون، كما مرَّ معنا أيضاً في الحديث الشريف.

وقولُه تعالى: ﴿لِفَتَىٰهُ﴾ يدل على تكريم الإسلام للإنسان، ولو كان خادماً أو عبداً، فينبغي أن يُنادَى بألفاظ فيها معنى التكريم والاحترام، قال رسول الله ﷺ: «**لا يقولَنَّ أحدُكُم: عبدي وأَمتي، كُلُّكُم عبيدُ اللهِ، وكُلُّ نسائِكُم إِمَاءُ اللهِ، ولكنْ لِيَقُلْ: غلامي وجاريتي، وفتاي وفتاتي**» [رواه مسلم (٢٢٤٩)].

﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ لا أزال أسير.

﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ حتى أصل إلى مكان مجمع البحرين.

﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ أو أسير زماناً طويلاً.

ويبدو أنهما لم يسيرا زماناً طويلاً، سارا بعض يوم فوصلا إلى مجمع البحرين، إلَّا أنهما لم يعرفا أنَّ المكان الذي وصلا إليه، وجلسا فيه يستريحان، هو مجمع البحرين.

ولا بدَّ أن يكونَ هذا المكانُ قريباً من المنطقة التي كان يقيمُ فيها موسى عليه السلام، والمنطقةُ هذه إمَّا أن تكونَ في مصر أو في صحراء سيناء، وأقربُ مكانٍ يقعُ بين مصر وسيناء يلتقي فيه بحران، مكان في طرف البحر الأحمر من جهة الشمال، حيث يلتقي بحرُ العقبةِ وبحرُ السويس، الشعبان المتفرعان عن البحر الأحمر، والله سبحانه أعلم.

• **الحوت العجيب:**

جعل الله تعالى لموسى علامةً يعرِفُ بها المكانَ المطلوب، هي فَقْده للحوت، وهو السمكة المشوية التي كانا يحملانها لتكونَ طعاماً لهما، ولما وصلا إلى مجمع البحرين، وجلسا إلى صخرة هناك ليستريحا، غلبَ عليهما النومُ والتعبُ فناما:

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ نسي موسى عليه السلام تفقُّد الحوت، ونسي فتاه أن يخبره بفقده، إذ ردَّ الله تعالى بقدرته الحياةَ إلى الحوتِ الميتِ، فاضطربَ في المكتل، ثم قفز إلى البحر:

﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

وانتبه الفتى إلى فَقْدِ الحوت، ورآه وهو يقفزُ إلى البحر، ويشقُّ طريقه داخلَ الماءِ، ورأى أيضاً كيف أمسك الله تعالى جريةَ الماءِ عن طريق الحوت حتى أصبحَ مثل النفق داخلَ الماءِ، ومع كل هذه الخوارق للعادات أُنسي أن يذكرَ شيئاً من ذلك لموسى عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ واستأنفا سيرهما بقية اليوم والليلة ـ كما مرَّ في الحديث الشريف ـ حتى شعرا بالتعب والجوع.

﴿قَالَ﴾ موسى.

﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ أي: تعباً ومشقة.

عندئذٍ تذكَّرَ الفتى أمرَ الحوتِ العجيب:

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ أي: نسيت أَن أذكرَ لك شأن الحوتِ العجيبِ.

فمع أَنَّه أمرٌ لا يُنسى، فقد قدر الله تعالى له أن ينسى تنبيهاً على أنَّ العلم لا يحصلُ إلَّا بتعليمِ الله تعالى وحفظه في قلب الإِنسان وذاكرته، فالتذكُّر والنسيان لا يخضعان لإِرادة الإِنسان، فما أكثر ما ينسى الإِنسانُ أموراً هامة في حياته، يتمنى أن يذكرها ولا ينساها، وعلى العكس ما أكثرَ ما يتذكَّرُ أموراً لا يريدُ تذكرها، بل يتمنى أن يطردها من ذاكرته وينساها، إن في الإِنسان أسراراً لا تزال غيباً عنه.

وردَّ الفتى سبب النسيان إلى الشيطان أدباً مع الله سبحانه:

﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ واتخذ الحوت طريقه في البحر اتخاذاً عجباً، إذ أصبح طريقه في الماء مثل الطاقة والنفق.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ الذي كنَّا نطلب.

﴿فَٱرْتَدَّا﴾ رجعا.

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ يتتبعان آثار أقدامهما حتى وصلا إلى الصخرة.

- **العبد الصالح:**

وتمَّ اللقاء بين موسى ﷺ والعبد الصالح (الخضر)، ومرَّ معنا في الحديث الشريف كيف تمَّ اللقاءُ، وحال الرجل الصالح عند وصول موسى إليه.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾.

وقد وصفتِ الآيةُ الكريمة هذا الرجل بثلاث صفات:

أولها: أنَّه عبدٌ من عباد الله الصالحين: وصفه الله تعالى بصفة العبودية، وأضافه إلى ذاته المقدَّسة بهذه الصفة أيضاً:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ وهذا تكريم كبير لهذا الرجل، وتشريف عظيم، فقد عوَّدنا الله تعالى في كتابه الكريم أنه إذا أراد تكريمَ عبدٍ نسبه إلى ذاته المقدسة بصفة العبودية، انظر كيف كرَّم رسوله ﷺ بقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

وتأمل كيف كرم الصالحين بقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

هذا الرجل الصالح عبدٌ من عباد الرحمن، واسمه الخَضِرُ ـ كما مرَّ معنا في الحديث الشريف ـ وقد سُمي بهذا الاسم لأنه جلسَ على أرضٍ مجدبةٍ لا نباتَ فيها، فأنبتتْ واخضرَّتْ بقدرةِ الله سبحانه، تكريماً لهذا الرجل الصالح.

ففي «**صحيح البخاري**» [٣٤٠٢] و«**سنن الترمذي**» [٣١٥١]: من حديث **أبي هريرة** ؓ قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «**إنَّما سُمِّي بذلكَ، لأنَّه جلسَ على فروةٍ بيضاءَ فاخضرَّتْ تَحْتَهُ**».

تحيا بِكُمْ كُلُّ أرضٍ تَنْزِلُونَ بِهَا كأَنَّكُمْ في بلادِ اللهِ أَمْطَارُ

ثانيها: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هذه هي الصفة الثانية التي وصف الله سبحانه بها هذا الرجل الصالح.

وذهب جمهور العلماء إلى أن المراد من الرحمة؛ الوحيُ والنبوة، فالرجلُ في رأي جمهور العلماء: نبيٌّ، وقد تكرر في القرآن الكريم إطلاق الرحمة على

النبوة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟! [الزخرف].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الدخان].

وقوله ﷺ أيضاً: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

ثالثها: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذه الصفة الثالثة لهذا الرجل الصالح، وهذه الصفة تؤكِّد نبوته؛ لأنَّ الله تعالى علَّمه مباشرة من دون تعليم معلِّم، ولا إرشاد مرشد.

فمعنى قوله تعالى: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾ أي: من عندنا، ويدل تقديم ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ على ﴿عِلْمًا﴾ على اختصاص الله سبحانه بهذا العلم، كأنَّه سبحانه قال: علَّمناه علماً يختص بنا، وهو علم الغيوب والأسرار الخفية لا يعلمها إلَّا الله تعالى، وفي استعمال كلمة ﴿عَلَّمْنَٰهُ﴾ بدل ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ إشارة إلى تعظيم شأن هذا العلم[(١)].

- **موسى أفضل من الخضر:**

وسواءٌ كان هذا الرجلُ الصالحُ نبيّاً أم وليّاً، فموسى عليه السلام أفضلُ منه، لأنَّه نبيٌّ ورسولٌ، أنزل الله تعالى عليه التوراة، وأسمعه جلَّ وعلا كلامه: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف].

وموسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل الذين ذكرهم الله بقوله الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وله عند الله سبحانه وجاهة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

---

(١) انظر: روح المعاني.

ولا يدل ذهاب موسى إلى الخضر ليتعلَّمَ منه على أنَّ الخضرَ أفضل من موسى، فقد كان موسى ﷺ يَعْلَمُ علوماً لا يعلمها الخضر ـ كما مرَّ معنا في الحديث الشريف عندما قال الخَضِرُ لموسى: «**إنَّكَ على علم من علم الله علَّمكه الله، لا أعلمُه، وأنا على علمٍ من علمِ اللهِ، علَّمنيه الله، لا تعلمُه**» والخصوصية لا تقتضي الأفضلية كما هو مقرر عند العلماء، وهذا يقطع الطريق على القائلين بأنَّ الخضرَ أفضل من موسى.

قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله: «وقع لبعض الجهلة أنَّ الخضرَ أفضلَ من موسى، تمسكاً بهذه القصة، وهذا يتصور ممَّن قصر نظرُه على هذه القصة، ولم ينظر فيما خَصَّ الله به موسى ﷺ من الرسالةِ وسماعِ كلام الله، وإعطائه التوراة، وأنَّ أنبياء بني إسرائيل كلهم داخلون تحت شريعته، ومخاطبون بحكم نبوَّته، حتى عيسى... والخضرُ وإن كان نبيّاً، فليسَ برسول باتفاق، وغايةُ الخضر أن يكون كواحد من أنبياء بني إسرائيل، وموسى أفضلهم، وإن قلنا: إنَّ الخَضرَ ليس بنبي بل ولي، فالنبيُّ أفضل من الولي، وهذا أمرٌ مقطوعٌ به عقلاً ونقلاً، **والصائرُ إلى خلافه كافرٌ**، لأنَّه أمرٌ معلوم من الشرع بالضرورة»[1].

ورحلة موسى ﷺ إلى الخضر في طلب العلم، دليلٌ على فضله وسَعة علمه، فكلَّما ازداد الإنسان علماً ازداد تعظيماً للعلم وحرصاً عليه، فالفضلُ في هذه الرحلة لموسى ﷺ على الخضر، ورحم الله القائل:

إنْ زَارَني فَبِفَضْلِهِ أو زُرْتُهُ فَلِفَضْلِهِ
فالفَضْلُ في الحالينِ لَهْ

● **أدب ولطف:**

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾﴾.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ قال موسى ﷺ للرجل الصالح:

---

(١) انظر: فتح الباري.

﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ وهذا أدبٌ ولطف من نبي الله موسى عليه السلام، سَنَّ به سنناً عالية ورفيعةً لطلاب العلم، منها:

١ ـ جعل نفسَه تبعاً للخضر، رغم تفضيله عليه، كما سبق ذكره، فقال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ فعلى طالبِ العلمِ أن يتواضعَ لمعلِّمه، وأن يتابعه، ليستفيدَ من علمه، وتقضي المتابعةُ من طالب العلم التسليمَ لمعلمه، وترك منازعته، والاعتراض عليه.

٢ ـ وقوله: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ أي: من بعض ما علَّمك الله سبحانه، مما يدل على شدة تواضع موسى عليه السلام، والتواضع من صفات الكمال، ألا ترى كيف أمر الله تعالى نبينا محمداً ﷺ أن يتواضع للمؤمنين، وهو لا شك أفضل منهم: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وهذا التواضعُ المأمور به رسول الله ﷺ لعامَّةِ المؤمنين لابدَّ أن يكونَ لأهل العلم أكثر وأعظم، لأن الله سبحانه رفعَ أهل العلم بما خَصَّهم من الفضل درجات: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

٣ ـ وقوله ﴿رُشْدًا﴾ أي: علماً ذا رشد، ولا خير في علم لا إرشادَ فيه ولا هداية، إنَّ العلمَ الذي لا رشدَ فيه فتنةٌ لصاحبه كما سبق بيانه في فقرة **(فتنة العلم)**[1]؛ فعلى المعلِّم واجبُ الإرشاد والهداية مع التعليم، وموسى عليه السلام ما طلبَ العلمَ للعلمِ، إنَّما طلبه ليزدادَ هدايةً ورشداً، وهذا يدل على كمال تواضعه وإخلاصه عليه السلام.

وعرف الرجلُ الصالحُ المكانةَ العاليةَ لموسى عليه السلام، فقال له:

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾.

فالإنسانُ العالم يشق عليه أن يسكت إذا سمع أو رأى شيئاً يخالف علمه.

ثم استدرك الرجل معتذراً من موسى ومعللاً:

---

(١) انظر: ص ٧٧ ـ ٧٩، في هذا المجلد من تفسيرنا الموضوعي.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾.

أي: كيف تصبرُ وأنتَ نبيٌّ ورسولٌ على أمور منكَرَةٍ في ظاهرها؟!.

لكنَّ حُبَّ العلم حمل موسى عليه السلام على أن يقولَ للخضر:

﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾.

فواجبُ المتعلِّم أن يطيعَ المعلم، ويتواضع له، وعلى المعلِّم أن يذكر للمتعلم كلَّ ما يفيدُ إرشاده للخير، ولهذا أوصى الخضرُ موسى:

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾.

أي: لا تسألني عن شيء تشاهده من أفعالي حتى أبتدئك ببيانه، وهكذا تمَّ الاتفاق، وبدأ الانطلاق.

• **الجولة الأولى:**

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾.

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ أي: موسى والخضر، وسارا على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة، فطلبوا من أصحابها أن يحملوهما، وعرف أصحاب السفينة الخضر، فحملوهما بغير أجر.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أخذ الخضر فأساً وخرق به السفينة، ثم جعل في مكان الخرق وتداً لمنع دخول الماء على السفينة.

﴿قَالَ﴾ موسى.

﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾؟! وهو استفهام للإنكار والاعتراض على فعل الخضر.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ أي: أتيتَ أمراً عظيماً. **أَمِر الأمرُ**: إذا عظم.

ذكَّر الخضرُ عندئذٍ موسى بما قاله من قبل:

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾.

ولا يخفى ما في هذا التذكير من إنكار على عدم صبر موسى.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ موسى معتذراً:

﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ أي: لا تحمِّلني صعوبةً ومشقةً في اتباعك وصحبتك.

وهكذا انتهت الجولة الأولى بعتابٍ من الخضر واعتذارٍ من موسى عليه السلام.

- **الجولة الثانية:**

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾.

﴿فَانطَلَقَا﴾ يسيرانِ على الساحل بعد أن تركا السفينة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾ لم يَصِلْ بعدُ إلى سنِّ البلوغ، يلعبُ مع أمثاله من الغلمان، فأخذه الخضر:

﴿فَقَتَلَهُ﴾، فقال موسى معترضاً على ما فعل:

﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ طاهرة من الذنوب.

﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير حق.

﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ منكراً جدّاً.

ولا شك أن اعتراض موسى هذا أشد من اعتراضه الأول؛ فقال الخضر:

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾.

وبالمقابل فقد كان عتابُ الخضر لموسى على اعتراضه هذه المرة أشدَّ من

سابقتها، فقد زاد هنا: ﴿لَّكَ﴾ ليدلَّ على زيادة العتاب والإنكار، فزيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ موسى.

﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ بعد هذه المرة الثانية.

﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: قد بلغتَ الغايةَ التي تعذر بسببها في فراقي، وكلامُ موسى عليه السلام يدلُّ على أنَّه استحيا من الخضر، فقال له هذا القول.

وقد صحَّ أن نبينا ﷺ قال: «**رحمةُ اللهِ علينا وعلى موسى، لو صبرَ على صاحبِهِ لرأى العَجَبَ، ولكنْ أخذَتْهُ مِنْ صاحبِهِ ذمامةٌ**» أي: حياءٌ.

وانتهت الجولة الثانيةُ ببدء ظهور علامات الفراق.

- **الجولة الثالثة:**

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ حتى وصلا إلى قرية. وهي قرية كبيرة، ذُكرت بعد ذلك بلفظ مدينة: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ٨٢].

وكانا في حاجة ماسة إلى الطعام، إذ بلغ منهما الجوع كل مبلغ:

﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ فطلبا الطعام من أهل هذه المدينة.

﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ وكان أهل هذه القرية على درجة كبيرة من البخل.

والعجيب أن موسى عليه السلام لما وصل إلى مَدْيَن بعد أن خرجَ من مصر فراراً، لم يطلب حينئذٍ الطعامَ من أهل مدين مع شدَّة جوعِهِ، بل توجه بالدعاء إلى الله تعالى قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وقابل الخضر إساءةَ أهل القرية لهما بالإحسان والإصلاح:

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ فمسح الخَضِرُ بيده على الجدار، فعاد مستوياً قائماً بقدرة الله تعالى كما سبق ومر معنا في الحديث الشريف: «**قال الخضر بيدِهِ هكذا فأقامه**» فمعنى قوله: «**قال الخَضِرُ بيده**» أشار الخضر بيده، وهو تعبيرٌ بالقول عن الفعل. عندئذ:

﴿قَالَ﴾ موسى.

﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

ونعجَبُ مرة ثانية من رغبةِ موسى أن يأخذَ الخَضِرُ أجراً على إقامة الجدار، إذا تذكرنا أنَّ موسى عليه السلام سقى لابنتي شعيب غنمهما، ولم يسألهما أجراً رغم حاجته الشديدة إليه في ذلك الوقت: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص].

ولعلَّ الحامل الذي حمله على رغبته أن يأخذ الخضر أجراً موقف اللؤم والبخل الذي رآه عند أهل هذه القرية.

قرر الخَضِرُ الفراقَ بعد هذا الاعتراض الثالث الذي صدر عن موسى بأسلوبِ اقتراحٍ قدَّمه، ورغبة أبداها: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

- **كشف الأسرار:**

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾.

ولم يقل: بما لم تصبر عليه، بل قال: بما لم تستطع عليه صبراً، أدباً مع موسى عليه السلام.

ثم شرع في كشف الأسرار فقال:

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ لأناسٍ فقراءَ محاويج يعملون في البحر، لتحصيل رزقهم.

﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾؛ لأن في طريقهم مَلِكاً ظالماً:

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة غير معيبة:

﴿غَصْبًا﴾.

أسس الخضر عليه السلام بعمله هذا قاعدة نفيسة من قواعد الفقه، وهي: **يُختارُ أخفُّ الضررينِ لدفعِ أكبرهما**، فيتحملُ الضررُ الأدنى لدفع الضرر الأعلى، فهو لم يخرق السفينةَ ليُغرِقَ أهلها، إنَّما خرقَها ليحدِثَ ضرراً صغيراً ليدفع به ضرراً كبيراً، وهو أخذُ الملك الظالم للسفينة غصباً.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ الذي قتله.

﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وللمؤمن كرامة عند الله تعالى.

﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ فخفنا أن يكونَ هذا الولدُ سبباً لطغيانِ والديه بمجاوزتهما لحدود شرع الله، وكفرهما بالله، بأن يحملهما حُبُّ ولدهما على متابعته ومطاوعته في معاصيه وكفره.

وسبق أن مرَّ معنا كيف أنَّ الأولادَ فتنةٌ كبيرةٌ للآباء، وأن كثيراً من الآباء والأمهات يُفتنون عن دينهم بسبب أولادهم.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أن يرزقهما الله بدله ولداً خيراً منه ديناً، وأطهرَ قلباً وخلقاً.

﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أكثر رحمة بوالديه وبرّاً بهما.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ الذي أقامه.

﴿فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ مات أبوهما، وترك لهما مالاً تحتَ هذا الجدار.

﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ وأراد الله سبحانه بسبب صلاح أبيهما أن يحفظ لهذين اليتيمين كنزهما حتى يبلغا مبلغ الرجال، ولو سقط الجدارُ لأخذ أهل المدينة مال اليتيمين الضعيفين، وقد اشتهر أهل المدينة بشدَّة البخل واللؤم والطمع.

وهذا يدلُّ على أنَّ صلاح الآباء ينفع الله تعالى به الأبناء في الدنيا، كما حدث لهذين اليتيمين، وفي الآخرة كما في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ قوتهما.

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ من تحت الجدار.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ﴾ وهذا من رحمة الله بهما وفضله عليهما.

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ﴾ وكل ما صدر مني ما فعلتُه عن رأيي واجتهادي، إنَّما فعلتُه بأمر الله تعالى.

﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ وحُذفت تاءُ (تستطع) للتخفيف، لأنَّها تكررت فناسب تخفيفها آخر مرة، أو لمناسبة ما خَفَّ عن موسى لما عرف حقيقة الحال[1].

(١) انظر: روح المعاني.

• **تعقيب:**

إنَّ قصة موسى والخضر عليهما السلام ترسمُ لأهل العلم طريق السلامة من فتنة العلم:

ـ فالعلمُ أولاً يجب أن **يقرِّبَ صاحبه من الله تعالى**، فلا خيرَ في علم لا يذكِّر بالله عز وجل، ولا يدل عليه سبحانه.

ـ **وعلى العالم مهما حصَّل من علوم ألَّا يغتر بعلمه**، فما يُجْهَلُ من العلوم أكثر مما يُعْلَمُ، وعليه ألا ينقطع عن طلب العلم والازدياد منه، فإذا انقطعَ عن طلب العلم، وظنَّ أن عنده من العلم ما يُغنيه عن طلب المزيد، فهو جاهلٌ، والعلماء الحقيقيون يحصِّنون علمَهم بطلب المزيد، وإلَّا نقص علمهم واضمحل، وانتهى بهم إلى الجهل.

ففي رحلة موسى عليه السلام إلى الخضر أسوةٌ طيبةٌ حَسَنَةٌ لكل عالم، وفي قوله تعالى لنبينا ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] درسٌ بليغ لكل عالم ومتعلِّم.

ـ وعلى العالم أن يسخِّر علمه لينفعَ بهِ الناس، ويساعدَ به الضعفاء، ويحميهم من ظلم الطغاة والمستبدين، ويعملَ على حفظ حقوق اليتامى حتى يبلغوا، ويشتد ساعدهم، كما فعل الخضر عليه السلام، فقد سخَّر ما آتاه الله من علم لمساعدة المساكين، وحماية سفينتهم من الملك الظالم، وحماية الوالدَيْنِ المؤمنينِ من شرِّ ولدهما وعقوقه، وحِفْظِ أموالِ اليتيمينِ وحمايتها، فأينَ ما فعله الخضر عليه السلام مما تفعله الدول المتقدمة مع الشعوب الضعيفة الفقيرة في عصرنا الحاضر؟! إنَّهم يسخِّرون علمهم للتزوير والغش والاحتيال وامتصاص خيرات الأمم والشعوب الضعيفة.

• **العمل بالإلهام غير جائز:**

يدلُّ قول الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ﴾ [الكهف: ٨٢] على نبوة الخضر عليه السلام، فما فعله عندما خرق السفينة، وقتل الغلام، وأقام الجدار، كان بوحي من الله تعالى له وتشريع؛ وهو تشريعٌ خاصٌّ بالخَضِرِ، لا يجوزُ العمل به في

الشريعة الإِسلامية إلَّا بدليل ظاهر منها، كما أنَّه غيرُ جائزٍ في شريعة موسى عليه السلام بدليلِ معارضةِ موسى له.

وما أخرجه **الإمام أحمد** في «مسنده» عن عطاء أنه قال: كتبَ نَجدَةُ الحروريُّ إلى **ابن عباسٍ** رضي الله عنهما يسأله عن قتل الصبيان؟ فكتب إليه ابنُ عبَّاس: إنْ كنتَ الخَضِرَ تعرفُ الكافِرَ من المؤمن فاقتلهم.

وقد قصد **ابنُ عباس** رضي الله عنه بهذا ـ كما قال السبكي رحمه الله ـ المحاجَّةَ، والإحالةَ على ما لا يمكِنُ، ليقطعَ طمعَ نجدةَ الحروري الخارجي عن الاحتجاج بقصَّة الخضر، وليس مقصوده رضي الله عنه أنَّه إن حصل ذلك يجوز القتل[1].

ونقل في «حاشية الشهاب» عن السبكي أيضاً قوله: ما فعله الخَضِرُ من قتل الغلام لكونه طبعَ كافراً مخصوصٌ به، لأنه أوحي إليه أن يعمل بحكم الباطن خلاف الظاهر، وإن علِم من شرعنا أنه لا يجوزُ قتل صغير، لاسيما بين أبوين مؤمنين، ولو فرضنا أنَّ الله أطلعَ بعضَ أوليائه كما أطلع الخضر عليه السلام لم يجز ذلك[2].

هذا هو الحقُّ الذي لا يُعْدَلُ عنه إلى غيره، فالخضر عليه السلام نبيٌّ، وما فعله شرعٌ خاصٌّ به، لا يجوز لغيره أن يقلِّده فيه.

وفي هذا رد على بعض الجهلة من المتصوفة الذين يقولون بجواز العمل بالكشف والإلهام، فلا يجوز العمل بكشفٍ ولا إلهامٍ إلَّا إذا وافق الكتابَ والسُّنَّةَ، وحينئذٍ يكونُ العمل بمقتضى الكتاب والسُّنَّة، لا بمقتضى الإلهام والكشف.

وقد نبهتُ إلى هذا في كتاب «العلَّامة المجاهد الشيخ محمد الحامد» وذكرتُ فيه قول أبي الحسن الشاذلي رحمه الله: **إذا تعارضَ كشفُكَ مع الكتابِ والسُّنَّةِ فتمسَّك بالكتابِ والسُّنَّةِ، فاللهُ سبحانه ضَمِنَ العصمةَ للنبيِّ، ولم يضمنها للولي.**

ولقد أفاد العلامة الآلوسي وأجاد في تفسيره «روح المعاني»، في الرد على القائلين بجوار العمل بالإلهام والاحتجاج به، ووصفهم بالشذوذ والإعثار، ثُمَّ

---

(١) انظر: روح المعاني.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين، المسمى بالفتوحات الإلٰهية.

أطنبَ في ذكر مَنْ منع العمل بالإلهام من الصوفية، فقال: «وممَّن صرَّحَ بأنَّ الإلهامَ ليس بحجَّةٍ من الصوفية الإمام الشعراني، قال: **قد زلَّ في هذا الباب خلقٌ كثيرٌ، فضلُّوا وأضلُّوا، ولنا في ذلك مؤلَّفٌ سميته «حَدُّ الحسام في عُنُقِ من أطلقَ إيجابَ العملِ بالإلهامِ»**».

وقد صرَّحَ الإمام الربانيُّ مجدِّد الألف الثاني الشيخ أحمد السرهندي في كتاب «المكتوبات» في مواضع عديدةٍ بأنَّ **الإلهامَ لا يُحِلَّ حراماً، ولا يحرِّمُ حلالاً**. ويعلم من ذلك أنه لا مخالفة بين الشريعة والحقيقة والظاهر والباطن.

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله: جميعُ الأولياءِ لا يستمدُّون إلَّا من كلامِ الله تعالى ورسولهِ ﷺ، ولا يعملون إلَّا بظاهرهما.

وقال الجُنيد رحمه الله: الطرقُ كلُّها مسدودةٌ إلَّا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ.

وقال أيضاً: مَنْ لم يحفظِ القرآنَ ولم يكتبِ الحديثَ لا يُقتدى به في هذا العلم، لأنَّ علمنا مقيَّدٌ بالكتاب والسُّنَّة[١].

وطرق الإنذار محصورةٌ بالوحي، وقد ختم الوحي برسول الله ﷺ، وحديث من يقول: (**حدَّثني** قلبي عن ربي) مردودٌ عليه، إذا تعارضَ مع الكتاب والسُّنَّة، وإذا لم يعارضِ الكتاب والسُّنَّة؛ فا**لعملُ** بالكتاب والسُّنَّة لا بما حدثه قلبه عن ربه سبحانه وتعالى.

قال العلامة الشنقيطي رحمه الله: «الذين يقولون بأنَّ الخواصَّ من الأولياء والصالحين لا حاجةَ بهم إلى أخذِ الأحكام من النصوص الشرعية من الكتاب والسُّنَّة، لصفاءِ قلوبهم، ونقاءِ نفوسهم، فتنجلي لهم الحقائقُ الإلـٰهيةُ فيعملون بمقتضاها، **هذا زندقةٌ وكفرٌ، لأنَّه هدمٌ لأحكام الدين**»[٢].

قال القرطبي رحمه الله: «الله سبحانه قد أجرى سنَّته، وأنفذ كلمته، بأنَّ أحكامه لا تُعْلَمُ إلَّا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه، وقد حصلَ العلمُ اليقينُ

---

(١) انظر: روح المعاني؛ وكتاب: العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد، وهو من إصدارات دار القلم بدمشق.

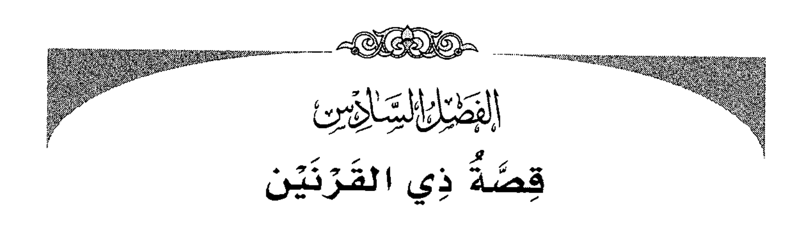
(٢) انظر: أضواء البيان.

وإجماعُ السلف على ذلك، **فمن ادعى أنَّ هناكَ طريقاً آخرَ يعرف بها أمره ونهيه، غير الطرق التي جاءت بها الرسل، يستغني بها عن الرسول، فهو كافر يُقتل ولا يُستتاب، وهي دعوى تستلزِمُ إثباتَ نبوةٍ بعد نبينا عليه الصلاة والسلام، فمن قال: إنَّه يأخذ عن قلبه، لأنَّ الذي يقعُ فيه هو حكم الله، وأنه يعمل بمقتضاه من غير حاجة منه إلى كتاب وسُنة، فقد أثبتَ لنفسه صفةَ النبوةِ**، كما قال نبينا ﷺ: «**إنَّ رُوْحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوْعي**» وبلغنا عن بعضهم أنَّه قال: لا آخذُ عن الموتى، وإنَّما آخَذُ عن الحي الذي لا يموتُ، وكذا قال آخر: أنا آخذُ عن قلبي عن ربي، **وكُلُّ ذلكَ كفرٌ باتفاق أهلِ الشرائع**»[1].



---

(١) نقل هذا عن القرطبي في تفسيره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري، وأيَّده.



الفصل السادس

قِصَّةُ ذِي القَرْنَيْن

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

- **فتنة الحكم:**

شهوة الحكم والتسلُّطِ كانت ولا تزال أعظمَ أسباب الفتن بين الناس، فقد جُبِلَ الإنسان على حُبِّ التملك والتسلط، وتركَّزت في أعماق نفسه نزعةُ حب الشهرة والسمعة، وهذا جعلَ شهوةَ الحكم والتسلط في نفس الإنسان من أقوى الشهوات، وقد واجه النبيُّ ﷺ أصحابه بهذه الحقيقة، فقال: «**إِنَّكُم سَتَحْرِصُوْنَ على الإمارةِ، وستكونُ ندامةً يومَ القيامةِ**» [رواه البخاري (٧١٤٨)].

وإنَّ قارئَ التاريخ، والمتأمِّلَ لأحداث الصراعات البشرية قديماً وحديثاً ليجدُ أنَّ أكثرَها حدثَ بسبب تلك النزعة الدفينة في أعماق النفس البشرية، نزعة التسلُّط والحكم، والشهرة والسمعة، فما أكثرَ الحروبَ التي نشبت بسبب هذه النزعة، وما أعظمَ البلايا والرزايا التي أصابت البشرية في مدى تاريخها الطويل بسبب شهوات الحكَّامِ المستبدين، عبيد الشهرةِ والسمعةِ وطلَّاب السلطة والحكم.

إنَّ فتنةَ الحكم والتسلُّطِ كبيرةٌ وخطيرةٌ، لأنها تستند إلى جذور عميقة وراسخة في أعماق النفس البشرية، والحكام الذين ابتلوا بها، وخرجوا منها سالمين قليلون، أكثرهم صرعته الفتنة، وغلبت عليه شهوة التسلُّط والشهرةِ، وبهرته الأضواء المسلَّطة عليه، فشُغِلَ بنفسهِ عن مسؤوليته وأمته، ألا ترى أنَّ الخلافة الراشدة بعد رسول الله ﷺ ثلاثون سنةً فقط من عمر الإسلام الطويل الممتد من زمن رسول اللهِ ﷺ إلى قيام الساعة، قال رسول الله ﷺ: «**الخلافةُ بعدي في أمتي ثلاثونَ، ثم مُلْكٌ بعدَ ذلكَ**» [رواه أحمد (٥/ ٢٢٠) والترمذي (٢٢٢٦)].

ولا يعني هذا أنَّ جميعَ حكام المسلمين بعد الخلفاء الراشدين لا خيرَ فيهم ولا صلاحَ، فقد كان فيهم حكام صالحون، أجرى الله على أيديهم خيراً كثيراً للإسلام والمسلمين، لكنَّهم لم يصلوا إلى القمة السامقة التي تبوأها الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم.

لقد كان ذو القرنين مثالاً طيباً للحاكم الصالح، الذي لم يُفتَنْ بالحكم والسلطان، فلم ينشغل بما آتاه الله تعالى من قوة الملك وأبهة الحكم والتمكين في الأرض، عن أمته التي حكمها، ورسالته التي حملها، إنَّه الحاكم الذي سخَّرَ حكمَه وسلطانه لنشرِ دين الله وعبادته في الأرض وعمارتها بطاعة الله تعالى، ودَرْءِ خطر المفسدين عنها بكل وسائل التمكين التي آتاه الله سبحانه إياها.

وهذا جعلَ بعض المفسرين يصفون ذا القرنين بصفةِ النبوَّة، لكنَّ جمهور المفسِّرين على أنَّه كان حاكماً صالحاً، سخَّر الله تعالى له كثيراً من الأسباب،

ويسَّر له سُبُلَ التنقل في الأرض والنظر في أحوال العباد، فاستثمر ذلك للدعوة والإِرشاد وعمارة الأرض، ودفع أهل الشر والفساد.

تُرى مَنْ يكون ذو القرنين؟ وما هويته؟ وما جنسه؟ وما عصره؟.

أسئلةٌ كثيرةٌ ثارت حول شخصية ذي القرنين، لم يستطع الدارسون لتاريخ الأمم والمتخصصون في أخبار التاريخ أن يجدوا لها جواباً شافياً كافياً، وما خرجوا إلَّا بأخبار متعارضة وأقوال متناقضة لا تروي غليلاً ولا تشفي عليلاً.

• ذو القرنين ليس مَلِكاً من ملوك الفرس:

ذهبَ بعضُ الباحثين إلى أنَّ ذا القرنين أحد ملوك الفرس القدماء، وقد تحمَّس لهذا الرأي عالمان هنديان معاصران، هما: شبلي النعماني، وأبو الكلام آزاد، إلَّا أنَّهما اختلفا في تحديد اسمه، فذهب شبلي النعماني إلى أنه **دارا الكبير** ملك الفرس، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، أما أبو الكلام آزاد فقد رجَّح أنَّ يكون ذو القرنين هو **كورش** ملك الفرس في القرن السادس قبل الميلاد، وهو الذي قوَّض مملكة بابل، وأذن لليهود المسبيين فيها بالعودة إلى فلسطين.

لكن المدوَّن عن ملوك الفرس أنَّهم كانوا يدينون بالديانة المجوسية، التي تقومُ على عقيدة المثنوية، والتي تقول بوجود إلٰهين: إلٰه الخير وإلٰه الشر، أو إلٰه النور وإلٰه الظلمة، كما تقوم على عبادة النار وتقديسها.

ولهذا حاول هذان الدارسان للدفاع عن رأيهما إثبات أنَّ الزراداشتية[١] التي

---

(١) نسبة إلى **زردشت**، وهي أصل المجوسية، زعم بعضهم: أنه نبي. وزعموا أنَّه كان يقول: النور والظلمة أصلان متضادان هما مبدأ موجودات العالم، وأن مبدعهما واحد لا شريك له، وهما يتغالبان حتى يغلب النور الظلمة. لكنَّ التعارض بين ما نُسِبَ إليه من أقوال وعدِّه من الأنبياء ﷺ واضح ظاهر.
قلت: يستأنس لنبوته بقوله ﷺ في المجوس: «**سنُّوا فيهم سنة أهل الكتاب...**» الحديث. والله أعلم. انظر: زردشت الحكيم، للأستاذ حامد عبد القادر.

كان يدينُ بها كل من الملكين تقول بوحدة الإلـه، وتأمرُ بالخير، وتدين بالآخرة، كما استندا فيما توصَّلا إليه إلى ما ورد في سفر نبوءة دانيال من أسفار العهد القديم[١].

لكنَّ آيات القرآن الكريم التي تحدَّثت عن ذي القرنين صرَّحت بأن مُلْكَ ذي القرنين امتدَّ إلى أقصى حدود المغرب، قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ [الكهف] أي: منتهى الأرض من جهة المغرب، بحيث لا يمكن لأحد مجاوزته. ووقف كما هو الظاهر على حافةِ البحر المحيط الغربي الأطلسي؛ وفيه الجزائر المسماة بالخالدات[٢].

بينما لم يتجاوز سلطانُ ملوك الفرس من جهة الغربِ حدودَ قارَّة آسية إلى إفريقية أو أوربة.

وسيأتي معنا أنَّه لا يوجدُ في التوراة التي يتداولها اليهود في العصر الحاضر أي ذكرٍ صريح لذي قرنين، فيها فقط كلمات غامضة تشير إلى الإسكندر ملك اليونان، دونَ تصريح بأنه ذو القرنين.

- **ذو القرنين ليس الإسكندر المقدوني اليوناني:**

وذهب كثير من المؤرخين والمفسرين إلى أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني اليوناني المتوفى سنة (**٣٢٣** ق.م)، وليس لهم دليلٌ على صحة قولهم هذا سوى شهرة الإسكندر عند المؤرخين، وما عرف عنه من قوة سلطانه، وامتداد ملكه، وكثرة الممالك والأمم التي دانت له وخضعت لحكمه.

والمشهور مِنْ شأنه أنّه كان متصفاً بصفات خبيثة، تتنافى مع الصفات الطيبة الكريمة التي وُصف بها ذو القرنين في القرآن الكريم، فقد كان الإسكندرُ تلميذاً للفيلسوف اليوناني الشهير أرسطو، الذي كان يقول بقدم العالم، كما اشتهر الإسكندر بأنَّه كان وثنيّاً، محبّاً للشهوات، مسرفاً في الملذات وسفك الدماء.

---

(١) انظر: التفسير الحديث، لدروزة.

(٢) روح المعاني.

ومهما حاول أصحابُ هذا الرأي، أن يدفعوا عن الإسكندر هذه الصفات، فلن يستطيعوا بسبب ذيوعها وشهرتها عند كثير من المؤرخين.

وقد اعترفَ فريد وجدي في ما كتبه عن الإسكندر في «دائرة معارفه» بثبوت هذه الصفات للإسكندر، وذكر أنَّ الإسكندر فسد قلبُه في آخر حياته، حتى دعا إلى عبادته، والسجود أمامه، وأنَّه كان يعبد كُلَّ إلـٰه مزعوم يصادفه، ويقرِّب له القرابين والضحايا[1].

وحاول فريد وجدي أن يوفِّقَ بين هذه الصفات المذمومة التي كانت للإسكندر وبين الصفات الطيبة التي وصف بها القرآن الكريم ذا القرنين، لأنَّ فريد وجدي من القائلين بأن الإسكندر هو ذو القرنين، فابتعد بهذه المحاولة عن الحقيقةِ، وتنكَّبَ الجادة، عندما زعم أن ما في القرآن الكريم عن ذي القرنين لا يدلُّ على صلاحه وإيمانه، وزعم أن قول ذي القرنين: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف: ٨٨] كما حكاه القرآن الكريم عنه، لا يدل على إيمانٍ معيَّنٍ بدين من الأديان، بل المراد من آمن وعمل صالحاً على الإجمال[2].

وإن الإنسان ليقضي عجباً من هذا الذي ذهبَ إليه فريد وجدي غفر الله له، كيف غاب عن عقله أنَّ الإيمانَ والعملَ الصالحَ إذا ذكرا في القرآن الكريم انصرفا إلى الإيمان بالله سبحانه الذي أنزل القرآن الكريم لهداية الناس إليه، والإيمان به ﷻ، وأنَّ العمل الصالح المقرون مع الإيمان هو العمل المطابق لمقتضى الإيمان بالله تعالى، ولو كان ذو القرنين في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ لا يقصد الإيمان بالله تعالى، ولا العمل الصالح الذي يرضى الله عنه، فلماذا ذكره القرآن الكريم حكايةً عن ذي القرنين في سياق إقراره عليه؟!.

إنَّ مما يؤكد إيمان ذي القرنين بالله تعالى وحده الإيمان الصحيح قوله قبل ذلك: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٨٧]؛ ففيه

(١) انظر: دائرة معارف القرن العشرين، مادة (أسك).

(٢) المرجع السابق نفسه.

دلالة قاطعة صريحة على أنَّ الرجل كان مؤمناً بالله تعالى وباليوم الآخر أيضاً، وبما في هذا اليوم من ثواب وعقاب.

إن ما جاء في آيات سورة الكهف عن ذي القرنين يتنافى مع ما اشتهر به الإسكندر المقدوني من طغيان وظلم وكفر، وامتداد ملك الإسكندر وقوة سلطانه لا يدلان على أنه ذو القرنين الحاكم الصالح المؤمن بالله سبحانه، والداعية إلى عبادة الله تعالى، والذي سخَّر كل ملكه وسلطانه لنشر عبادة الله تعالى في الأرض، ودرء فساد المفسدين.

ولا يبعد في العقلِ أن يكونَ في رجال العصور القديمة رجلٌ بلغَ ملكه قرني الدنيا دون أن يكون له ذكر في التاريخ، ثمة عصور قديمة لم يتمكَّن المؤرخون من استطلاع أخبارها؛ والوقوف على أحوال الإنسان فيها، ولا زالت هذه العصور تسمَّى في مصطلحات المؤرخين عصورَ ما قبل التاريخ، أي: ما قبل التاريخ المعروف، وعدم تمكن المؤرخين من معرفتها لا يعني عدم حدوثها، فما يجهله الإنسان أكثر بكثير مما يعلمه.

وصدق الله تعالى القائل: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [إبراهيم: ٩].

فتاريخ الوجود البشري على هذه الأرض عميق، وشجرته ممتدة الجذور كثيراً في أعماق الزمن، وثمة أمم وقرون كثيرة عاشت على هذه الأرض وماتت وأرسل الله تعالى لها رسلاً، ولا نعلمُ عنها شيئاً، ولم يستطع المؤرخون والباحثون عن أخبار الماضين أن يقفوا لها على أثر أو يجدوا لها خبراً: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ [مريم: ٩٨].

- **هل ذو القرنين أحد ملوك اليمن الأولين؟:**

لليمن حضارة قديمة وعريقة، ظهرت فيه المجتمعات البشرية قبل ظهورها في كثير من بقاع الأرض، وخرجت منه كثير من الشعوب والقبائل التي استوطنت بلاد الرافدين وشواطئ البحر الأبيض المتوسط وضفاف نهر النيل،

فقد كان مخزناً للأمم والشعوب، وقامت على أرضه حضارات قديمة لا زالت بعض آثارها قائمة فيه.

وقد ذهب بعض المؤرخين والمفسرين إلى أن ذي القرنين أحد ملوك اليمن الحِمْيَرِيِّين القدماء، وأنه كان معاصراً لنبي الله إبراهيم عليه السلام، وأنَّه اجتمع به في مكة المكرمة ودعا له إبراهيم عليه السلام.

ولعلَّ هذا القول أقرب إلى الحقيقة، لأن الأذواء كانوا من اليمن كذي منار، وذي نواس، وذي رُعين، وذي يزن، وذي جدن.

ويذكر المفسرون أن ذا القرنين هو الذي افتخر به بعد ذلك تُبَّع اليماني عندما قال:

قَدْ كانَ ذو القَرْنَيْنِ جَدِّي مُسْلِماً ... مَلِكاً علا في الأرضِ غَيْرَ مُفَنَّدِ
بلغَ المشارِقَ والمغَارِبَ يَبْتَغِي ... أسبابَ مُلْكٍ من حكيمٍ مُرْشِدِ
فرأى مَغِيْبَ الشَّمْسِ عندَ غُرُوْبِهَا ... في عينِ ذي خُلْبٍ وثأطٍ حَرْمَدِ[1]

وتُبَّعٌ الذي نُسب إليه هذا الشعر، هو تُبَّعٌ الأوسط، واسمه أسعد أبو كرب اليماني، وهو مشهور ومعروف عند المؤرخين والمفسرين، فقد ذُكر في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧].

وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [قٓ].

وكان تُبَّع هذا مؤمناً، ولهذا ذمَّ الله سبحانه قومه ولم يذمه، وروي عن النبي ﷺ: أنَّه نهى عن سبِّه، روى ابن أبي حاتم: من طريق **سهل بن سعد** رضي الله عنه: أنَّ رسول اللهِ ﷺ قال: «**لا تسبُّوا تُبَّعاً، فإنَّه قَدْ كانَ أَسْلَمَ**» [رواه أحمد (٥/ ٣٤٠) والطبراني (٦٠١٣)].

---

(١) **الخلب**: الطين. **والثأط**: الحمأة. **والحرمد**: الأسود.

ولعلَّ اليهود عرفوا شأن ذي القرنين بواسطة تُبَّع، فقد ذكر المؤرخون أنَّ تُبَّعاً هذا خرج من اليمن، واستولى على كثير من البلاد، وأنه مرَّ بالمدينة المنورة، واستصحبَ من يهود المدينة حَبْرين كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيلَ له على هذه البلدة، فإنَّها مُهاجَرُ نبيٍّ يكون في آخر الزمان، وأنَّه طاف بالكعبة وعظَّمها وكساها المِلاءَ والوصائل والحِبَر، ولمَّا رجعَ إلى اليمن دعا أهلها إلى التهوُّد على دين موسى عليه السلام، فاستجابوا له، ولكنَّهم بعد موته عادوا إلى الوثنية التي كانوا عليها، ولهذا ذمهم الله تعالى في القرآن الكريم ولم يذمه[1].

فذو القرنين من ملوك حِمْيَر القدماء، وزمانه متقدِّمٌ على زمن تُبَّع أسعد أبو كريب الحِمْيَري بكثير، فقد عاش تُبَّع بعدَ عصر موسى عليه السلام، بينما عاش ذو القرنين في عصر إبراهيم عليه السلام، وذكر المفسِّرون أنه اجتمع معه في مكة، وأنَّ إبراهيم عليه السلام دعا له، وأوصاه ببعض الوصايا، ولعلَّ الله سبحانه قد سخَّر ما سخَّر له من الأسباب ببركة دعاء الخليل له عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام[2]، والله سبحانه وتعالى أعلم.

- **السائلون عن ذي القرنين:**

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾.

كان السؤال عن ذي القرنين لرسول الله ﷺ سؤالَ امتحانٍ واختبارٍ، كما مرَّ معنا في سبب نزول سورة الكهف، والسائلون هم كفار قريش بتلقين من يهود المدينة، فلا بدَّ أن يكونَ لدى السائلين بعض المعرفة عن ذي القرنين، إذ لا يعقلُ أن يسألوا النبيَّ ﷺ سؤال الامتحان والاختبار ولا علم لهم بالمسؤول عنه.

وسبقَ أن ذكرتُ أنَّ اليهود يمكن أن يكونوا قد علموا بشأن ذي القرنين من طريق علاقتهم بأحد تبابعة اليمن، الذي تأثر ببعض أحبارهم، واعتنق اليهودية،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير لسورة الدخان.

(٢) انظر: روح المعاني.

وعمل على نشرها في ربوع اليمن، ويمكن أيضاً أن يكون ذو القرنين قد ذُكر في التوراة التي كانت بين أيديهم في ذلك العصر، أما التوراة التي يتداولها اليهود في العصر الحاضر، فلا يوجَدُ فيها أي ذكر لذي القرنين، فيها فقط كلمات غامضة تشير إلى الإسكندر ملك اليونان، دون أن تصرح بأنه ذو القرنين، ففي سفر دانيال أنَّ ملك اليونان هو التيس العافي والقرن العظيم الذي بين عينيه، وهو الملك الأول؛ أي: (الإسكندر)[١].

ولا ثقة بأخبار التوراة بسبب ما طرأ عليها من تغيير وتبديل خلال التاريخ الطويل الذي مرَّ عليها، فلم يهيئ لها الله سبحانه ما هيأ للقرآن الكريم من أسباب الحفظ، أكَّد هذه الحقيقة كثيرٌ من الدارسين لأخبار التوراة، ومنهم الباحث الفرنسي موريس بوكاي بعد أن قام بدراسة موضوعية لكلٍّ من القرآن الكريم والتوراة والإِنجيل في ضوء المعارف الحديثة، وحرر نتيجة دراسته تلك في كتابه المشهور «**دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة**» وقال في خاتمة الكتاب: «لا يجوز النظر إلى كتب التوراة بزخرفها بدعيّاً بمميزات نريد أن تتميز بها، وإنما بأن ندرس موضوعيّاً ما هي عليه، وذلك لا يتضمن معرفة بالنصوص، بل يتضمَّن أيضاً معرفة بتاريخ النصوص، إنَّ معرفة تاريخ النصوص تسمحُ في الواقع بتكوين فكرة عن الظروف التي قادت إلى التعديلات النصية عبر القرون، وإلى التكوين البطيء لمجموعها كما نملكه اليوم بأجزاء متعددة محذوفة وأخرى مضافة».

- **التمكين والأسباب:**

ولنعد بعد هذه الجولة مع المؤرِّخين والمنقِّبين عن آثار الغابرين إلى رحاب الآيات الكريمة في سورة الكهف، لنرى من خلالها الصورة الكريمة الوضيئة لذي القرنين، الحاكم الصالح الذي ابتلاه الله بالحكم والسلطان، فما فُتنَ به ولا تكبَّر ولا تجبَّر، بل تواضعَ لله تعالى وشكر.

---

(١) انظر: دائرة المعارف، لبطرس البستاني: ٨/ ٤١٢، دار المعرفة.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾.

أنعم الله تعالى على ذي القرنين بنعمتين كبيرتين:

أولهما: التمكين في الأرض ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا له قدرة ومكنة على التصرف في الأرض، فله أن يتصرَّف فيها كما يشاء.

ثانيهما: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ أي: أعطيناه كُلَّ ما يتوصل به إلى المقصود من علم وقدرة وآلة.

ويبدو أنَّ الأسباب التي مَنَّ الله تعالى بها على ذي القرنين، لم تكن أسباباً عاديةً مألوفة للناس في عصره، فالإنجازات التي قام بها، والأعمالُ العظيمة التي نفذها تؤكد ذلك، فقد كانت أسباباً خارقة لنواميس البشر وقدراتهم في ذلك العصر، فهي من قبيل الكرامات، أكرمه الله تعالى بها، ولهذا جاء الإخبار عنها بصيغة التعظيم، تعظيم المنعم وتعظيم النعمة:

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾.

• **رحلات ذي القرنين:**

واستثمر ذو القرنين نعمة التمكين في الأرض، واستعان بالأسباب التي آتاه الله إياها، فقام بثلاث رحلات في الأرض، رحلات كبيرة وبعيدة، تدل على أنَّ الأسباب التي أعطيها لم تكن أسباباً عادية.

• **الرحلة الأولى: إلى مغرب الشمس:**

اتجه ذو القرنين في رحلته الأولى إلى مغرب الشمس، وأراد أن يصل إلى نهاية الأرض المعروفة للناس في عصره من جهة الغرب، فسار مع جنوده مستعيناً بالأسباب التي سخَّرها الله تعالى له:

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ حتى وصل إلى منتهى الأرض من جهة

الغرب، ووقف على ساحل المحيط الأطلسي، وكان الناسُ يظنُّون أنَّه نهاية الأرض من جهة الغرب، ولا ندري أيَّ طريقٍ سلك نحو الغرب، هل كان عن طريق أوربة أو عن طريق شمال إفريقية، والأرجح أنَّه كان من جهة الشمال الإفريقي، لأنه أقربُ إلى مواطن الحضارات القديمة في مصر واليمن وبلاد ما بين الرافدين.

ونظر ذو القرنين إلى الشمس، وهي تغيبُ وراء الأفق الغربي في البحر المحيط، وأشعتها الحمراء عند الغروب تنعكسُ على صفحة المياه الداكنة الزرقاء، فرآها كأنها تغيبُ في عين ماء حمئة، أي: ذات حمأة، وهو الطين والتراب، ولهذا جاء اللفظ القرآني متناسباً تماماً مع ما رأى ووجد:

﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: رآها تغرب في عين حمئة.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ ووجد في تلك البلاد قوماً كافرين.

فخيَّره الله ﷻ بين أن يقتلهم أو يمنَّ عليهم:

﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، واستدلَّ بهذه الآية القائلون بنبوة ذي القرنين، فظاهرُ الآيةِ أنَّ الله سبحانه خاطبه بواسطة الوحي، وقد يكونُ خطابُ الله له بواسطة نبيٍّ كان معه، كما كان الحالُ في بني إسرائيل، إذ كانت تسوسهم ملوكهم بما يوحي الله تعالى إلى أنبيائهم.

واختار ذو القرنين أن يمنَّ عليهم أولاً، فيدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى وعبادته، فمن رفض عذَّبه بالقتل، ومن استجاب أكرمه وأحسن إليه:

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

وهكذا انتهتِ الرحلةُ الأولى بهذه الدعوة الكريمة إلى الله ﷻ.

- **الرحلة الثانية: إلى مطلع الشمس:**

ثم سار متوجهاً من مغرب الشمس إلى مشرقها، مستعيناً كما قدمنا بالأسباب التي يسَّرها الله تعالى له:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: آخرَ الأرضِ المعروفة للناس في ذلك العصر من جهة الشرق، وهي البلادُ الواقعة أقصى القارَّة الآسيوية من جهة الشرق، والمطلة على المحيط الهادي، ولعلَّها بلادُ الصين أو ما يجاورها من البلاد شمالاً وجنوباً، ووجد هناك أقواماً يعيشون حياةً بدائية بعيدة عن مظاهر التمدن والتحضر، حتى إنَّهم ما كانوا يعرفون كيفية اتخاذ المساكن والبيوت، يأوون إلى أسراب وكهوف في الجبال وباطن الأرض، ويبدو أنَّهم كانوا أيضاً لا يعرفون اتخاذ الملابس، يعيشون عراةً، لا يسترون أجسادهم بشيء، وقد وصفهم الله سبحانه فقال:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾.

ولا يُعْقَلُ أن يتركَهم ذو القرنين على هذه الحالة البدائية التي تتنافى مع كرامة الإنسان، وهو الحاكم الصالح الذي سخَّر حكمَه وسلطانَه لخدمة الأمم والشعوب التي استرعاه الله تعالى أمرَها، ومدَّ سلطانَه عليها، لا بدَّ بعد أن يدعوهم إلى الإيمان بالله سبحانه وطاعته كما فعل في بلاد المغرب أن يرشِدَهم إلى اتخاذِ الملابس، ويعلِّمهم كيفيةَ بناءِ المساكن، مستفيداً مما آتاه الله من العلوم والآلات بما سخَّرَ له من الأسبابِ، وقد سكتت الآياتُ الكريمةُ عن بيان ذلك، اكتفاءً بالإشارة إلى الأعمال الكبيرة العظيمة التي قام بها ذو القرنين، فليس في الآيات إحاطة بكل أخبار ذي القرنين، بل جاءت الآيات تذكُرُ جزءاً من أخباره وأعماله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣] و(من) تبعيضية، أي: سأذكر لكم نبأ مذكوراً من أنبائه.

وقد آتاه الله سبحانه قدراتٍ هائلةً، وإمكانياتٍ كبيرةً، استثمرها كُلَّها في مساعدة الشعوب الضعيفة الفقيرة، ولهذا جاء التعليق على ما آتاه الله تعالى، وهو لا يزالُ في أقصى الشرق بين هذه الشعوب الضعيفة الفقيرة:

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾.

وهذا يفيدُ تعظيمَ ما أعطى الله سبحانه لذي القرنين، فهو وراء ما وُصف بكثير، ممَّا لا يحيطُ به إلَّا علمُ اللطيفِ الخبيرِ، ويشير إلى المساعدات الكبيرة التي قدمها لهذه الشعوب الفقيرة.

● **الرحلة الثالثة: إلى ما بين السدين:**

وبعد أن قدَّم ذو القرنين لهذه الشعوب البدائية الفقيرة ما قدَّم من مساعداتٍ وإرشاداتٍ رحل عنها، وسلك طريقاً ثالثاً، ويبدو أنَّه طريقٌ معترض بين المشرق والمغرب، قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ أي: الجبلين، **والسد**: كما في «القاموس»: الجبلُ والحاجِزُ، لأنَّه يسدُّ فجّاً من الأرض.

والظاهِرُ أنَّ المراد من السدَّين في الآية الكريمة، سلسلتان كبيرتان من الجبال الشاهقة الارتفاع، وهاتان السلسلتان من الجبال تحجزان وراءهما صحارى شاسعة، مترامية الأطراف، يقطنُ فيها أقوام بداة قساة أشداء؛ يعيشون على الصيد والرعي، ويتنقلون في هذه الصحارى بحثاً عن أسباب الرزق لهم ولماشيتهم.

بينما تمتدُّ أمامَ هاتين السلسلتين الجبليتين من الجهة الثانية سهول زراعية ذات بيئة صالحة للزراعة والعمران والاستقرار، ولا بدَّ أن يكونَ سكان هذه السهول الزراعية أكثرَ تحضُّراً واستقراراً من جيرانهم البدو الرحَّل سكان الصحراء، وكان هؤلاء البدو يندفعون من بين هذه الجبال إلى السهول الزراعية كلَّما ضاقت بهم سُبُلُ العيشِ بسبب جدب الصحراء، وقسوة المناخ، فيفتكون بأصحابها، وينشرون في هذه المناطق العمرانية والزراعية الخراب والدمار والفساد.

وعندما وصل إليهم ذو القرنين شكوا إليه ما يَلْقَوْنَ من هذه القبائل البدوية المتوحشة من فسادٍ وخرابٍ في بيوتهم وزروعهم ومحاصيلهم:

﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وعرضوا عليه أموالاً ليقيمَ لهم سدّاً بين هاتين السلسلتين الكبيرتين من الجبال، يمنعُ عنهم عدوان هؤلاء المفسدين وشرهم:

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ولابد أن يكون هؤلاء الذين طلبوا من ذي القرنين بناءَ سدٍّ لهم، قد عرفوا قدرته على ذلك، ورأوا ما معه من وسائل وآلات وإمكانات تمكِّنه من بناء السد، ولولا ذلك ما طلبوا منه أن يبني لهم السد، وما عرضوا عليه أموالهم.

وسبق أن بيَّنتُ أنَّ الله ﷻ أعطى ذا القرنين كُلَّ وسائل القوة والتمكين في الأرض كما أخبر عن ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤].

كما بيَّنت أن في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٩١] دليلاً على تعظيم ما آتاه الله تعالى، وأنَّ الوسائل والأسبابَ التي أنعم الله تعالى بها على ذي القرنين وراءَ أي وصف، فلا يحيطُ بها إلَّا العليم الخبير.

• ما مكَّنِّي فيه ربي خير:

فماذا كان موقفُ ذي القرنين من هذا العرض المُغري الذي عرضه القومُ عليه ليبنيَ لهم السد؟ هل استغلَّ الموقفَ، واستثمر حاجتهم لمساعدته، فأخذَ منهم ما استطاع من أموالهم، ونهبَ ما أمكنه من ثمرات تعبهم وعملهم، كما تفعله في العصر الحاضر الدول الكبرى القوية مع شعوب الدول الضعيفة الفقيرة؟ هل شَرَطَ ذو القرنين عليهم أن يستغلَّ مشروع السد بعدَ بنائه لفائدته

عدداً من السنين؟ وهل أرهقهم بالديون ذوات الفوائد الربوية المركبة، حتى أصبحَ مشروع السد عبئاً ثقيلاً عليهم؟.

كان ذو القرنين حاكماً مؤمناً صالحاً يسعى لخير شعوب الأرض وسعادتهم، يستعينُ لتحقيق هذا الهدف النبيل بما آتاه الله تعالى من علوم وآلات وقدرات، ويعمل ليدفعَ عن الناس شرور المفسدين وعدوان المعتدين:

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ مما تبذلونه من أموالكم.

أين من يقول مثل هذه الكلمة في العصر الحاضر؟!.

أين المتعفِّفون عن خيرات الشعوب الضعيفة النامية؟!.

أين القائلون: ما عندنا يكفينا وما آتانا ربنا يغنينا؟!.

أين الذين لا يستغلُّون قوَّتهم وعِلمهم في سلب خيرات الضعفاء؟! وإذا تعففوا أحياناً، فإنَّهم يأخذون مقابِلَ ما قدَّموا من مساعداتٍ ومعوناتٍ عقائد هؤلاء الضعفاء وأخلاقهم وتراثهم، يمنعون عنهم المساعدة حتى يكفروا بدينهم، ويتخلَّوا عن أخلاقهم وتراثهم ولغتهم، وما أخبار التنصير واستغلال الكنيسة وكهنتها للمساعداتِ التي يقدِّمونها للضعفاء والمنكوبين لتنصيرهم عنَّا ببعيد.

- **فأعينوني بقوة:**

وكان ذو القرنين إلى جانب عفته وحكمته وعلمه متواضعاً، ولهذا قال:

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾. إن وراء هذه الكلمات نفساً راضيةً متواضعةً كريمةً، لم تفتنها القوةُ والسلطةُ، إنَّها النفسُ التي نجحت في أعظم ما يُختبر به الإنسان ويُفتتن: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق].

وما أكثر الطغاة والمتجبرين الذين أعمتهم السلطة والقوة عن رؤية حقيقتهم ومعرفة حجمهم!.

الإنسانُ مخلوقٌ ضعيفٌ محدودٌ، فمهما ملك من وسائل الغنى والسلطة والقوة، فهو محتاجٌ إلى مساعدة الآخرين، فقير إلى معونتهم.

لو عقل الظالمون والمتجبرون هذه الحقيقة ما ظلموا ولا تجبروا.

• **بناء السد:**

وشرع ذو القرنين في بناء السد، كما وعدهم بقوله:

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾، واستفاد من مساعدة القوم له، فقد قدَّموا له القوة العاملة التي حفرت الأرض وهيأت مواد البناء.

وأما ذو القرنين فقد أشرف على تنفيذ البناء، وباشر بنفسه رفع البناء:

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ أي: قطع الحديد، وخَصَّها بالذكر لأنَّها الركن القوي في السد، والعمدة الأساس في هيكله.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ وارتفعَ البناءُ شيئاً فشيئاً، حتى أصبحَ مساوياً في الارتفاع لجانبي الجبلينِ اللذينِ أقيمَ السدُّ بينهما، ثم أشعل النار في الخشب والحطب الذي وضعه بين قطع الحديد، دلَّ على ذلك قوله تعالى:

﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾، ولا بدَّ أن تكون آلات النفخ بعيدة عن موقع السد، فالنار كبيرة وعظيمة لا يستطيعُ أحدٌ أن يقترب منها، ويدل على قوتها وشدتها قوله ﷻ:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ لقد أصبح هيكل السد كتلة ملتهبة من النار.

ثم قام ذو القرنين فصبَّ النحاسَ المذابَ فوق هذه الكتلة الملتهبة من الحديد والنار:

﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

ولا يُعْقَلُ أن يتمَّ مثل هذا العمل الكبير بالوسائل البدائية البسيطة التي كان عليها الناس يومئذ، فمثل هذا المشروع الكبير يحتاجُ إلى آلات ضخمة ورافعاتٍ

كبيرةٍ، يبدو أنَّ ذا القرنين استعملها بعد أن هداه الله سبحانه إليها بما آتاه من الأسباب، وسخَّر له من وسائل التمكين حتى استطاع إنجاز هذا المشروع الكبير الذي وصفه الله ﷻ بقوله:

﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾.

فما تمكَّن المفسدون أن يعلوا عليه لارتفاعه وملاسته، ولا أن يخرقوه لصلابته وثخانته.

- **هذا رحمة من ربي:**

وبعد أن أتمَّ ذو القرنين بناءَ السدِّ نظر إليه وقال:

﴿قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ وتلك هي كلمةُ المؤمن الشاكر، المعترف بفضل الله عليه، فالفضلُ لله تعالى أولاً وآخراً، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بقوَّة الله العلي القدير، إنَّه الإخباتُ والتواضعُ والتذلل لله، والإقرار بفضله، لا التكبر والتجبر والبغي ورؤية النفس.

ومع قوة السدِّ ومتانته، فإنَّه لا يستعصي على قدرة الله، فإذا جاء الوعدُ الذي قدَّره الله سبحانه لهدمه:

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾، إنَّ الجبال الرواسي التي أرساها القوي القادر بقوَّته وقدرته لا تستعصي على مشيئته سبحانه وقدرته عندما يشاء الله سبحانه إزالتها ونسفها: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه].

والمراد من قول ذي القرنين: ﴿هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ بيانُ أنَّ هذا السدَّ رحمةٌ من الله بالأمم القريبة منه لمنع غارات يأجوج ومأجوج عنهم، ولكن يجب عليهم أن يفهموا أنَّه مع متانته وصلابته لا يمكن أن يقاوم مشيئة الله القوي القدير، فإن

بقاءه إنَّما هو بفضل الله، ولكن إذا قامت القيامة فلا هذا السد ولا غيرُه من الجبال الراسيات يمكنها أن تقفَ لحظةً واحدةً أمام قدرة الله، بل يدكُّها جميعاً دكّاً في لمح البصر، وهذا تنبيه من ذي القرنين لتلك الأمم على عدم الاغترار بمناعة السد[١].

فوعد الله الذي ذكره ذو القرنين في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾ هو يوم القيامة، وهو ما ذهب إليه أكثرُ المفسرين.

قال القرطبي: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾ أي: يوم القيامة، وقيل: وقت خروجهم.

وقال الآلوسي: المرادُ من وقت ذلك يوم القيامة، وقيل: وقت خروج يأجوج ومأجوج، وتُعقِّب بأنه لا يساعِدُه النظم الكريم.

وكذلك قال أبو السعود في تفسيره[٢].

- **سؤالان هامَّان:**

- من يأجوج ومأجوج؟.
- وأين يقع سد ذي القرنين؟.

وهما سؤالان هامان وكبيران، وقد حاول كثيرٌ من المفسرين قديماً وحديثاً الإِجابةَ عليهما.

ولا يسعنا إلَّا أن نرجعَ إلى الكلمات القرآنية الكريمة نتدبرها، ونتأمَّل في مدلولاتِ معانيها على ضوء ما ورد في السُّنَّة الشريفة حول هذا الموضوع، لعلَّنا نصلُ بفضل الله سبحانه وتوفيقه إلى بعض الحقيقة، أو إلى ضوءٍ ينيرُ لنا الطريقَ، ويوصلنا إلى استكشاف معالم الحقيقة.

وليس الخوضُ في هذا الموضوع نوعاً من الفضول العقلي أو الترف العلمي، فثمَّةَ تحديات كثيرة من أعداء الإِسلام حول هذا الموضوع، تستهدِفُ

---

(١) انظر: تفسير القاسمي، ط١.

(٢) انظر: تفسير القرطبي، وأبي السعود، وروح المعاني.

تشكيكَ ضِعَافِ الإيمان بصدق ما أخبر عنه القرآن الكريم، أو على الأقل تضعِفُ ثقتهم بكلام الله سبحانه.

وهناك أمر آخر يستدعي منا أيضاً أن نخوضَ في هذا الموضوع، وهو أنَّ لسدِّ ذي القرنين ويأجوج ومأجوج علاقةً وثيقة بالأمة المسلمة عموماً وبالعرب من هذه الأمة خصوصاً.

فإنَّ كثيراً من الفتن التي أصابت المسلمين، ولا زالت تفتك بهم، لها ارتباطٌ بسد ذي القرنين وبالقبائل المفسدة، الذين سمَّاهم القرآن الكريم بيأجوج ومأجوج، الذين يظهرون في آخر الزمان قُبيل قيام الساعة، فقد أخبر النبيُّ ﷺ في عدَّة أحاديث نبوية شريفة وصحيحة عن ظهور يأجوج ومأجوج مع أشراط وعلامات الساعة الكبرى، وسيأتي بعض هذه الأحاديث.

- **«وَيْلٌ للعربِ مِنْ شَرٍّ قد اقتربَ»:**

والدليل على وجود علاقة بين الفتن التي أصابت الأمة المسلمة وبين سد ذي القرنين ويأجوج ومأجوج، الحديثُ الصحيحُ الذي رواه **البخاري** [٣٣٤٧] **ومسلم** [٢٨٨١]: من حديث أم المؤمنين **السيدة زينب** رضي الله عنها قالت: استيقظَ رسولُ اللهِ ﷺ محمرّاً وجهُهُ وهو يقول: «**لا إلـٰهَ إلَّا الله، ويلٌ للعربِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقتربَ، فُتِحَ اليومَ مِنْ رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذِهِ**» وحلَّقَ بإصبعيهِ **الإِبهامَ والتي تليها**، قلتُ: يا رسولَ الله، أنهلِكُ وفينا الصالحون؟! قال: «**نَعَمْ إذا كَثُرَ الخَبَثُ**».

والعجيبُ أنَّ كبار شرّاح السُّنَّة النبوية الشريفة لم يتعرَّضوا للكلام عن علاقة ردم يأجوج ومأجوج بالعرب، التي يدل الحديث الشريف على وجوده، وحملوا الشرَّ الذي ذكره النبي ﷺ على الفتن التي أصابت الأمة المسلمة بمقتل الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه.

قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله: «خَصَّ العربَ، لأنَّهم كانوا حينئذٍ معظمَ مَنْ أسلم، والمراد بالشر ما وقع بعده من قتل عثمان، ثم توالتِ الفتنُ حتى صارت

الأمة بيد الأَكَلَة كما وقع في الحديث الآخر: «**يوشِكُ أن تداعَى عليكُمُ الأممُ كما تداعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا**» [رواه أبو داود (٤٢٩٧) وأحمد (٥/ ٢٤٨)]»[١].

والجدير بالذكر أنَّ ابنَ حجر العسقلاني ظهر في القرن الثامن الهجري؛ أي: بعدَ أن اجتاحَ المغول والتتر بلادَ المسلمين في القرن السابع الهجري، وخرَّبوا معظمَ معالم الحضارة الإسلامية حتى وصلوا إلى بغداد فخرَّبوها أيضاً وقتلوا الخليفة العباسي، وذبحوا عدداً كبيراً من أهلها، وأحرقوا كتبها ومكتباتها.

- **يأجوج ومأجوج:**

ولا يعني هذا أنَّ المغول والتتار الذين دمَّروا كثيراً من معالم الحضارة الإسلامية، هم يأجوج ومأجوج، إذ دلَّتِ الأحاديث الشريفة الصحيحة على أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ يظهرون في آخر الزمانَ بعد نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض وقتله الدجَّالَ، وظهورهم من علامات الساعة الكبرى، التي لم يحدثْ شيءٌ منها حتى الآن.

فقد جاء في حديث **النوَّاس بن سمعان** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ بعدَ أن ذكرَ ظهورَ الدجال ونزول عيسى عليه السلام من السماء وقتله له يقول: «**ثُمَّ يأتيه قومٌ قد عصمهم اللهُ من الدَّجَّالِ، فيمسَحُ وجوهَهم، ويحدِّثُهم بدرجاتِهم في الجنَّةِ، فبينما هُمْ كذلكَ إذ أوحَى اللهُ إلى عِيْسَى: إنِّي قد أخرجتُ عباداً لي لا يَدَانِ لأحدٍ بقتالهم، فحرِّزْ عبادي إلى الطورِ، ويبعثُ اللهُ يأجوجَ ومأجوجَ، فيمرُّ أوائلهم على بحيرةِ طبرية، فيشربونَ ما فيها، ويمرُّ آخِرُهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماءٌ، ويُحْصَرُ عيسى نبيُّ اللهِ وأصحابُهُ حتى يكونَ رأسُ الثورِ لأحدِهم خَيْراً من مئةِ دينارٍ، فيرغبُ عيسى نبيُّ الله وأصحابه إلى الله، فيرسلُ عليهم**

(١) انظر: فتح الباري. والحديث الذي ذكر طرفه من حديث ثَوْبان: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**يوشِكُ الأممُ أن تداعى عليكم كما تداعَى الأَكَلَةُ إلى قصعَتِهَا**» فقال قائل: ومن قِلَّة نحنُ يومئذ؟ قال: «**بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنَّكم غُثاءٌ كغثاءِ السيلِ، ولينزعنَّ اللهُ مِنْ صدورِ عَدوِّكُم المهابَةَ مِنْكُم، وليقذفَنَّ اللهُ في قلوبِكُمُ الوهنَ**» فقال قائل: يا رسولَ اللهِ وما الوَهْنُ؟ قال: «**حُبُّ الدنيا وكراهيةُ الموتِ**».

النَّغف في رقابهم، فيصبحون فَرْسَى (أي: موتى) **كموتِ نَفْسٍ واحدةٍ، ثم يهبطُ عيسى نبيُّ اللهِ وأصحابُهُ إلى الأرض، فلا يجدونَ في الأرضِ موضعَ شِبرٍ إلَّا ملأه زَهَمُهُم وَنَتَنُهُم، فيرغَبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابُه إلى الله، فيرسِلُ طيراً كأعناقِ البُخْتِ** (أي: الإبل)، **فتحمِلُهم فتطرحُهُم حيثُ شاءَ اللهُ، ثم يرسِلُ اللهُ مطراً لا يُكِنُّ** (أي: لا يحمي) **مِنْهُ مَدَرٌ** (أي: بيوت الحضر) **ولا وَبَر** (أي: بيوت البدو) **فيغسِلُ الأرضَ حتَّى يتركها كالزلقةِ** (أي: كالمرآة)» [رواه مسلم (٢١٣٧)].

وذكر **الإمامُ مسلم** في روايةٍ ثانيةٍ: أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ، يقولون بعد أن يغلبوا على الأرض: «**لقد قتلنا مَنْ في الأرضِ، هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَنْ في السماء. فيرمون بنشابهم، فيردُّها اللهُ عليهم مخضوبةً دماً**».

فيأجوج ومأجوج كما تصرِّح به الأحاديث الشريفة الصحيحة، لم ينتشروا في الأرض بعدُ، ولم يغلبوا عليها ويسيطروا عليها سيطرة كاملة، حيث يصلُ بهم الغرورُ بالانتصارِ والغلبةِ أن يقولوا: «**لقد قتلنا مَنْ في الأرضِ، هلمَّ فلنقتلْ مَنْ في السماء...**».

وجموعُ المغول والتتر الذين اجتاحوا مشرق العالم الإسلامي حتى وصلوا إلى بغداد سنة (٦٥٦هـ) وخرَّبوها وأحرقوها، وإلى حلب ودمشق، ثم نكصوا على أعقابهم مهزومين بعد معركة عين جالوت، ليسوا قطعاً يأجوج ومأجوج، على الرغم من فظاعة التقتيل والتدمير الذي أحدثوه في بلاد المسلمين، حتى التبس أمرُهُم على بعض العلماء المتأخرين من المفسرين مثل الشيخ أحمد المراغي وجمال الدين القاسمي؛ فزعموا أنَّهم يأجوج ومأجوج[1].

ولو أنَّهم أمعنوا النظر في الأحاديث الشريفة التي ذكرت يأجوجَ ومأجوجَ لأدركوا خطأهم فيما ذهبوا إليه.

نعم نستطيع أن نقول: إنَّ المغول والتتار الذين اجتاحوا مشرق العالم الإسلامِي في القرن السابع الهجري جزءٌ صغيرٌ من يأجوج ومأجوج، ومقدِّمة

---

(١) انظر ما كتبه كُلٌّ من الشيخ أحمد المراغي والشيخ القاسمي في تفسيريهما.

لهم، وإنَّ ظهور المغول والتتار في القرن السابع الهجري ظهور جزئي ليأجوج ومأجوج، سوف يتلوه الظهور الكلي قربَ قيام الساعة بعد نزول عيسى نبي الله عليه السلام إلى الأرض. كما ورد في الأحاديث الشريفة التي سبق ذكر بعضها.

ويؤكد هذا الذي ذهبتُ إليه ما مرَّ معنا في حديث النبي ﷺ: «**ويلٌ للعربِ مِنْ شِرٍّ قدِ اقتربَ**» ولعلّ في قول النبيِّ ﷺ: «**فُتِحَ اليومَ مِنْ رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه**» وتحليقُه بأصبعيه، إشارة منه ﷺ إلى الظهور الجزئي ليأجوج ومأجوج، الذي حدث في القرن السابع الهجري، عندما اجتاحَ المغول والتتار مشرق العالم الإسلامي.

وبهذا يجتمع شَمْلُ الأحاديث الشريفة، وتبدو لنا متكاملة ومنسجمة.

وقد وقعتُ بعد أن توصلت إلى هذه النتيجة على كلام للعلامة القرطبي رحمه الله في «تفسيره»، يدل دلالة قوية على صحة ما توصلتُ إليه، قال رحمه الله: «نَعَتَ النبيُّ ﷺ التركَ: «**قومٌ وجوهُهم كالمجانِّ المطرقة**[1]»، وفي روايةٍ: «**ينتعلون الشَّعَر**» [رواه البخاري (٢٩٢٩) ومسلم (٢٩١٢)].

ولما علم النبي ﷺ عددهم وكثرة وحدَّة شوكتهم قال ﷺ: «**اتركوا التركَ ما تركوكم**» [رواه الطبراني بالأوسط (٥٦٣٤) والكبير (١٠٣٨٩) بإسناد حسن].

وقد خرج منهم في هذا الوقت أمم لا يحصيهم إلا الله تعالى، ولا يردهم عن المسلمين إلَّا الله تعالى، حتى كأنَّهم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم»[2].

والتركُ الذين ذكر القرطبي أنَّهم مقدمة ليأجوج ومأجوج هم التتار، وبعضُ العلماء يطلقون عليهم اسم الترك، ولعلك لاحظتَ أنَّ القرطبي يذهبُ إلى هذا الرأي بتردد وحذر، لكن ما ورد في الأحاديث الشريفة من وصف يأجوج ومأجوج ومطابقته لصفات المغول والتتار، يؤكد رأيَ القرطبيِّ دون تردُّد وحذر،

---

(١) أي: التروس السميكة، يقال: طارقَ النعلَ؛ إذا صيَّرها طاقاً فوق طاقٍ، وركَّبَ بعضها على بعض، أراد أنهم عِراضُ الوجوه غلاظُها. انظر: لسان العرب.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن.

فالوجوه المستديرة الغليظة التي كأنها المجان المطرقة التي ذكرها القرطبي جاءت صريحةً واضحةً في حديث نبويٍّ صحيح وصف فيه النبي ﷺ يأجوجَ ومأجوجَ فقال: «**إِنَّكُم تقولون لا عَدُوَّ لَكُم، وإِنَّكُمْ لا تزالونَ تقاتِلُوْنَ عدوّاً، حتَّى يأتيَ يأجوجُ ومأجوجُ، عِرَاضُ الوجوه، صِغَارُ العيون، صُهْبُ الشعافِ، مِنْ كُلِّ حَدْبٍ ينسلونَ، وجوهُهُم المجان المطرقة**» [رواه أحمد (٢٢٣٣١)].

قوله: «**صهب الشعاف**» أي: حُمرة في أعلى شعورهم.

- **هل يأجوج ومأجوج محصورون وراء السد؟:**

وقد يعترِضُ بعضُهم على ما سبق بيانه من كون المغول والتتار من يأجوج ومأجوج ومقدمة لهم، بأنَّ يأجوجَ ومأجوجَ محصورون وراء السد، وسيظلون محصورين وراء السد حتى قُرْب قيام الساعة، حيث ينهدم، ويخرجون من ورائه، وينتشرون في الأرض، كما سبق ذكره في الأحاديث النبوية الشريفة التي تحدَّثت عن علامات الساعة الكبرى.

وأقول ردّاً لهذا الاعتراض: إنَّ السدَّ الذي بناه ذو القرنين كان لحماية البلاد الواقعة قريباً منه من شرِّ يأجوج ومأجوج وفسادهم من الجهة التي بُني فيها، وليس لِحَصْرهم حَصْراً كليّاً من جميع الجهات، فيصبحوا معزولين في بلادهم عزلاً تامّاً، لا يستطيعون الخروجَ منها من أي جهة، فلا يتَّصلون بأحد، ولا يتَّصل بهم أحد، فسدُّ ذي القرنين عَزَلَهم من جهة واحدة، ولم يعزلهم من جميع الجهات.

والقول بأنَّهم محصورون وراء السد من جميع الجهات ولا يزالون كذلك، يؤدِّي إلى القول بأنَّ رسالة الإسلام لم تبلغهم، وحجة الله عليهم بدعوتهم إلى الإيمان لم تقم عليهم، مع أنَّهم أكثر الناس، وهم محاسبون يوم القيامة، ومسؤولون عن كفرهم وعنادهم وفسادهم في الأرض، ومعذَّبون في نار جهنم، قال رسول الله ﷺ: «**يقولُ الله: يا آدمُ، فيقولُ: لبيكَ وسَعْديكَ، فيقولُ: ابعث بعثَ النارِ، فيقولُ: وما بَعْثُ النارِ؟ فيقولُ: مِنْ كُلِّ ألفٍ تسعُمئةٍ وتسعةٌ وتسعونَ**

إلى النارِ، وواحدٌ إلى الجنَّةِ، فحينئذٍ يشيبُ الصغيرُ، وتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، فقال: إنَّ فيكُم أمتينِ ما كانتا مِنْ شيءٍ إلَّا كثَّرتاه: يأجوج ومأجوج» [رواه البخاري (٦٥٣٠) ومسلم (٢٢٢)].

فيأجوج ومأجوج أكثر الأمم عدداً، فلا يُعْقَلُ أن يظلوا معزولين إلى قرب قيام الساعة دون أن تبلغهم دعوة الإسلام العامة الشاملة لكلِّ الناس، فمعنى هذا أنَّ رسالة الإسلام لم تصل إلى أكثر الناس.

والقول بأنَّ رسولَ الله ﷺ بلَّغهم دعوة الإسلام ليلة الإسراء، لا دليلَ على صحته، كما أنَّ القولَ بأنَّهم معزولون وراء السد عزلاً كاملاً إلى وقتِ ظهورهم وقرب قيام الساعة يتعارض مع الحديث الشريف الصحيح الذي سبق ذكره: «**ويلٌ للعربِ مِنْ شَرٍّ قدِ اقتربَ، فُتِحَ اليومَ مِنْ رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثل هذه**».

● **فتحت يأجوج ومأجوج:**

ويستدلُّ القائلون بأن يأجوج ومأجوج محصورون بالآية الكريمة في **سورة الأنبياء**: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦﴾.

فقوله: ﴿فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ يدل على أنَّهم كانوا محصورين قبل أن يفتح لهم بانهدام السد الذي حصرهم، ويكون هذا قبلَ قيام الساعة، لأنّه سبحانه قال بعد ذلك: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧﴾.

لكن هذا المعنى لا يُسلَّم لهم، لأنَّ الفتحَ يستعمل أيضاً في معنى الظهور والتمكُّن والغلبة، واستعماله بهذا المعنى شائع حتى في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ [الفتح: ١].

وقال أيضاً: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٢].

ويتعيَّن علينا أن نفسر الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ بهذا المعنى، أي: حتى إذا قدَّر الله ظهور يأجوج ومأجوج في الأرض، وغلبتهم عليها، وتمكنهم فيها.. ويتعيَّن علينا المصير إلى هذا المعنى في فهم الآية

لتنسجم مع ما ذكرتُه من الأحاديث النبوية الشريفة، فلا يوجد أدنى تعارض بين الآيات الكريمة وبين الأحاديث الشريفة، لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلَّا وحي يوحى، وعلى هذا ليس في الآيةِ ما يدلُّ على أن يأجوج ومأجوج محصورون وراء السد إلى قرب قيام الساعة.

• **تحقيق في حديث:**

بقي أخيراً أن نذكر الحديثَ الذي يحتج به القائلون بأنَّ يأجوجَ ومأجوجَ لا يزالون محصورين وراء السد، ومعزولين عن الناس، وهو حديثٌ أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» [٢/ ٥١١] والترمذي [٣١٥٣] وابن ماجه [٤٠٨٠]: من طريق **أبي هريرة** رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ لَيَحْفِرُوْنَ السدَّ كُلَّ يومٍ، حتَّى إذا كادوا يرونَ شعاعَ الشمسِ، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً، فيعودونَ إليه كأشدَّ ما كانَ، حتَّى إذا بلغتْ مدتُهم، وأرادَ اللهُ أن يبعثَهم على الناسِ حفروا، حتَّى إذا كادوا يرونَ شُعاعَ الشَّمسِ، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله، فَيَسْتَثْنِي، فيعودونَ إليه كهيئته حين تركوه، فيحفرونه، ويخرجون على الناسِ، فينشِّفون المياهَ، ويتحصَّنُ الناسُ منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماءِ، فترجعُ وعليها كهيئةِ الدمِ فيقولونَ: قهرنا أهلَ الأرضِ وعلونا أهلَ السماءِ، فيبعثُ اللهُ عليهم نَغَفاً في رقابهم، فيقتُلُهم بها**».

قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيدِهِ، إنَّ دوابَّ الأرضِ لتسمَنُ وتشكُرُ شكراً مِنْ لحومهم ودمائهم**». قوله: «**تشكَر**» تسمن.

إن عدَّة تساؤلات تثور في النفس عند قراءة هذا الحديث: كيف استمرَّ هؤلاء القوم يحفرون في السد آلاف السنين ولم يتسرَّبْ إليهم شيٌ من الملل أو اليأس من نقب السد؟! ولماذا يحفرون في الليل فقط؟! ثم كيف يتمكنون أخيراً من حفره والله سبحانه أخبر في كتابه العزيز أنهم لن يتمكنوا من نقبه: ﴿فَمَا

ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]؟! وكثيراً ما يعبر القرآن الكريم عن أمور في المستقبل بصيغة الماضي تأكيداً لمضمونها.

لعلَّ هذه التساؤلات هي التي حملت ابنَ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أن يقول: «إسناده جيد، ولكن في متنه نكارة، لأن ظاهر الآية أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا نقبه»(١).

ويعارضه أيضاً الحديث المتفق على صحته الذي سبق ذكره وهو حديث السيدة زينب: «**ويلٌ للعربِ مِنْ شَرٍّ قدِ اقتربَ، فُتِحَ اليومَ مِنْ رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ. . .**» الحديث.

وذهبَ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ إلى القول بأنَّ هذا الحديث يمكِنُ أن يكون مما روي عن كعب الأحبار، وهو من يهودِ اليمن، أسلمَ بعد موت النبي ﷺ، وسكنَ المدينة المنوَّرة، وروى عنه بعض السلف كثيراً من الإسرائيليات.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «لكنَّ هذا قد روي عن كعب الأحبار، أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلَّا القليل، فيقولون: غداً نفتحه، فيأتون من الغد وقد عادَ كما كان. . . وهكذا حتى يُلْهَمُوا أن يقولوا: إن شاء الله، فيصبحون وهو كما فارقوه فيفتحونه.

وهذا متَّجهٌ، ولعلَّ أبا هريرة تَلَقَّاه من كعبٍ، فإنَّه كثيراً ما كان يجالسه ويحدِّثه، فحدَّث به أبو هريرة، فتوهَّمَ بعضُ الرواة عنه أنَّه مرفوع، فرفعه، والله أعلم»(٢).

- **موقع السد:**

ولنا بعد أن اتضحت بعضُ الحقائق عن يأجوج ومأجوج أن نتساءلَ عن موقع سد ذي القرنين؟.

فلنتأمل مصوَّراً طبيعيّاً للبلاد الممتدة من أواسط آسية إلى أقصى شمالها الشرقي، حيث يلتقي المحيطان الهادي والمتجمد الشمالي، هذه البلاد هي المواطن الأصلية للمغول والتتار والترك، أو القبائل التي تسمَّى بالإستبس، هذه

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير.

(٢) المرجع السابق نفسه.

البلاد تشبِهُ ـ كما يقول مؤلف كتاب «المغول» ـ إسكندناوة، في كونها مستودعاً للأمم، ومنها خرجت غارات المتبربرين(١).

والإستبس: أقوامٌ بدوية كانت تمارس ضغطاً على الإمبراطوريات المتمدنة الواقعة إلى الجنوب والغرب منها، وهذا الضغط تطور من اعتداءات انتقامية إلى غارات للفتح والتوسع(٢).

وبناءُ السدود حول بلاد هذه القبائل المتوحشة لدفع شرهم، كان أمراً معروفاً في البلاد المتاخمة لهم.

ولم تكن فكرةُ بناء السد جديدةً على أهل البلاد المتاخمة لهم عندما: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤]؛ إذ قام الصينيون القدماء الذين يسكنون إلى الجنوب من بلاد المغول والتتار، ببناء سور الصين العظيم لحماية بلادهم من هجمات هذه القبائل البدوية المتوحشة.

ومع ذلك لم تسلم الصين من شرهم، إذ تمكَّنوا من اجتياز سور الصين من ناحية الغرب، ودخلوا الصين، واستولوا على الحكم فيها بعد أن استأصلوا «أسرة كين» التي كانت تحكم شمال الصين(٣).

إذن فلشعوب الصين صلةُ نسبٍ قوية وكبيرة بالمغول والتتار، أو ما يُسمَّى شعوب الإستبس والتنجور والترك(٤).

والمتأمل للتضاريس والجبال في هذه البلاد الشاسعة يلاحظ أنها شبه معزولة من جهة الجنوب الغربي بكتل هائلة من السلاسل الجبلية الشاهقة، والتي تعدُّ أكبرَ وأعلى الكتل الجبلية في الأرض، فسلاسل جبال (تيان شان) و(ألتاي)

---

(١) كتاب: المغول، للباز الْعُرَيْني، طبع دار النهضة.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) المرجع السابق نفسه.

في الشمال الغربي تمتدُّ إلى الجنوب حيث تواجهها جبال الهملايا، لتطوق فيما بينها بلاد منغولية وتركستان وشمال آسية، وتفرقها عن وسط آسية والهند.

وهذا يجعلنا نعتقدُ احتمالَ وجود سد ذي القرنين بين سلاسل هذه الجبال، وقد أكَّد هذا الاحتمالَ ما ذكره المراغي صاحبُ التفسير عن «مجلة المقتطف» فقال: يأجوجُ هم التتار، ومأجوج هم المغول، يسكنون الجزء الشمالي من آسية، وتمتدُّ بلادهم من التبت والصين إلى المتجمد الشمالي، وغرباً إلى تركستان، وقد ذكر مؤرِّخو العرب والإفرنج أن هذه الأمم كانت تغير في أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها، فكثيراً ما أفسدوا في الأرض، ودمروا كثيراً من الأمم، ومنهم من ذهبَ إلى أوربة في العهد القديم كالتحيت والسمريان والهون، وكثيراً ما أغاروا على بلاد الصين وآسية الغربية...

وقد كشفوا في القرن الحاضر آثار سدٍّ قديم بجبال القوفاز، ويسمَّى باب الأبواب، أو دربنت، وهو غيرُ السدِّ الشهير الذي بناه ذو القرنين، فإنَّ هذا وراء نهر جيحون في عمالة بَلْخٍ، واسمه باب الحديد، بمقربة من مدينة تِرْمذ، وقد اجتازه تيمورلنك بجيشه، ومرَّ به أيضاً شاه روخ، وكان في بطانته العالم الألماني سيلدبرجر، وذكر السد في كتابه، وكان ذلك في أوائل القرن الخامس عشر، وكذلك ذكره المؤرخ الإسباني كابنجو في رحلته سنة (١٤٠٣م)، وكان رسولاً من ملك كستيل (قشتالة) بالأندلس إلى تيمور لنك، وقال: إنَّ سدَّ باب الحديد على الطريق الموصل بين سمرقند والهند. انتهى ملخصاً من مقتطف سنة (١٨٨٨م)، وبذلك تعلمُ أنَّ السد موجودٌ فعلاً[1]، والله سبحانه أعلم.



---

(١) انظر: تفسير المراغي.

خاتمة السورة

التَّعقِيبُ الأخيرُ

﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾.

ويأتي التعقيبُ في آخر سورة الكهف منسجماً مع موضوعها الأساس، ومؤكداً ارتباط آيات السورة بعضها ببعض ارتباطاً محكماً، وشدة انسجامها واتفاقها مع موضوعها.

فبعد أن ختمت الآيات حديثها عن ذي القرنين بحكاية قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]؛ ذكرت بعض مشاهد يوم القيامة، يوم الوعد الحق:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩)﴾.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يوم يختلط الإنس والجن،

ويموج بعضهم ببعض، بعد أن يُنفخَ في الصور نفخة البعث من القبور.

﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ وجمعنا الخلائق ليوم النشور.

يوم تُعْرَضُ جهنَّم على الكافرين لِيَرَوْا ما ينتظرهم فيها من أهوال العذاب، وأنواع النكال، فيزدادُ حزنهم وهمُّهم:

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾.

وقد بيَّن النبي ﷺ كيفية هذا العرض فقال: «**يُؤْتَى بجهنَّمَ تُقادُ يومَ القيامةِ بسبعينَ ألفَ زمامٍ، مَعَ كُلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ مَلَكٍ**» [رواه مسلم (٢٨٤٢)].

- **أعين وقلوب:**

ووصف الله تعالى الكافرين الذين تُعرض جهنم عليهم، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ أي: تغافلوا وتعاموا وتصامموا عن قبول الهدى واتباع الحق، بسبب ما شُغلوا به من أسباب الفتن من مالٍ وجاهٍ وأولادٍ، وعلمٍ وحكمٍ وسلطانٍ وشيطانٍ، مما سبق ذكره في آيات سورة الكهف.

بينما مرَّ معنا قبل ذلك آية كريمة توافقها في المعنى، إلَّا أنها ذكرت القلوب: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الكهف: ٥٧].

ولعلَّ سبب ذكر الأعين هنا انكشاف المغيبات وظهور المستورات، ووضوح المرئيات، هذه جهنمُ أمامهم تُعرَضُ عليهم بما فيها من أنواع العذاب والنكال، يرونها بأعينهم.

أما الآية الثانية فقد جاءت في مجال التذكير والدعوة إلى الإيمان، فالكفَّار لا يزالون في الدنيا، ولا تزال الحقائق مستورةً عن أعينهم، وإن كانت ظاهرةً بأدلتها القاطعة، وبراهينها الساطعة، والقلبُ محل إدراك البراهين، وموضع التصديق بالآيات، ولكنَّ قلوبهم حُجبت عن رؤية الحقائق والتصديق بالآيات

بما غلب عليها من أسباب الفتن وشواغلها: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

• **تهكُّم وإنكار:**

وماذا أعدَّ الكافرون لهذا اليوم؟ وأين الذين اتخذوهم من دون الله تعالى أولياء وأنصاراً؟.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾؟! إنَّ ما في هذا الاستفهام والتساؤل من مرارةِ التهكُّم والإنكار لينسجمُ كلَّ الانسجام مع ما مرَّ معنا في قوله سبحانه وهو يستنكرُ اتخاذ بعضِ الناسِ الشيطانَ وليّاً لهم من دون الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وتزداد مرارة التهكُّم والإنكار في قوله تعالى بعد ذلك:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ لأن النُّزُلَ هو ما يقدَّمُ للضيف من طعام وغيره، فكيف تكون جهنم نزلاً لهم؟!.

وقد سبق أن مرَّ معنا أيضاً في سورة الكهف قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾.

ثم تلتفت الآيات تخاطب النبي ﷺ تنويهاً بذكره وتشريفاً لقدْرِه عليه الصلاة والسلام:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾.

كانوا مفتونين بأعمالهم، ومعجبين بها، فَسَعَوا في تحصيلها، وكابدوا في تحقيقها، فضاع سعيهم، وبطل عملهم، عملوا وتعبوا، وظمئوا من أجل سراب

خـــادع: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

فخسارتهم أعظم خسارة، وندامتهم أشد ندامة.

ثم بيَّن الله تعالى سببَ بطلان عملهم وسقوط سعيهم فقال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾ جحدوا آيات الله وبراهينه التي جعلها دلائل وحدانيته، وبراهين صدق أنبيائه ورسله، وكذَّبوا بيوم القيامة، ولهذا:

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾، نزدري بهم، ونحتقرهم، ولا نجعلُ لهم مقداراً ولا اعتباراً.

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ليأتي الرجلُ العظيمُ السمينُ يومَ القيامةِ لا يَزِنُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ. اقرؤوا إن شئتم:** ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾» [رواه البخاري (٤٧٢٩) ومسلم (٢٧٨٥)].

تأمل أخي القارئ كيف جاءت الآيةُ مُنسجمةً مع قصة المتكبرين من مشركي قريش، المفتونين بمالهم وجاهِهم، الذين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يبعدَ عن مجلسه فقراء المسلمين، لأنَّهم يتأذّون برؤيتهم، التي سبق ذكرها في موضوع: فتنة الغنى والفقر، ومنسجمة أيضاً مع قصة صاحب الجنتين المفتون بماله وولده وخدمه وحشمه حتى قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

ما أعدلك ربي، تقدَّسَتْ ذاتُكَ، وتسامتْ صِفَاتُك، في قولك الكريم:

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

وما أجملَ قول الحق بعد ذلك، وما أعذبَ موقعه على قلب المؤمن:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾.

تلك هي الضيافة الكريمة الحقة التي يكرم اللهُ تعالى بها عباده المؤمنين الصالحين، وذلك هو المنزل الطيِّبُ الرفيع، جنات الفردوس أوسط المنازل وأرفعها وأكرمها.

قال رسول الله ﷺ: «**إذا سَأَلْتُمُ اللهَ الجنَّةَ فاسألوه الفردوسَ، فإنَّه أعلى الجنَّة وأوسطُ الجنَّةِ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ**» [رواه البخاري (٢٧٩٠)].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾.

تعلَّقت بها قلوبُهم ونفوسُهم، فلا يختارون غيرها، ولا يحبُّون سواها، ولا يملّون فيها، ولا يسأمون منها، مع طول المكث فيها والخلود. كما قال الشاعر:

فحلَّتْ سُوَيْدَا القلبِ لا أنا باغياً سِوَاهـا ولا عَـنْ حُـبِّـهَـا أَتَـحَـوَّلُ

• **كلمات الله تعالى:**

وتلتفتُ الآياتُ الكريماتُ مرةً ثانيةً إلى النبيِّ ﷺ تخاطبه لأنه يبلِّغ وحي الله تعالى ويبيِّنه للناس:

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾.

أين المفتونون بعلومهم، والمغرورون بمواهبهم وإمكاناتهم؟! إن أجمل شيء أمام هذه الآية أن نمسكَ أقلامنا وألسنتنا فلا نكتبُ ولا نتكلَّمُ، ونترك عقولنا وأفكارنا وقلوبنا حرةً طليقةً تحلِّقُ فوق صفحات البحار الممتدة امتداد الآفاق، تكلُّ العقولُ، وتنقطعُ الأفكارُ، وتمتلئُ القلوبُ دونَ أن تحيطَ بمِداد الكلمات الربانية: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

فما قَدَروا الله حقَّ قدره، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يقدِّرَ قدر كلمات الله تعالى وعلومه وحِكَمه.

إنَّ ربنا ﷻ كما يقولُ وفوقَ ما نقول، سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنتَ كما أثنيتَ على نفسك.

وتُختم السورة بخطاب ثالث للنبيِّ ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فهو ﷺ بشر كسائر البشر، وإنَّما تميز عنهم بما أوحى الله تعالى إليه:

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وطريق الوصول إلى رضوانه ورحمته:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ هذا هو سبيل النجاة وكهف السلامة؛ الإيمان بالله سبحانه وحده، والعمل الصالح الخالص لله على هدي شريعة رسول الله ﷺ.





١٩

تفسير سورة مريم

التَّوْحِيدُ والتَّنْزِيهُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

أما بعد: فإنَّ مدار إيمان المسلم يقومُ على توحيد الله تعالى، وتنزيهه عن صفات النقص والعجز والضعف، ومنها الاتصاف بصفات الولادة والولد. ولقد ضلَّ بهذا كثيرٌ من الناس، ووقعوا في مهاوي الشرك، وزاغوا عن التوحيد، لأنَّهم لم يفرِّقوا بين صفات الخالق جل وعلا وبين صفات المخلوقين، فوصفوه سبحانه ببعض صفات خلقه، وغلَوا في بعض عباده ورسله، فرفعوهم عن مقام العبودية لله تعالى إلى مقام الألوهية، فضلُّوا وأضلُّوا.

لقد اهتمَّ القرآن الكريم بموضوع توحيد الخالق سبحانه وتنزيهه اهتماماً كبيراً، فهو أهم قضايا الإيمان وأعظمها، تتمثل فيه أكبر جوانب المواجهة بين المسلمين الموحِّدين وبين أهل الكتاب الزائغين الضالين، وقد حشد القرآنُ الكريم لهذا الموضوع كثيراً من الأدلة والبراهين، في عدد كبير من آياته وسوره.

وسورةُ مريمَ إحدى أمهات السور التي تناولت جانباً كبيراً من هذا الموضوع، وقد جاءت متمِّمةً **لسورة آل عمران**، ومؤكدةً على توحيد الله تعالى

وكماله وغناه، وتنزهه جَلَّ وعلا عن الاتصاف بصفة الولادة والولد، مع بيان حقيقة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمه، وحقيقة عبوديتهما لله تعالى.

وسيلاحظ القارئُ التكاملَ بين السورتين، بكثرة النقول التي سيجدها في هذا الكتاب عن تفسير سورة آل عمران في هذه السلسلة، فالقرآن الكريم كلام الله تعالى يشبه بعضُه بعضاً، ويكمِّل بعضُه بعضاً، وتتجه آياته وسوره كلها لتبيِّنَ جوهر الإِيمان، وحقيقة الإِسلام القائم على الاعتقاد بوحدانية الله تعالى في ذاته، وصفاته، وأفعاله جَلَّ جَلَالُهُ.

أسألُ الله تعالى أن يثبتنا على الإِيمان، وأن يميتنا عليه، وأن يحشرنا يومَ القيامةِ تحت لواء خاتم النبيين، وإمام الموحدين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.





الفصل الأول

قِصَّةُ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى عليهما السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

- **الحروف المقطَّعة النُّورانية:**

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾.

وتقرأ: كاف، ها، يا، عَيْن، صاد.

افتتح الله تعالى سورة مريم بهذه الحروف الخمسة، ولم تُفتتح سورةٌ بمثل

هذا العدد من الحروف سوى هذه السورة، وسورة الشورى التي افتتِحت بقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ [الشُّورى].

ولا شكَّ أنَّ زيادة المبنى تدل على زيادة في المعنى، ومعاني هذه الحروف أسرارٌ تحيَّرت فيها الأفكارُ، وأتعبت أولي البصائر والأبصار! فعادوا بعدَ طول التدبُّر والتأمل محسورين، مقرِّين بالعجز والقصور عن الإحاطة بمعاني التنزيل الحكيم، المعجز، المتشابه، المثاني، المبين، وهم يتلون قوله الكريم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

فكلام العليم الحكيم لا تنتهي عجائبه، ولا تُحَدُّ فوائده وفرائده، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد، ولا تنتهي معانيه إلى حد، وهذا وجهٌ من وجوه إعجازه ينفرِدُ به عن سائر الكلام.

ولهذا قالوا: إنَّ الحروف المقطَّعة التي في أوائل بعض سوره تدل على إعجازه، وعجز الخلق عن الإتيان بمثل سورة من سوره، وحروفُه قريبةٌ منهم، وفي متناول أيديهم.

ولقد انتصر لهذا الرأي ابنُ كثير في تفسيره، فبعدَ أن ذكره وذكر العلماءَ الذين ذهبوا إليه قال ﵀: «ولهذا، كُلُّ سورةٍ افتُتِحَتْ بالحروف فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء في تسع وعشرين سورة، مثل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة]. وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر»[1].

وقد اعترضَ بعضُهم على استقراء ابن كثير بثلاث سور افتُتِحَت بالحروف المقطعة، ولم يذكر فيها الانتصار للقرآن، وهي: **سورة مريم، وسورة العنكبوت، وسورة القلم.**

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، المقدمة.

إلا أنَّ هذا **الاعتراضَ يسقط** إذا تأملنا آياتِ هذه السور كلها، ففي بعضِها ذكر للقرآن الكريم، وتأكيدٌ على أنه كلام الله تعالى، كما سيمرُّ معنا **في سورة مريم**: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾.

وقوله **في سورة العنكبوت**: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

وقوله تعالى **في سورة القلم**: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

- **موضوع سورة مريم:**

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾﴾.

تضمَّنتْ هذه الآيةُ الكريمةُ العناصر الأساس لموضوع سورة مريم، وهي: الربُّ، والعبدُ، ورحمةُ الربِّ للعبد، وحاجةُ العبدِ للربِّ، وكمالُ الربِّ ﷻ في غناه عن كُلِّ ما سواه، وفي رحمته وإحسانه لعبيده، ولهذا سنرى في آيات السورة تركيزاً على الاسم الكريم الرحمن، الذي يدلُّ على غاية الإحسان، وكمال العبد في تذلله وعبادته لربه ومولاه، والأنبياء عليهم السلام أكثرُ الخلق عبادةً وتذللاً لله تعالى، فهم الأنموذج الإنساني الكامل للكمال البشري بما امتازوا به من كمال العبودية لله تعالى.

- **زكريا** عليه السلام:

وزكريا واحدٌ منهم، وقد أبرزتِ الآياتُ من خلال عرضها لقصته مدى تذلله لله تعالى، وافتقاره لربه ومولاه، زكريا مثالٌ لكُمَّل الرجال، الذين يتصفون بأكرم الخصال، ويتحلَّون بأسمى الخلال، يحملون أنقى القلوب، وأصفاها، وأتقاها، وتنطوي سرائرُهم وضمائرُهم على أرق المشاعر الإنسانية، وألطفها، وأزكاها.

زكريا عليه السلام العبدُ الإنسان، عبدَ الله تعالى وحدَه، ولم يعبد سواه، استشعر عبوديته لله تعالى، وافتقاره إليه، وحاجته إلى فضله وإحسانه، فسأله ودعاه، وأقبل عليه ضارعاً يُناديه ويُناجيه، يستنزل رحمته عليه، ويستمدُّ منه معونته وفضله.

وزكريا إنسانٌ تفورُ في قلبه أكرم العواطف الإِنسانية، وأنبل المشاعر الوجدانية، لم تستطع عقود السنين الطويلة التي عُمِّرها أن تخمد عواطفه الإِنسانية، أو تضعف مشاعره الوجدانية، ضعفت بنيته، ووهن عظمه، وشابَ شعرُه، وبقيت عاطفة الإِنسان في قلبه ونفسه في ريعان شبابها وصباها، بل إنها كانت تزداد قوة كلَّما تسرب الوهن والضعف إلى جسده، وظلَّت في قفصها الضعيف تضطرب في جنباته، وتغلي في داخله.

وهذا ما يسمِّيه علماءُ النفس بـ (التعويض)، الذي هو وسيلة دفاعية لمواجهة الشعور بالنقص، فعاطفةُ الأبوة والأمومة عند الإِنسان مصدرها شعوره بالضعف والنقص، والولدُ تعويضٌ عن النقص والضعف عنده، لأنه امتداد له بعدَ الموت، وتعويضٌ عمَّا يصيبه من نقص وعجز عند الهرم والشيخوخة، فلا عجبَ أن تقوى عاطفةُ الأبوة والأمومة كلَّما ازداد شعور الإِنسان بالضعف، واقترب منه أجله الذي تنتهي فيه حياته.

● **الولادة والولد من صفات النقص:**

ولهذا فإنَّ وصْفَه سبحانه بصفة الولادة والولد، معناه اتصافه جل وعلا بصفة النقص، والعجز، والموت، والفناء، والانتهاء، وهو سبحانه الواحدُ الأحدُ، الفردُ الصمدُ، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفُواً أحد.

هو سبحانه القديم الأول أزلاً، وهو سبحانه الباقي الآخر، الدائم الوارث، الذي لا ينتهي ولا يزول أبداً، يتنزَّه عن الولادة والولد، حي قيوم غني قاهر قوي، تقدَّست ذاتُه، وتسامت صفاتُه، جَلَّ جَلَالُهُ.

وإذا كان كمالُ الإِنسان في عبوديته لله تعالى وتذلله له، وخضوعه لأمره وشرعه، فإن كماله جل وعلا في غناه ووحدانيته، وكبريائه، واقتداره.

فكمالُ المخلوق في العبودية، وكمال الخالق في الغنى والوحدانية، سُبُّوح قُدُّوس رب الملائكة والروح، ورب كل شيء ومليكه:

﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر: ٦٢].

﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن].

هذه هي المعاني الأساس الكبرى في موضوع سورة مريم، مريم الفتاة العذراء، البَتول، مريم الصِّدِّيقة، الطاهرة، المنذورة، ربيبة الأصفياء والأتقياء، مريم أم العبد النبيِّ الرسول عيسى عليه السلام، اللَّذَيْن ضَلَّ بسببهما كثيرٌ من الناس، فوقعوا في مهاوي الشرك والضلال، فوصفوا الله تعالى بصفاتٍ لا تليقُ بكماله وجلاله ووحدانيته وغناه، وما قِصّةُ نبي الله زكريا عليه السلام إلا تمهيد لها.

• **ملاحظة هامة:**

ذكر الله تعالى بداية القصة في **سورة آل عمران**، وأكملها في **سورة مريم**، وهنا ملاحظةٌ جديرةٌ بالتذكير، فقد نزلت سورة مريم في السنوات الأولى من البعثة النبوية الشريفة، قبل أن يهاجِرَ بعضُ الصحابة إلى الحبشة فراراً من أذى المشركين في مكة، دلَّ على ذلك أنَّ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أحدَ المهاجرين إلى الحبشة، قرأ صَدْرَ سورة مريم على النجاشيِّ ملكِ الحبشة.

فعن **أم سلمة** رضي الله عنها ـ وكانت من المهاجراتِ إلى الحبشةِ ـ قالتْ: أرسلَ النجاشيُّ إلى أصحابِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فدعاهم، فلما جاءهم رسولُهُ اجتمعوا، ثم قال بعضُهم لبعضٍ: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقولُ واللهِ ما علَّمنا وما أَمَرَنا به نَبِيُّنا صلى الله عليه وسلم، كائناً في ذلك ما هو كائنٌ.

فلمَّا جاؤوا، وقد دعا النجاشيُّ أساقفتَهُ، فنشروا مصاحِفَهم حولَهُ، سألهم فقالَ لهم: ما هذا الدِّينُ الذين فارقتُمْ به قومَكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دينِ أحدٍ من هذه المِلَلِ؟.

فكان الذي كلَّمه جعفرُ بنُ أبي طالب فقال له: **أيها الملك، كنا قوماً أهلَ جاهليةٍ، نعبدُ الأصنامَ، ونأكلُ الميتةَ، ونأتي الفواحشَ، ونقطعُ الأرحامَ،**

ونُسِيْءُ الجوارَ، ويأكلُ القويُّ منا الضعيفَ، فكنا على ذلكَ حتَّى بعثَ الله إلينا رسولاً منا، نعرِفُ نسبَهُ، وصِدْقَهُ، وأمانتَهُ، وعفافَهُ، فدعانا إلى اللهِ لنوحِّدَهُ ونعبدَهُ ـ قالت: فعدَّدَ عليه أمورَ الإِسلامِ ـ فصدقناه وآمنا به. . . فعدا علينا قومُنا فعذَّبونا، وفتنونا عن ديننا. . . فلمَّا قهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا خرجنا إلى بلادِكَ، ورغبنا في جوارِكَ، ورجونا ألا نُظْلَمَ عندَك أيها المَلِكُ.

فقال له النجاشيُّ: هل معك ممَّا جاء به عن اللهِ مِن شيءٍ؟.

فقال له جعفرُ: نعم.

فقال له النجاشيُّ: فاقرأه عليَّ.

فقرأ عليه صدراً من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ فبكى واللهِ النجاشيُّ حتى اخضلَّت لحيتُه، وبكت أساقفتُهُ حتى أخضلوا مصاحِفَهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال النجاشيُّ: إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرجُ من مشكاةٍ واحدةٍ.
[رواه ابن إسحاق في السيرة (١/ ٩٠) مطولاً، وأحمد في المسند (٥/ ٢٩٠)].

بينما نزلت معظمُ آياتِ **سورة آل عمران** في السنة التاسعة من الهجرة، بسبب قدوم وفد نصارى نجران على النبيِّ ﷺ، ومجادلتهم له حول حقيقة عيسى عليه السلام، فأنزل الله تعالى في **سورة آل عمرانِ** الحلقاتِ الأولى من قصة عيسى عليه السلام وأمه مريم، بيَّنَ فيها حقيقة عبوديته لله تعالى، وأنه تعالى خلقَهُ كما خلقَ آدم عليه السلام، وأنَّ دين الله تعالى هو الإِسلامُ، القائمُ على الاستسلام الكامل لله تعالى وحده، والانقيادِ لأمره وشرعه، وهو الدينُ الذي دعا إليه جميعُ الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وأنَّ القرآن الكريم يشهدُ بصدق نزولِ التوراةِ على موسى، ونزولِ الإِنجيلِ على عيسى عليهما السلام[١].

فبدايةُ قصة عيسى عليه السلام وأمه في **سورة آل عمران**، وقد تأخَّرَ نزولُها حتى

(١) انظر: تفسير سورة آل عمران، الذي أسميناه في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران).

السنة التاسعة من الهجرة، وتتمة القصة في **سورة مريم** وقد تقدَّمَ نزولها في السنوات الأولى من بعثته عليه الصلاة والسلام.

وقد ركزت آيات **سورة آل عمران** على شخصية مريم، فأبرزت عناية الله تعالى بها منذُ أن كانت جنيناً في رَحِمِ أمها، كما ركزت الآياتِ أيضاً على المعجزات التي أجراها الله تعالى على يد عيسى عليه السلام تأييداً لنبوته، وبيَّنَتْ مضمونَ رسالته التي أرسله الله بها، وهذه الجوانب تتفق مع الموضوع الأساس **لسورة آل عمران**، وهو بيانُ أنَّ القرآن الكريم هو الفرقان بين الحق والباطل، وهو المصدِّقُ للتوراة والإنجيل، فكل ما يوجد فيهما مما يخالف القرآن الكريم ويعارضه لا صِحَّةَ له ولا أصل، بل هو طارئٌ عليهما بسبب التحريف والتغيير اللذين حدثا فيهما، وتتفق أيضاً مع سبب نزول الآيات، وهو احتجاجُ نصارى نجران على مزاعمهم الباطلة في عيسى عليه السلام بالمعجزات التي أجراها الله تعالى على يديه تأييداً لصحة نبوته وصدق رسالته.

بينما ركزت الآيات في سورة مريم ـ كما سيأتي ـ على كيفية حملها بعيسى عليه السلام، وولادتها له، وعنايته سبحانه بها في أثناء ذلك، وكيفية مواجهتها لقومها بعد ولادتها، وكلام عيسى عليه السلام في المهد دفاعاً عن أمه، وبياناً لحقيقته، ثم اختلافُ النصارى في حقيقته، وتخبطهم فيها، وكل هذه الجوانب لها صلةٌ كبيرةٌ بالموضوع الأساس للسورة، وهو بيان كمال الله تعالى وغناه، ووحدانيته، وتنزهه عن الشريك والصاحبة والولد.

وهذا يدلنا على أنَّ نزول القرآن الكريم على حسب المناسبات يختلفُ عن ترتيب آياته في السور، وأنَّ اختلافَ ترتيب نزوله عن ترتيبه في السور لم يؤثر على اتساق آياته واتفاقها فيما بينها، مما يظهِرُ وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم، فتفرق نزوله منجماً على مدى ثلاث وعشرين سنة لم يؤثِّر على إحكامه واتساقه، ممَّا يؤكدُ أنَّه من كلام الله تعالى، الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

- **الرب سبحانه والعبد:**

ومعنى قوله تعالى:

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ أي: هذا الذي نتلوه عليك ذكرُ رحمةِ ربك عبده زكريا، وكان نبيّاً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل، وفي «**صحيح مسلم**» [٢٣٧٩]: أنَّه كان نجاراً، يعمل من عمل يده في النجارة(١).

والخِطابُ في الآية للنبيِّ ﷺ، وأضيفت كافُ الخطاب إلى اسم الله تعالى (**الرب**) ومعناه: المالك المدبر الخالق، ووصف زكريا عليه السلام بصفة العبودية لله تعالى، وهي أشرفُ الصفات التي يتَّصف بها العبدُ، وينتسب بها للرب جل جلاله، وقد وصف بها نبينا ﷺ في آياتٍ كثيرةٍ، منها:

قوله عز وجل: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقوله أيضاً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف: ١].

وهذا يؤكد أنَّ محمّداً وزكريا عليهما الصلاة والسلام مخلوقان من خلق الله تعالى، لم تزحزحهما النبوةُ التي شرَّفهما الله تعالى بها عن مقام عبوديتهما لله جل وعلا.

وتدلُّ رحمةُ الله تعالى عبده زكريا على حاجة العبد للرب، وأنَّ العبدَ مهما ترقَّى في مدارج الكمال يبقى محتاجاً لفضل ربِّه وإحسانه، وأنَّ الربَّ سبحانه رحيمٌ بعباده، فما خلقهم ليعذبهم، إنَّما خلقهم ليشرِّفهم بعبادته، ويكرمهم بطاعته، ويسعهم برحمته وإحسانه، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

ولعلّ هذا سر تكرار السورة للاسم الكريم (**الرحمن**) الذي يدلُّ على كمال الغنى والإحسان، ويشير إلى افتقار الإنسان وحاجته إلى رحمة ربه الرحمن.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٤٢.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾.

أي: عندما سأل الله تعالى ودعاه دعاءً سرّاً.

ومن المعلوم أنَّ الإخفاء والجهر بالنسبة لله تعالى سواء، إلا أنه عند العبد أشدُّ إخباتاً وخضوعاً، وأكثر إخلاصاً وخشوعاً، فهو أحب إلى الله تعالى القائل: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

- **في محراب مريم:**

ويبدو أنَّ دعاء زكريا عليه السلام قد تكرر، وأنَّ المرة الأولى كانت في محراب مريم، فقد أكرم الله تعالى مريم بكفالة نبي الله زكريا عليه السلام، وكان زوجَ أختها كما ورد في حديث الإسراء والمعراج الصحيح، فعندما رأى النبيُّ ﷺ يحيى وعيسى في السماء، قال: «**فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة**»، ورأى بعضُ المفسرين: أنَّ زكريا كان زوجَ خالةِ مريم، ويمكِنُ بهذا القول أيضاً أن يكون يحيى وعيسى عليهما السلام ابني خالة.

وكانت كفالة زكريا لمريم معجزةً له عليه السلام، وتكرمة لمريم الفتاة الصغيرة المنذورة، التي نذرتها أمها، وهي لا تزال جنيناً في بطنها، وتلك هي بدايةُ القصة المليئة بخوارق العادات والمعجزات، بدأت في بيتِ آل عمران، من بيوت العلم، والعبادة، والصلاح في بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران].

وجاء قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ معترضاً في أثناء كلام امرأة عمران، لتعظيم المولودة التي وضعتها، وتفخيم شأنها، وما قدر سبحانه أن يجري من الأمور العظيمة الخارقة على يد هذه المولودة.

وختمتِ الأمُّ الصالحةُ دعاءها بتعويذ الوليدة المنذورة وذريتها بالله ﷻ من شر الشيطان الرجيم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما مِنْ مولودٍ يولَدُ إلا مَسَّهُ الشيطانُ حينَ يُوْلَدُ، فيستهلُّ صارِخاً مِنْ مَسِّ الشَّيطانِ إِيَّاهُ، إلا مريمَ وابنَها**» [رواه البخاري (٤٥٤٨) ومسلم (٦١٣٣)].

ويدل الحديث على أنه لم يكن لمريم ذرية إلا عيسى عليه السلام، خلافاً لما في الأناجيل التي يتداولها النصارى[١].

وحملت الأمُّ الصالحةُ وليدتها المنذورة إلى الأحبار والرهبان في المسجد، فاختلفوا في كفالة مريم، كل واحد يريدُ أن يكفلها ويشرف برعايتها، وهذا يدل على أنَّ مريمَ ولدت في بيت معروف بينهم بالصلاح والعلم والعبادة، ثم اتفقوا بعد الاختلاف على الاقتراع، وألقوا أقلامهم في النهر، فحمل تيارُ الماءِ أقلامَهم، وثبت بقدرة الله تعالى قلمُ زكريا عليه السلام، فعرفوا أنَّ الله تعالى أرادَ أن يكون زكريا كافلاً لمريم وراعياً لها، وهو سِرُّ قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

والآية تدلُّ على أنَّ زكريا عليه السلام خصص لها في المعبد مكاناً خاصّاً لتعبدَ الله فيه، وما كانَ أحدٌ يدخل عليها غيره، وأنه عليه السلام كلَّما دخل عليها مكانَ عبادتها وجدَ عندها رزقاً ـ أي: طعاماً ـ وهذا يدل على أنَّ الله تعالى كان يرزقُها ما تحتاجُ إليه من الطعام، وهي في داخل محرابها، وما كانت تحتاجُ إلى

---

(١) انظر: تفسير سورة آل عمران، الذي أسميناه في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران).

الخروج ومخالطة الناس طلباً للرزق والطعام، فقد كفاها ربُّها ﷻ المؤونة بما يسَّر لها من المعونة.

وكلمة **(كلَّما)** تدل على التكرار والاستمرار، مما يدل على النشأة الكريمة العفيفة التي نشأت عليها مريم، وأنَّ هذه الكرامة قد تكررت لها.

ويتعجَّبُ النبيُّ الكريم مما يرى من طعام ورزق عندها، فيسألها سؤال المتعجب: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أي: من أين يجيء لك هذا الطعام والأبواب مغلقة عليك؟! فتجيبه الفتاة الصالحة الطاهرة جواب الواثق بربه، المطمئن إلى فضله ورحمته: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

أثارت هذه الفتاةُ الصالحةُ العابدةُ مشاعر الأبوة في قلب النبي الكريم زكريا عليه السلام، فتوجَّه إلى الله تعالى بضراعة وخشوع، يسأله الذرية الطيبة الصالحة: ﴿هُنَالِكَ﴾ في محراب مريم ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

- **دعاء خفي:**

ثم كرر عليه السلام الدعاءَ خالياً بنفسه في محراب عبادته:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ أي: ضعف.

وخَصَّ العظم بالذكر لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصلبُ ما فيه، فإذا وهنَ العظمُ كان غيرُه من البدن أوهنَ أو أضعفَ.

﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي: انتشر في رأسي الشيبُ.

ولا ترى كلاماً أفصح من هذا وأبلغ، فقوله: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ دل على شمول الوهن كلَّ العظامِ فرداً فرداً، وقوله: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ فيه إسنادُ الاشتعالِ إلى مكانِ الشعرِ ومنبته وهو الرأس، فأفاد شمول الاشتعال الرأس كله[1].

---

(١) انظر: تفسير النسفي: ٤/ ١٤٦.

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي: كنتُ مستجابَ الدعوة قبلَ اليومِ، سعيداً به، غير شقي فيه، والعربُ تقول: سعدَ فلانٌ بحاجته: إذا ظفرَ بها، وشقي: إذا خابَ ولم ينلها[1].

فقد عوَّده سبحانه الإِجابة وأطمعه فيها، والكريم لا يخيب من أطمعه بفضله، وعوَّده على إحسانه وكرمه.

● **من آداب الدعاء:**

وهذا يدلُّ على أنَّ زكريا عليه السلام ما كان مردودَ الدعاء البتة، وقد توسَّلَ إلى الله تعالى هذه المرة من وجهين:

أولهما: أنه توسل إلى الله بالله: كما قيل: إنَّ محتاجاً سأل واحداً من الأكابر فقال: أنا الذي أحسنتَ إليَّ وقت كذا. فقال: مرحباً بمن توسَّلَ بنا إلينا. ثم قضى حاجته. فالمنعِمُ لا يسعى في إحباطِ إنعامه الأول، ولو ردَّه ثانياً لكان رده محبطاً للإِنعام الأول.

وثانيهما: أن مخالفة العادة شاقة على النفس: فلو تعوَّدَ إنسان على إجابة الدعاء، وصار بعد ذلك مردوداً، لكان في غاية المشقة، وزكريا تعوَّدَ على فضل الله تعالى، وإجابته لدعوته، فلو أنَّه سبحانه رده بعد أن وهن عظمه، وشابَ شعر رأسه، لكان ذلك غاية الألم والشقاء له[2].

وقد علَّمنا زكريا عليه السلام بهذا الدعاء أدباً من آدابه، وهو إظهار الضعف والافتقار إلى فضل الله تعالى ورحمته قبل سؤال حاجته، عرض عليه السلام فاقته أولاً، ثم سأل حاجته، واختار من أسماء الله الحسنى الاسم المناسب لحاله: ﴿قَالَ رَبِّ﴾، ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، ولذلك قيل: إذا أراد العبدُ أن يُستجاب له دعاؤه، فليدع الله تعالى بما يناسبه من أسمائه وصفاته[3].

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ١٤٧.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ٢١/ ١٨٣.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود: ٣/ ٢٥٤.

واسم (الرب) يناسبُ حال تذلل الإنسان وضعفه وافتقاره، ولهذا نجد أكثر الدعوات القرآنية الكريمة مبدوءةً بهذا الاسم الكريم، الذي يدل على أنه الخالق المالك المدبر لجميع شؤون خلقه، وأنه المربِّي لهم، ﷻ.

• **الدعاء بالولد الصالح:**

ثم بدأ ﵇ يرفع سُؤله، ويبيِّنُ حاجته، فقال:

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ أي: أقاربه وأبناء عمومته، وكانوا من الأشرار في بني إسرائيل، فخافَ ﵇ ألا يُحسنوا خلافته في منصبه الديني، ومكانته العلمية، وهذا يدلُّ على أنَّ المناصب الدينية في بني إسرائيل كانت بالتوارث، كما كانت مناصب الحكم والسلطان.

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ لا تلد.

﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ أي: أعطني ولداً صالحاً من صلبي، يتولَّى حفظ الأمانة الدينية، وحُسنَ القيام بها بعد موتي.

فمراده ﵇ أن يرزقه الله تعالى الولدَ الصالح، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وقوله أيضاً: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء].

وتدل الآية على جواز الدعاء بالولد، مع أنه سبحانه قد حذَّرنا من فتنة الأولاد والأموال في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٤ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن].

وهذا إذا كان الأولادُ غيرَ صالحين، فيمكن حينئذٍ أن يكونوا فتنة لآبائهم

وأمهاتهم، أما إذا كانوا صالحين فإنَّهم يكونون عوناً لآبائهم وأمهاتهم على دينهم، وقرة عين لهم في حياتهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

كما يكونون ذُخراً لهم بعد موتهم، فالولدُ الصالحُ أجمل شيء يخلِّفه الإنسان بعد موته ورحيله عن الدنيا، وصدقَ رسولُ اللهِ ﷺ بقوله: «**إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطعَ عملُه إلا مِنْ ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بهِ، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له**» [رواه مسلم (١٦٣١)].

- **ميراث الأنبياء:**

ثم بيَّنَ عليه السلام المهمةَ التي سأل الولدَ من أجلها فقال:

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أي: يرثُ علمي ومنصبي الديني، فقد كان رئيسَ الأحبار في بني إسرائيل.

وما أراد عليه السلام وراثة المال، فهو نبيٌّ كريمٌ لا تعلُّق لقلبه بالمال وجمعه وتوريثه، فإنَّ النبيَّ أعظمُ منزلةً وأجلُّ قدراً من أن يشفِقَ على ماله إلى هذا الحد، وأن يأنفَ من وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولدٌ ليحوزَ ميراثه دونهم، ولم يكن عليه السلام ذا مال، بل كان نجَّاراً يأكل من كسب يديه كما مر، ومثل هذا لا يجمع مالاً، ولا سيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهدَ شيء في الدنيا، وقد ثبت في «**الصحيحين**» [البخاري (٦٧٣٠) ومسلم (١٧٥٨)]: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا نُوْرَثُ ما تركنا صدقةٌ**».

وفي روايةٍ عند **الترمذي** بإسناد صحيح: «**نحنُ معاشرَ الأنبياءِ لا نُوْرَثُ**»(١).

وعن **أبي الدرداء** رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «... **والعلماءُ**

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٤٣

ورثةُ الأنبياءِ، إنَّ الأنبياءَ لم يورِّثوا ديناراً ولا دِرْهماً، ولكنَّهم ورثوا العلمَ» [رواه أبو داود (٣٦٤١، ٣٦٤٢) والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣)].

ومرادُ زكريا عليه السلام في قوله: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ النبوةَ، ومن المعلوم أنَّ النبوةَ لا تورَثُ، فمعنى وراثة النبوة أن يجعله الله صالحاً لأنْ يوحى إليه، ولم يرد أنَّ نفسَ النبوة تورث(١).

فالنبوةُ لا تكون إلَّا بمحضِ فضلِ الله تعالى لمن يشاءُ من عباده ويختار: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ الآية [الأنعام: ١٢٤].

ثم ختم عليه السلام دعاءَه بقوله:

﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي: بَرّاً تقيّاً صالحاً ترضى عنه.

والولدُ إذا كان بهذه الصفة نفع أبويه في الدنيا والآخرة، وخرج ـ كما قال القرطبي ـ من حَدِّ العداوة والفتنة إلى حَدِّ المسرةِ والنعمة(٢).

- **البشارة بيحيى:**

واستجاب الله تعالى دعاءه، وناداه سبحانه بواسطة الملائكة:

﴿يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾.

﴿يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ ودل على أن النداء كان بواسطة الملائكة قوله سبحانه: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقد تولَّى سبحانه تسميته باسم لم يُسَمَّ أحدٌ به من قبلُ تشريفاً له، فقال:

﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ ففي الأسماء النادرة تنويه بالمسمَّى بها.

ويمكن أن يكون معنى ﴿سَمِيًّا﴾ شبيهاً، فما عرف أنَّ المرأة العاقرَ تلدُ، فلا

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ١٤٧.

(٢) تفسير القرطبي: ١١/ ٨٠.

مثل له في هذا، وكانت ولادة يحيى من أبوين شيخين كبيرين إرهاصاً ومقدمةً لما هو أكبر وأعظم في الإعجاز، وهو ولادة عيسى عليه السلام من أم بلا أب.

وقد بيَّن سبحانه في الآية السابقة من سورة **آل عمران [٣٩]** مجموعةً من الصفات الطيبة والخصال الرفيعة ليحيى عليه السلام بقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مصدقاً بعيسى عليه السلام، ووصف عيسى عليه السلام بذلك لأن الله تعالى خلقه بكلمة ﴿كُن﴾ من دون توسط أسباب، وكان يحيى عليه السلام أول من آمن بعيسى وصدق بنبوته ورسالته، أو يصدق بكلمة الله التي أنزلها الله تعالى على عيسى، والمراد بها الإنجيل، ﴿وَسَيِّدًا﴾ بالعلم والتقوى والعبادة، ﴿وَحَصُورًا﴾ أي: عفيفاً عن النساء، مبالغاً في حصر النفس وحبسها عن الشهوات مع القدرة، ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ وهذا من تتمة البشارة وكمالها، أي: ويكون نبيّاً معدوداً في عدادهم[١].

- **تعظيم قدرة الله تعالى:**

وغمرتِ الفرحةُ قلبَ زكريا عليه السلام بهذه البشارة الكريمة، وأقبل على ربِّه يسأله متعجباً من قدرته جلَّ وعلا، ومعظِّماً لها:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾.

وهو السنُّ الذي تعتو فيه العظام والمفاصل، أي: تيبس وتجف، وهو حال لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها، فلا دواءَ للهرم والشيخوخة.

ففي «**صحيح البخاري**» [٥٦٧٨]: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما أنزلَ اللهُ مِنْ داءٍ إلا وأنزلَ له دواءً**».

ولأبي داود [٣٨٥٥] والترمذي [٢٠٣٩] بمعناه، وزادا: «**غير داءٍ واحدٍ**» قالوا: وما هو؟ قال: «**الهَرَمُ**».

---

(١) انظر: تفسير سورة آل عمران، الذي أسميناه في هذا التفسير الموضوعي الكبير (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران).

ويشير إلى هذه الحقيقة قوله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

فالضعفُ قرين الهرم والشيخوخة، وسؤال زكريا عليه السلام سؤال المتعجب من قدرة الله تعالى والمعظم لها، لا سؤال المستبعد، فلو أنَّه عليه السلام كان يستبعدُ قدرةَ الله على إعطائه الولد لما دعاه وتضرَّع إليه وسأله الولد، وحاشاه عليه السلام ـ وهو نبيٌّ كريمٌ ـ أن يستبعد قدرة الله تعالى على إعطائه الولد.

ويمكن أنه عليه السلام أراد بسؤاله هذا أن يطمئنَّ قلبُه بمعرفة كيفية تحقق الوعد.

قال سيد قطب رحمه الله: «إنَّه يواجه الواقع، ويواجه معه وعدَ اللهِ، وإنَّه ليثق بالوعد، ولكنَّه يريدُ أن يعرفَ كيف يكون تحقيقه مع ذلك الواقع الذي يواجهه ليطمئنَّ قلبه، وهي حالة نفسية طبيعية في مثل موقف زكريا النبي الصالح الإنسان، الذي لا يملك أن يغفل الواقع، فيشتاقُ أن يعرفَ كيف يغيره الله»[1].

وهو ما فعله إبراهيم عليه السلام عندما سأل الله تعالى أن يريه كيفية إحياء الموتى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة].

وأجابه سبحانه بقوله:

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر كذلك، فقدرته سبحانه لا يتعاظمها شيء، فهو تصديق منه سبحانه لتعظيم زكريا لقدرته جلَّ وعلا[2].

﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: يسير، فهو سبحانه على كل شيء قدير، يفعل ما يشاء، كما قال في سورة **آل عمران**: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾﴾.

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٠٣.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٤/ ١٤٨.

ثم ذكَّره سبحانه بإيجاده، وخلقه له من العدم، فقال:

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾.

- **علامة الحمل:**

ثم سأل زكريا عليه السلام ربه جل وعلا أن يجعل له علامة، يستدل بها على بدء حمل زوجته:

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ علامة أعلم بها حمل امرأتي.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: وأنتَ سويُّ الخلْقِ، صحيحٌ سليمٌ، من غير خرس ولا بكم، والمراد ثلاث ليال متواليات مع أيامهن، لأنَّه سبحانه قال في **سورة آل عمران**: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١] فيُحبس لسانك عن الكلام ثلاثة أيام فلا تستطيع تكليمَ الناس إلا بواسطة الإشارة والإيماء.

ويبدو أنَّ لسانه عليه السلام حُبِسَ عن تكليم الناس فقط، ولم يحبس عن تسبيح الله وذكره، لأنه سبحانه أمره أن يكثر من تسبيحه وذكره في هذه الأيام الثلاثة كما مر معنا في قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

ولما جاء الوقت المقدَّرُ لتحقق البشارة، وحُبس لسانه عليه السلام عن تكليم الناس، أكثر من التسبيح والعبادة شكراً له جل جلاله على ما أولاه وأنعم عليه، ولزم محراب عبادته، وما خرج منه إلا ليحثَّ الناسَ على الإكثار من التسبيح والعبادة، كما قال تعالى:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾.

في طرفي النهار أوله وآخره.

• **يحيى** عليه السلام :

هكذا ولد يحيى عليه السلام من أمه التي كانت عاقراً، ووالده الشيخ الكبير الذي وهن عظمه، واشتعل رأسه شيباً، وقاما على رعايته وتربيته التربية الصالحة، فنشأ عليه السلام وتربى في بيت النبوة والصلاح والعلم والعبادة، وأكرمه الله تعالى بخصال حميدة، وأخلاق رفيعة ـ كما مر معنا ـ ويسَّر له سبحانه تعلم التوراة وفهمها منذ أن كان صغيراً، ولهذا نوَّه بذكره وبما أنعم عليه، فقال تعالى:

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ أي: تعلَّم الكتاب وهو التوراة، فهو الكتاب المعهود عند بني إسرائيل، وقوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجد وحرص واجتهاد.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي: أعطيناه الفهم، والعلم، والجد، والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه، وهو صغير حَدَث.

قال عبد الله بن المبارك: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما لِلَّعب خُلقنا[1].

وجعل الله تعالى في قلبه شفقة وعطفاً ورأفة، فقال:

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: وآتيناه رحمة وعطفاً ورأفة.

﴿وَزَكَوٰةً﴾ أي: طهارة من الدنس والآثام والذنوب، أو بركةً، فجعله الله تعالى مباركاً نفَّاعاً معلِّماً للخير.

﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مطيعاً لله، متجنباً للمعاصي.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٤٥.

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ فكان عليه السلام كثير البر لوالديه والإحسان إليهما.

﴿وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا﴾ متكبراً متعالياً على الخَلْقِ والحَقِّ.

﴿عَصِيًّا﴾ أي: ولم يكن مخالفاً لأمر الله تعالى، أو لم يكن عاقّاً لوالديه.

ونلاحظ بهذا أن سورة مريم اهتمت بإبراز الجانب الوجداني العاطفي عند الإنسان، كعواطف الأبوة والأمومة، المركوزة في فطرة الإنسان، وتعلق الإنسان بوالديه ومحبته لهما، وكل ذلك تعويض ـ كما قلنا ـ عن الشعور بضعفه وقصوره وعجزه، وهذه الصفات تتنافى تنافياً كاملاً مع صفة الألوهية، فالإلٰه كامل، وغني، وقوي، وأزلي، وسرمدي، يتنزه عن الاتصاف بصفة الولادة والولد.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ أي: أمان عليه من الله تعالى في أشد المواطن والأوقات التي يمرُّ بها الإنسان:

﴿يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا﴾.



الفَصْلُ الثَّانِي

قِصَّةُ عِيسَى وَمَرْيَمَ عليهما السلام

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

- **المعجزة الكبرى:**

كانت ولادة يحيى عليه السلام من أُمِّه العاقر ووالده الشيخ الكبير مقدمةً وإرهاصاً لمعجزةٍ أكبر منها، بيَّن الله تعالى بهذه المعجزة الكبيرة قدرته على خرق الأسباب والنواميس، فقدرته سبحانه طليقة، وهو جَلَّ وعلا قادرٌ على الخلق والإبداع، من دون أسباب ووسائل ومقدمات.

هذه المعجزةُ الكبرى هي ولادة عيسى عليه السلام من أم بلا أب، ولهذا قرن الله تعالى بينهما بالذكر في **سورة آل عمران**، وقرن أيضاً بينهما هنا في **سورة مريم**، وهاهي الآياتُ الكريمةُ بعد أن تحدَّثت عن زكريا ويحيى عليهما السلام، تبدأ في الحديث عن عيسى عليه السلام وأمه، وتبين كيفيةَ حمله وولادته، وتكشفُ للناس حقيقةَ عبوديته لله تعالى، وكمالَ قدرة الله سبحانه في إيجاده وخلقه، فالبشريةُ لم تشهد خلق نفسها، وهو الحادث العجيب الضخم في تاريخها، لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب وأم، وقد مَضت القرونُ بعدَ ذلك الحادث، فشاء الله تعالى بحكمته أن يبرزَ العجيبةَ الثانية في مولدِ عيسى من غير أب، على غير السُّنَّةِ التي جرت منذُ وجد الإنسانُ على هذه الأرض، ليشهدها البشر، ثم تظل في سجل الحياة الإنسانية بارزةً فذَّةً تتلفت إليها الأجيال إن عزَّ عليها أن تتلفت إلى العجيبة الأولى التي لم يشهدها إنسان[1].

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ بنت عمران، التي نذرتها أمها لعبادة الله تعالى وخدمة المسجد قبل ولادتها ـ كما مرَّ معنا ـ وسمتها بعد ولادتها مريم، ومعناها بلغتهم: العابدة، فكأنَّ أمَّها تتقرَّبُ إلى الله تعالى بهذه التسمية[2].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٠٤.

(٢) تفسير أبي السعود: ٣/ ٢٩.

ومريم هي المرأة الوحيدة التي ذكرها الله سبحانه في القرآن الكريم باسمها في نحو ثلاثين آية، وقد تولاها سبحانه بعنايته ورحمته منذ ولادتها، ببركة دعاء أمها الصالحة لها، وتعويذها وذريتها من الشيطان الرجيم ـ كما مر معنا ـ.

ومن عادة الملوك والأشراف أنهم لا يذكرون حرائر زوجاتهم بأسمائهنَّ، بل يكنون عنهنَّ بالأهل والعيال ونحوه، فإذا ذكروا الإماء لم يكنوا، ولم يحتشموا عن التصريح، والسيدة مريم هي المرأة الوحيدة في القرآن التي تكرر التصريح باسمها نحو ثلاثين مرة، وحكمة ذلك الإشارة إلى أنها أَمَةٌ من إماء الله، وابنها عبدٌ من عبيد الله.

وَقَبِل تعالى نذر هذه الأم الصالحة، واستجاب دعاءها، وأخبر عن ذلك بقوله الكريم: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧][١].

فنشأت في رحاب المسجد، ورعاية نبي الله زكريا عليه السلام، ولزمت محراب عبادتها، فلا يدخل عليها أحد غير زكريا عليه السلام، ولا تخرج منه إلا في حالات الضرورة.

وكانت الملائكة تكلِّمها وهي في محراب عبادتها، وتخبرها بما أكرمها الله تعالى به: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

ويبدو أنَّ الاصطفاء الثاني غير الأول، فالاصطفاء الثاني لتكون أمّاً لعيسى من غير أب، وليجعلها ربُّها وولَدَها عيسى آية للعالمين.

ثم كررت الملائكةُ نداء مريم، فأمرتها أن تزيدَ من عبادتها وطاعتها لربها، توطئةً للمهمة الكبيرة التي اختارها الله تعالى لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

---

(١) انظر: تفسير آل عمران، الذي أسميناه في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران).

ففي الصلاة عون من الله تعالى على القيام بالأعباء الثقيلة والمهمات الجسيمة قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

تلك هي الصورة الكريمة الوضيئة لمريم الطاهرة العفيفة، العذراء، البتول، في القرآن الكريم، حتى ذهبَ بعضُ علماء التفسير إلى القول بنبوتها، كالإمام القرطبي في تفسيره، إلا أنَّ جمهور العلماء لا يرون نبوتها، لأن النبوة لا تكون في النساء، ولأن الله سبحانه وصفها بالصِّدِّيقة في قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وصورتها أيضاً في السُّنَّة الشريفة كريمةٌ وضيئةٌ، فعن **علي** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**خيرُ نسائِها مريمُ بنتُ عمرانَ، وخيرُ نسائِها خديجةُ بنتُ خويلدٍ**» وأشار الراوي إلى السماء والأرض. [رواه البخاري (٣٤٣٢) ومسلم (٢٤٣٠)].

وعن **أنس** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**حسبُكَ من نساءِ العالمينَ: مريمُ بنتُ عمران، وخديجةُ بنتُ خويلدٍ، وفاطمةُ بنتُ محمَّدٍ، وآسيةُ امرأةُ فرعون**» [رواه أحمد (٣/ ١٣٥) والترمذي (٢٨٨٨) وحسنه].

- **الاعتزال إلى المشرق:**

﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ أي: تنحّت واعتزلت من أهلها.

﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي: اعتزلت في مكانٍ يقعُ إلى الشرق من مساكن أهلها، وكان اعتزالها إلى جهة المشرق أمراً اتفاقيّاً، ولا حُجَّةَ فيه للنصارى على استقبالهم جهة المشرق في صلاتهم.

وقوله سبحانه: ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ يدلُّ على أن مريم ما كانت حينئذٍ في محراب عبادتها في المسجد، فلو كانت ثمة لقال سبحانه: من محرابها.

ويبدو أنها كانت بعد بلوغها وطروء الحيض عليها تترك محرابها في المسجد إلى بيت أهلها، فإذا ما طهرت من حيضها واغتسلت عادت إلى محرابها في المسجد، ويمكن أن يكونَ اعتزالُها أهلها هذه المرة كان للاغتسال من الحيض، أو لقضاء الحاجة، فقد عودنا ربنا سبحانه في القرآن الكريم على

الإشارة إلى أمثال هذه المعاني بما يدل عليها، دون التصريح بها، وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله:

﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾.

﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ أي: جعلت بينها وبين أهلها حجاباً يسترها عنهم.

- **لقاء مع الروح:**

﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ وهو جبريل عليه السلام، وقد سماه الله سبحانه بهذا الاسم في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقوله أيضاً: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء].

وقوله أيضاً: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ [النبأ: ٣٨].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ [القدر: ٤].

وعطفُه على الملائكةِ عطفٌ للخاصِّ على العام، تنويهاً بذكره وإظهاراً لمكانته الرفيعة بين الملائكة.

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ أي: جاء إليها بصورة إنسان مستوي الخَلْقِ، ولو جاء إليها بصورته المَلَكية ما أطاقت النظرَ إليه.

ولهذا كان جبريلُ عليه السلام عندما ينزلُ على النبيِّ ﷺ ويظهر له، يأتيه بهيئة إنسانٍ، وما رآه النبي ﷺ بهيئته الملكية سوى مرتين فقط: المرة الأولى في الأرض عند غار حِراء، والثانية في السماء ليلة الإسراء والمعراج، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ [النجم].

فالملائكة يستطيعون التشكُّلَ والتصور بغير هيئاتهم وصورهم الملكية التي خلقهم الله تعالى عليها، ولا يتشكّلون إلا بالهيئات الحسنة الكاملة، ولهذا جاء جبريل عليه السلام إلى مريم بهيئة إنسان كامل الخلق.

وما زعمه بعضُ المفسرين من أنه جاء إليها بصورة شاب أمرد وضيءِ الوجه، جعدِ الشعر، لتهيجَ شهوتها به، فتنحدرَ نطفتها إلى رحمها[١] فغير صحيح، لأن خَلْقَ عيسى عليه السلام كان أمراً خارقاً لكل النواميس والأسباب، وليس له ارتباط بأيِّ سبب من الأسباب التي جعلها الله تعالى مقدمة لخلق غيره من البشر، وقد ثبت علميّاً في العصر الحاضر أن إفراز مبيض المرأة للبويضة، وانحدارها إلى الرحم، غير مرتبط بشهوتها واتصال الرجل بها.

قال العلّامة المفسِّر أبو السعود العمادي رحمه الله: «وأمّا ما قيل من أنَّ ذلك لتهييج شهوتها فتنحدر نطفتها إلى رحمها، فمع مخالفته لمقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة، يكذبه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ [مريم: ١٨]، فإنه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها شائبة ميل ما إليه»[٢].

- **المحاورة:**

ولمّا رأتْ هذا الطارئ الدخيل يقتربُ منها، ويخترق حرمة حجابها، لجأتْ إلى الله تعالى تستعيذُ به، وتحتمي بحمايته، وقد عوَّدها سبحانه على لطفه ورحمته، بما أكرمها به من العناية وأسباب التربية الكريمة في نشأتها:

﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾.

أي: تتقي الله تعالى وتخشاه.

وقولها: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ كقول القائل: إن كنت مؤمناً فلا تظلمني، أي: ينبغي أن يكون إيمانك مانعاً لك من الظلم، كذلك هاهنا معناه: ينبغي أن تكون تقواك مانعة لك من الفجور[٣].

وبادر جبريلُ عليه السلام إلى تهدئتها، وإزالة خوفها وقلقها:

---

(١) انظر: تفسير النسفي والبيضاوي: ٤/ ١٥١.

(٢) تفسير أبي السعود: ٣/ ٢٦٠.

(٣) تفسير الخازن: ٤/ ١٥١.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ﴾ أي: لأكون سبباً في هبته لك، وفي قراءة ثانية متواترة: **(لِيَهَبَ لكِ)**.

﴿غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ طاهراً من الذنوب، ينشأ ويتربى في الخير والصلاح.

ولا بدَّ في هذه اللحظة التي تسمع فيها جبريل عليه السلام يعرِّفها بنفسه وحقيقته ويقول لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أن يخلق الله تعالى في قلبها اليقينَ بصدقه، فلا يبقى قلبُها نهباً للشكوك والوساوس، وقلب الإنسان بقبضة قدرته سبحانه يقلبه كيف يشاء، وهو اليقينُ الذي يخلقه الله سبحانه في قلوب الأنبياء عليهم السلام، عندما ينزل عليهم الوحي بواسطة الملك.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾.

وقولها هذا يدلُّ على تصديقها له بأنَّه رسول ربها، وعلى ثقتها به، ومعناه: كيف يكونُ لي ولدٌ ولم يمسسني بشرٌ في نكاح، ولم أكن فاجرةً تبغي الرجال؟!.

وسؤالها هذا سؤال المتعجبة من قدرة الله تعالى والمعظمة لها، كسؤال نبي الله زكريا عندما بشَّرته الملائكة بيحيى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ [مريم] كما مر معنا.

ويؤكد أنها كانت متعجبة من قدرة الله تعالى، ومعظمة لها: أنَّ جوابه سبحانه وتعالى لها بواسطة الملك مثل جوابه تعالى لزكريا عليه السلام: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾ أي: الأمر كما قلتِ، فقدرته تعالى لا يتعاظمها شيء.

ويدل قول مريم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠]، على أنها ما كانت تفكِّر في الزواج، وما كانت مخطوبةً لأحد، خلافاً للروايات المذكورة في الأناجيل التي زعمت أن مريم كانت مخطوبة لرجل اسمه يوسف النجار، فلو كانت كذلك ما سألت ربها سؤال المتعجب من قدرته تعالى.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «تقول: كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج، ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغيّاً؟ حاشا لله»[1].

فهي العذراء البتول التي أحصنت فرجها، وصانت عِرضها، وشهد الله تعالى لها بذلك في قوله الكريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

وقوله أيضاً: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: لنجعل خلق عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أم بلا أب آية، تبيِّنُ للناسِ كمال قدرته سبحانه.

﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ للمؤمنين به الإيمان الصحيح، وهو أنه عبد لله تعالى ورسوله، يدعو إلى عبادته سبحانه وحده، وتنزيهه سبحانه عن الشريك والصاحبة والولد.

﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ مقدراً تعلَّقَ به قضاء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الأزل فلا يرد ولا يبدل.

- **الحمل والولادة:**

وحملت به بعد هذه النفخة التي هي سِرٌّ من أسرار الله تعالى، فلا يعلم حقيقتها إلا هو جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾.

أي: فاعتزلت وهو في بطنها، إلى مكان بعيد عن أهلها.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٨٧.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ أي: فألجأها المخاض، وهو آلام الحمل والولادة.

﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ ولم يقل: إلى نخلة؛ لأنَّه كان ساق نخلة يابسة.

ويبدو من فاء التعقيب في الآية أنَّ حملها بعيسى عليه السلام وولادتها له، كانا بعد النفخة مباشرة في ساعة واحدة، ويؤكده أنه سبحانه قال في وصف خلقه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فثبت أنَّ عيسى عليه السلام خُلق كما قال الله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وهذا مما لا يتصور فيه مدة الحمل، وإنَّما تعقد تلك المدة في حق من يتولد من النطفة[١].

ولا سند لما ذكره أكثر المفسرين أنَّ مدة حمله كانت تسعة أشهر أو ثمانية أو سبعة، إلا ما ترويه الأناجيل، ولا ثقة لنا بها؛ نظراً لما طرأ عليها من تغيير وتبديل وتحريف.

والمفاجأةُ التي حدثت لقومها عندما جاءت إليهم بعد الولادة تحمله بين ذراعيها، تؤكِّد أنَّ حمله وولادته كانا في وقت واحد، فلا يعقل أن تحمل به تسعة أشهر ولا يلاحظون عليها ما يظهر على المرأة الحامل، من تغيُّر في جسدها، واضطراب في مزاجها وسلوكها.

- **تمنِّي الموت:**

واشتدتْ على مريمَ الآلامُ الجسدية للمخاض والطلق، حتى اضطرتها إلى التوقف عن سيرها لتبحث عن شيء يمكنها الاستناد عليه، فلم تجد سوى جذع نخلة يابسة قريب منها فاستندت إليه، ولم تنسَ آلام قلبها ونفسها، والفضيحةَ التي تنتظرها بين أهلها وقومها، وهي الفتاة العذراء في أول مخاضها، وفي غمرة آلامها الجسدية ووحدتها وحيرتها، فتمنَّتْ الموت!.

تمنَّتِ الفتاةُ المؤمنةُ، العابدةُ، الصالحةُ، الموتَ:

---

(١) التفسير الكبير: ٢١/ ٢٠٣.

﴿قَالَتْ﴾ تحدِّثُ نفسها:

﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾، ولا يتمنَّى مؤمن أو مؤمنة الموت مهما كانت آلام المحنة شديدة عليه، فلا يجوز تمني الموت إلا في حالة واحدة فقط، إذا خشي الإنسان المؤمن أن يفتن عن دينه في محنته، عندها فقط يجوز له أن يتمنَّى أن يميته الله على الإيمان ليسلم له دينه، فالإيمان أغلى على المؤمن من حياته.

قال ﷺ: «**لا يَتَمَنَّيَنَّ أحدُكُم الموتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بهِ، فإنْ كانَ لا بدَّ متمنياً فَلْيَقُلْ: اللهمَّ أحيِنِي ما كانتِ الحياةُ خيراً لي، وتوفَّني إذا كانتِ الوفاةُ خيراً لي**» [رواه البخاري (٥٦٧١) ومسلم (٢٦٨٠)].

بهذا الأدب الرفيع العالي مع الله تعالى يتمنَّى المؤمنُ الموت خوفاً على دينه، وما تمنت مريم الموت إلا حرصاً على دينها.

﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أي: شيئاً حقيراً قليلاً، شأنه أن يُنسى ولا يتألم أحدٌ لفقده. وإننا من خلال هذه الكلمات لنكادُ نرى ملامحَ مريم، ونحسُّ اضطرابَ خواطرها، ونلمسُ مواقعَ الألم فيها وهي تتمنى لو كانت نسياً منسيّاً(١).

- **رحمة الله ﷻ بمريم:**

وأدركتها رحمةُ الله تعالى، وحفَّت بها ألطافه جل وعلا، وهي في حِدَّة الألم، وذروةِ المعاناة، والمعونةُ تأتي على قدر المؤونة، وعلى مقدار الكلفة والمشقة، وكانت الصِّدِّيقة مريم في هذه الفترة تمرُّ في محنة عظيمة ومشقة كبيرة، فجاءت معونته سبحانه تفوق كل تصور وتقدير، جاءت من حيث لا يحتسب أحدٌ أن تأتي منه، جاءت من الجانب نفسه الذي امتُحنت بسببه، والله سبحانه لا يتخلَّى عن أحبابه وأوليائه.

وحدثت المفاجأة الكبرى والمعجزة العظمى دون تأخير، فما إن انتهت مريمُ من كلماتها: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣] حتى فاجأها صوتُ المنادي مِنْ تحتها:

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/٢٣٠٧.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ يالله! الجنينُ الذي يخرج من أحشائها، وهو لا يزالُ في السبيل الميسر[1] بقدرة الله تعالى، يناديها ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ بأفصح لسانٍ، وأوضحِ بيانٍ، مواسياً ومرشداً:

﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ فالله ﷻ لن يتخلَّى عنك، وهو سبحانه الذي اصطفاك من بين نساء العالمين لهذه المعجزة الكبيرة، انظري إلى آثار رحمته ولطفه وعنايته.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ جدولاً من الماء يسري بأمر الله تعالى وقدرته في هذه اللحظة.

والمسافر إذا وقع على الماء في الصحراء يغشاه الأُنس والسرور، ويمتلئُ صدره بالحبور، وتزولُ عنه وحشة السفر ومتاعبه، فكيف إذا رآه يسري بين يديه للتو واللحظة، يشق الصخر ويثور من بين الحصا والحجر؟!.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ الذي تستندين عليه، هزيه برفق ولطف كما تهز المرأة مهد طفلها.

﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ﴾ مباشرة وأنت في مكانك لا تتكلَّفين مؤونة الصعود عليه، ولا الانتقال لجمعه والتقاطه.

﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ طيباً صالحاً للاجتناء لم ييبس ولم يجف.

فما أعظمَ قدرةَ الله تعالى، يحوِّل بلحظةٍ واحدةٍ الجذعَ اليابس إلى نخلةٍ كاملةٍ دانيةِ القطوفِ، يطلعُ السعفُ من أعلاه، ومن بين السعف يخرج الطلع، ثم يخضرُّ، ويصفرُّ، ويحمرُّ، حتى يصبح بقدرته تعالى رطباً جنيّاً، وكل ذلك في لحظة واحدة، وهذا يؤكد أنَّ مريم حملت بعيسى ووضعته في ساعة واحدة،

---

(١) إشارة إلى ما ورد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ [عبس].

فهناك تشابه بين حمل النخلة وحمل المرأة، فلا يكون حمل في النخلة المؤنثة حتى تؤبَّر، وذلك بنقل العناصر المذكَّرة إليها، وهاهو جذع النخلة يحدِّثُ مريم بلسان حاله قائلاً: أتعجبينَ من قدرة الله تعالى أن خلقَ منك ولداً، ولم يمسسكِ بشرٌ، وأنتِ فتاةٌ كاملةُ الأنوثة في ريعان حياتها وصباها؟! انظري إلى حملي وثمري، وقد كنت جذعَ نخلة يابسة لا حياة فيها، أليس حالي أعجب من حالك، وأدل على قدرة الله تعالى وعظمته؟!.

﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ فكلي من الجنيِّ، واشربي من السريِّ، وقري عيناً برؤية الولد النبيِّ[1].

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ فسألك عن الولد سؤال المستنكر المتهم.

﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ عن الكلام، وكان مثل هذا النذر جائزاً في شريعتهم.

﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ فلن يكلفك سبحانه عناء المدافعة والمجادلة ورد التهمة، فقد هيأت العناية الإِلٰهية مدافعاً يتولّى الدفاع عنك، وإظهار براءتك من كل التهم الموجهة إليك.

- **المنادي من تحتها:**

تلك هي الكلماتُ التي أنطقَ الله تعالى بها عيسى عليه السلام، وهو لا يزالُ في سبيل الخروج تحت أمه، وهو ما ذهبَ إليه بعض المحققين من المفسرين، قال في «نظم الدرر»: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ [مريم: ٢٤] وهو عيسى عليه السلام[2]، وهو قول

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١١/٩٦.

(٢) نظم الدرر: ١٢/١٥٨.

الحسن وسعيد بن جبير[١].

وهو أولى من القول بأنَّ المَلَكَ هو الذي ناداها من تحتها، فالضمائر كلها ترجع إلى عيسى عليه السلام: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ أي: عيسى ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ بعيسى ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ أي: عيسى ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ﴾ بعيسى ﴿قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ أي: عيسى.

ولو لم يكن عيسى هو المتكلِّم، ما عرفت مريم أنه يتكلَّم في المهد، وما أشارت إليه عند مواجهة قومها، ولا يليقُ بالمَلَكِ أن يناديها من تحتها، وهي في حال الولادة والانكشاف[٢].

وقد يقال: إنَّها عرفت أنه سيتكلَّم في المهد من بشارة الملائكة لها، التي أخبر الله عنها في قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران].

لكنَّ هذه البشارة ذكرت أنه يتكلَّم في المهد، ولم تعين متى يكون كلامه، والطفل يبقى في المهد مدةً طويلةً قد تصل إلى سنتين، فما عرفت مريم أنه عليه السلام يتكلَّم بعد ولادته، ويدافع عنها إلا بعد سماعها لكلماته هذه من تحتها.

ثم إن كلمة ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ تؤكد أن المتكلم هو عيسى عليه السلام، فالقرآن الكريم لا يأتي بالكلمات جُزافاً، ولا تقعُ فيه اتفاقاً، دون أن يكون لها مدلول تدل عليه، فما فائدة أن يكون المَلَكُ يناديها ﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ حتى تحدد لنا الآيةُ مكانه وجهته بالنسبة لمريم عند ولادتها، اللهم إلا أن تريدَ أن تبيِّنَ لنا أن المتكلِّم هو عيسى عليه السلام، أنطقه الله تعالى بقدرته، وهو لا يزالُ تحتَ أمه في طور الخروج من رحمها.

- **المواجهة:**

وقرت عينُ أم عيسى العذراء الصِّدِّيقة، وهدأ قلبها، وزال عنها حزنُها

---

(١) واستظهره أبو حيان في البحر المحيط، وروي عن مجاهد ووهب وابن جرير وابن زيد. كذا في: روح المعاني: ٦/ ٨٢.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ٢١/ ٢٠٥.

واضطرابُها، فأكلت من الرُّطَبِ المتساقط عليها، وشربت من الماء الجاري عند قدميها، ولفَّتْ وليدَها ببعض ثيابها، وضمته إلى صدرها:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ جاءت به تحمله في وضح النهار، غيرَ خائفةٍ ولا هيَّابةٍ، لم تنتظر ظلامَ الليل لتستتر به عن أعين قومها، ونظرات الريبةِ والتهمةِ الموجهة إليها، فلن تبالي بكلِّ أقوالهم وشتائمهم ونظراتهم.. منذ قليل كانت حزينةً خائفةً حائرةً تتمنى الموت، وأن تصبح نسياً منسيّاً، وهي الآن تأتي بعيسى قومها تواجههم وهي تحمله، فما أقوى قلبها وأثبت جَنانها! وما أعظم رحمة الله تعالى بما أنعم عليها وأعطاها، فثبتها في وجه العاصفة وقوَّاها!.

لله درُّك أم عيسى! لله درُّك أيتها العذراء الطاهرة البتول! حسبك أنَّ الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين، حسبك عنايةُ الله تعالى بك، ورعايته لك منذ نعومة أظفارك، وحتى أتم بك المعجزة الكبرى، حسبك أن الله تعالى شهد بعفتك وطُهرك، وأنطق وليدَكِ العبدَ الرسول يدفع عنك زور المزوِّرين، وافتراء المفترين.

﴿قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ فظيعاً منكراً.

هكذا سارع قومُها إلى اتهامها، قبل أن يسألوها عن وليدها الذي تحمله، وغفلوا عن كل ما عرفوا من طُهرها وعفتها وعبادتها، وهذا هو شأن عامة الناس في كل زمان ومكان، أيسرُ الأمور عليهم أن يسارعوا إلى اتهام الصالحين والصالحات، وتشويه سمعتهم، ونهش أعراضهم، وهو ما فعله المنافقون بالصِّدِّيقة بنت الصديق، أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، عندما أشاعوا عنها حديثَ الإفك، فوجدوا مَنْ يسمع لهم، ويردد كذبهم، وينشر بين الناس زورهم، وكان عليهم أن يكونوا كما قال الله تعالى في الآيات الكريمة، التي أنزلها في براءة أم

المؤمنين، والتي تُتلى في محاريب المسلمين إلى يوم الدين: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢][١].

ثم بالغ قوم مريم في زورهم وكذبهم، فقالوا لها على سبيل التهكم والتقريع والتوبيخ:

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ في عفته ونزاهته وعبادته.

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ﴾ عمران.

﴿ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ فنقول: تأثرتِ به، ونزعكِ عِرق إليه.

﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ﴾ في وقت من الأوقات.

﴿بَغِيًّا﴾ تبغي الرجال للفجور، وتستميلهم إليها.

استقبلت العذراءُ الطاهرة عاصفةَ السباب والشتائم، ونظرات الريبة والاتهام، بثبات ورباطة جأش، فلم يتزعزعْ يقينُها بطهارتها وعفتها، ولم تهتزَّ ثقتُها بربها، الذي وعدها بلسان وليدها أن يدافعَ عنها:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ﴾ إلى وليدها، ليتولَّى الدفاع عنها، وردَّ التهم الظالمة الجائرة عنها، فقالوا متعجبين:

﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ لم يبلغ سن الكلام.

- **إنِّي عبد الله:**

﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ بصوت واضح، سمعه كل الذين كانوا حولها:

---

(١) انظر كتابنا: عائشة أم المؤمنين، ضمن سلسلة (أعلام المسلمين) التي تصدرها دار القلم بدمشق.

﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد، والفرد الصمد، والمنزه عن الصاحبة والشريك والولد.

أول كلمة أنطقه الله بها ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ بادر عليه السلام إلى الإقرار بعبوديته لله تعالى قبل أن يردَّ على أقوالهم، ويكذِّبَ افتراءاتهم على أمه، أنطقه الله تعالى بهذا الإقرار الصريح بعبوديته له جل جلاله، لأنه سبحانه علم أنَّ كثيراً من الناس سيُفتنون به، حتى يرفعوه في اعتقادهم عن مقام العبودية إلى مقام الألوهية، وتنزيه الله سبحانه عن الاتصاف بصفات الولادة والنقص أوجب الواجبات، وأهم المهمات، ينبغي أن يقدَّمَ على تنزيه مريم وتبرئتها من الإفك الذي اتهموها به.

﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بما قدره سبحانه بسابق علمه وقدره.

﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ بما قدره أيضاً سبحانه وقضاه، والنبي لا يكون أبداً ابن بغي.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ معلِّماً للخير، نفَّاعاً في أي مكان حللت ونزلت.

﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ وهما أوجب واجبات العبد لربه.

﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ فعلى العبد أن يعبدَ ربَّه طيلة حياته، فلا يسقط عنه التكليف مهما كانت منزلته أو مرتبته.

وقوله يدل على أنه عليه السلام يعبد الله تعالى وهو حي في السماء، كما كان يعبده في الأرض، لأنه لم يمتْ بعدُ، يموت في الأرض بعد رجوعه إليها، كما دلت على ذلك الأحاديث الشريفة المتواترة.

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ أي: وجعلني برّاً بوالدتي، أكرمُها وأعظِّمُها.

وتصريحه عليه السلام ببره بوالدته يؤكد شعوره بضعفه وعجزه، فمشاعر الأبوة

والبنوة تعويضٌ ـ كما قلنا ـ عن شعور الإنسان بضعفه وعجزه وافتقاره، وهو يتنافى مع صفة الألوهية التي وصفوه بها كذباً وزوراً.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ متكبراً عاقّاً، فعقوق الأم من أسباب الشقاء.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾.

ومن يمر بهذه الأطوار: الحدوث، ثم الموت، ثم البعث، لا يكون إلـٰهاً، تعالى الله وتنزَّه عن الحدوث والتغير والتبدل، تقدست ذاته وتسامت صفاته وتباركت أسماؤه.

• **حقيقة عيسى وأمه:**

هذه حقيقة عيسى ابن مريم:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ وهي على خلاف ما يصفه به النصارى من الإلـٰهية والبنوة لله تعالى، فلا صحة لما في الأناجيل المتداولة في أيدي النصارى، مما يتعارض مع توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد، فلقد طرأ على الإنجيل كثيرٌ من التحريف والتبديل، والحذف والزيادة، ويؤكد ذلك أن جميع الأناجيل التي يتداولها النصارى أغفلتِ الحديثَ عن المعجزة الكبرى لعيسى عليه السلام، وهي معجزة كلامه في المهد، مع أنَّ رواة الأناجيل حرصوا كل الحرص على تتبع كل أمرٍ خارق للعادة، أجراه الله تعالى على يد عيسى عليه السلام، ولا ندري سبباً لإغفال الأناجيل لهذه المعجزة الكبرى سوى أنها تدل على عبوديته لله تعالى.

وهذه أيضاً حقيقة أمه مريم، الصديقة العذراء، الطاهرة البتول، مع أنَّ بعض الأناجيل ذكرت ما يؤيد افتراءات اليهود، واتهامهم لها بالزنى، فإنجيل متى وإنجيل لوقا عندما تحدَّثا عن نسب عيسى عليه السلام، ذكرا أنه ابن يوسف

النجار، ومع أنهما اختلفا في أسماء وأعداد أجداد المسيح عليه السلام إلا أنهما اتفقا على أنَّ يوسف النجار آخرهم في سلسلة نسب عيسى عليه السلام.

وسكتت الأناجيل المتداولة بأيدي النصارى أيضاً عن الحديث عن بيت آل عمران، وعن امرأته ونذرها، وما جرى بين الأحبار من خلاف على كفالة مريم، ثم اتفاقهم بعد ذلك على الاقتراع، وهو المذكور في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤][1].

هذا التباين الكبير بين ما ذكره القرآن الكريم عن عيسى عليه السلام وأمه، وبين ما في الأناجيل المتداولة بأيدي النصارى، يجعلنا لا نثق بما فيها، ولا نجد لدينا مصدراً لمعرفة حقيقة عيسى وأمه أوثق وأصدق من القرآن الكريم، ففيه نجد:

﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يشكُّون ويتنازعون ويتجادلون.

- **الصراط المستقيم:**

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ فما من شأنه تبارك وتعالى، وهو الواحد الأحد، والأول القديم، والآخر الباقي أزلاً وأبداً، أن يتخذ ولداً.

﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ عما يقول الظالمون، ويفتري المفترون.

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أراده جل جلاله.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ كما خلق عيسى عليه السلام، بكلمة: (كن)، فـ (كان) من غير أب، فالإلٰه القادر على الخلق والإيجاد من دون أسباب ومقدِّمات، يتنزَّه عن الاتصاف بصفات المخلوقين، المتصفين بصفات النقص والاحتياج، والحدوث، والتغير، والولادة.

---

(١) انظر: تفسير سورة آل عمران، الذي أسميناه في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران).

فتوحيد الله تعالى وتنزيهه عن صفات المخلوقين هو لبُّ التوحيد وأساسه، وهو الدين الحق والصراط المستقيم، الموصِل إلى رضوانه تعالى وجنته:

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ وحده.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ وهو من تتمة كلام عيسى عليه السلام في المهد، أو مما قاله لهم بعد ذلك في سن الكهولة عندما أرسله الله تعالى إليهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده وطاعته، فهو كقوله عليه السلام يوم القيامة في إعلان براءته مما نُسب إليه، والذي ذكره سبحانه في **سورة المائدة**: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾[1].

- **الاختلاف:**

ومع وضوح الحق، وكثرة البينات الدالة عليه، اختلف النصارى في عيسى ابن مريم عليه السلام اختلافاً كبيراً، قال عنه سبحانه وتعالى:

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ الذين تحزَّب كلُّ فريق منهم برأيه، أي: انفرد به.

﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي: من بين بني إسرائيل الذين أُرسل إليهم عيسى عليه السلام، فالخلاف نشأ منهم لا من غيرهم في عيسى وأمه:

ـ **ففريق قالوا**: إنَّ الله هو عيسى عليه السلام، هبط إلى الأرض، ثم صعد إلى

---

(١) انظر: تفسير سورة المائدة، المسمى في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (الحلال والحرام في سورة المائدة).

السماء، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ـ **وفريق آخر قالوا**: إنَّه ابن الله ـ سبحانه وتعالى عما يقولون علوّاً كبيراً ـ وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة].

ـ **وفريق آخر قالوا**: إنَّه ثالث ثلاثة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

ـ **وفريق آخر قالوا**: إنَّه ابنُ زنى، وهم اليهود الذين كذبوا برسالته، والذين قال الله فيهم: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء].

ـ **وفريق آخر قالوا**: إنَّه عبد الله ورسوله، وهم المؤمنون به حقّاً، وقد اضطهدتهم الإمبراطورية الرومانية، حتى لم يبقَ منهم إلا عدد قليل كانوا يعيشون في مصر، ثم انقرضوا قبل ظهور الإسلام.

ثم توعَّد الله الذين كفروا بعد أن بيَّن اختلافهم بقوله الكريم:

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة لكثرة ما فيه من الأفزاع والأهوال.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي: ما أشد سمعهم وبصرهم في هذا اليوم

العظيم، يوم يأتون إلى موقف الحساب بين يدي الله تعالى، فلا نجاة فيه إلا للمؤمنين الموحدين، قال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ شهدَ أَنْ لا إلـهَ إلّا اللهُ، وأنَّ محمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ، وأنَّ عيسى عبدُ اللهِ ورسولُه، وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، وأنَّ الجنَّةَ حَقٌّ، والنارَ حقٌّ، أدخلَهُ اللهُ الجنَّةَ على ما كانَ مِنَ العَمَلِ**» [رواه البخاري (٣٤٣٥) ومسلم (٢٨)].

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين غيَّروا وبدلوا وانحرفوا عن عقيدة التوحيد، ووصفوا الله بصفات النقص التي لا تليق بكماله وجلاله وغناه.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾ في الدنيا.

﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ عن الحق.

﴿مُّبِينٍ﴾ واضح ظاهر؛ بسبب غفلتهم عن رؤية الحق، وتعطيلهم لعقولهم وأسماعهم وأبصارهم عن النظر المحرر من رِبْقة الهوى والتقليد.

- **يوم الحسرة:**

فالقوم منشغلون بأهوائهم، وشهواتهم، ومصالحهم الدنيوية المادية، عن رؤية الحق والانقياد له، فلا ينتفعون بإنذارٍ ووعيدٍ مهما كان شديداً:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ أي: خوِّفهم من يوم القيامة، فهو يوم الحسرة، يتحسر فيه المسيء على إساءته، والمحسن على قلة إحسانه.

﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: عندما يُفرَغُ من الحساب، ويدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النار.

ويبقى القومُ سادرين في غفلتهم، مصرِّين على كفرهم وضلالهم، رغم شدة الإنذار وقوته:

﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ عما ينتظرهم في الآخرة.

﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ باللهِ الواحدِ الأحد المنزَّه عن الشريك والصاحبة والولد.

ثم قرر سبحانه كماله وغناه وتفرده وحده بالبقاء والدوام، فقال:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ فهو وحده المالك على الحقيقة، الذي لا ينقطع ملكُه ولا ينتهي، تزول الممالك والملوك، ويبقى مالك الملك، الواحد الأحد القهار، الوارث لكل ملك، لأنه الباقي الدائم، حيث يقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

فالولادة والولد من صفات النقص، وهي شأن المخلوقين الفانين الزائلين، يتنزه الله ﷻ عن الاتصاف بها، والذين لا يخرجون عن إرادته سبحانه ومشيئته قبل الموت وبعده:

﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فمرجعهم بعد الموت إلى مشيئته وحكمه وأمره ﷻ.

وبهذا التقرير الحاسم لكمال الله تعالى وغناه، واتصافه بصفة البقاء والدوام، وتنزهه عن الاتصاف بصفات النقصان، ختمت الآيات الكريمة قصة مريم وولدها عيسى عليه السلام.



الفصل الثالث
التَّوْحِيدُ وَالتَّنْزِيهُ

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨) ۞ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا

﴿مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾.

- **ملَّة التوحيد:**

إبراهيم عليه السلام علمٌ من أكبرِ أعلام الموحِّدين في تاريخ البشرية، فقد دعا إلى التوحيد في البلاد التي كانت أكثرَ البلاد ازدحاماً بالناس، وأقدمَها حضارة ورقيّاً وعمراناً، في بلاد الرافدين حيث ولد ونشأ، وابتُلي من أجل دعوته إلى التوحيد

بما ابتلي به من طغيان المشركين وظلمهم، حتَّى أُلقيَ في نار عظيمة أُججت من أجل إحراقه، فنجَّاه الله تعالى منها، وكانت عليه برداً وسلاماً.

ثم هجر هذه البلاد لله تعالى، وانتقل إلى بلاد الشام، فدعا هناك إلى التوحيد في شمالها وجنوبها، ثم تحوَّلَ إلى وادي النيل، وهو يدعو إلى توحيد الخالق العظيم وعبادته سبحانه وحده، ثم رجعَ إلى فلسطين، وسافر إلى الحجاز من أرض العرب، ليرفعَ بأمر الله تعالى قواعدَ بيت الله الحرام، ويدعو الناس إلى الحج إليه ليعبدوا الله الواحد الأحد في رحابه.

وإبراهيم عليه السلام هو الذي رفعَ إلى الله تعالى هذه الدعوات الكريمات للأمة المسلمة الموحدة ونبيها عليه الصلاة والسلام، وشاركه فيها ولده إسماعيل عليه السلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة].

وقد جعل الله تعالى في ذرية إبراهيم الكتاب والنبوة، فكل دعاة التوحيد من الأنبياء والمرسلين الذين جاؤوا بعده من فروعه وذريته حتى خاتمهم وإمامهم سيدنا محمد ﷺ، ولهذا كانت ملة إبراهيم هي ملة الموحدين المسلمين إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾ الآية [الحج: ٨٧][1].

فكلُّ من ينحرف عن ملة إبراهيم في التوحيد فقد أوقعَ نفسَه بالسفاهة والجهل والحماقة كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

---

(١) انظر: (الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج) وهو تفسير سورة الحج في هذه السلسلة: (التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم).

وكان عليه السلام أمةً في التوحيد والدعوة إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

ولهذا جعله الله تعالى قدوةً لإمام الموحدين وخاتم المرسلين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

فلا عجبَ بعد هذا أن تنتقل آياتُ سورة مريم، وهي سورة التوحيد والتنزيه؛ إلى نبي الله إبراهيم عليه السلام، لتعرض لنا جوهر دعوته، من خلال محاورته لأبيه، وهو يدعوه إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده، وترك ما كان عليه من الشرك والوثنية.

وجاء اختيار الآيات هذا الجانب من دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه متفقاً ومتسقاً مع الجو المخيِّم على السورة، جو الأبوة والبنوة والمشاعر الإنسانية، التي تفيض بها قلوب الأنبياء عليهم السلام، والتي تدلُّ على كمال بشريتهم وإنسانيتهم، وفي الوقت نفسه تدل أيضاً على عبوديتهم لله تعالى، واحتياجهم وافتقارهم إليه سبحانه جل وعلا.

- **الضعفاء المتألِّهون:**

ومنبعُ هذه العواطف وأصلُها كما بيَّنا، إدراك الإنسان لعجزه وضعفه، ومحدوديته، هذا الإدراكُ يقينٌ مركوز في فطرة كل إنسان، وفي كل مخلوق حي، ويستشعر كلُّ إنسان هذه الحقيقة ويحس بها، إلا أنها تنتقل أحياناً إلى أعماق اللاشعور عند بعض المتألهين من المتكبرين والمتجبرين، فيظنّون أنفسهم أقوياء، بسبب ما بأيديهم من بعض أسباب القوة والسلطان، فإذا ما نزعت هذه الأسباب من أيديهم، عاد إلى ساحة شعورهم إدراكهم الفطري الغريزي بالضعف والعجز، وعادوا إلى معرفة افتقارهم واحتياجهم لخالقهم سبحانه.

انظر إلى فرعون المتألِّه الذي كان يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

ويقول أيضاً لأهل مصر: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

انظر إليه عندما انخلع عن أسباب ملكه وسلطانه، ووقع بين الأمواج في البحر ماذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

وانظر إلى طاغية قوم إبراهيم عندما واجهه إبراهيم عليه السلام بحقيقة عجزه وضعفه، كيف بُهت ودهش، وانخصم وانقطع: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فالكمال الإنساني مرتبطٌ بمدة إحساس الإنسان بحقيقة ضعفه، وافتقاره وعبوديته لله تعالى، والأنبياء عليهم السلام أكملُ الناس، لأنهم أكثرُ الناس إحساساً بافتقارهم وعبوديتهم لله جل جلاله، فلا عجبَ أن تكونَ مشاعر الأبوة والبنوة، وهي تعويض عن الإحساس بالعجز والضعف، أقوى في قلوبهم وأنصع في نفوسهم وضمائرهم[1].

وقد بينت لنا آياتُ السورةِ في أولها قوة عاطفة الأبوة عند نبي الله زكريا عليه السلام، وأظهرت لنا من خلال صفات نبي الله يحيى ومن خلال كلمات نبي الله عيسى عليه السلام قوة عاطفة البنوة عندهما، وتنتقل الآيات الكريمة الآن إلى النبي الكريم إبراهيم عليه السلام لتعرضَ لنا صورةً أخرى من صور البر والحنان، بر الولد بأبيه.

- **أدب الولد مع والده:**

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١﴾.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا﴾ أي: مبالغاً في الصدق، في دينه وعبادته، ودعوته، وفي كل شؤون حياته.

---

(١) انظر: الأنساب والأولاد، للمؤلف، وهو من مطبوعات دار القلم بدمشق.

﴿نَبِيًّا﴾ جمع الله تعالى له المقامين، وشرَّفه بالمنزلتين: منزلة الصِّدِّيق، ومنزلة النبي.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ آزر صانع الأصنام، وسادن من سَدَنة الأوثان، صرح الله تعالى باسمه في قوله الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ ناداه بمقام الأبوةِ احتراماً له وتأليفاً، ومن حقوق الوالد على ولده ألَّا يناديه إلا بما نادى إبراهيم عليه السلام أباه.

﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ لقد سلك عليه السلام في دعوة أبيه أحسنَ منهاج، واحتجَّ عليه أبلغ احتجاج، بدأ بتخلية قلبه عن تعظيم الأصنام، فبيَّن له أنها لا تستحق شيئاً من العبادة والتعظيم لعجزها وضعفها، فهي لا تسمعُ ولا تبصِرُ، ولا تجلب نفعاً لعابدها، ولا تدفع عنه ضرراً.

ثم لفت نظرَ أبيه إلى ما أكرمه الله تعالى به ومنَّ عليه من النبوة، فقال مكرراً نداءه بصفة الأبوة لما فيها من الاستعطاف والاستلطاف:

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ وهو النبوة، وهي علمٌ وهبي لا كسبي، يتفضل الله تعالى به على من يشاء من عباده.

﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ تأدب عليه السلام مع أبيه، فلم يواجهه بوصفه بصفة الجهل التي كان عليها بسبب شركه وكفره، فعبر عنها بقوله: ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾.

ثم دعاه متلطفاً متأدباً:

﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ أي: أدلك على الطريق المستقيم والدين القويم، وهذا من أدبه عليه السلام مع أبيه، جعل نفسه معه كدليل ورفيق في الطريق.

ثم بيَّن إبراهيم لأبيه أن عبادة الأصنام ليست إلا طاعة للشيطان؛ لأنه مؤسسها الأول وراعيها، والداعي إليها:

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤﴾.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ بطاعته في عبادة الأصنام، فطاعة الشيطان خضوع له وعبادة، قال تعالى: ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾ [يسٓ].

ولهذا عندما يتبرأ الشيطان من أتباعه وأوليائه يوم القيامة، يقول لهم: ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

فطاعة الشيطان نوع من أنواع الشرك بالله تعالى.

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ فالشيطان عاصٍ للرحمن الذي عمَّت رحمته وإحسانه جميع خلقه.

ثم حذره من سوء العاقبة بهذا الوعيد المشوب بعاطفة الشفقة واللطف، شفقة الولد على والده:

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥﴾.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ إن أقمتَ على الشرك والكفر.

﴿فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ أي: قريناً له في العذاب وقريباً منه في النار.

أما الوالد المعاند، فقد قابل عطف ولده، وبره وإرشاده، بالفظاظة والغلظة والعناد:

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦﴾.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ﴾ فلم يقل له: (يا بني) مقابل قول إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾.

وقدَّم الاستنكار وأخَّر النداء، ثم أضاف إليه التهديد والوعيد:

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن دعوتك إلى عبادة الله، وانصرافك عن عبادة الأصنام.

﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي: لأرمينك بأنواع الذم والشتم، أو بالحجارة حتى الموت، فاحذرني.

﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ وابتعد عني واعتزلني زماناً طويلاً.

وبقي إبراهيم ﷺ على رقَّته وعطفه، وأدبه مع أبيه، رغم ما لقيَ منه من غلظة وخشونة وجفوة:

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ توديع ومتاركة، على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة، أي: لا أصيبك بمكروه، ولا أشافهك بما يؤذيك، وهو نظير قوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥][(١)].

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ أي: سأدعوه بأن يغفر لك، بأن يوفقك للتوبة، ويهديك إلى الإيمان.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ عظيم البر والإكرام.

فالاستغفار الذي وعد إبراهيم أباه هو طلب الهداية له والتوبة، ولهذا قال في دعائه: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

وهو جائز ما دام المستغفَرُ له في الحياة؛ لأنه يُرجى منه الإيمان، أما إذا مات على الكفر فلا يجوزُ الاستغفارُ له، بمعنى طلب المغفرة له، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة].

وقد يقال: إذا كان الأمرُ كذلك؛ فلِمَ مُنعنا من التأسِّي بإبراهيم في قوله

---

(١) انظر: روح المعاني: ٦/ ٩٩.

تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة]؟.

لعلَّ سبب ذلك: أنَّ أكثرنا لا يفرِّقون بين الاستغفار بمعنى طلب الهداية لمن تُرجى منه، وهو جائز، وبين الاستغفار بمعنى طلب المغفرة لمن مات على الكفر، وهو غير جائز.

أو لعلَّ استغفاره عليه السلام لأبيه كان من خواصه، ومباحاً له عليه السلام[١].

- **المهاجر الأول:**

وهجرَ إبراهيمُ عليه السلام أباه وقومه وبلاده من أجل دينه وعقيدته، فهو المهاجر الأول في سبيل التوحيد، هاجرَ إلى الله من أجل الله، وفي سبيل الله جل جلاله، وخرجَ ومعه زوجته وابن أخيه لوط عليه السلام بعد أن ألقاه قومه في النار، ونجّاه الله منها، وجعلها برداً وسلاماً عليه، خرج وهو يقول: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

وهداه الله سبحانه إلى الأرض المباركة في بلاد الشام: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

وأعلن عليه السلام قبل أن يغادرَ بلده، ويبتعدَ عن أهله وقومه اعتزاله لهم، وبراءته من شركهم وكفرهم، فقال:

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾.

أي: وأرجو أن يستجيبَ الله دعائي، وألا يخيِّبَ رجائي، فقد عودني سبحانه على فضله ورحمته.

---

(١) انظر: التفسير الكبير: ٢١/ ٢٣٠.

وقد سبق معنا في أول السورة أن زكريا عليه السلام قال أيضاً في دعائه: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

ووهب الله تعالى له الذرية الطيبة مواساةً له في غُربته:

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: اعتزل قومه ومظاهر شركهم وكفرهم.

﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بدل الذين اعتزلهم من أبيه وقومه الكفرة.

ولم تأتِ هذه الهبةُ الإلـٰهيةُ بعد الهجرة مباشرة، فالمشهور أن أول ما وهب الله له من الأولاد إسماعيل عليه السلام، استجابة لدعائه بعد هجرته من بلاده، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات].

وكان إسماعيل مِنْ هاجر، ثم حملت زوجته الأولى سارةُ بإسحاق، وقد تزوَّج في حياة أبيه إبراهيم وولد له يعقوب عليهما السلام.

ولعل ترتيب هبة إسحاق ويعقوب هنا في الآية، على اعتزال إبراهيم لأبيه وقومه، لبيان كمال عظم النعمة التي أعطاها الله تعالى لإبراهيم، بمقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقرباء، وأخَّر سبحانه ذكر إسماعيل، لأنه أرادَ أن يذكره بفضله على الانفراد(١).

وأتمَّ الله نعمته على إسحاق وولده يعقوب فأكرمهما بالنبوة:

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ وهذا من فضله تعالى ورحمته.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

أي: جعلنا لهم ذكراً حسناً رفيعاً بين الناس.

---

(١) انظر: روح المعاني: ٦/ ١٠٢.

• **موسى وهارون** عليهما السلام:

ثم ذكرت الآياتُ بعضَ الأنبياء العظام، الذين تفرَّعوا من ذرية إبراهيم من فرع إسحاق، فقال تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ بفتح اللام: استخلصه الله تعالى واصطفاه، وبكسرها: وحَّد الله تعالى بعبادته، فلم يعبد سواه.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ نبأه الله تعالى وأنزل عليه التوراة.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أوحى الله تعالى إليه، وكلَّمه بجانب جبل الطور في صحراء سيناء، من الشجرةِ التي كانت على يمين موسى عليه السلام، حينَ عاد من مدين إلى مصر.

﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ تقريبَ منزلةٍ ومكانةٍ، وشرَّفه جلَّ وعلا بمناجاته وأسمعه كلامه.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾.

فقد سأل موسى عليه السلام ربَّه فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه].

• **إسماعيل** عليه السلام:

ثم ذكرت الآياتُ الفرعَ الثاني للنبوة، المتفرعة من ذرية إبراهيم عليه السلام:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾.

أكرمه الله تعالى بالنبوة والرسالة، وخصه بصدق الوعد ـ وإن كان موجوداً

في غيره من الأنبياء عليهم السلام ـ تشريفاً له، ولأن صدق الوعد من أشهر خصاله عليه السلام، حتى إنَّه لما وعد أباه إبراهيمَ بالصبر على ألم الذبح صدق في وعده لأبيه، وذلك عندما أراد إبراهيم عليه السلام أن يذبحه تنفيذاً لأمر الله تعالى له بذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات].

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ وهي من الخصال الشريفة الحميدة التي عُرف بها إسماعيل عليه السلام، وهي من أهم الواجبات التي كُلِّف بها الإنسان نحو أهله، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]. ويأمر أيضاً قومه بها.

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ وهذا نهاية في المدح، لأن المرضي عند الله تعالى هو الفائز في كل طاعة بأعلى الدرجات(١).

ثم ذكر سبحانه إدريس عليه السلام، وهو من الأنبياء المتقدمين في الزمن على إبراهيم عليه السلام؛ ليبيِّنَ لنا أنَّ دعوةَ التوحيد قديمة لم تبدأ في عهد إبراهيم عليه السلام، بل كانت قبله، ونادى بها الأنبياء منذ بدء الوجود البشري على الأرض:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾.

وجمع الله تعالى له مع شرف النبوة والصديقية المكانة الرفيعة العالية عنده جلَّ وعلا:

---

(١) تفسير الخازن: ٤/ ١٦٥.

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾.

• **صفتان متلازمتان:**

ثم بعد أن ذكرهم سبحانه بأفرادهم وأعيانهم، ذكرهم على وجه الإجمال مشيراً إليهم بقوله الكريم:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ۝٥٨﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ أي: من أولاد آدم، كإدريس عليه السلام، فهم موصوفون بصفة الولادة التي تدل ـ كما قلنا ـ على عبوديتهم لله تعالى الذي أنعم عليهم، وفضَّلهم على غيرهم.

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ كإبراهيم عليه السلام، أي: وهم متفرعون بالولادة ممن كانوا مع نوح في السفينة.

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ كإسماعيل عليه السلام.

﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يعقوب، ومن ذريته: موسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى عليهم السلام.

ثم بيَّن سبحانه كثرة عبادتهم وخضوعهم له جل وعلا فقال:

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ أي: وهؤلاء ممن هداهم الله تعالى لعبادته، واصطفاهم لنبوته ورسالته.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أي: سقطوا على وجوههم ساجدين لله تعالى وحده، باكين من خشيته جل جلاله.

ويلاحِظُ المتدبِّرُ للآية الكريمة أنها أبرزت من صفاتهم صفتين متلازمتين، هما:

ـ **صفة الولادة التي تدل على الحدوث والضعف والعجز.**

ـ **وصفة الخضوع لله تعالى والخشية منه.**

وهذا يؤكِّد عبوديتهم لله تعالى، وينفي عنهم أي صفة من صفات الألوهية.

وهذه الآيةُ من آيات **سجود التلاوة** في القرآن الكريم التي يُسنُّ السجود لله تعالى عند تلاوتها أو سماعها.

- **اتِّباع الشهوات:**

ورحل هؤلاء الأنبياء عن الدنيا عندما حانت آجالُهم، وانقضت أعمارهم، وتركوا وراءهم أولادَهم وذريتهم، الذين أصبحوا مع مرور الأيام أجيالاً كثيرة متعاقبة، فكيفَ كان حال هذه الأجيال؟:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩﴾.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بتركها أو بتغييرها وتبديلها، ومن أضاع الصلاة، وهي عمود الدين وركنه الركين، فهو لما سواها أضيعُ.

والسبب الرئيس لانحرافهم عن منهج الصالحين من آبائهم: اتباعُهم للشهوات، وانهماكهم في الملذات:

﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ وكلمة ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ تدل على الانقياد والاستسلام، فقد أسلموا زمام أنفسهم للشهوات والنزوات، فقادتهم إلى الفساد والضلال، في مختلف شؤون الحياة.

﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ أي: سوءاً وفساداً وضلالاً في الدنيا، وعذاباً شديداً في الآخرة، فمسؤولية الإنسان أمام الله تعالى مسؤولية شخصية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ولا يُسأل الآباء عن ضلال أبنائهم، ولا ينتفعُ الأبناء الكَفَرَةُ بصلاح آبائهم البررَة، إلا إذا كانوا مؤمنين، فحينئذٍ ينفع الله بعضهم ببعض، ويُلحق المقصِّرين بالسابقين، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١].

• **الوعد المَأْتِي:**

ثم فتحت الآيات الكريمة باب التوبة لعبيد الشهوات، المنهمكين بالنزوات والملذات، بقوله تعالى:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ بالندم على ما سبق.

﴿وَءَامَنَ﴾ بالله الواحد الأحد، المنزه عن الشريك والصاحبة والولد.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أصلح به ما أفسده باتباع شهواته.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المؤمنون التائبون.

﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ بفضله سبحانه ورحمته.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينقصون شيئاً من ثواب أعمالهم.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾.

وفي الجنة:

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أعدَّها الله تعالى للإقامة الدائمة فيها.

﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾ المؤمنين التائبين، فصفة العبودية لله تعالى صفة دائمة لازمة لهم.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وعدهم بها وهي غائبةٌ عنهم وهم غائبون عنها، ولكنَّهم مصدقون بوجودها، وواثقون بوعد الله سبحانه بها.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ أي: إنَّ الحال والشأن أن وعده تعالى لابد أن يتحقق، ولا بد أن يأتي المؤمنون إلى الجنة التي وعدهم سبحانه بها، فوعده سبحانه لا يتخلف، فهو كقوله: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨].

والجنة دار السلام، لسلامتها عن المنغِّصات والمكدِّرات، ولهذا قال الله في وصفها:

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢﴾.

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا﴾ أي: كلاماً لا فائدة فيه.

﴿إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ ولكن يسمعون الكلمات التي تدل على المحبة والمودة، والتي يحب الإنسان أن يسمعها، ويَسْلَمُونَ بها من كل عيب أو نقيصة، فكلام أهل الجنة لا كذب فيه، ولا نميمة، ولا غيبة، ولا شتيمة، ولا سخرية.

﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ أي: لهم رزق دائم لا ينقطع عنهم ولا ينتهي.

﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾.

﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ﴾ دار السلام والنعيم والخلود.

﴿ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ أي: نعطيها لمن كان من عبادنا الأتقياء الصالحين.

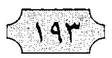
- **خضوع الملائكة لله تعالى:**

والله سبحانه خالق كل شيء ومالكه، سواء كان في الأرض أو في السماء، والمخلوقات كلها في قبضة قدرته سبحانه، وخاضعون لقضائه ومشيئته، وهاهم سكان السماء من الملائكة يعلنون هذه الحقيقة، حقيقة خضوعهم لله تعالى، فلا يتحركون إلا بأمره ومشيئته ﷻ:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ٦٤﴾.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ﴾ قال ذلك للنبيِّ ﷺ جبريلُ القويُّ الأمين عندما سأله النبي ﷺ قائلاً: «**يا جبريلُ ما يمنعُكَ أن تزورنا أكثرَ ممَّا تزورنا؟**» فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ﴾. [رواه البخاري (٤٧٣١)].

أي: فله سبحانه ما أمامنا وما خلفنا من الأماكن، وما نحن فيه، فلا ننتقلُ



من مكانٍ إلى مكانٍ إلا بأمره ومشيئته، فهو الحافظ والعالم بكل حركة وسكون، ولا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بأمره ومشيئته.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ يتنزَّه سبحانه عن الغفلة والنسيان وعن كلِّ صفةٍ تدل على العجز والضعف والنقصان. وهو:

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ﴾ وحده، فلا ربَّ سواه، ولا إله غيره.

﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي: دُم على عبادته وطاعته، والخضوع لأمره ومشيئته، فإذا عرفتَ فالزم، فإذا عرفتَ اللهَ تعالى بكماله وغناه ووحدانيته، فالزمِ الخضوعَ له وحده.

وكلمة ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ تدل على أنَّ للعبادة أعباء وتكاليف، ففيها مكابدة لشهوات النفس وميولها، وتستدعي صبراً على احتمال تكاليفها، والتجرد الكامل عن العلائق ومجاوزة للعوائق: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس].

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ أي: هل تعلم لله تعالى شبهاً ومِثلاً ونِدّاً. أو: هل تعلم أحداً يُسمَّى باسم الله غيره. وعلى كلا المعنيين فالاستفهام تقرير لوحدانيته جل وعلا وتنزهه عن الشريك والصاحبة والولد.

• الإيمان بيوم القيامة والتنزيه:

ويستدعي توحيدُ الله سبحانه وتنزيهُه الإيمانَ بيوم القيامة، وما فيه من حسابٍ وعقابٍ وثوابٍ، فلا يُعقل أن يخلق الله تعالى هذا الكون الكبير ويُدبره هذا التدبير، ثم ينتهي بالموت والفناء، يتنزَّه الخلَّاق العظيم، والعليم الحكيم، عن اللعب والعبث والباطل؛ ولهذا قال جل وعلا لمنكري يوم القيامة والبعث: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون].

وقال لهم أيضاً: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة].

وإذا ما نظر الإنسان في نفسه، وتفكر في المخلوقات من حوله، لا بد أن يدرك سر خلقه وحكمة وجوده، فيقر بها قائلاً: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

يتنزَّه الله جل وعلا عن الباطل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص].

ويتنزَّه أيضاً عن اللعب وهو القائل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء].

والقائل أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان].

ولا يكونُ الخلقُ بالحق إلا بالحساب والمسؤولية في يوم القيامة، فانظر كيف قرن الله تعالى بين الخلق والحق ويوم القيامة في قوله الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

- **استنكار واستبعاد:**

ولهذا كان الإيمان بيوم القيامة أحدَ أركان الإيمان الكبرى؛ لما له من ارتباط وثيق بتنزيه الله ﷻ عن صفات النقصان، فهو من قضايا الإيمان الكبرى التي اهتمَّ بها القرآن الكريم، وأنزل الله فيها كثيراً من الآيات الكريمة، يرد فيها على المشركين المنكرين ليوم القيامة، فقد كان كثيرٌ من العرب في الجاهلية يستبعدون إعادة الإنسان إلى الحياة بعد أن يموت ويتفتت ويصبح تراباً.

وكثيراً ما حكى الحق سبحانه استبعادهم هذا، ثم ردَّ عليهم ببيان كمال علمه وقدرته جل وعلا، ومنزِّهاً نفسه عن العجز والضعف، قال سبحانه:

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦﴾.

والمراد من (**الإنسان**): الإنسان المنكر ليوم القيامة الذي يقول ذلك على وجه الاستنكار والاستبعاد.

وردَّ سبحانه عليه بالأسلوب نفسه، أسلوب الاستفهام الذي يدل على الاستنكار:

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾.

كان على هذا الإنسان أن يتذكَّر كمال قدرة الله جل وعلا عندما خلقه أول مرة، وأخرجه من العدم، ولم يكن شيئاً، فأخرجه إلى الوجود بقدرته، وجعله شيئاً بمشيئته وحكمته، فلو تذكَّرَ هذه الحقيقة لما أنكرَ يوم القيامة، ولما استبعد قدرة الله على إعادة خلقه مرة ثانية، فهو كقوله سبحانه للمشرك المكابر الذي جاء بِعَظْمٍ بالٍ إلى النبي ﷺ ففتَّه أمامه قائلاً: يا محمَّدُ، هل يستطيع ربك أنَ يعيد هذا العظم بعد أن رمَّ وبلي؟! فأنزلَ اللهُ ردّاً عليه وعلى أمثاله من المنكرين ليوم القيامة: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يسٓ]. [رواه الحاكم (٢/ ٤٢٩) وصححه، ووافقه الذهبي].

● **الجاثون حول جهنم:**

إن الله سبحانه يغضبُ من مثل هذا المخلوق الضعيف وهو يتجرأ عليه ﷻ، ويصفه بصفات الضعف والعجز والنقص، وإننا لنستشعرُ آثار غضبه جل وعلا من خلال كلماته:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨﴾.

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ أقسم سبحانه باسمه المقدَّس الذي يدل على ربوبيته لكل مخلوقاته، مع إضافته إلى نبيه ﷺ تفخيماً لشأنه، وتنويهاً بذكره.

﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أي: لنجمعنَّ الكفارَ المنكرين ليوم الحشر، مع قرنائهم من الشياطن الذين كانوا سبب ضلالهم وكفرهم.

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ وهم في نهاية الذلة والمهانة جالسين على رُكَبهم.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ﴾ أي: ثم يخرجُ الله تعالى.

﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ من كل أمة وطائفة.

﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ رؤساء الكفر والضلال فيها، فهم المتكبرون المتجبرون، المنكرون لإحسان الرحمن.

وتأمل تركيز السورة على الاسم الكريم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ من أسمائه سبحانه الحسنى هنا في الآية، وفيما مرَّ معنا من الآيات؛ مثل:

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ﴾ [مريم: ٥٨].

﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦].

﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ [مريم: ١٨].

﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ [مريم: ٤٥].

وسيأتي أيضاً ذكر هذا الاسم الكريم في عدد من آيات السورة، وهذا يدل على اتصاف الله بكمال الغنى، وكمال الإحسان على عبده الضعيف الإنسان، كما رحم عبده زكريا عليه السلام: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢].

وكلمة ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ تدلُّ على الجذب بقوة وشدة وعنف، وهي تقابل العتو وهو التكبر، والتجبر، ومجاوزة الحد، والجزاء من جنس العمل، وتدل أيضاً على أنَّ لله سبحانه مع صفة الرحمة التي غمرهم إحسانُها وبرُّها، صفات أخرى من الجلال والكبرياء، والجبروت والانتقام[1]، وهي أيضاً من صفات كماله جل جلاله.

---

(١) نظم الدرر: ١٢/ ٢٣٥.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾.

أي: احتراقاً وعذاباً، فلا يضع الله تعالى أحداً في غير موضعه اللائق به، فله سبحانه كمالُ العلم والحكمة، يعلم الذين يستحقون أن يقدموا في العذاب إلى أسفل الدركات في جهنم.

- **القضاء المحتم:**

ثم اتجهتِ الآياتُ تبيِّنُ رحمته سبحانه بعباده المؤمنين، وفضله عليهم يوم الدين، بزحزحتهم عن العذاب، وإبعادهم عن النار، بعد الورود والاقتراب، بقوله تعالى:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ﴾ ليرى ما في النار من أنواع العذاب والنكال والأغلال، فيعرف مقدار رحمته سبحانه به، وفضله عليه إذا نجَّاه منها، ويكون أيضاً تلذُّذه بنعيمِ الجنَّةِ أعظمَ وأكملَ بعد رؤيته للعذاب والنكال.

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: كان ورودهم على النار لازماً، ألزم الله تعالى به نفسَه، وقضى به، فهو قضاءٌ محتَّم مُبْرَمٌ، وقسمٌ معظَّمٌ، أقسم الله تعالى عليه.

ويؤكد هذا المعنى ما جاء في «**الصحيحين**» [البخاري (١٢٥١) ومسلم (٢٦٣٢)]: عن **أبي هريرة** ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا يموتُ لأحدٍ من المؤمنين ثلاثةٌ مِنَ الولدِ فتمسّه النارُ إلَّا تَحِلَّةَ القَسَمِ**» وفي روايةٍ: «**فيلج النارَ إلا تَحِلَّةَ القَسَمِ**» أي: إلا مقدار الوفاء بالقسم.

فمعنى **الورود**: الدخول، فقد قضى الله تعالى أن يدخل النارَ البَرُّ والفاجر، والتقي والشقي، ويسلِّمُ الله تعالى برحمته الأبرار الأتقياء من عذابها وحرها، كما سلَّمَ إبراهيم ﷺ من الاحتراق بنار الدنيا، فكانت عليه برداً وسلاماً، وهذا

هو المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء].

وقد يكون المراد من **الورود** الحضورَ والرؤيةَ، وذلك عندما يمرون على الجسر المنصوب فوق جهنم، كما جاء في الحديث الشريف: «**فيُضْرَبُ الصراطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فأكونُ أولَ من يجوزُ مِنَ الرسلِ بأُمَّتِهِ، ولا يتكلَّمُ يومئذٍ إلا الرُّسُلُ، وكلامُ الرُّسُلِ يومئذٍ: اللهمَّ سلِّمْ سلِّمْ، وفي جَهَنَّمَ كلاليبُ مثل شَوْكِ السَّعدَانِ، هل رأيتُمْ شَوْكَ السَّعدَانِ؟**» قالوا: نعم، قال: «**فإنَّهم مِثْلُ شوكِ السَّعدَانِ غيرَ أنَّه لا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إلا اللهُ تعالى، تَخْطفُ الناسَ بأعمالِهم، فمِنْهُم مَنْ يُوبَقُ** (يهلك) **بِعَمَلِهِ، ومنهم من يَنْجَدِلُ** (ينصرع ويرتمي) **ثم يَنْجُو...**» [رواه البخاري (٦٥٧٣) ومسلم (١٨٢)].

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢﴾.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ الشركَ، ونزَّهوا الله تعالى عن صفات النقص والولادة والولد، كما جاء في الحديث الشريف: عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**يخرجُ مِنَ النارِ مَنْ قالَ: لا إلـهَ إلا اللهُ، وفي قَلْبِهِ وَزْنُ شعيرةٍ مِنْ خَيْرٍ، ويخرجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قالَ: لا إلـه إلا اللهُ، وفي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ من خَيْرٍ، ويخرجُ من النَّارِ مَنْ قالَ: لا إلـهَ إلا اللهُ وفي قَلْبِهِ وزنُ ذرةٍ من خيرٍ**» وفي رواية: «**من إيمانٍ**» [رواه البخاري (٤٤)] و«**البرة**»: القمحة.

﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾ جالسين على ركبهم، والمراد بالظالمين المشركون، إذ الشركُ أقبحُ أنواع الظلم وأعظمُها، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

وفي «**صحيح مسلم**» [٢٤٩٦]: عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما قال: أخبرتني أُمُّ مبشِّر أنها سمعتِ النبيَّ ﷺ يقولُ عندَ **حفصةَ**: «**لا يدخلُ النارَ إنْ شاءَ اللهُ مِنْ أصحابِ الشجرةِ أحدٌ، الذين بايعوا تحتها**» قالت: بلى يا رسول الله، فانتهرها،

فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فقال النبي ﷺ: «**قد قال الله** ﷻ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾».

● **سؤال وجواب:**

فما قيمةُ الدنيا ومتاعها لمن مآله إلى النار ونكالها، فإنَّ لحظةً في عذاب النار يومَ القيامةِ تُنسي كلَّ نعيم كان في الدنيا، كما جاء في الحديث الشريف: عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُؤْتَى بأنعم أهلِ الدُّنيا من أهلِ النارِ يومَ القيامةِ، فَيُصْبَغُ في النارِ صَبْغَةً، ثم يقالُ: يا ابنَ آدمَ هل رأيتَ خَيْراً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بكَ نعيمٌ قط؟ فيقول: لا واللهِ يا ربِّ. ويؤتى بأشدِّ الناسِ بُؤْساً في الدُّنيا مِنْ أهل الجنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجَنَّةِ، فيُقَالُ له: يا ابنَ آدمَ هَلْ رأيتَ بُؤْساً قط؟ هل مرَّ بكَ شِدَّةٌ قط؟ فيقولُ: لا واللهِ يا ربِّ، ما مرَّ بي بؤسٌ قط، ولا رأيتُ شِدَّةً قط**» [رواه مسلم (٢٨٠٧)]. قوله: «**يصبغ**» أي: يغمس.

وكان المشركون من أغنياء قريش يفتخرون على فقراء المؤمنين بما عندهم من متاعٍ، وزينةٍ، ورياشٍ، وأثاثٍ، فأنزل الله تعالى قوله الكريم:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحات الدلالة على وحدانية الله تعالى وكماله وغناه، وعلى صدق النبي ﷺ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ المؤمنين والكافرين.

﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ منزلاً ومسكناً.

﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ مجلساً وناديًا.

والغايةُ من هذا السؤال الافتخار بما عندهم من أثاث وزينة ورياش.

وردَّ الله عليهم بقوله تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: وما أكثر ما أهلكَ اللهُ قبلهم من أجيال.

﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا﴾ متاعاً وأموالاً.

﴿وَرِءْيًا﴾ أي: وأحسنُ منظراً وهيئة، لكثرة زينتهم، ورياشهم، وأموالهم.

ومع كلِّ ما كانوا فيه من الغنى والتمكن أهلكهم الله تعالى وعذَّبهم، ولم تغنِ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من الله شيئاً.

فالإِنسان مهما ملك من متاع ومال في الدنيا يبقى ضعيفاً عاجزاً، لا يستطيعُ أن يمنعَ نفسه من قضاء الله تعالى وقدره، ومهما عاش في الدنيا وعُمِّر فيها، فإنَّ مآله ومصيره أيضاً إلى الله تعالى وحكمه وقضائه:

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ﴾ فطول العمر لأصحاب الضلالة مكرٌ بهم، واستدراجٌ لهم، ليزدادوا ضلالاً وإثماً، وقطعٌ لمعاذيرهم يوم القيامة، حيثُ يقال لهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

ثم ماذا بعد العمر الطويل والمال الكثير؟:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ في الدنيا بتسليط المؤمنين عليهم يقتلونهم أو يأسرونهم.

﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ يوم القيامة، والساعة أدهى وأمر.

وحينئذٍ يعلمون حقيقةَ الجواب على ما صدر عنهم من سؤال: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]؛ فالجواب يأتيهم عملاً وعلماً:

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أي: فسيعلمون عندما يدخلون النار أهم خير وهم في النار ودركاتها أم المؤمنون وهم في الجنة ودرجاتها؟.

ومرة ثانية أذكِّر القارئ بتكرار السورة للاسم الكريم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي يدل على غاية الكرم والغنى والإِحسان.

ويزدادُ المؤمنون إيماناً ويقيناً بهذه الآيات البينات:

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ﴾ ولهم فوق ذلك:

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ تبقى لهم إلى يوم القيامة، فينفعهم الله تعالى بها: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء].

فهي خيرُ رصيدٍ يدخرونه لهذا اليوم:

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي: مرجعاً وعاقبة.

• **سُخرية وجزاء:**

وبلغ بالمشركين الفسادُ إلى أن يتهكَّموا ويسخروا من المؤمنين، لأنَّهم يصدِّقون بيوم المعاد، كما فعل العاص بن وائل السهمي، أحد رؤوس المشركين في مكة، عندما جاءه خبَّابُ بن الأرت رضي الله عنه يطالبه بدين له عليه، فقال له: لا أقضينَّكَ حتى تكفر بمحمَّد، فقال خبَّاب: لا والله لا أكفر بمحمَّد حتَّى تموتَ ثم تبعثَ، قال: فإنِّي إذا مِتُّ ثم بُعِثْتُ جئتني ولي ثَمَّ مالٌ وولدٌ فأعطيكَ! فأنزل الله تعالى به وبأمثاله من المشركين المنكرين ليوم القيامة:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾.

يعني: إن كان ما تقول حقّاً، وبُعثتُ يوم القيامة، سأكون فيها ذا مالٍ وولدٍ كما كنتُ في الدنيا.

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾.

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ أي: أعَلِمَ عِلْمَ الغيبِ الذي استأثر الله تعالى به؛ حتى ادَّعى أنه يؤتى يوم القيامة مالاً وولداً؟!.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أن يؤتيه ذلك.

﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾.

﴿كَلَّا ۚ﴾ ردع له وزجر، يتناسب مع سخريته واستهزائه.

﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ من السخرية والاستهزاء، لنحاسبه عليه.

﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: ونضاعِفُ له العذاب لكفره واستهزائه وجرأته على الله تعالى.

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي: نجرِّده من المال والولد الذي كان له في الدنيا.

﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة.

﴿فَرْدًا﴾ لا مال معه ولا ولد، ولا حولَ له ولا قوة، كما كان في أولِ خلقه ونشأته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٩٤].

● **الاعتزازُ بغير الله ذلٌّ:**

فما أضعف الذي يعتزُّ ويستنصِرُ بغير الله تعالى، ذي الملك والملكوت، والقوة والجبروت! وهو سبحانه المُعِزُّ والمذل، والمعطي والمانع: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

فالعزَّةُ للهِ تعالى الذي لا يُغْلَبُ، وهي بيده ومشيئته، ومن أرادها من عباده فعليه أن يؤمن به سبحانه، ويتقرَّب إليه بالعمل الصالح، ويتوجَّه إليه بالكلم الطيب، مثنياً عليه ﷻ، مظهراً فقره واحتياجه إليه ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

فالعزيز من اعتزَّ بالله تعالى وحده، والذليل من اعتزَّ بغيره من المخلوقات

العاجزة الضعيفة الفانية، ولهذا قال تعالى يوبِّخ أولئك الذين يعتزون بغيره ويتهكم بهم:

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾.

أي: ليتعزَّزوا بهم.

﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع وإنكار عليهم؛ لأنهم طلبوا العز من معدن الذل.

﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ يوم القيامة.

﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ بخلاف ما أمَّلوا منهم وظنوا فيهم.

فالعزة لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين المعتزين بالله سبحانه، كما قال جلَّ شأنه على سبيل التقرير: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

• ألعوبة الشيطان:

فالإيمان بالله تعالى وحده هو الحصن الحصينُ من مكر الشياطين وكيدهم، فإذا ما انسلخ الإنسان عن الإيمان بالله تعالى، أو غفل عنه؛ سلَّط الله تعالى عليه الشياطين تحضُّه على الشر، وتزينه له؛ ولهذا قال سبحانه يخاطب النبي ﷺ مُعَجِّباً له من حال الكافرين، الذين أصبحوا بكفرهم ألعوبة بيد الشياطين:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾.

أي: تغريهم وتهيجهم على المعاصي تهييجاً شديداً، بأنواع كثيرةٍ من الوساوس والتسويلات، والأزُّ والهزُّ والاستفزاز أخواتٌ، معناه شدة الإزعاج[1].

---

(١) روح المعاني: ٦/ ١٣٤.

وهذا يدلُّ على أنَّ الإِنسان عندما يتجرَّدُ عن الإِيمان بالله تعالى يصبح ألعوبةً بيد الشياطين يهزونه فيهتز، فالآيةُ خَصَّتِ الكافرين بهذا التسلط الكبير للشياطين عليهم، ولا يعني هذا أنَّ المؤمنين غيرُ مبتلين بالشياطين ووساوسهم وتسويلاتهم، فللشياطينِ تسلُّطٌ على الناس جميعاً سوى الأنبياء ﷺ، لكن استجابة الكافرين للشياطين أكثر، وتأثرهم بهم أعظم؛ لأن الإِيمان بالله تعالى قوة وعزة للإِنسان المؤمن، يتحصَّن به من مكر شيطانه، ولا ينال الشيطان من المؤمن ما يريد إلا عند غفلة المؤمن عن ربه سبحانه، فإذا ما ذكر اللهَ تعالى عاد إلى مأمنه وحصنه كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف].

وبعد أن بيَّن الله تعالى شدَّةَ تسلُّط الشياطين على الكافرين، وقوة تأثيرهم عليهم، قال للنبي ﷺ:

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بالإِيمان، ولا تستبطئ دخولهم في الإِسلام، فالقوم في سكرة وغواية الشياطين وضلالتهم، والأمر منوط بمشيئته تعالى، وقد جعل لكل أجل كتاب.

﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي: نحصي عليهم أعمالهم، وأعمارهم، وأنفاسهم، فكل شيءٍ بالعدِّ لا بدَّ أن ينتهي إلى حد، والمخلوق ضعيف محدود، والله سبحانه القوي القاهِرُ الذي لا تحده حدود.

• **نبي الرحمة ﷺ:**

والعجيب أنَّ كلَّ المفسرين الذين رجعتُ إليهم وجدتُهم يفسرون الآية ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بالعذاب، مع أنَّ المشهورَ من حاله عليه الصلاة والسلام أنه ما كان يستعجِلُ عذابَ المشركين، بسبب ما انطوى عليه قلبُه الشريفُ من رحمة ورأفة

بكل الخلق، فهو ﷺ نبيُّ الرحمة، كما وصفه جل وعلا بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وكان ﷺ يستعجل هداية الكافرين شفقة عليهم، ويتألم عندما يرى إعراضهم وعنادهم، حتى أنزل الله عليه قوله الكريم:

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

وكان عليه الصلاة والسلام لا يدعو على المشركين، بل يدعو لهم مهما اشتدُّوا عليه وعلى أصحابه بالأذى، ولمَّا اشتدَّ أذى المشركين على أصحابه قال له بعضُهم: يا رسولَ اللهِ ادعُ على المشركين، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إنِّي لَمْ أُبْعَثْ لعَّاناً، وإنَّما بعثتُ رحمةً**» [رواه مسلم (٢٥٩٩)].

ولما سألت **عائشةُ** رضي الله عنها رسولَ اللهِ ﷺ قائلة: يا رسول الله هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ مِنْ يومِ أُحُدٍ؟ قال ﷺ: «**لقد لقيتُ مِنْ قومِكِ، وكانَ أشد ما لقيتُ مِنْهُم يوم العقبةِ، إذ عرضتُ نفسِي على ابنِ عَبْدِ ياليل بن عَبْدِ كلال** (من زعماء ثقيف)، **فلم يجبْني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفقْ إلا بِقَرْنِ الثعالب** (اسم مكان على طريق مكة الطائف)، **فرفعتُ رأسِي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتني، فنظرتُ فيها فإذا فيها جبريلُ، فناداني فقال: إنَّ اللهَ** عز وجل **قد سَمِعَ قولَ قومِكَ لكَ، وما ردُّوا عليكَ، وقد بعثَ إليكَ مَلَكَ الجبالِ لتأمرَهُ بما شئتَ فيهم، قال: فناداني مَلَكُ الجبالِ، وسلَّمَ عليَّ ثم قال: يا محمَّدُ إنّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قولَ قومِكَ لكَ، وأنا مَلَكُ الجبالِ، وقد بعثني ربُّكَ إليكَ لتأمرَني بأمرِكَ، فما شئتَ؟ إنْ شئتَ أن أطبِقَ عليهم الأخشبين** (الجبلين الكبيرين)» فقال له رسولُ اللهِ ﷺ: «**بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابِهِم مَنْ يَعبدُ اللهَ وحدَه، لا يشرِكُ به شيئاً**» [رواه مسلم (١٧٩٥)].

لهذا كلِّه أجدُ نفسي مضطرّاً أن أخالفَ ما عرفتُ من آراء المفسرين،

وأقولُ: إنَّه عليه الصلاة والسلام ما كانَ يتعجَّلُ عذاب الكافرين، بل كان يتعجَّلُ إيمانَهم وهدايتهم.

• **عهد عند الرحمن:**

وبعد أن تحدَّثتِ الآياتُ عن يوم القيامة، وردَّت على المنكرين لهذا اليوم، وبيَّنت ارتباطَ الإيمانِ به بالإيمانِ بالله تعالى الواحد الأحد، وتنزيهه سبحانه عن صفات النقص، ختمت حديثَها عن يوم القيامة بأحد مشاهده الكبيرة، عندما يُحشر المتقون إلى مستقرِّ رحمةِ الرحمن في الجنة، ويُساق الكافرون إلى مستقر غضبه وعذابه في النار:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾.

يقدمون على ربهم برفعة وكرامة، كما تقدم الوفود على الملوك، فيُستقبلون بالضيافة والكرامة، وتقول لهم الملائكة من خزنة الجنة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

والوفد: هم القادمون ركباناً، ومنه الوفود، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه، إلى دار كرامته ورضوانه[1]: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كما تُساق البهائم بالغلظة والشدة.

﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ عطاشاً، وقد تقطَّعتْ أعناقُهم من العطش.

والسوقُ: الدفعُ بشدةٍ، وهو كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٦٥.

﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ﴾ أي: لا يستطيعُ أحد أن يشفع لأحدٍ، إلا مِنْ بعدِ أن يأذنَ الرحمنُ لمن يشاءُ ويرضى، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٥]، ولا يأذنُ الله تعالى بالشفاعة إلا للمؤمنين الموحِّدين؛ ولهذا قال بعد ذلك:

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ **والعهدُ**: شهادة أن لا إلـٰه إلا الله، وأنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ ﷺ، والقيام بحقها.

وكان **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه إذا قرأ هذه الآية قال: **اتخِذوا عندَ اللهِ عهداً، فإنَّ اللهَ يقولُ يومَ القيامةِ: مَنْ كانَ له عندَ الله عهد فليقم**، قالوا: يا أبا عبد الرحمن فعلِّمنا، قال: **قولوا: اللهم فاطرَ السمواتِ والأرض عالمَ الغيبِ والشهادةِ، فإنِّي أعهدُ إليكَ في هذه الحياةِ الدنيا أنكَ إن تكلْني إلى عملي يقرِّبني من الشرِّ، ويباعدني من الخير، وإنِّي لا أثقُ إلا برحمتك، فاجعل لي عندَكَ عهداً تؤديه إليَّ يوم القيامة، إنَّك لا تخلفُ الميعاد**[(١)].

• **القول الثقيل المنكر:**

وأخيراً عادت الآيات الكريمة إلى الموضوع الأساس للسورة، وهو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الصاحبة والشريك والولد، وهو الذي من أجله ذكرت قصة مريم وولادتها لعيسى عليه السلام، وبيّنت حقيقة عبوديتهما لله تعالى، عادت الآياتُ لتحكي القول المنكر:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾.

ثم التفتت إلى أصحاب هذا القول لتفاجئهم بالإنكار والذم:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٦٦.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾.

أي: منكراً عظيماً ثقيلاً، على القلب والنفس والعقل، ومن شدة ثقله وعظمه:

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أي: يتشققن من هذا القول الثقيل الفظيع مرة بعد أخرى، فكلمة ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ تدلُّ على تكرر التشقق.

﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي: تسقط قِطَعاً مهدودة.

وكل ذلك من أجل:

﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾.

إنَّه جرأة على الله كبيرة، أن يوصف سبحانه بالنقص والعجز والولادة والولد، وهو الواحِدُ الأحدُ، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

فلو صُوِّر هذا القول بصورة مادية محسوسة، لما تحملته هذه الأجرام العظام على شدتها وقوتها، ولو ركب في هذه الأجرام العظام ما في الإنسان من إدراك وسَمِعَتْ مثل هذا القول الفظيع، لما تحمَّلته إجلالاً لله وتعظيماً، وغضباً من أصحاب هذا القول المنكر.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظاماً للرب وإجلالاً؛ لأنهنَّ مخلوقات مؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو»[١].

فما أحلمك ربي وأعظمك! يجعلون لك الولد؛ وتمدُّهم بأسباب الحياة

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٦٦.

والرزق! قال رسول الله ﷺ: «**لا أحدَ أصبرُ على أذًى يسمعُهُ من اللهِ ﷻ، إنَّه يُشرَكُ به، ويُجْعَلُ له الوَلَدُ، ثم هو يعافيهم ويرزقهم**» [رواه البخاري (٦٠٩٩) ومسلم (٢٨٠٤)].

وكما أنَّ كلمة الشرك ثقيلةٌ في جانب الباطل، فإنَّ كلمة التوحيد ثقيلةٌ أيضاً في جانب الحق، دلَّ على ثقلها حديثُ البطاقة الذي يرويه **عبد الله بن عمرو** رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ يستخلِصُ رجلاً من أمتي على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ، فينشرُ عليه تسعةً وتسعينَ سجلّاً، كُلُّ سجلٍّ مثل مدِّ البصرِ، ثم يقولُ: أتنكِرُ مِنْ هذا شيئاً؟ أظلمَكَ كتبتي الحافِظُونَ؟ فيقول: لا يا ربِّ، فيقولُ: أفلكَ عُذْرٌ؟ فقال: لا يا ربِّ، فيقولُ اللهُ تعالى: بلى، إنَّ لكَ عندنا حسنةٌ، فإنَّه لا ظُلْمَ عليكَ اليومَ. فَتُخْرَجُ بطاقةٌ فيها: أَشْهَدُ أن لا إلـهَ إلا اللهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه، فيقولُ: احضر وزنك، فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقةُ مع هذه السجلات؟! فقال: فإنَّك لا تُظْلَمُ. فتوضَعُ السجلَّاتُ في كِفَّةٍ، والبطاقةُ في كِفَّةٍ، فطاشتِ السجلاتُ، وثقُلتِ البطاقةُ، فلا يَثْقُلُ مع اسمِ اللهِ شيءٌ**» [رواه الترمذي (٢٦٣٩) وحسنه، وابن ماجه (٤٣٠٠) وابن حبان (٢٢٥) والبيهقي والحاكم (٦/١) وصححه].

- **الولد رحمة من الرحمن:**

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾.

فلا يليقُ بالله تعالى ذي الرحمة والإحسان أن يتخذَ ولداً، فهو محال بالنسبة لجلال الله تعالى وكماله وغناه؛ لأنَّ اتخاذَ الولد يكونُ لحاجة ومجانسة، وهو سبحانه منزه عنهما.

وفي تخصيص ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ بالذكر وتكريره في السورة مرات كثيرة ـ كما أشرنا من قبل ـ دليلٌ على أنَّه سبحانه هو الرحمن وحده، ولا يستحق غيره هذا الاسم؛ لأن أصول النعم وفروعها منه وحده ﷻ، والولد رحمة من رحماته،

ألا ترى إلى قوله في أول السورة: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢]، ورحمته سبحانه عبده زكريا بولده يحيى.

وقوله سبحانه في عيسى عليه السلام: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]؛ فعيسى عليه السلام رحمة من رحمات الرحمن، وأثرٌ من آثار الإحسان، فلا يكونُ ولداً للرحمن أبداً.

ورحم الله العلَّامة النسفي عندما قال: «فلينكشف عن بصرك غطاؤه، فأنت وجميع ما عندك عطاؤه، فمن أضاف إليه ولداً فقد جعله كبعض خلقه، وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن»[1].

﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾.

أي: خاضعاً ذليلاً، فلا يستطيعُ أي مخلوق مهما كان أن يسلخ نفسه عن عبوديته لله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

فالإلٰهية والعبودية تتنافيان ولا تجتمعان، ومن كان عبداً لله تعالى لا يكون إلٰهاً أو ابن إلٰه قطعاً.

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾.

وكيف لا يُحصيهم وهو خالقُهم ومالكهم ومدبر أمورهم، وهم في قبضة قدرته وتحت قهره وسلطانه جل جلاله.

أحصاهم بسابق علمه ومشيئته أزلاً، قبل أن يخرجهم من العدم إلى الوجود. **وعدَّهم** بعد الوجود كما أحصاهم، ولن تقوم الساعة حتى يتم العدد الذي سبق به علمه، وتعلقت به إرادته ومشيئته جل جلاله.

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ١٨٣.

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾.

كل إنسانٍ يأتي إلى الله تعالى وهو في غاية افتقاره وضعفه، وحاجته إلى رحمة ربه وإحسانه، بلا مال ولا ولد ولا حول ولا قوة.

وبعد هذا التهديد والوعيد، وما فيهما من خوف ورهبة، التفتتِ الآياتُ الكريماتُ تخاطبُ المؤمنين الموحِّدين بكل هذا اللطف والعطف واللين؛ لتطمين قلوبهم، وإيناس نفوسهم، وإزالة ما يمكن أن يعلقَ بهما من خوف ووحشة، بقوله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾.

أي: سيجعل لهم الرحمن مودة في القلوب بسبب إيمانهم به وحده، وعبادتهم له وحده، قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبداً دعا جبريلَ فقال: إنِّي أحبُّ فلاناً فأحبَّه، قال: فيحبُّه جبريلُ، ثم ينادِي في السماءِ فيقولُ: إنَّ اللهُ يُحِبُّ فلاناً فأحبّوه، فيحبُّه أهلُ السماءِ، قال: ثم يوضَعُ له القبولُ في الأرض. . .**» [رواه مسلم (٢٦٣٧)].





الخاتمة

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾

وجاءت خاتمة السورةِ تخاطِبُ النبيَّ ﷺ كما كانت تخاطبه في أولها، تذكِّره بفضل الله سبحانه عليه بإنزال القرآن الكريم عليه، رحمةً من رحمات الرحمن الكبرى، وحجةً له عليه الصلاة والسلام، مؤيداً لدعوته، وصحة نبوته، وصدق رسالته:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: بلغتك، وهي العربيةُ التي أنزل الله بها القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء].

فقصة مريم عبرية، بينما اللغة لغة عربية في غاية الفصاحة والبلاغة، وهذا دليل على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، أنزله على النبي ﷺ.

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الشرك والكفر، وينزِّهون الله تعالى عن الشريك والصاحبة والولد.

﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ وهم الذين لا يؤمنون بالله الواحد الأحد لجاجاً وعناداً.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من جيل من الناس كثير.

﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي: هل بقي لأحدٍ منهم من حِسٍّ أو حركة؟!.

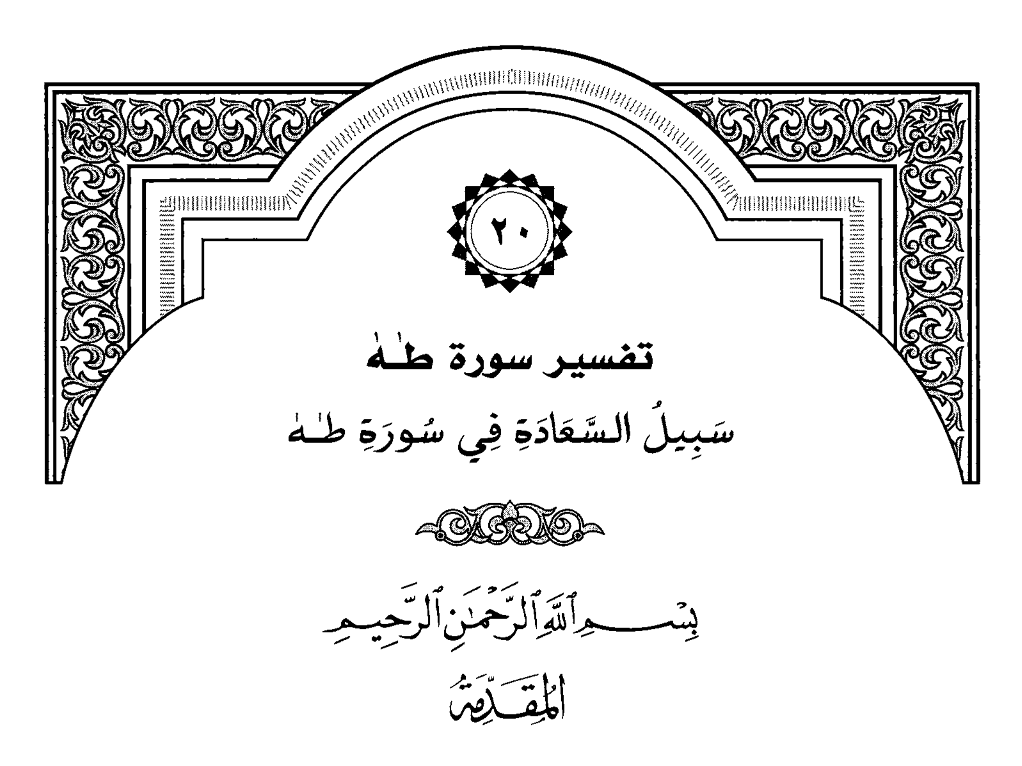
﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أو تسمع منهم ولو صوتاً خافتاً ضعيفاً؟!.

كانوا يملؤون الدنيا بضجيجهم وحركاتهم، ثم زالوا وبادوا، ولا يبقى إلا الواحد الأحد، الحي القيوم، القديم الباقي الذي لا يزولُ ولا يموتُ، والغني عن ولد يرثه يكون امتداداً له بعد موته، سبحانه وتعالى عما يصفه المبطلون.

وقد أحسن سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ بتصويره ظلال هذه الآية في نفس الإنسان عندما قال: «وهو مشهَدٌ يبدؤك بالرجَّةِ المدمرة، ثم يغمرك بالصمت العميق، وكأنَّما يأخذُ بك إلى وادي الردى، ويقفُكَ على مصارع القرون، وفي ذلك الوادي الذي لا يكاد يحده البصر يسبح خيالُك مع الشخوص التي كانت تدبُّ وتتحرك، والحياة التي كانت تنبض وتمرح، والأماني والمشاعر التي كانت تحيا وتتطلع.. ثم إذا الصمتُ يخيِّمُ، والموتُ يجثُمُ، وإذا الجثثُ والأشلاءُ والبلى والدمار، لا نأمة، لا حس، لا حركة، لا صوت: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾؟ انظر وتلفت ﴿أَوْ﴾ هل ﴿تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾؟ تسمَّعْ وأنصتْ.. ألا إنه السكون العميق والصمت الرهيب، وما من أحد إلا الواحد الحي الذي لا يموت»[1].



(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٢٢.



٢٠

تفسير سورة طـٰه

سَبِيلُ السَّعَادَةِ فِي سُورَةِ طـٰه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على خاتم النبيِّين سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ: فما فتئَ الناسُ منذ فجر وجودهم يبحثون عن سبيل سعادتهم وراحتهم على هذه الأرض، وإنَّ الجهدَ البشري بأكمله موجهٌ، كما يظنون، إلى تحقيق هذا الهدف، ومع ذلك لا نراهم يقتربون منه، بل يزدادون بُعداً عنه، فكثير من الناس كانوا ولا زالوا يعانون من الشقاء والتعاسة والبؤس والحرمان، حتَّى غلب اليأسُ عليهم، واصطبغت نظرتهم إلى الحياة بالتشاؤم، ورأوا أنَّ السعادةَ في هذه الحياة سرابٌ خادعٌ لا وجودَ لها في عالم الحقيقة والواقع، و لعلَّ ازديادَ نسبة المنتحرين ومرضى الأعصاب، وازدياد تناول المسكرات والمخدرات والمهدئات، تؤكِّد مدى التشاؤم والشعور بالفشل والخيبة عند كثير من الناس.

فهل السعادة سراب لا وجود لها، أم أن لها حقيقة ووجوداً، وثمة خطأ جعل أكثر الناس لا يسلكون الطريق الصحيح السوي المؤدي إليها؟!.

الله سبحانه الخالق العظيم عليم حكيم، ورحمن رحيم، وبَرٌّ كريم، ما خلق الإنسان وميَّزه على غيره من المخلوقات، و سخَّر له ما في الأرض

والسماوات، من أجل أن يشقى في حياته، ما خلقه سبحانه إلا ليسعده ويرحمه، ويشرِّفه بعبادته وطاعته، ولهذا أنزلَ عليه كتبه، وأرسل إليه رسله، ليبينوا له الطريق الذي يسعده في حياته الدنيا والآخرة، وما شقي الناس إلا لبُعدهم عن هذه الطريق، فشقاء الإنسان نابعٌ من اختياره و كسبه.

وقد اهتمَّت سورة طه بإبراز هذا المعنى، وكأنَّ الله ﷻ أنزلها لتأخذ بيد الإنسان التائه الشارد برفق ولطف إلى طريق سعادته وراحته.

أسألُ الله ﷻ أن يثبتنا على طريق الهداية، وأن يوفقنا للسير عليه حتى نموت ونحن على أكمل حال.

وقد جاء تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى في أربعة فصول وخاتمة:

- **الفصل الأول: عظمة القرآن الكريم، وعظمة منزله ﷻ.**
- **الفصل الثاني: قصة موسى عليه السلام مع فرعون.**
- **الفصل الثالث: قصة موسى عليه السلام مع السامري.**
- **الفصل الرابع: قصة آدم عليه السلام مع الشيطان.**
- **الخاتمة:** التعقيب الأخير على ما تقدَّم.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله و صحبه وسلَّم.



تَمْهِيد
مَوْضُوعُ السُّورَةِ

تدور أفكار ومعاني سورة طه في النقاط التالية:

١ ـ الله ﷻ متصف وحده بصفات الكمال والجلال.

٢ ـ الإنسان بضعفه وعجزه لا يستغني بنفسه، بل لا بدَّ له من هادٍ يهديه الطريقَ، ويرشده إليه، ويمدُّه أيضاً بأسباب وجوده وسعادته.

٣ ـ الله سبحانه الرحمن الرحيم، أعطى الإنسانَ كلَّ أسباب سعادته وراحته في الدنيا والآخرة.

٤ ـ شقاءُ الناس نابعٌ من إعراضهم عن طاعة ربهم وعبادته.

ولقد أبرزت الآياتُ الأولى في السورة النقطة الأولى، واهتمت بذكر بعض صفات الجلال والكمال التي يتصف بها الحق جلَّ وعلا.

وقصة موسى مع فرعون أبرزت النقطتين الثانية والثالثة؛ فموسى ﵇ كان في أشدِّ الحاجة إلى معونة الله تعالى وهدايته عندما ضل الطريق في صحراء سيناء، والله سبحانه لم يتخلَّ عنه، ناداه وأوحى إليه وأرشده، وأرسله إلى فرعون ليصحِّح له طريق سيره بعد أن ضلَّ وطغى.

ثم بينت الآياتُ فواضلَ إحسانه سبحانه و سوابغَ نعمه على عبده موسى السابقة على الرسالة واللاحقة.

وأبرزت قصةُ موسى ﵇ مع السامري كيف يشقى الإنسان، فالشقاءُ نابعٌ من كسب الإنسان واختياره وتسويل نفسه، وأكدت على هذه الحقيقة من خلال الجانب الذي عرضته الآيات من قصة آدم مع الشيطان.

وجاءت الآياتُ في خاتمة السورة منسجمةً تماماً مع أولها،تؤكد أن سعادة

الإنسان في عبادة ربه وطاعته، وأنَّ شقاءه في إعراضه عن ربه سبحانه، وشروده عن ساحة فضله ورحمته، وأنه سبحانه قد أقام الحجة على الخلق بإنزال القرآن الكريم، وبَعْثه الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وقد جاءت أيضاً مباني كلماتُ السورة منسجمةً مع معانيها العذبة الرقيقة؛ فمن أراد أن يستشعر مدى رحمة الله تعالى بالإنسان وفضله وإحسانه عليه فليقرأ سورة طه، ومن أراد أن يتذوَّق عذوبة تلاوة القرآن ونداوتها ورقتها فليقرأ سورة طه.

وإذا ما شعرتَ بقسوة في قلبك، ووحشةٍ في نفسك، وجفوة في طبعك، فاقرأ سورة طه.

فهي في معانيها ومبانيها تتجه إلى إسعاد الإنسان، وجعله يتذوق طعم اللذة والسعادة حتى في تلاوتها، فلا تفارقه لذة تلاوتها منذ أن تطالعه آياتها الأولى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ حتى آخر كلمة فيها: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ۝١٣٥﴾.

إن فيها الصراط السويَّ الهادي إلى سعادة الدارين والذي أسأله سبحانه أن يهدينا إليه، ويثبتنا عليه.



الفَصْلُ الأَوَّلُ

عَظَمَةُ القُرآنِ الكَريمِ وَعَظَمَةُ مُنْزِلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

- **الحروف المقطَّعة النورانية:**

﴿طه ﴿١﴾﴾.

يقال فيها ما قيل في غيرها من الحروف المقطعة النورانية، وقد تقدَّم القولُ فيها في عدد من أبواب هذا التفسير المبارك.

وزاد المفسرون هنا: أن ﴿طه﴾ كلمةٌ مفيدة، ومعناها: يا رجل، أو فعل أَمْرٍ بالوطء: طَأْ، فقلبت الهمزةُ هاءً، وذلك لما روي: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقومُ في تهجُّده على إحدى رجليه، فأمر بأن يطأَ الأرضَ بقدميه معاً[1].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «روي عن ابن عباس قال: ﴿طه﴾: يا رجل، وهكذا روي عن مجاهد وعكرمة والضحاك، وأسند القاضي عياض في كتابه «**الشفا**»

---

(١) انظر: تفسير النيسابوري: ١٦/ ٧٨.

عن الربيع بن أنس قال: كان النبيُّ ﷺ إذا صلّى قام على رِجْلٍ ورفع الأُخرى فأنزل الله ﴿طه﴾ يعني: طَأ الأرض يا محمد»[١].

وذكر هذه الرواية أيضاً ابن حجر العسقلاني في كتابه «فتح الباري»[٢].

وإن صحَّت هذه الروايةُ، فلعلَّه ﷺ كان يراوِحُ بين قدميه بسبب طول قيامه في تهجده بالليل، وقد صحَّ أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم من الليل حتى تتفطَّرَ قدماه، فعن **عائشة** ﵂: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقومُ من الليل حتَّى تتفطَّر قدماه، فقالت عائشةُ: لِمَ تَصْنَعُ هذا يا رسولَ اللهِ وقد غَفَرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِك وما تأَخَّرَ؟ قال: «**أفلا أحبُّ أنْ أكونَ عبداً شكوراً**» [رواه البخاري (٤٨٣٧)].

وعن **المغيرة** ﵁ قال: قام النبيُّ ﷺ حتَّى تورَّمتْ قدماهُ، فقيلَ له: غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأَخَّر! قال: «**أفلا أكونُ عبداً شكوراً؟!**» [رواه البخاري (٤٨٣٦)].

قال ابن حجر: «وفيه ـ أي: الحديث ـ: أنَّ الشكرَ يكونُ بالعمل كما يكون باللسان، كما قال الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ١٣]، وفيه ما كان النبيُّ ﷺ من الاجتهاد في العبادة والخشية من ربه»[٣].

والأَوْلى أنَّ ﴿طه﴾ من الحروف المقطعة، لأنَّها رسمت في أول السورة كبقية الحروف، وقُرئت مثلها على نمط التعددية وأسلوبها[٤].

● **القرآن سعادة لا شقاء:**

﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾.

لا شكَّ أنَّ الخطابَ للنبيِّ ﷺ فهو الذي أنزل الله عليه القرآن الكريم،

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٦٩.

(٢) انظر: فتح الباري: ٨/ ٤٣٢.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ١٥.

(٤) انظر: تفسير أبي السعود: ٦/ ٣.

والمعنى المراد: ما أنزلنا عليك يا محمد القرآن لتتعب، فإنَّ الشقاءَ شائعٌ في ذلك المعنى، ومنه: أشقى من رائض مهر[1]. هكذا قال بعض المفسرين.

وأصل الشقاء في لغة العرب: العناء والتعب، ومنه قول أبي الطيب المتنبِّي:

ذو العَقْلِ يَشْقَى في النَّعيمِ بِعَقْلِهِ وأخو الجهالةِ في الشَّقاوةِ يَنْعَمُ[2]

وما قيل من أنَّ المراد بالآية تعبه ﷺ بسبب طول قيامه بالقرآن الكريم مستبعَدٌ، فقد أُمِرَ ﷺ بطول القيام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل].

وقال أيضاً: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وكان رسول الله ﷺ يشعر براحةٍ ولذَّةٍ في صلاته وقيامه كما سيأتي معنا، والتعب الذي كان يعتريه ﷺ هو من قيامه بأعباء تبليغ الدعوة، ومواجهته لعناد المشركين وأذاهم، ومن حرصِه أيضاً على هدايتهم، وحزنه حزناً شديداً بسبب إعراضهم وعنادهم، حتى أنزل الله عليه قوله الكريم: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

وقوله أيضاً: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقوله أيضاً: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

فقوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ تكريم للنبي ﷺ ومواساة وحُسن خطاب.

ويمكن أن يكون المرادُ من الشقاء المعنى المضاد للسعادة، وهو التعاسة والشدَّة والمحنة والضلال، وقد أورد القرآنُ الكريم كلمةَ الشقاء بهذا المعنى في

---

(١) تفسير أبي السعود: ٥/ ٣.

(٢) أضواء البيان: ٤/ ٤٠١.

عدَّةِ آياتٍ، منها: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود].

وبالمقابل قال سبحانه بعد ذلك: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا. . .﴾ الآية [هود: ١٠٨].

والآية بهذا المعنى تردُّ على أعداء الإسلام الذين يفترون عليه، ويصدُّون الناس عنه بزعمهم أنه يسبب الشقاء والعناء لهم، وأنه لا يتفق مع تطور حياتهم، ولا يلبي حاجاتهم، فيوقعهم بالضيق، ويحرمهم من مُتع الحياة ومباهجها ولذائذها . . . إلى آخر ما في جُعَبهم من الأكاذيب والافتراءات التي يحاولون إلصاقها بالإسلام وشريعة القرآن.

هذه الأكاذيبُ يردِّدها أعداءُ الإسلام في العصر الحاضر، وهي ليست جديدة، فقد كان المشركون في مكة المكرمة يرددونها أيضاً، ويواجهون بها النبيَّ ﷺ منذ فجر الدعوة، ويقولون: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه] فليس الأمر كما زعمه المبطلون(١).

- **سبيل السعادة:**

فالقرآن الكريم ما أنزله الحق سبحانه إلا لسعادة الناس، ولا سعادةَ لهم إلا باتباع منهجه، وتطبيق شريعته، وكلَّما نأى الناسُ عن شريعة القرآن ازداد شقاؤهم، وعظم بلاؤهم، تماماً كما أخبر العليم الحكيم في كتابه الكريم: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦].

فالله سبحانه أرحم بعباده من أنفسهم، وما أنزل عليهم كتبه وأرسل إليهم رسله إلا رحمة بهم، لأنه جلَّ وعلا الرحمن، ولعلَّ تكرر الاسم الكريم **(الرحمن)** في سورة طه فيه إشارةٌ إلى هذه الحقيقة، فسبيل سعادة الناس أفراداً

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٦٩.

وجماعات، في الدنيا والآخرة، في منهج القرآن الكريم وشريعته، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾.

قال قتادة: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، لا والله ما جعله الله شقيّاً، ولكن جعله رحمةً ونوراً ودليلاً إلى الجنة.

ذكر إمامُ المفسِّرين الطبري هذا الأثر في تفسيره[1] ثم قال: حدَّثنا سعيد عن قتادة: قوله: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ وإن الله أنزل كتبه، وبعثَ رسله رحمةً رحمَ بها العباد، ليتذكَّر ذاكرٌ، وينتفعَ رجلٌ بما سمع من كتاب الله، وهو ذكر له، أنزل الله فيه حلاله وحرامه فقال:

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤﴾.

والعُلى: جمع العُليا، تأنيث الأعلى، وفي وصف السماوات بها دلالة على عِظَم قدرة من يخلق مثلها في علوِّها وبُعد مرتقاها، ممَّا يدل على تعظيم شأن القرآن الذي أنزله خالق الأرض والسماوات العُلى.

فلا يمكن أن يكونَ القرآنُ الكريمُ سبباً للشقاء والتعاسة، بل هو سبيلُ السعادة وأثرُ الرحمة والحكمة، لأنَّه تنزيلُ الحكيم العليم، الرحمن الرحيم، خالق الأرض والسماوات، العلي العظيم.

- **كمال صفاته جلَّ وعلا:**

وصفاتُ الكمالِ التي يتَّصفُ بها صاحب الرسالة لا بدَّ أن تظهر آثارها في رسالته، والمرسل هو الله جلَّ وعلا المتصف بكلِّ صفات الجمال والكمال، والمنزَّه عن كلِّ صفات النقص، تباركت أسماؤه، وتسامت صفاته، وتقدَّست ذاته.

---

(١) تفسير الطبري: ١٦/ ١٠٤.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أي: هو الرحمن، منزِّل القرآن، فإنزالُ القرآنِ من آثار رحمته جلَّ وعلا، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن]؛ فلا يمكنُ أن يكونَ نزوله سبب تعب وعناء وشقاء، بل هو سبيل كل سعادة وهناء.

وقوله سبحانه بعد ذلك:

﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ من صفات كماله جلَّ وعلا، من غير تكييفٍ ولا تحريفٍ، ولا تشبيهٍ ولا تعطيلٍ ولا تمثيلٍ(١).

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾.

أي: جميع الكائنات له جلَّ وعلا، فهو خالقُها ومالِكُها، وهي في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته وإرادته وحكمته، من أعظم أجرامها التي في السماوات إلى أصغر ذراتها التي في باطن طبقات الأرض وفي داخل ثراها.

والثرى: هو الترابُ النديُّ الذي في أعماق الأرض.

ومن صفات كماله وجلاله سبحانه: كمال علمه، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧﴾.

ولا شكَّ أنَّ الذي يعلمُ السرَّ وأخفى، يعلم كلَّ ما يسعد الإنسان، ويصلح له في الدنيا والآخرة.

والسرُّ: ما أسره الإنسان إلى غيره، **وأخفى منه**: ما أخطره بباله من غير أن يتفوه به أصلاً. ويمكن أن يكون ما أخطره الإنسان بباله ولم يتفوَّه به، هو السر، وأخفى منه ما يكون في ساحاته اللاشعورية التي لا تخضع لإدراك صاحبها،

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٧٠.

ولا سلطان له عليها، والتي تظهر أحياناً وتطفو على ساحة شعوره وإدراكه دون إرادة منه ومن غير استجلاب لها، فكم مِنْ أسرارٍ في أعماق نفس الإنسان غائبة عن ذاكرته، ولا يستطيع تذكُّرها مهما بذل من جهد، بل تبقى مستقرة في أعماق نفسه، وقد يموتُ صاحبها، وتُدفن معه في طيات التراب، لا يعلمها أحد سوى الله سبحانه الذي يعلم السر وأخفى.

فواجبُ الإنسانِ الأولُ أن يذعنَ لربه، ويخضع لهُ، وينقاد لدينه وشرعه، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون، وهو المتصف بصفات الكمال وحده:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ⑧﴾.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ لا معبودَ بحق إلا هو جَلَّ جَلَالُه، لأنه هو وحده المتصف بصفات الكمال والمنزَّه عن صفات النقص، فلا يستحقُّ العبادةَ سواه، وكمال شريعته من كماله جلَّ وعلا فهي سبيل السعادة، فتمسَّكوا بأمره، وانقادوا لشرعه، وسيروا على منهجه، فهو المعبودُ وحدَه، الذي لا تصلحُ العبادةُ إلا له، ولا تصلحُ حياتكم إلا بعبادته وطاعته.

- **كمال أسمائه سبحانه:**

﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ الدالة على كماله وصفاته، ولا حدَّ لكماله جلَّ وعلا، ولا حصرَ لصفاته سبحانه، ولهذا فإنَّ أسماءَه الحسنى لا حدَّ لها ولا عدَّ:

فمن أسمائه الحسنى ما بيَّنه سبحانه في كتابه وسنَّة نبيِّه ﷺ، وهي الأسماءُ التي يجب أن نذكرَه بها، وندعوه بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠] فلا ندعوه بغيرها، ولا نذكره أيضاً إلا بها: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ومن أسمائه الحسنى ما استأثر سبحانه به، ولم يُعَلِّمه أحداً من خلقه، دل على ذلك ما جاء في بعض الأدعية المأثورة: «**أسأَلُكَ بكلِّ اسمٍ هو لكَ سمَّيْتَ**

به نفسَك، أو أنزلتَهُ في كتابِكَ، أو استأثرتَ به في مكنونِ الغيبِ عندَكَ أَنْ تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبِي، وجَلاءَ هَمِّي وغَمِّي» [أخرجه رزين كما في (جامع الأصول)][1].

وكما لا يجوز أن نذكره سبحانه وندعوه بغير أسمائه الحسنى، كذلك لا يجوز أن نتقرَّبَ إليه بغير ما شرعه لنا، وبيَّنه في كتابه وسنَّة نبيِّه ﷺ، فهما سبيل السعادة، فمن أرادَ الله تعالى به خيراً هداه إلى دينه وعلمه شريعته، كما جاء في الحديث الشريف: **عن معاوية** ﷺ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ في الدِّيْنِ، وإنَّما أنا قاسِمٌ، واللهُ المعطي، ولنْ تزالَ هذه الأمةُ قائمةً على أمرِ اللهِ، لا يضرُّهُم مَنْ خالَفَهم حتَّى يأتيَ أمرُ اللهِ**» [رواه البخاري (٧١)].

ومفهومُ الحديثِ: أنَّ مَنْ لم يتفقَّه في الدين، ويتعلَّم أحكامَه وشرائعه ما أراد الله تعالى به خيراً، وقد أخرجَ حديثَ معاوية من وجهٍ آخر ضعيفٍ **أبو يعلى**، وزاد في آخره: «**وَمَنْ لم يتفقَّهْ في الدِّيْنِ لم يبالِ اللهُ بِهِ**» والمعنى صحيح كما قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله[2].

فمصدرُ شقاءِ الإنسان نابعٌ من إعراضه عن دين الله وشرعه، وجهلِهِ وسوءِ فهمِهِ، فالله سبحانه ما خَلَقَ الخلقَ ليعذبهم ويشقيهم، ما خلقهم إلا ليعمروا الأرض بطاعته وعبادته، ويسعدوا بفضله ورحمته، وما من شقاء يصيبهم إلا بسبب إعراضهم عن طاعته وعبادته، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وهو عينُ ما قررته آياتُ سورة طه في آخرها عند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] كما سيأتي معنا.

❁ ❁ ❁

(١) تيسير الوصول: ٢/ ٧٦.

(٢) انظر: فتح الباري: ١/ ١٦٥.

الفصل الثاني

قِصَّةُ مُوسَى عليه السلام مَعَ فِرْعَوْنَ

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (٩) إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ (١١) إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ (١٣) إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ (١٤) إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ (١٦) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ (٢١) وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى (٢٣) ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى (٢٥) وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى (٢٦) وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى (٢٧) يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى (٢٨) وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى (٢٩) هَٰرُونَ أَخِى (٣٠) ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى (٣٢) كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ (٣٨) أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ (٣٩) إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ (٤٠) وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى (٤١) ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى (٤٢) ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ

أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ
مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ
أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ
كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا
يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾
۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ
﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ
ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾
قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾
فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن
نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾
فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا
صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ
هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن
نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ
﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ
رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ
ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ
أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

• **تَمْهيد:**

ثم ساقت الآيات الدليل الواقعي على المبدأ الذي قررته فيما سبق بعرضها حلقات ووقائعَ من قصة موسى عليه السلام مع فرعون أولاً، ثم مع السامري ثانياً.

ومن الملاحظ أنَّ قصة موسى التي ذكر الله سبحانه بعض حلقاتها وأحداثها في عدد من سور القرآن الكريم، قد عُرِضَتْ في سورة طه بأسلوب متميِّز عن بقية السُّوَر التي عُرضت فيها، وكما يلاحَظُ أيضاً أن سورة طه انفردت بذكر بعض الوقائع والأحداث في قصة موسى لم تذكر في غيرها من السور، كما سيأتي معنا، ولهذه الوقائع التي انفردت بها السورة صلةٌ كبيرةٌ بموضوعها الأساس، الذي بقي بارزاً من خلال أحداث القصة التي غطَّت أكثر آيات السورة.

• **أعظم حوادث القصة:**

ظهر الأسلوب المتميز لعرض قصة موسى منذ بدايتها في سورة طه، فلم تُعْرَض القصة حسب التسلسل الزمني لحوادثها، بل بدأت الآياتُ القصةَ بعرض وقائعها من الواقعة التي تُعد بحق أعظم حوادث القصة وأخطرها، وهي واقعة نزول الوحي على موسى عليه السلام، وتكليم الحق سبحانه، وتشريفه بالنبوة، وتكليفه بالرسالة، هذا الحدث أعظم أحداث القصة وأخطرها، إذ كان له أكبر الآثار وأعمقها في حياة موسى عليه السلام خاصة، وفي حياة بني إسرائيل وتاريخهم عامة، وانعكست آثارُه أيضاً على المسيرة التاريخية والحضارية للمنطقة كلها.

• **ضعف وافتقار وحيرة:**

كان موسى عليه السلام عائداً من بلاد مدين إلى مصر عن طريق صحراء سيناء،

ومعه أهله، ويظهر لنا من خلال الآيات الكريمة أنه كان يعاني في أثناء رحلته من ظروف صعبة وشاقة، فالليلةُ شاتيةٌ باردةٌ، والظلام دامسٌ، وقد ضلَّ الطريقَ، وتاه عن المقصد، وأهله ـ كما تذكر الروايات ـ كانت تعاني من آلام حمل ومخاض، وهي في أمسِّ الحاجة إلى المأوى والفراش الدافئ والماء الساخن، وحاول موسى أن يوقدَ النار بالوسائل المعروفة في ذلك الزمن، فلم يتمكن، وأخذ يتلفَّتُ حوله بحثاً عن المأوى والدفء، بينما كانت الريح الباردة تلسعُ وجهه، والظلام الدامس يغشِّي بصره بحجب كثيفة سميكة تحجب عنه أقرب الأشياء منه.

إن موقف موسى في ظروفه هذه المحيطة به، يمثِّلُ الإنسان بضعفه وعجزه وحيرته، وشدة حاجته، وافتقاره إلى معونة ربه وهدايته.. فلولا أن الله الرحمن خالق الإنسان، سخَّر له ما سخر في السماوات والأرض من أسباب الحياة، ما استطاع الإنسان العيش، وما تمكَّن من إنشاء حضارة وعمران.

فالفضل لله تعالى أولاً وآخراً، خلق الإنسان، وأعطاه كل أسباب الحياة التي يحتاج إليها، قال سبحانه: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقال أيضاً: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

كما أن الإنسان بحاجة أيضاً إلى هادٍ يهديه الطريق الذي يوصله إلى السعادة في الدنيا والآخرة، ومن دون هذه الهداية يظل الإنسان تائهاً، يضرب في صحراء الحياة ضربَ عشواء، فالتمكينُ المادي لا يكفي وحدَه لسعادة الإنسان، بل لابدَّ له من منهج يضبط سلوكه، ومن شريعة يسير على هدى أحكامها، تبيِّن له الطريقَ القاصد، وتنقذه من حيرته وضلاله، وتوضِّح له مقصده وحكمة وجوده، فتكونُ له بمثابة المصباح الكاشف، الذي يبيِّنُ له حقيقة حياته، وغاية مسيرته وسعيه وجهده.

تلك هي حال موسى عليه السلام، إنسان تائه في الصحراء، في أشدِّ الحاجة إلى

معونة ربه وهدايته، وهو سبحانه الذي لا إلٰه إلا هو الرحمن الرحيم، العليم الحكيم، يعلم أحواله وحاجاته وأسباب سعادته وهدايته.

● **آنستُ ناراً:**

ولمع نور النار من خلال حجب الظلام، فتبددت الوحشة، وسرى الأُنس في داخل النفس، قال تعالى:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾.

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا﴾ جاء في الروايات أن موسى عليه السلام استأذن شُعيباً في الخروج إلى أمه، وخرج بأهله، فولد له ابن في الطريق في ليلة مظلمة مثلجة، وقد ضلَّ الطريق، وتفرَّقت ماشيته ولا ماء عنده، وقدح فصلد[1] زنده، فرأى عند ذلك ناراً في زعمه، وكان نوراً[2].

﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ أي: أقيموا في مكانكم.

﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: رأيتُ ناراً، أدخلتْ رؤيتُها الأُنسَ إلى قلبي، فبددت ما فيه من وحشة وحيرة، **فالإيناسُ**: إبصارُ ما يؤنس به، وبينت الآيات في غير سورة طه مكان هذه النار، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ الآية [القصص: ٢٩].

﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أي: لعلي آتيكم منها بشعلةٍ من النار مقتبسة على رأس قطعة حطب، وهذا يدل على أنه كان هو وأهلُه محتاجين إلى دفء النار، وقد جاء هذا المعنى مصرَّحاً به في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

(١) **فصلد**: أي صوَّت ولم يقدح ناراً.
(٢) تفسير النسفي: ٤/ ١٨٨.

﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ أي: ولعلِّي أيضاً أجد عند النار من يدلني على الطريق، وهذا يدلُّ على أنه عليه السلام قد ضل الطريق.

● **في مقام النداء والنجوى:**

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾؛ رأى عجباً، وجد ناراً بيضاءَ في داخلها شجرة خضراء، ولا شك أنه منظرٌ عجيبٌ مذهل، وقد ذُكرت الشجرة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

وصحا موسى عليه السلام من ذهوله عندما سمع نداء الحق سبحانه:

﴿نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ أعلمه سبحانه بنفسه، فالذي يناديه هو ربه الذي خلقه ورباه، ثم أصدر له أمره الأول:

﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾. وبيَّن له الحكمة من هذا الأمر فقال:

﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ المطهَّر الذي اسمه:

﴿طُوًى﴾، أمره الله تعالى بخلع حذائه ليباشر بقدميه بركة الوادي، إذ كان وادياً مقدساً[1].

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ أي: أنا اصطفيتك لنبوتي ورسالتي، وأسمعتك كلامي كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

فالنبوة لا تكونُ بالاكتساب وتحصيل الأسباب، وإنما تكون باصطفاء الحق

---

(١) تفسير الطبري: ١٦/١٠٩.

سبحانه بمشيئته وعلمه وحكمته، فالله سبحانه الحكيم الخبير ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ أي: استمع لما يوحى إليك، وتأهّب له، واجعل همتك كلها متوجهة إليه، فهو أمر خطير عظيم.

- **معرفة الله تعالى:**

ثم ذكر له الله سبحانه بعض صفات كماله وجلاله، فهو الله المستحق وحده للعبادة والطاعة لتفرُّده بصفات الكمال والجلال، فقال سبحانه:

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ أي: أنا المعبود الحقُّ، الذي لا يستحق العبادةَ أحدٌ غيري.

ودلَّ قوله سبحانه هذا على أن معرفة الله تعالى هي أوجب الواجبات، وأول المهمات وأعظمها، فهي أول ما يجب على الإنسان أن يعلمه، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

قال ابن كثير رحمه الله: «هذا أول واجب على المكلَّفين، أن يعلموا أنه لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له»[(١)].

عرَّف الله سبحانه موسى بأنه هو وحده سبحانه المستحق للعبادة والطاعة، فلا يستحق العبادةَ والطاعةَ أحدٌ غيره جلَّ وعلا، لأنَّه وحده المتصف بصفات الجلال والكمال، وسبق تقرير هذه الحقيقة في أول السورة عند قوله تعالى الذي مر معنا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨].

ولعله قد اتضحَ لنا الآنَ سِرُّ بَدْءِ الآيات بعرض قصة موسى من هذه الواقعة من موضع النداء والمناجاة في وادي طوى بجانب جبل الطور، هذه المعرفةُ هي

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٧١.

التي تنيرُ للإنسان درب حياته، وبها تظهر معالم المنهج الذي يجب عليه التزامه، ويبقى الإنسانُ من دون هذه المعرفة يتخبط في ظلمات الحَيْرة والقلق والجهل، فهي التي تخرج الإنسان من الظلمات إلى النور، فيعرف الإنسان بها أنَّ عليه أن يتوجه بطاعته وعبادته إلى الله الذي خلقه ورباه.

• **عبادته سبحانه:**

إنَّها كلمةُ جميع الأنبياء والمرسلين، فكلٌّ واحد منهم قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

لأنه سبحانه أوحاها إليهم جميعاً: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

﴿فَٱعْبُدْنِى﴾ أي: توجه إليَّ وحدي بالعبادة والطاعة، فمن أجل أن تسعدَ بعبادتي وطاعتي خلقتُك، وأنعمتُ عليك بنعمي، وسخَّرت لك ما في أرضي وسمائي: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات].

فالله سبحانه غني عنك وعن عبادتك وطاعتك، ولا سعادة لك أيها الإنسان إلا بطاعة ربك وعبادته، والعيش في ظلال منهجه وشريعته.

فمعنى **العبادة**: الطاعةُ والخضوعُ والانقيادُ في جميع شؤون الحياة، وقد ظهر هذا المعنى في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يسٓ].

ووصف سبحانه الذين أطاعوا أحبارهم ورهبانهم الذين غيَّروا أحكام شريعته فقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

• **ذِكْرُه سبحانه:**

والصلاةُ لله تعالى تدلُّ على طاعته سبحانه، والانقياد والخضوع لأمره،

فهي العبادةُ بمعناها الخاص، وهي أهمُّ العباداتِ، لأنَّها تصلُ الإنسانَ بالله تعالى، وتذكِّره به جَلَّ جَلَالُهُ، ولهذا خصَّها سبحانه فذكرها بقوله:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أي: صَلِّ الصلاةَ المشروعةَ على الوجه الكامل المستقيم من أجل أن تذكرني، فذكرهُ سبحانه يجعلُ الإنسانَ في أعلى درجات السعادة الدنيوية، ولا سعادة حقيقية في الدنيا إلا بذكره سبحانه، فهي التي تصله بالله تعالى، وهي معراجه إليه سبحانه، بها يمتلئ قلب المصلي طمأنينة وسكينة، ويبتعد عن القلق والحيرة والاضطراب وتعب الأعصاب.

تجمع الصلاةُ للمصلي الانقيادَ والاستسلامَ لله تعالى بأسلوب عملي، بأداء قيامها وسجودها وركوعها، مع ذكره سبحانه ومناجاته بالآيات الكريمة التي يقرؤها، وبالتسبيحات الخاشعة التي يردِّدها، وبالدعوات والابتهالات التي يرفعها.

ويُفيضُ الله تعالى على المصلي في مقابل ذلك من فيوضات رحمته وخزائن فضله وإحسانه، ويذكرُهُ سبحانه في الملأ الأعلى، أخبر عن ذلك بقوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يقولُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ: **أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، وأنا مَعَهُ حينَ يذكرُني، إنْ ذكرَنِي في نفسِهِ، ذكرتُهُ في نفسِي، وإن ذكرَنِي في الملأ ذكرتُه في ملأٍ هُمْ خيرٌ منهم، وإن تقرَّبَ منِّي شبراً تقرَّبْتُ إليه ذِرَاعاً، وإن تقرَّبَ إليَّ ذِرَاعاً، تقرَّبْتُ منه باعاً، وإنْ أتاني يمشي، أتيتُهُ هرولةً**» [رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) واللفظ له].

أرأيتَ سعةَ فضله سبحانه ورحمته؟! أرأيتَ كيف أنه سبحانه أسرع إليك بمعونته ورحمته وإحسانه منك إليه بطاعتك وعبادتك، وهو سبحانه غني عنك وعن عبادتك وطاعتك؟!.

وهذا هو سِرُّ شعور المصلي الخاشع في صلاته بلذة مناجاته سبحانه، بهذه اللذة تزول عنه هموم الحياة وأحزانها، وبها يعرفُ حلاوةَ الإيمان: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ولهذا كان الخشوع في الصلاة روحها وزبدتها، وهو أعلى صفات المؤمنين المفلحين وأرفعها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون].

فالصلاةُ خيرُ ما يستعين به الإنسانُ للتغلب على هموم الحياة ومصاعبها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والصلاةُ واحةٌ خضراءُ غنَّاء في صحراء حياة الإنسان، يجد فيها راحة قلبه وغذاء روحه وسكينة نفسه، تنزاحُ بها عن قلب الإنسان ونفسه أثقالُ الحياة وهمومها، **ولهذا كان النبيُّ ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلَّى**. [رواه أبو داود (١٣١٩)]. وقوله «**حَزَبه**»: أهمه وأحزنه.

- **المسؤولية والجزاء:**

ثم بيَّن الله سبحانه لموسى عليه السلام ـ بعد أن شرَّفه بمعرفته، وكلَّفه بطاعته وذكره ـ مسؤوليةَ الإنسان عن عمله يوم القيامة، فقال تعالى بأسلوب التقرير المؤكد:

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥﴾.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ لا ريبَ في ذلك ولا شك.

فلا معنى لحياة الإنسان ووجوده على الأرض من دون تكليف ومسؤولية، ماذا يبقى من حياة الإنسان إذا انسلخ عن مسؤوليته أمامَ ربِّه يوم القيامة؟! فالإيمان بيوم القيامة يعرِّفُ الإنسان قيمةَ حياته، ويجعله يدرك جوهرها، فهو نور كاشف يُضيء لنا دربَ حياتنا، ومن دونه تصبحُ الحياةُ فارغةً تافهةً مملةً مسئمةً، وهو ما يشعر به الناسُ الذين سلخوا أنفسَهم عن الشعور بمسؤوليتهم أمام ربهم خالق الحياة ومدبرها سبحانه.

ومن حكمته جلَّ وعلا ورحمته أنه أخفى عن كلِّ المخلوقات وقت القيامة، لكي يبقى دولابُ الحياة مستمرّاً دون توقف، ولو أنه سبحانه كشف الوقت المقدر ليوم القيامة للناس، لأدَّى ذلك بالذين يرونه بعيداً إلى تأخير التوبة

والتسويف بها، وبالذين يرونه قريباً إلى التوقُّف عن ممارسة نشاطهم المعيشي الدنيوي، وبهذا يُصاب دولاب الحياة بالشلل، وتتوقف مسيرتها على الأرض.

إن وقت الساعة ممَّا استأثر الحقُّ سبحانه بعلمه، فلم يُطْلِعْ عليه نبيّاً مرسلاً، ولا ملكاً مقرباً، وقد أخبر سبحانه عن ذلك في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله الكريم: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقوله أيضاً: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وجاء الخبر عن ذلك أيضاً في السُّنَّة، فعندما سأل جبريلُ النبيَّ ﷺ قائلاً: أخبرني عن الساعةِ؟ قال: «**ما المسؤولُ عنها بأعلمَ مِنَ السائلِ**» [رواه مسلم (٨)].

وقال سبحانه هنا:

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي: أكاد أخفيها حتّى عن نفسي فكيف أظهرها لك؟ وهذا محمولٌ كما قال القرطبي: على ما جرت به عادة العرب في كلامها، من أنَّ أحدَهم إذا بالغَ في كتمان الشيء؛ قال: كدتُ أخفيه عن نفسي، والله تعالى لا يخفى عليه شيء...

ومن هذا الباب قوله ﷺ: «**ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتَّى لا تعلمَ شمالُه ما تنفِقُ يمينُه**» [رواه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١)].

ثم بيَّن سبحانه الحكمة من تقرير يوم القيامة فقال:

﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ أي: بما تعمل في حياتها الدنيا من خير أو شر، فالمسؤولية شخصية ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ولا يُسأل الإنسان إلَّا عن عمله، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم].

ويدل قوله سبحانه: ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾ على أنَّ للإنسان كسباً واختياراً في سعيه

وعمله، وأن له إرادة وحرية في ما يعمل وفي ما يترك، وهو أساس مسؤوليته أمام الله تعالى يوم القيامة.

• **تحذير:**

وجاء بعد البيانِ والتقريرِ التحذيرُ:

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ أي: لا يمنعنَّك عن هذه القضايا الثلاث الكبرى، وهي: **معرفةُ الله تعالى** بكماله ووحدانيته، **وطاعتُهُ** بإقامة الصلاة والتزام دينه وشريعته، **والإيمانُ بالمسؤولية** أمامه سبحانه يوم القيامة.

﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ أي: الذي ينكرها ويجحدها، فلا يؤمنُ بالله تعالى الإيمان الصحيح، ولا يعبدُه ويذكرُه وينقادُ لشرعه، ولا يؤمنُ بالمسؤولية والجزاء يوم القيامة.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: أصبحَ تابعاً لهوى نفسه.

﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أي: فتهلك هلاكَ الشقاءِ والتعاسةِ والعذاب في الدنيا والآخرة.

وهذا التحذيرُ وجَّهَه الله تعالى إلى موسى عليه السلام، لأنَّه المخاطب والمكلَّم، والمراد به الإنسان المكلَّف، فكأنه سبحانه يقول لهذا الإنسان: في هذه القضايا الثلاث الأساسية سبيلُ سعادتك وسلامتك ونجاتك، وفي إعراضك عنها شقاؤك وعناؤك وعذابك في الدنيا والآخرة.

• **تأنيس وتسكين:**

لا بدَّ أن موسى عليه السلام، وهو في موقف المناجاة في الواد المقدس طوى، قد فوجئَ بنداء الحق سبحانه له، ولا بدَّ أنَّ وَقْعَ المفاجأةِ أحدث عنده ذهولاً واستغراقاً في الكلمات الأزلية الخالدة التي أسمعه الله تعالى إياها، فنبَّهه الحكيمُ العليمُ الرحمن الرحيم من ذهوله واستغراقه بسؤاله سؤالَ تأنيسٍ وتسكينٍ لنفسه وقلبه:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

وكان عليه السلام راعيَ غنمٍ، عوّده عمله على حمل العصا، فالعصا آلةُ عمله، ورفيقةُ دربه وسفره، وانتبه عليه السلام من ذهوله واستغراقه وأجاب:

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾، ثم أردف يبين سبب حمله لها:

﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ عند القيام وأثناء السير.

﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أي: أضرب بها أغصان الأشجار ليسقطَ ورقها فيسهل على غنمي تناوله فتأكله، كما قال الراجز:

أهشُّ بالعَصَا على أغنامي مِنْ ناعِمِ الأراكِ والبشامِ

﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي: ولي فيها حوائجُ أخرى غير ما ذكرتُ.

فكأنه عليه السلام أرادَ بهذا البيان أن يذكر أنَّه ما حمل العصا للعدوان، وإنما حملها للانتفاع بها.

ومنافع العصا كثيرةٌ، فصَّلها أعرابي للحجاج بن يوسف الثقفي عندما سأله قائلاً: ما في يدك؟ قال: عصاي، أركزها لصلاتي، وأعدُّها لعداتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمدُ بها في مشيتي لتتسع خطواتي، وأثبُ بها النهرَ، وتؤمنني من العَثْرِ، وألقي عليها كسائي، فيقيني الحَرَّ، ويدفئني من القَرِّ، وتُدني إلي ما بَعُدَ منِّي، وهي مَحْمَلُ سُفْرتي، وعلاقةُ إداوتي، أعصي بها عند الضِّراب، وأقرعُ بها الأبواب، وأتقي بها عَقُوْرَ الكِلابِ...[1].

• **المعجزة الأولى:**

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾، واستجابَ موسى لأمر الله تعالى:

---

(١) تفسير القرطبي: ١١/ ١٨٨.

﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾ أي: العصا.

﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ وفوجئ موسى عليه السلام بالمعجزةِ التي ما خطرتْ له على بالٍ، وما كان يتوقعها، انقلبت العصا بقدرةِ الله تعالى إلى حيَّةٍ تتحرك.

والحيةُ: اسم جنس يقع على الصغير والكبير، والذكر والأنثى، وقد وصفها سبحانه في موضع آخر بقوله: ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢] مما يدل على ضخامتها، **فالثعبان**: العظيم من الحيات.

ويبدو أنها تتحرَّكُ حركات سريعة، إذ وصفها سبحانه أيضاً في موضع آخر بقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

واجتمع على موسى هولُ المفاجأة والخوفُ الطبيعي الذي يعتري الإنسان في مثل هذه المواقف، فابتعد هارباً منها.

وطمأنه الله سبحانه، وأزال خوفه، كما مرَّ معنا، وقال أيضاً: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١] وأمره أن يأخذها ويحملها:

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

أي: سنعيدها إلى هيئتها الأولى، فنردها عصاً كما كانت. فأخذها موسى، فعادت بقدرة الله تعالى عصاً كما كانت.

- **المعجزة الثانية:**

ثم أمره سبحانه أن يُدْخِلَ يده من فتحة جيب قميصِه تحت إبطه، ثم بعدَ أن يُدْخِلَها يُخرجها، فقال:

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ أي: إلى جنبك تحت العضد. **وجناحا الإنسان**: جنباه، قال سبحانه في موضع آخر: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ الآية [النمل: ١٢].

﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: تخرج تتلألأ كأنها القمر من غير أذى فيها، ولا عيب، بقدرة الله تعالى ومشيئته.

﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: معجزة ثانية، أجراها الله تعالى على يدك، وأيَّدك بها كدليل يدل على صحة نبوتك وصدق رسالتك.

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾.

أي: فعلنا بك ذلك لنجعلك ترى بعضَ معجزاتنا الكبرى.

فهاتان المعجزتان: العصا واليد، اللتان أراهما الله تعالى موسى، هما بعض المعجزات التي أيده سبحانه بها، في أثناء مواجهة موسى لفرعون وملئه، فقد أيده الله تعالى بتسع معجزات أخبره سبحانه عنهن في قوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

وتدل كثرة المعجزات الحسية التي أيد الله تعالى بها موسى، على شدة عناد الذين أرسل إليهم.

• **الرسالة:**

ثم كلفه ﷻ بحمل رسالته وتبليغها، فأمره هذا الأمر الصريح:

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: جاوز الحد في تكبره وكفره، وفي فجوره وظلمه، حتى زعم لنفسه صفة الربوبية، فقد حكى الله تعالى عن فرعون قوله: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

وادعى أيضاً صفة الألوهية في قوله الذي ذكره سبحانه في الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

وبهذا بلغ غاية الطغيان والتكبر والتجبر، ولا شك أنَّ موسى كان يعلم مدى طغيان فرعون وظلمه، لأنه نشأ في قصره، وتربَّى في كنفه، وابْتُلي بعد

ذلك بقتل رجل من أعوانه وجنوده، فخرج من مصر هارباً من ظُلمه وطغيانه، فأقامَ في مدين سنين، وهو يعملُ عند الرجل الصالح شعيب في رعاية الغنم، وتزوَّجَ إحدى ابنتيه، ولمَّا ظنَّ أنَّ فرعونَ قد نسي أمره، أو أن مرور السنين قد جعله يعفو عنه، عاد إلى مصر، وفوجئ وهو في طريق عودته بتشريف الله له بالنبوة، وتكليفه بحمل الرسالة إلى فرعون وملئه وبني إسرائيل.

يا لها من مهمةٍ كبيرةٍ وخطيرةٍ ! كيف يواجه موسى عليه السلام فرعون الطاغية؟! لا بدَّ أن موسى عليه السلام شعر بثقل الرسالة التي حُمِّلها، دلَّ على ذلك ما حكاه الحق سبحانه عنه في **سورة الشعراء**: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص].

وقوله أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء].

- **سؤال المعونة:**

وفصَّلت الآيات هنا في سورة طه سؤال موسى المعونة من ربه، ليبيِّن شدة افتقار العبد للرب، فلا بدَّ للعبد من معونة ربه سبحانه في جميع الأحوال، ولا غنى لأحد عن الله تعالى، وهذا نبيُّ الله موسى، وهو من أولي العزم من الرسل، يتوجه إلى الله تعالى يستعين به بخشوع وخضوع:

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾﴾.

سأل الله أولاً أن يوسِّعَ له صدره، حتى يتمكن من حمل الرسالة، وأداء الأمانة، فإن ثقل الرسالة جعله ـ كما مر معنا ـ يشعر بضيقٍ في صدره، وانشراحُ الصدر وزوالُ الضيق يقوِّي من عزم الإنسان، ويحوِّلُ الشعورَ بمشقة التكليف إلى متعة ولذة، ويجعله دافعاً للحياة لا عبئاً يثقل خطى الحياة[1].

والجدير بالذكر هنا أن الله تعالى أكرم نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بشرح صدره لحمل

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٣.

رسالة الإسلام من غير سؤال، وأنزل عليه سبحانه في معرض الامتنان قوله الكريم: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح].

ثم سأل موسى عليه السلام ربه أن ييسِّر له أمره فقال:

﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦﴾.

أي: سهل عليَّ ما أمرتني به من مواجهة فرعون وتبليغه الرسالة.

﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧﴾.

سأل موسى أيضاً ربَّه أن يزيل النقصَ الذي كان يظهرُ في كلامه، ويبدو أنه نتيجة حادث حدث له في صغره ترك أثراً في لسانه[1].

﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨﴾.

أي: ليكون كلامي واضحاً، فيفهموه ويعلموه، ولهذا فإنَّ الله تعالى لا يختارُ لتبليغ رسالته إلا أكملَ الناس خَلْقاً وخُلُقاً.

﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩﴾.

أي: اجعل لي من أهلي مُعيناً ومساعداً يؤازرني ويساعدني في المهمة التي كُلِّفت بها.

---

(١) هذا التفسير لعقدة لسان موسى عليه السلام لا يتناسب مع الكمال البشري الذي جعله الله لأنبيائه ورسله بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وموسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل؛ فهو مبرَّأ من كل عيب أو عاهة جسدية، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]. وهناك تفسير آخر وجيه يتفق مع ما ذكرنا، انظره في كتاب: القصص القرآني، للدكتور صلاح الخالدي، طبعة دار القلم ـ دمشق (ن).

سأل الله الوزير من أهله، ثم عينه فقال:

﴿هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠﴾.

ثم سأل الله تعالى أن يقويه به، فليس كل وزير يكون عوناً وسنداً:

﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١﴾.

أي: قوِّ به ظهري، أو زدني به قوة.

﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝٣٢﴾.

أمر النبوة وحمل الرسالة.

﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣﴾.

أي: كي نكثِرَ من صلاتنا وعبادتنا، أو نزيد في تنزيهك وتقديسك عن صفات النقص.

﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤﴾.

أي: ونكثر من ذكرك، فيكون ذلك عوناً لنا على ما كلفتنا به، فإنَّ الإكثار من الصلاة والذكر يمدُّ الإنسانَ بطاقة روحانية كبيرة، تعينه على تحمل التبعات الجسيمة والمهمات العظيمة، كما مر معنا.

ولهذا لما اختار الله تعالى مريم للمهمة الكبيرة العظيمة، أمر الملائكة أن تناديها وهي في محرابِ عبادتها لتضاعفَ من صلاتها وقنوتها وذكرها: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٢ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عِمرَان].

وكذلك عندما كلف الله تعالى نبينا محمداً ﷺ بحمل رسالة الإسلام أنزل

عليه في بواكير التنزيل قوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل].

وتدل الآيات على أنه ينبغي على الإنسان إذا أحدثَ الله تعالى له نعمةً، أن يُحْدِثَ لله تعالى شكراً، وذلك بمضاعفة طاعته وعبادته، والإكثار من تسبيحه وذكره جلَّ وعلا.

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥﴾.

أي: إنك عالم بأحوالنا، تعلم ضعفنا وافتقارنا.

- **سوابق الفضل الإلـهي:**

واستجاب الحقُّ سبحانه لدعوات موسى عليه السلام، وحقق له سُؤلَه، وأخبره سبحانه عن ذلك بقوله:

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦﴾.

هكذا مرةً واحدةً أُعْطِيْتَ كل ما سألت، وبكلمة واحدة، فيها إجمال يُغْني عن التفصيل، وفيها إنجاز، لا وعد ولا تأجيل(١).

ثم ذكَّره سبحانه بسوابق فضله وإحسانه عليه، وأنَّ موسى عليه السلام كان في جميع مراحل حياته وتقلباته، موضعَ عنايته سبحانه، أحاطه بخفيِّ ألطافه، وحفَّه بكريم إحسانه، منذ بداية حياته وبواكير نشأته.

وبهذا عادت الآياتُ الكريمةُ عَوْداً لطيفاً إلى قصة موسى عليه السلام من بدايتها، وظلَّت الآياتُ محافظة على أسلوبها اللطيف الرهيف مكتفيةً بالمرور السريع على الأطوار والمراحل التي تَقَلَّبَ فيها موسى عليه السلام دون استقصاء وتفصيل، اقتصرت فقط على تذكير موسى ببعض منن الفضل الإلـٰهي عليه، والجود الصمداني والإحسان الرباني، قال تعالى:

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٤.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: أنعمنا عليك قبل هذه المرة.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: عندما أوحينا إلى أمك وحيَ الإلهام، أو بواسطة هاتف هتف بها بإذن الله تعالى، ولعلَّه الأرجحُ، إذ تضمَّنَ الوحيُ أمرين ونهيين وبشارتين، كما في قوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

بيَّن الله سبحانه لها ما ينبغي أن تفعله لينجوَ موسى من الأذى، ويسلم من الذبح، بعد أن أصدر فرعون أوامرَه بذبح كل مولود ذكر يولد في بني إسرائيل.

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ أي: ضعيه في صندوق من الخشب.

﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ وألقي هذا الصندوق في نهر النيل.

وكنتَ يا موسى وأنتَ داخلَ الصندوق والأمواجُ تتقاذفُك موضعَ عنايتنا ورحمتنا وحفظنا، فبأمرنا وإرادتنا حملتْكَ الأمواجُ إلى ساحل قصر فرعون:

﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ ويلاحظ أنَّه جاءَ الخبرُ عن هذه الواقعة بصيغة الأمر والخطاب لمياه النهر، مما يدل على أنَّ مشيئته سبحانه تامة نافذة في جميع الموجودات، وهاهي مياه النهر تخضع لأمره سبحانه، وتنقاد لمشيئته جلَّ وعلا، فتؤدي الأمانةَ التي حملَتْها سليمة معافاة إلى الساحل حيث شاء الله تعالى وقدَّر. . وأي ساحل؟ ساحل الأخطار، ساحل فرعون، الذي أمر بذبح أبناء بني إسرائيل.

• الحب من جنود الله تعالى:

حملتْك مياه النهر بأمر الله تعالى إلى مَنْ كانت أمك خائفة عليك من ظلمه وطغيانه، حتى أخذك عدو الله وعدوك الذي كان يبحث عنك:

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ وهكذا أصبحتَ في قبضة فرعون، وتحت أمره وسلطانه، ومع ذلك حماك الحقُّ سبحانه منه، فسلطان الله أقوى من سلطان فرعون، ما فرعون وما جنود فرعون بجانب سلطان الله ﷻ؟! حماك الله تعالى من فرعون بفرعون، وجعل سبحانه لك في قصره حرزاً وحصناً ووقاية وحماية.

تباركتَ ربي ما أعظمك وما أرحمك! حماك الحقُّ سبحانه من ظلم فرعون وجبروته بالحب، وجعل من الحبِّ حارساً لك:

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ أي: محبة عظيمة كائنة مني.

وجاءت كلمة ﴿مَحَبَّةً﴾ نكرةً لما في تنكيرها من الفخامة الذاتية، ثم جُعلت من الله تعالى، فأضيفت لها فخامة أخرى(١).

فما رآك أحدٌ إلا أحبَّك، هكذا حرسك الله بالحبِّ، وأصبح الحبُّ جنديّاً من جنود الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

فعندما رأتك سيدةُ القصر امرأةُ فرعون، أوقع الله محبتك في قلبها، فأنقذتك من الذبح، بعد أن أمر فرعون بقتلك؛ دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩].

وهي المرأة التي آمنتْ بعدَ ذلك برسالة موسى، ونفعها الله تعالى به، وقال عنها سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ أي: ولتُربَّى وتُنشَّأ في قصر فرعون، ترعاك عين الله

---

(١) انظر: روح المعاني: ٦/ ٨٩.

تعالى وتحرسك، وما من شرح يمكن أن يضيف شيئاً إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق الذي يلقيه التعبير القرآني العجيب(١).

• **تحريم المراضع:**

وتابعت الآياتُ الكريمة تذكِّر موسى عليه السلام ببعض سوابق نِعَم الله تعالى عليه، وفي الوقت نفسه تعرض لنا حلقات قصة حياته عليه السلام:

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ (٤٠)﴾.

﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ مشت أختُهُ تقصُّ أثره، وتتبع أخباره، حتى وصلت إلى قصر فرعون، فوجدتهم منهمكين به، يبحثون له عن مرضع، وكلَّما أحضروا له مرضعاً رفضَ ثديها، وأبى لبنها، فقد حرَّم الله عليه المراضعَ، وأخبر سبحانه عن ذلك في قوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢].

وقبلوا منها عرضها، فدلتهم على أمه التي ضمَّتْه إلى صدرها، وألقمته ثديها، فتقبله بإذن الله تعالى، عرَّفه سبحانه أنَّ هذا الثدي ثدي أمه، ثدي المرأة التي حملته في أحشائها، وغذته بدمائها، ثدي الأم التي كادت من فرط حنانها وشفقتها أن تكشفَ أمرها، وتبوحَ بسرها، ولكنَّ عناية الله تعالى أدركتها، وثبتت قلبها: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ هكذا ردك الله تعالى إلى أمك، فقرَّتْ

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٥.

عينُها وزال حزنُها، وحقق سبحانه لها ما وعدها به عندما أمرها أن تلقيك في النهر داخل الصندوق.

• الابتلاء بالقتل:

وكذلك أدركتك عنايةُ الله تعالى، وحفَّت بك ألطافُه عندما ابتُلِيْتَ بقتل رجل من رجال فرعون:

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ خطأً دون أن تقصد إلى قتله، إنما أردت كفَّه عن ظلمه.

وقد فصل سبحانه حادثة القتل في **سورة القصص** فقال: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وصدرت الأوامرُ بقتلك، وأرسلَ اللهُ تعالى لكَ رجلاً يحذرك وينصحك: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص].

ويسَّرَ الله تعالى لك سبيل النجاة:

﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ الذي أصابك بسبب قتل الرجل.

﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ أي: اختبرناك وامتحناك اختباراً بعد اختبارٍ، وامتحاناً بعد امتحانٍ، ونجيناك منها جميعاً.

• موعد وقدر:

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي: أقمتَ سنين عند الرجل الصالح شعيب في مدين، ولعلَّها المذكورة في قوله تعالى على لسان شعيب في **سورة القصص**: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: ثم جئت إلى موضع النداء والمناجاة على القدر

الذي قدرتُه لك، والموعد الذي تعلقت به مشيئتي، وسبق به علمي، فلم تتقدم عليه ولم تتأخر، إنها خطوات وحركات مقدرة محسوبة قدرها العليم الحكيم.

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾.

أي: اخترتُك واصطفيتُك لمحبتي وكرامتي.

وهذا يدل على أنَّ لموسى ﷺ مكانةً عاليةً عند الله تعالى.

أو كما قال سيد قطب رحمه الله: «﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ خالصاً مستخلصاً ممحضاً لي ولرسالتي ودعوتي، ليس بك شيء من هذه الدنيا، ولا لهذه الدنيا، إنما أنت للمهمة التي صنعتُك على عيني لها، واصطنعتُك لتؤديها فما لك في نفسك شيء، وما لأهلك منك شيء، وما لأحد فيك شيء، فامضِ لما اصطنعتُك له»(١).

● **عدة الداعية وأسلوبه في الدعوة:**

﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾﴾.

﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ أي: بمعجزاتي التي أيدتُك بها.

﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ أي: لا تفترا ولا تقصِّرا في ذكري، فهو عدتكما في مهمتكما، اتخذا ذكري جناحاً تطيران به(٢).

قال ابن كثير رحمه الله: «المرادُ أنَّهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ليكونَ ذكرُ الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما، وسلطاناً كاسراً له»(٣).

وقد أمر الله تعالى بذكره عند لقاء العدو فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٦.
(٢) تفسير النسفي: ٤/ ١٩٨.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٨٢.

وقد يكونُ المراد من الذكر تبليغَ الرسالة، فإنَّ الذكرَ يقع على كل العبادات، وتبليغُ الرسالة من أعظمِها[1].

فيكون المعنى: ولا تقصِّرا في تبليغ رسالتي.

﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣﴾.

جاوَزَ الحدَّ باستكباره وظلمه وفجوره.

ومع ذلك أمرهما سبحانه أن يُلينا القولَ له:

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾.

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ لا خشونةَ فيه، ولا شدَّةَ ولا غلظةَ.

﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ أي: يتعظ ويقبل الموعظة.

﴿أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ عقابَ الله تعالى وانتقامه.

بهذا التوجيه الكريم بيَّن الله تعالى للدعاة الأسلوبَ الذي ينبغي عليهم اتباعه في الدعوة إلى الله تعالى، وهو أسلوبُ الرفق واللين ومحاولة الوصول إلى المراد بأيسر الطرق وأسهلها، كما في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وفي الحديث النبوي الشريف: عن **أبي موسى الأشعري** رضي الله عنه قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا بعثَ أحداً من أصحابه في بعضِ أمرِهِ، قال: «**بَشِّرُوْا ولا تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا**» [رواه مسلم (١٧٣٢)].

قال ابن كثير رحمه الله: «هذه الآيةُ فيها عبرة عظيمة، وهو أنَّ فرعون في غاية

(١) التفسير الكبير: ٢٢/ ٥٧.

العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أُمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين»[١].

ومهما كان المدعو مبالغاً في كفره وظلمه، فلا ينبغي للداعية أن ييئس من هدايته، بل ينبغي أن يدعوه دعايةَ من يرجو هدايته، فلو يئس من هدايته لا يبلِّغه الدعوةَ بحرارة وحماس وإخلاص، ولهذا قال سبحانه لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أي: وأنتما راجيان أن يتذكر أو يخشى، وحاصل الكلام: باشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمرَ عملُه، ولا يخيبَ سعيه، فهو يجتهد بطوعه، ويحشد أقصى وسعه[٢].

• **تثبيت وتطمين:**

ودلَّ الخطابُ الموجَّه إلى موسى وهارون أنَّ الله تعالى قد أوحى إلى هارون ونبأه وكلَّفه بالرسالة كما كلَّف موسى عليه السلام، ولما اجتمع موسى مع أخيه هارون توجها إلى الله تعالى معاً بهذا الدعاء:

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ أي: نخافُ أن يعاجلنا فرعون بالعقوبة والأذى قبل أن نتمكَّن من تبليغه. قالا ذلك لما يعلمان من شدة ظلمه واستكباره.

﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ أو أن يزدادَ طغياناً واستكباراً بعد تبليغه الدعوة.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ﴾ مما ذكرتُما.

﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ أي: لأنني معكما بالحفظ والنصر.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٨٢.

(٢) روح المعاني: ٦/ ١٩٥.

﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، فأفعلُ في كلِّ حالٍ ما يليقُ بها من دفع شرٍّ، وجلب خيرٍ.

وبهذا أزال سبحانه خوفهما وطمأنهما، ورحم الله القائل:

وإذا العنايةُ راقبتْك عيونُها نَمْ فالحوادِثُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ

- **مواجهة الطاغية:**

ثم بيَّن الله تعالى لهما ما يقولان لفرعون عندما يواجهانه:

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ الذي رباك بفضله وإحسانه.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أطلقهم لكي يذهبوا معنا حيث يشاؤون.

﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ﴾ أي: وكُفَّ عن ظلمهم وتعذيبهم بما تكلفهم القيام به من أعمال السخرة الشاقة، وبما تفعله من تذبيح أبنائهم، واستحياء نسائهم.

﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ﴾ بمعجزة تدل على صدقنا وصحة رسالتنا. والمراد بها جنس الآية، كانقلاب العصا حية، واليد البيضاء المنيرة.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: السلامة والعافية والسعادة في الدنيا والآخرة لمن اتبع دين الله تعالى وتمسَّك بطاعته وشريعته، وجيء بحرف الجر (**على**) للإشعار بأنَّ السلام يكون لهم كمظلة واقية، تحميهم من أسباب الشقاء والتعاسة والعذاب.

ودل مفهومُ الآية أنَّه لا سلامَ ولا سعادةَ لمن لا يتبع الهُدَى، فلا سلام لفرعون إذا أصرَّ على كفره وطغيانه.

ولما أرسل النبيُّ ﷺ رسالته إلى هرقل ملك الروم يدعوه فيها إلى الإسلام، بدأ الرسالةَ بخاتمة هذه الآية، ونصُّ الرسالة: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمَّدٍ رسولِ اللهِ إلى هِرَقْلَ عظيمِ الروم، سلامٌ على من اتَّبعَ الهُدَى، فأنِّي**

أدعوكَ بدعايةِ الإسلام، أسلمْ تَسْلَمْ، وأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أجْرَكَ مرَّتينِ، وإن توليتَ فإنَّ عليكَ إثم الأريسيينَ» [رواه مسلم (١٧٧٣)].

وقوله: «**الأريسيين**»: الرعية التي تحكمها.

ودل قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ على أنَّ مهمة الأنبياء والمرسلين لا تقتصِرُ فقط على الدعوة إلى عبادة الله تعالى وطاعته، وإنَّما تمتدُّ إلى مقاومة الطغاة والظالمين، وإلى العمل من أجل تخليص الأمم والشعوب من ظلمهم وبغيهم.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ﴾ من ربنا جلَّ وعلا الذي أرسلنا إليك.

﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ رسل الله تعالى.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن عبادته وطاعته.

وهذا التعريضُ بالعذابِ دونَ التصريحِ به مباشرة من التلطُّف واللينِ الذي أوصاهما الله تعالى به.

- **حوار الإيمان مع الكفر:**

ومع أن فرعون كان في غاية العتوِّ والاستكبار والطغيان، إلا أنَّ الله تعالى بقدرته ومشيئته منعه من البطش بموسى وهارون عليهما السلام، كما وعدهما سبحانه، بل اتجه إلى التحاور مع موسى عليه السلام:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾.

لم يُضِف نفسَه إلى الربِّ، مع أنهما صرحا له بذلك عندما قالا له: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [طه: ٤٧].

وذكر سبحانه في موضع آخر أنهما قالا له أيضاً: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، فهو سبحانه ربنا وربك ورب جميع المخلوقات.

ولا شك أن إعراضَ فرعون عن إضافة نفسه إلى الربِّ سبحانه يدلُّ على شدَّةِ طغيانه واستكباره، وهو تجاهلٌ وتغافلٌ عن حقيقةٍ مستقرَّةٍ في أعماق نفسه، تقول له: إنك مخلوقٌ ومملوكٌ لخالق عظيم، ومربوبٌ لرب كريم، وقد واجهه موسى بهذه الحقيقة في إحدى محاوراته له فقال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وردَّ موسى على سؤال فرعون بتذكيره بالحقيقة التي تغافل عنها في سؤاله:

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أي: ربنا لا ينبغي لأحد أن يسأل عنه، لأنَّه أوجد كل المخلوقات، وأخرجها من العدم، وخَصَّ كل مخلوقٍ بصفات وخصائصَ تناسبه وتلائمه، وتميزه من غيره من المخلوقات، فكلُّ المخلوقاتِ تعرِفُ ربها الذي أوجدها وأمدها بأسبابِ استمرارِ وجودِها.

﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي: هداهم، فأرشدهم إلى كيفية الانتفاع بما أعطاهم الله جلَّ وعلا، فهو الذي هدى النملةَ إلى تخزين طعامها، والنحلةَ إلى السبل التي تسلكها لجمع غذائها، والسمكةَ في أعماق البحار إلى أماكن تكاثرها وتناسلها، والطيرَ في جو السماء إلى طرق هجرته الممتدة فوق المحيطات والقارات. . . إلخ.

فهو الذي أعطى كلَّ صنف شكله وصورته المناسبة له، وأعطى كل ذكر وأنثى الشكل المناسب له من جنسه في المناكحة والأُلفة والاجتماع، وأعطى كل عضو شكله الملائم للمنفعة المنوطة به، فسبحانه جلَّ وعلا، ما أعظم شأنه وأكمل قدرته![١].

فإيجادُ المخلوقات دليل على وجوده سبحانه، وتخصيص كل مخلوق بالخصائص التي تناسبه دليل أيضاً على وجوده سبحانه وكمال قدرته وعلمه

---

(١) أضواء البيان: ٤/ ٤١٩.

وحكمته، وهداية كل مخلوق إلى طرائق حياته ومعاشه وتكاثره دليل أيضاً على وجوده تعالى وكمال قدرته وتمام مشيئته وحكمته.

ورحم الله سيد قطب عندما قال: «ربنا الذي وهب الوجود لكلِّ موجود في الصورة التي أوجده فيها، وفطره عليها، ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها، وأمدَّه بما يناسِبُ هذه الوظيفة، ويعينه عليها، و(ثمَّ) هنا ليست للتراخي الزمني، فكل شيء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعي الفطري للوظيفة التي خُلق لها»(١).

وأقول: الأولى أن نقول: (ثم) للتراخي الزمني، تدل على توالي عطايا الحق سبحانه وإمداده لمخلوقاته، فمنه الإيجاد والإمداد، والإمداد مستمر من الله تعالى لمخلوقاته إلى الأجل المسمى لها لموتها وفنائها.

وما يسمى الاهتداء الطبيعي الفطري، لا يحدث إلا بإيجاد الحق سبحانه عندما تتعلَّق إرادته سبحانه بإيجاده، فهو حادث متجدد بإرادته سبحانه وقدرته، وقد مرَّ معنا أن من أسمائه الحسنى: **القيوم**، ومن معانيه: أن المخلوقات كلها تقوم به جلَّ وعلا، فإذا قطع سبحانه عنها إمداده انقطع وجودها وانتهت، ويؤكِّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١].

- **جواب مُفْحِم:**

وجاء جواب موسى عليه السلام في غاية البلاغة لاختصاره وعمق معانيه، وشموله لجميع المخلوقات، مع الإشارة إلى كثرتها وكثرة أجناسها وأنواعها وخصائصها، وافتقارها إلى خالقها وبارئها جلَّ وعلا، الذي أوجدها من العدم، وأمدَّها بأسباب استمرار وجودها، وهداها وأرشدها، فهو ربُّ العالمين، الواحد الأحد، الإله المستحق للعبادة والطاعة، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه جلَّ وعلا، فهو جواب ملزم ومقنع ومفحم.

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٨.

ولا بدَّ أن فرعون قد بُهت بجواب موسى وأُفحم، فاضطر أن يصرف الكلام إلى جهة أخرى:

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾.

أي: فما حالهم بعد موتهم من السعادة والشقاوة؟.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ لأنه من الغيب المغيَّب عني، فأنا عبد الله تعالى لا أعلم إلا ما علمنيه ربي جلَّ وعلا.

﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: علم أحوال هذه القرون مثبت في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، الذي كتب الله تعالى فيه شؤون جميع المخلوقات.

﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا يغيب شيء عن علمه سبحانه، ولا ينسى شيئاً جلَّ وعلا.

وكأنَّ موسى عليه السلام قال ذلك ليبيِّن كمال علمه سبحانه، وأنه لا يحتاج إلى كتاب، ولكنَّه أظهر مقدوراته التي قدرها في اللوح المحفوظ ليطلعَ عليها مَنْ شاء من الملائكة الموكلين بتصريف شؤون المخلوقات.

- **من دلائل وُجوده سبحانه وَجُوده:**

وتوقفت الآيات عن متابعة الحوار بين موسى وفرعون لكي تبين لفرعون وأمثاله من الجاحدين والمعاندين بعض البراهين الدالة على وُجوده سبحانه وَجُوده، وبعضَ آثار رحمته وإحسانه، قال تعالى:

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾.

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: فراشاً ملائماً لحياتكم ومعاشكم،

فالأرض للإنسان كالمهد للطفل، وما البشرُ عليها إلا أطفالٌ، يضمهم حضنها، ويغذوهم دَرُّها، والله سبحانه بقدرته وحكمته أعطى الأرض خلقها لتكون صالحة لحياة الناس عليها، وأعطى الناس خلقهم أيضاً على الهيئة التي خلقوا عليها ليتمكَّنوا من الحياة على هذه الأرض، وهذا يدلُّ على أنَّ خالق الأرض والإنسان واحدٌ أحدٌ سبحانه.

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: وشقَّ لكم في الأرض طرقاً تمشون عليها وتتنقلون بواسطتها في نواحي الأرض وأطرافها، قال تعالى في **سورة الزخرف**: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وهو ماء المطر المنزَّل من السحاب في جهة السماء.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ أي: فأخرج الله تعالى بماء المطر أصنافاً من نباتات كثيرة مختلفة في أشكالها وألوانها وطعمها وروائحها.

فالخالق هو الله تعالى وحده، ولهذا انتقلت صيغةُ الكلام من الغيبة إلى التكلُّم بصيغة التعظيم، ونظيرُ هذا الانتقال في القرآن كثير، كما في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ الآية [الأنعام: ٩٩].

وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ الآية [فاطر: ٢٧].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

ويدل هذا الالتفاتُ من الغيبة إلى التكلُّم على تعظيم شأن إنبات النبات، فهو ظاهرةٌ كبيرة، تدل على عظمة الخالق سبحانه، كما تدل على سعة فضله

وإحسانه على الناس، فلولا أن الله سبحانه أنزل المطر وأخرج الثمر لهلك الناس جوعاً وعطشاً.

• الزوجية في المخلوقات:

ودل قوله تعالى: ﴿أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ على حقيقة علمية، ما عرفها الناس إلا في العصور الحديثة، وهي الزوجية في النبات، وانقسامها إلى زوج مذكر وزوج مؤنث، فقوله: ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافاً، سُمِّيت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض[1].

جاء الخبر عن هذه الحقيقة في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

وذكرت بعض الآيات أنَّ الزوجية موجودة في جميع المخلوقات، قال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يسۤ: ٣٦].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

فالذكورةُ والأنوثةُ، والسالبُ والموجبُ، وانقسام المخلوقات إلى صنفين متكاملين، يكمِّلُ كلُّ صنفٍ الصنفَ الآخر الذي يقابله، ظاهرةٌ مبثوثة في جميع المخلوقات، وتدل على حدوثها ونقصها وافتقارها، أما الخالق فهو واحدٌ أحدٌ، فرد صمد، قوي قاهر، حيٌّ قيوم، غنيٌّ عن كل شيء، وكل الأشياء تقوم به، وتفتقر إليه جلَّ وعلا.

وبعد أن بيَّن سبحانه للناس دلائل وجوده وفضله وإحسانه، وجَّه الخطاب لهم بأسلوب المتفضل المحسن، فقال:

---

(١) تفسير البيضاوي: ٤/ ٢٠٢.

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ﴾ فقد خلق الله سبحانه طعامكم وطعام أنعامكم.

والأمر هنا للإباحة، ولا يخفى ما فيه من الامتنان والاستدلال على استحقاق المنعم وحده العبادة والطاعة، ولهذا ختم سبحانه الآية بقوله:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر في الآية.

﴿لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ أي: لبراهين ودلائل ينتفع بها أصحاب العقول الناهية عن اتباع الباطل وعبادة غير خالقها ورازقها جلَّ وعلا، فالتفكير والنظر سبيلُ الإيمان بالله تعالى ووحدانيته.

- **الإنسان والأرض:**

الإنسان مرتبط بالأرض ارتباطاً وثيقاً مُحْكماً، قدَّر هذا الرباط وأحكمه الخلاق العظيم سبحانه، فبنية الإنسان المادية مكونة من تراب الأرض:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ كما قال تعالى في آيات كثيرة:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ ومصير أجسادكم بعد الموت إلى الأرض.

﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ في يوم القيامة يوم البعث والنشور، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

إنه ناموس علوي قدَّره العليم الحكيم القادر القاهر للإنسان، ومهما أُوتيَ الإنسان من وسائل القوة والتمكين فلن يستطيعَ التفلُّت من هذا الناموس القدري، ولن يجدَ الباحثون بين النجوم كوكباً يلائمُ الإنسان مثل الأرض، إنَّ جهودَهم

ضائعةٌ، يبدِّدون فيها طاقات كبيرة لو وجهت إلى عمارة الأرض لكان ذلك أنفع للناس، ولوجد المحرومون ما يسدُّ حرمانهم، والجائعون ما يسد جوعهم.

• **عناد وجحود:**

وتابعت الآيات بعد هذا التوقف القصير في محطة الدلائل والبراهين استعراض أحداث قصة موسى مع فرعون:

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ﴾ أي: فرعون.

﴿ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ أي: كل المعجزات الدالة على صدق رسالة موسى وصحة نبوته.

﴿فَكَذَّبَ﴾ بالآيات وردَّ البينات.

﴿وَأَبَىٰ﴾ الانقياد والإذعان لرب الأرض والسماوات.

لقد بيَّن الله تعالى لفرعون سبيل الهداية وطريق السعادة، فأعرض عنه استكباراً وعناداً، واتَّبع هوى نفسه، فخاب وخسر، وشقي شقاء الأبد، وبهذا أظهر الحق لنا أن مصدر شقاء الإنسان نابع من نفسه، من كسبه واختياره.

كذب فرعون بالآيات البيِّنات، وهو يعلمُ أنها حق وصدق، وقد كشف سبحانه هذه الحقيقة في قوله الكريم: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النحل].

وردَّ فرعون على موسى متهماً له بأنه يطمع في الحكم والسلطان، وأنَّه أتى ينازع فرعون في سلطانه على أرضه وشعبه، وأنَّ المعجزات التي أيده الله تعالى بها ليست سوى عمل من أعمال السحرة:

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾.

وهو سؤال استنكار، ومعناه: ما جئتنا نبيّاً هادياً، إنَّما جئتنا تريدُ لنفسك الحكم والسلطان، فتخرجنا بسحرك من ديارنا، وتغلبنا عليها.

وهي الحجة نفسها التي يحتجُّ بها كل الطغاة والظالمين في جميع العصور، يتهمون كل داعية ومصلح ومعارض لطغيانهم وظلمهم بأنَّه يريد الحكم والسلطان لنفسه، وأنه لا يريد إصلاحاً ولا عدلاً، فدعوة موسى في نظر فرعون دعوة سياسية، بحسب الاصطلاح الدارج في العصر الحاضر، وقد يكونُ بين الدعاة والمصلحين مَنْ يتطلَّعُ إلى الدنيا ورتبها ومراتبها وزخرفها وزهرتها، ويكثر هذا في عصور الفتن، كما أخبر ﷺ.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**بادِرُوا بالأعمال فتناً كَقِطَعِ الليلِ المظلمِ، يصبحُ الرجلُ مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبحُ كافراً، يبيعُ دينَه بِعَرَضٍ من الدُّنيا قليل**» [رواه مسلم (١٨٦)].

وقوله: «**بادروا**» أي: سارعوا إلى الأعمال الصالحة قبل تعذُّرها والانشغال عنها بالفتن الحادثة.

لكنَّ الأنبياءَ عليهم السلام لا يكونُ منهم شيء من هذا أبداً، فدعوتهم منزهة عن جميع الأغراض الدنيوية خالصة لله تعالى، فهم معصومون بعصمة الله تعالى لهم، وهو سبحانه الذي اصطفاهم واختارهم وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وقد مرَّ معنا قوله تعالى في موسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ [١٣]، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ وسيأتي معنا في آخر السورة قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

وأراد فرعون أن يقوِّي تهمته لموسى ويعزِّزها، فقال له على سبيل التحدي:

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ معارضاً لسحرك، ومماثلاً له.

﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾ وحتى لا نتخلَّف عنه اجعله في مكان معلوم.

﴿مَكَانًا سُوًى﴾ يستوي الجميعُ في معرفته.

ولم يُقْبِل فرعون على تحدي موسى مباشرة، بل رجع أولاً إلى أعوانه ومستشاريه كما دلت على ذلك الآيات في **سورة الشعراء**: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء].

- **الاستعداد ورسم الخطط:**

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ أي: موسى.

﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ وهو يوم عيد لهم كما تدل عليه الصفة التي وصف بها.

﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ أي: وأن يُجمع الناس في وقت الضحى من النهار.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: جمع أسباب مكره واحتياله، وأخذ يشجِّعُ السحرة، ويعدهم بالوعود البراقة، ويمنِّيهم الأماني الخلابة، قال تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء].

ووقف موسى عليه السلام في وسط الميدان حاملاً عصاه في مواجهة عددٍ كبيرٍ من السحرة الحاملين حبالهم وعصيهم ووسائل سحرهم.

ووجَّه موسى عليه السلام قبل بَدْءِ المبارزة الدعوة إلى السحرة، وبلَّغهم الرسالة التي كلَّفه الله تعالى بتبليغها، ثم حذَّرهم من عذاب الله وغضبه إذا أصروا على الوقوف بجانب الطاغية ومساعدته على طغيانه وظلمه:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تصفوا معجزات الله تعالى بصفة السحر.

﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي: فيهلككم الله تعالى بعذاب يستأصلكم به.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ أي: خسر من كذب على الله تعالى.

ويبدو أن كلمات موسى قد أثرت فيهم، وأحدثت بينهم تنازعاً واختلافاً:

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾.

فتنازعوا واختلفوا، واضطروا إلى الحديث الخفي فيما بينهم ليستروا تنازعهم واختلافهم، وتوصَّلوا أخيراً إلى الاتفاق، وخلاصة ما اتفقوا عليه:

﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾ بعضهم لبعض.

﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ يشيرون إلى موسى وهارون.

﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ أرض مصر.

﴿بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ أي: ويستبدا بهذه الطريقة وهي السحر دونكم، ويسيطرا على مكاسبها المادية ومراتبها.

وهذا يدل على أنَّ السحرةَ نظروا إلى موسى وهارون على أنهما منافسان خطيران لهم على صناعة السحر وأرباحها وفوائدها، كما يدل على أنَّه كان للسحرة في المجتمع المصري في ذلك الوقت انتشار كبير ومكانة عالية، وقد جعلهم الخوف على الأرباح والمناصب يوحِّدون كلمتهم وصَفَّهم، ولا بدَّ أنَّ فرعون قد دسَّ بينهم بعض أتباعه ليجعلوا السحرة ينظرون إلى موسى وهارون هذه النظرة.

فتحقق لفرعون ما أراد، واتفقت كلمة السحرة، ووحَّدوا موقفهم، وأوصى بعضهم بعضاً قائلين:

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي: وحِّدوا عملكم الذي تكيدون به موسى وهارون.

﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾ أي: تقدّموا إلى ميدان المبارزة متعاونين متساندين.

﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ أي: من فاز وغلب.

وهكذا أعادوا تنظيم صفهم، وتوحيد كلمتهم، ورسم خططهم.

● **الجولة الأولى:**

وبثَّ اجتماعُهم واتفاقُهم الثقةَ في نفوسهم، فأقبلوا على موسى مخيِّرين:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥﴾.

فاختار عليه السلام الجولة الثانية ليرى ما يستطيعون أن يفعلوا من السحر ويُظْهِرَ للناسِ حقيقةَ أمرهم:

﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦﴾.

ألقوا حبالهم وعصيهم وهم يرفعون أصواتهم يشيدون بفرعون تزلُّفاً وتقرُّباً، كما ذكر سبحانه في **سورة الشعراء** فقال: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾.

وامتلأت ساحةُ الميدان الفسيحة بالحبال والعصي، وتمكَّن السحرةُ من جعل الناس يتخيَّلون أنَّها تتحرك، فالسحر الذي صنعوه أثَّرَ في أعين الناس، فأصبحوا يتخيَّلون أنَّ الحبالَ والعصيَّ تتحرك وتسعى، قال تعالى في **سورة الأعراف**: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾.

كان لهذا السحر وقع كبير على أعين الناس، وتأثرت الجموع البشرية المحتشدة حول الميدان الكبير بما شاهدت، كما تأثرت بأصوات السحرة المرتفعة التي تصدر عنهم، فهاجت واضطربت، حتى ساور موسى عليه السلام شيءٌ من الخوف والقلق على ضياع الحقيقة بين ركام هذا الباطل، ولكنَّ الله سبحانه ثبَّته وبشَّره بالنصر والظفر.

• **الجولة الثانية:**

فالحقيقة لن تضيعَ في ركام الباطل، بل ستأتي عليه، وتلغيه من الوجود، لأنَّها من الله تعالى، وبالله سبحانه، ولله ﷻ:

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾.

هكذا بصيغة التقرير المؤكَّد، بكلام مستأنف مُصَدَّر بحرف التحقيق، مع تكرير الضمير: (**أنت**) وإظهار الخبر بصيغة أفعل التفضيل: (**الأعلى**).

وأمرَه سبحانه بعد هذا التثبيت مباشرة أن يلقي عصاه:

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ﴾ تبتلع كل ما صنعوا بقدرة الله تعالى ومشيئته، فتلغي وجودَه وتعدِمُه، فلم يبقَ في الميدان غير المعجزة.

﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ﴾ أي: حيلةُ ساحر، ومكرُ ساحر، والمراد به جنس الساحر، وهل يثبت كيد ساحر أم معجزة الحق جلَّ وعلا؟!.

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أي: لا فلاح للساحر ولا نجاح له في أي مكان كان.

ألقى موسى عصاه، فتحوَّلت مباشرةً إلى ثعبان مبين بقدرة الله تعالى، وابتلع الثعبانُ كلَّ العصي التي كانت تملأ الميدان، تم كل ذلك بسرعةٍ فائقةٍ مذهلةٍ، دل على هذه السرعة اختصار النص للأحداث المتتالية، وجاء بفعل ﴿تَلْقَفْ﴾ مجزوماً لوقوعه بجواب الأمر ﴿أَلْقِ﴾ فدل على الاستجابة السريعة للأمر الإلٰهي، فإرادتُه تعالى نافذةٌ تامة في كل الموجودات.

• **السجود لله تعالى:**

وذُهِلتِ الجماهيرُ وهدأت، وخيم على الميدانِ صمتٌ رهيبٌ، وذُعْرٌ شديدٌ للحظات قليلة، إذ تعلَّقت أبصارُ الناس بالسحرة، وهم يخرُّون ساجدين على

أرض الميدان لله تعالى، بينما انطلقت أصواتُهم تعلِنُ إيمانهم بربِّ العالمين، ربِّ هارون وموسى، وجاء التعبيرُ عما حدث بقوله تعالى:

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾.

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ كأن قوة خفية ألقتهم، لم يتمالكوا أنفسهم أمام قوة الحق، ووضوح البرهان، فانقادوا له مستسلمين خاضعين، وأعلنوا انقيادَهم وخضوعَهم وإسلامَهم بشكل جماعي تلقائي، دون أن يستشير بعضهم بعضاً، ويراجع بعضهم بعضاً:

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾.

- **القمع والإرهاب:**

وشعر فرعونُ بمرارةِ الهزيمةِ أمام الجموع المحتشدة من الناس، الهزيمةِ التي هزَّت عرشَ طغيانه وجبروته، فلجأ إلى الأسلوب الذي يلجأ إليه أمثاله من الفراعنة المستبدين في كل زمان، أسلوب القمع والبطش لإرهاب الجماهير، وجعل السحرةَ أولَ ضحايا قمعه وبطشه وإرهابه، وحتى يستر جرائمه وظلمه اتهمهم بالتواطؤ مع موسى، وأنهم متآمرون معه:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝٧١﴾.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ قال فرعون: آمنتم لموسى وصدقتم دعوته.

﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: قبل أن أسمح لكم بذلك. كأن سلطان القلوب بيده وتحت أمره ومشيئته، مع أنَّ أصحابَ القلوب لا سلطان لهم على قلوبهم؛ القلوب بيد خالقها سبحانه القائل: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: موسى.

﴿لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ أي: هو معلمكم الكبير الذي تعلَّمتم السحرَ منه، وتآمرتم معه عليَّ وعلى رعيتي. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣][1].

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: أقسم أنْ أقطِّعَ أيديكم وأرجلكم من خلاف، اليد من جانب، والرجل من الجانب الآخر.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: لأثبتَنَّ أجسادكم على جذوع النخل بواسطة مسامير تغرَسُ في أجسادكم.

أراد اللعينُ بهذا التعذيب العلني للسحرة المؤمنين أن يخوِّفَ جماهير الناس ويردعهم حتى لا يؤمنوا بالله تعالى، ويصدِّقوا دعوة موسى عليه السلام.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ يعني أنا أم رب موسى أشد عذاباً وأكثر دواماً.

- **الإيمان يتحدى الطغيان:**

ولم يأبه السحرة الذين ملأ الإيمانُ قلوبَهم لتهديد فرعون ووعيده، وردوا عليه:

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ أي: لن نختارك ونسير وراءك.

﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ونترك البراهين الواضحة التي بينت لنا طريقَ الحق والهدى.

وهذا يدلُّ على أن إيمانهم لم يكن نزوة عاطفية آنية، كردة فعل عكسي لمشاهدتهم معجزة العصا، ولكنه إيمان راسخ قائم على البراهين القطعية، فكأن المعجزةَ أيقظتهم من غفلتهم، وجعلتهم يستعملون عقولهم، وينظرون فيها نظر

---

(١) انظر: تفسير سورة الأعراف، وقد أسميناه في تفسيرنا الموضوعي هذا: (أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف).

المتفكِّر الباحث عن الحقيقة، فوجدوها وعرفوها من خلال النظر والتفكير الموضوعي الصحيح.

ثم أكَّدوا تمسُّكهم بإيمانهم وثباتهم عليه، فأقسموا بالله تعالى الذي فطرهم:

﴿وَالَّذِى فَطَرَنَا﴾ أي: خلقنا وأخرجنا من العدم.

ثم قالوا لفرعون متحدين له:

﴿فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: افعل ما شئت، وما وصلتْ إليه يدك.

﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَآ﴾ فسلطانك محدود في حدود هذه الحياة الدنيا الزائلة الفانية الحقيرة.

هكذا تحدى إيمانُ السَّحَرة طغيانَ فرعون، بعد أن كانوا قبل الإيمان خاضعين له، يستجدون ما عنده من حطام الدنيا، ويطلبون منه شيئاً من فُتاتها كما مرَّ معنا: ﴿وَجَآءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف].

ثم كرروا تحديهم لطغيانه وجبروته، فصرخوا في وجهه قائلين:

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ وهذا يدلُّ على أنَّ فرعون قد أكرههم على تعلُّم السحر ليستعينَ بسحرهم عند الحاجة في تضليل الجماهير، وجعلهم يصدقون ادعاءه صفة الألوهية والربوبية.

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ وهو رد على قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

ومضى هذا المشهدُ في تاريخ البشرية إعلاناً لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض، وعلى الطمع في المثوبة، والخوف من السلطان، وما يملك القلب البشري أن يجهر بهذا الإعلان القوي إلا في ظلال الإيمان[1].

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٤.

وفجَّر الإيمانُ بالله تعالى ينابيعَ الحكمة في قلوبهم، فنطقت بها ألسنتُهم دعاة واعظين:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ بأن يموت مُصِرّاً على كفره وفجوره.

﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ الحياة السعيدة، بل يشقى فيها أبداً.

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في الدنيا.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أي: المنازل العالية في الجنة.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ حيث الإقامة الدائمة.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: طهَّر نفسه من أدناس الكفر والفجور.

- **عاقبة الطغيان:**

ثم بينت الآياتُ عاقبةَ طغيان فرعون وظلمه بإيجاز:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ أي: سر بهم ليلاً لتنقذهم من ظلم فرعون وطغيانه.

﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أي: جافّاً لا ماء فيه ولا بلل.

﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ أي: أن يدركك فرعون الذي خرج وراءهم بجنوده.

﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ من الغرق في البحر.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: فغمرهم من مياه البحر ما غمرهم، ونزل بهم من الغرق والعذاب ما لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى.

وقد فصَّل سبحانه ما حدث في **سورة الشعراء** فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

هكذا كانت عاقبةُ طغيان فرعون وظلمه وفجوره مع جنوده الذين كانوا أعوانه على الظلم والطغيان:

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾.

لأنَّه قادهم في طريق الشقاء والتعاسة، وما دلهم على طريق السعادة والهداية، وهو ردٌّ على فرعون وتهكُّم به عندما كان يقول لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وتلك هي العاقبة الأليمة التعيسة لكلِّ الذين يسيرون في ركاب الظالمين من أمثال فرعون، ويعرضون عن عبادة الله تعالى وطاعته والتزام أحكام شريعته.

• **تحذير وترغيب:**

ختمت الآياتُ الكريمة قصَّةَ موسى مع فرعون بهذا التحذير الموجه من قِبَل الحق سبحانه إلى بني إسرائيل بعد نجاتهم من ظلم فرعون وطُغيانه:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ أي: وعدكم سبحانه أن ينزل على موسى التوراة في مكان المناجاة بالجانب الأيمن من جبل الطور، وهو المكانُ الذي كلَّم الله تعالى فيه موسى، كما مرَّ معنا في أول القصة.

﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ وأنعم الله تعالى عليهم بعد خروجهم من مصر وهم في صحراء سيناء فأنزل عليهم **المنَّ**: وهو طعام يشبه الكمأة، **والسلوى**: وهو طائر معروف.

ثم أمرهم أمر إباحةٍ على سبيل الامتنان وبيان الفضل والإحسان:

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾.

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ ثم حذرهم من الطغيان ومجاوزة الحد المشروع لهم فقد أعطاهم سبحانه كل أسباب الراحة والسعادة، رزق ميسَّر وشريعة التوراة تنظم حياتهم وتبين كيف يعبدون ربهم ويطيعونه.

﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ بتجاوز حدود ما شرع الله تعالى لكم وعبادة غيره سبحانه، واستعمال نعمه بالمعاصي والفجور، فإنَّكم إنْ حصل منكم طغيان حرمتم أنفسكم أسباب السعادة، وعرضتموها للشقاء والحرمان والتعاسة.

﴿فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ﴾ أي: فيغضب سبحانه عليكم، وينزل بكم عذابه وانتقامه.

﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ أي: سقط وتردَّى في هاوية الشقاء والتعاسة.

فسعادةُ الإنسان من الله تعالى وبالله جلَّ وعلا، بعبادته وطاعته وذكره، وشقاء الإنسان من إعراضه عن الله تعالى وعن عبادته والتزام شريعته.

وقد عوَّدنا سبحانه في كتابه الكريم أن يقرنَ الترغيب بالترهيب، وهو

أسلوبٌ تربوي رفيع، فلا ييئس أحد من فضله ورحمته، ولهذا قال جلَّ وعلا بعد التحذير والوعيد:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ فترك الكفر والفجور.

﴿وَءَامَنَ﴾ بالله الواحد الأحد وصدق رسله وانقاد لشرعه.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فأدى التكاليف التي كلفه ربه بها.

﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ أي: استمر ثابتاً على طريق الحق مستقيماً عليه حتى الموت.

وبهذا ختمت الآيات قصة موسى عليه السلام مع فرعون وطغيانه وظلمه، ومهَّدت بنداء بني إسرائيل وتحذيرهم إلى القصة الثانية في السورة: قصة موسى عليه السلام مع السامري وطغيانه، إلا أن طغيان السامري يختلف عن طغيان فرعون كما سنرى في الفصل التالي.



الفصل الثالث

قِصَّةُ مُوسَى عليه السلام مَعَ السَّامِرِيِّ صَاحِبِ العِجْلِ الذَّهَبِيِّ

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي (٨٦) قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا (٨٩) وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي (٩٠) قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي (٩٣) قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي (٩٦) قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا (٩٧) إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا (٩٨) كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا (٩٩) مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا (١٠٠) خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا (١٠١) يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا (١٠٢) يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا (١٠٣)

نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

• **تمهيد:**

ضرب الله تعالى لموسى عليه السلام موعداً يأتي فيه إلى موضع المناجاة بجانب الطور ليُنزلَ عليه التوراة، وطلبَ منه سبحانه أن يعتزلَ قومه ثلاثين يوماً، ثم زادها عشرةً يقضيها موسى في عبادة الله تعالى وذكره، ثم يأتي بعدَها المكانَ الموعودَ، ويبدو أنَّ الشوق إلى مناجاة الحق سبحانه جعل موسى يُسرع إلى مكان المناجاة قبل قومه، فسأله سبحانه وهو أعلم:

﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ .

﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ أي: قريبين مني.

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ أي: لتزداد عني رضاً.

فما عرفَ لذة مناجاة الحق سبحانه إلا مَنْ ذاقها وسَعِدَ بها، ومن تذوقها لا بدَّ أن يشتاقَ إليها، ويطلبَ المزيد منها.

وبعد أن أكرمه سبحانه وأنزل عليه التوراة مكتوبة في الألواح، أخبره سبحانه بما أحدث قومه في أثناء غيابه عنهم.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ أي: امتحناهم واختبرناهم.

﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ وتمكّن السامري من إضلالهم، فعبدوا العجل الذهبي.

- **قبضة السامري:**

والسامريُّ رجلٌ من عُبَّاد بني إسرائيل كانت نفسُه تتطلَّع للزعامة في بني إسرائيل، ورأى الفرصةَ سانحةً له في غياب موسى ﷺ، فقام في بني إسرائيل واعظاً داعياً لهم للتوبة والتخلص من الأوزار التي يحملونها.

وكان بنو إسرائيل يحملون قِطَعاً من الحليِّ الذهبية التي كان فرعون وجنوده يتزيَّنون بها، التقطها بنو إسرائيل بعد أن أغرق اللهُ فرعون وجنوده.

ومن المعلوم أنَّ المصريين القدماء كانوا حريصين على التحلِّي بالذهب، ودل على ذلك ما حكاه الله سبحانه من كلام فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف].

وكتم القومُ عن موسى ﷺ أمرَ هذه الغنائم التي غنموها من المصريين، فقد كانوا يعلمون أنها لا تحلُّ لهم، فما أحلَّ الله الغنائمَ إلا في الشريعة الإسلامية للمسلمين كما جاء في الحديث الشريف: **عن جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما: أن النبيَّ ﷺ قال: «**أعطيتُ خمساً لم يُعطهنَّ أحدٌ قبلي: نُصِرْتُ بالرعبِ مسيرةَ شهرٍ، وجُعِلَتْ ليَ الأرضُ مسجداً وطهوراً، فأيُّما رجلٍ مِنْ أُمتي أدركتْهُ الصلاةُ فليصلِّ، وأُحِلَّتْ ليَ المغانمُ، ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي، وأُعطيتُ الشفاعةَ، وكان النبيُّ يُبْعَثُ إلى قومه خاصةً، وبُعِثْتُ إلى الناسِ عامَّةً**» [رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) واللفظ للبخاري].

وقام السامري، كما سبق، واعظاً في بني إسرائيل، لكي يتخلَّصوا من هذه الحلي، ولما سألوه: كيف يتخلَّصون منها، أمرهم أن يلقوها في نارٍ أوقدَها لهم، وألقوا الحلي فيها.

ويبدو أنَّ السامريَّ كان خبيراً بصياغةِ الذهب، فأخذَ الذهبَ الذائبَ في النار، وصنع منه تمثالَ عجلٍ، ثم أخذَ قبضةً من ترابٍ كان يحتفظُ بها، قبضَها من أثرِ ملكٍ رآه، وهو متشكِّلٌ بهيئةِ البشرِ عند انفلاق البحر، فقد انتبه السامريُّ إلى أنَّ الأرضَ التي يطؤها تخضَرُّ بقدرة اللهِ تعالى، كأنَّ حياةً سرت فيها، فأخذَ قبضةً من ترابِ هذه الأرض واحتفظَ بها لأمرٍ دبَّره في نفسِه، ولما أكملَ صياغةَ العجلِ الذهبيِّ ألقى قبضةَ التراب فيه.

• **اعتذار كاذب:**

رجع موسى من مكان المناجاة حاملاً ألواح التوراة، وقد غلبَ حُزنُه وغضبُه ـ مما أحدثه قومه ـ على فرحه بالتوراة، قال تعالى:

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦﴾.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ﴾ ولـمَّا وصلَ إليهم بادر إلى لومهم وتعنيفهم:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ بأن يكرمكم بالتوراة التي جعل الله فيها أسباب الهداية والسعادة لكم.

﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾؟ أي: مدة غيابي عنكم ومفارقتي لكم، يقال: طال عهدي بكَ، أي: زماني بسبب مفارقتك، والاستفهامُ للإنكارِ، يعني: لم يطل عهدي بمفارقتكم، وفي المثل: وما بالعهد من قدمٍ، لأنَّ طولَ العهد مظنةُ النسيان، والعهدُ قريبٌ لم يطل فكيف نسيتم؟![1].

﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: بل أردتم أن ينزل سبحانه عليكم غضبه وعذابه.

---

(١) أضواء البيان: ٤/٤٩٣.

﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ أي: أخلفتم موعدي الذي وعدتموني به، وهو الثبات على عبادة الله تعالى وطاعته وحده.

﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي: ما أخلفنا موعدك باختيارنا، فلو ملكنا أمرنا ما أخلفنا موعدك.

اعتذروا بأنَّهم كانوا مغلوبين على أمرهم، وهم كاذبون بهذا الاعتذار، إذ سيأتي معنا أنَّ هارون عليه السلام زجرهم ونهاهم عن عبادة العجل، ولكنَّهم أصروا على عبادته.

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: حملنا ذنوباً وآثاماً بسبب ما كُنَّا نحمل من حلي قوم فرعون، كما سبق بيان ذلك.

﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ في النار التي أوقدها السامري.

﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾ أي: ألقى قبضة التراب التي كانت معه في جوف العجل الذهبي، فأثرت قبضةُ التراب هذه بتقدير الله تعالى في تمثال العجل، كأن شيئاً ما سرى من التراب إليه.

ويمكن تقريب هذا المعنى بما نشاهد من تأثر قطع الحديد بالمغناطيس القريب منها، وتأثير بعض المواد المشعة في الأجسام التي حولها.

وقد اكتشف الإنسانُ المعاصر وجود بعض العناصر المشعة المؤثرة في غيرها، ويمكن لهذه الإشعاعات أن تحدِثَ آثاراً تدميرية ضارة إن استعملت في التدمير، كما يمكن أن تحدث آثاراً إيجابية نافعة إن استعملت في البناء والتعمير.

• عبادة العجل الذهبي:

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ مصنوعاً من الذهب.

﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي: له صوت كصوت البقر.

ولقد تمكَّنَ الإنسانُ المعاصِرُ من صنع آلات كثيرة، يمكنها أن تُصدِرَ أصواتاً مختلفة كأصوات الحيوانات.

﴿فَقَالُواْ﴾ أي: السامري ومن فُتنوا بالعجل:

﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ أي: هذا معبودكم ومعبود موسى.

﴿فَنَسِىَ﴾ أي: نسيه موسى هنا، وذهب يطلبه عند جبل الطور.

فكيف فُتنوا به وعبدوه من دون الله تعالى، ودلائلُ العجز والضعف والنقص والحدوث ظاهرة عليه؟!:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي: ألا يرونَ أنَّه لا يكلِّمهم، ولا يرد عليهم جواباً.

﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: ولا يقدر أن يدفع عنهم ضرراً، أو يجلبَ لهم نفعاً، كما قال تعالى في **سورة الأعراف**: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٩٢].

- **موقف هارون:**

ولم يقصِّر هارون عليه السلام في نهيهم عن عبادة العجل، وسجَّل الله سبحانه له ذلك فقال:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ أي: ابتليتُم بعبادةِ العجلِ، واختبرتُم به فلا تعبدوه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي﴾ في عبادة الرحمن وحده.

﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي﴾.

ولم يلقَ عليه السلام منهم أدنى استجابة، وضاعت كلماته في خضمِّ الفتنة الطاغية التي غلبت عليهم، وأجابوه بوقاحة وجرأة:

﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۝٩١﴾.

﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾ أي: لن نزال على عبادة العجل مقيمين.

﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾.

وألقى موسى عليه السلام ألواح التوراة من يده بسبب شدة غضبه، وقبض بيده على رأس أخيه هارون، وأخذ يجذبه ويشده إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٠]:

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۝٩٣﴾.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ﴾ بعبادة العجل.

﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي: تتبع أمري ووصيتي التي أوصيتُك بها.

وكان موسى عليه السلام قد أوصى هارون عندما استخلفه في غيابه على بني إسرائيل: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ الذي أمرتك به.

وأجابه هارون عليه السلام مترفِّقاً مستعطفاً ورأسه بين يديه:

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۝٩٤﴾.

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ ذكر الأم ترقيقاً لقلب موسى عليه.

﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إن قاتلت بعضهم ببعض.

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ وهو الوصية بالإصلاح، فإنَّ الإصلاحَ لا يكون إلا بمداراتهم والصبر عليهم حتى ترجع.

وأضاف هارون إلى قوله هذا ما حكاه سبحانه عنه في **سورة الأعراف**: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾.

وقَبِل موسى اعتذارَ أخيه هارون عليه السلام، واقتنع بسلامة موقفه فتركَ رأسه، وأقبلَ على الله تعالى داعياً يسأله الرحمة له لأخيه فقط: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

كأنَّه عليه السلام رأى أنَّ بني إسرائيل لا يستحقون مغفرةً ولا رحمةً بسبب الجريمة الكبرى التي أحدثوها بعبادة العجل.

- **شقاء وطرد وحرمان:**

والتفت موسى بعد ذلك إلى رأس الفتنة السامري يسأله مستجوباً:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾.

أي: ما شأنك؟ وما الذي حملك على ما صنعت؟.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ أي: رأيتُ شيئاً لم يره غيري، وهو أثر الملَكِ في الأرض التي يمشي عليها.

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: فأخذتُ قبضةً من تراب الأرض التي يمشي عليها الملك المرسل.

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ ألقيتُها في تمثال العجل الذهبي.

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي: وهذا أمر زيَّنَتْه لي نفسي.

وهكذا أقر السامريُّ بجريمته، وبيَّن أن الذي دفعه إليها نابعٌ من أعماق نفسه، وكأن قصة موسى مع السامري ذُكرت في السورة بكلِّ هذه التفاصيل لإظهار هذه الحقيقة، وهي: أنَّ ضلال الإنسانِ وشقاءَه من داخل نفسه، من كسبه واختياره.

أقرَّ السامريُّ بجريمته ودافعه الذي دفعه إليها دون أن تبدرَ منه أي بادرةٍ تدل على ندمه وتوبته، وكأنه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ معجَبٌ بنفسِه وبعملِه.

فما كان من موسى عليه السلام في مقابل هذا الإعجاب بالنفس، والإصرار على الكفر، إلا أن أصدر عليه هذا الحكم الرهيبَ الذي يلازمه طول حياته، وهو الطردُ من المجتمع البشري، والعيشُ بعيداً عن الناس كما تعيش الوحوش:

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾.

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: لا تخالط أحداً، ولا يخالطك أحدٌ مدى الحياة.

فابتُلي بالنفرة من الناس، فكان إذا دنا منه أحدٌ نأى عنه وهو يقول: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ أي: لا تمسني ولا تدنُ مني، وعاشَ بعيداً عن المجتمعات البشرية في الفلوات شقيّاً طريداً محروماً حتى مات، والجزاءُ من جنس العمل، فقد أراد لنفسه المكانة بين الناس، والشهرة والسمعة، فأحدثَ لهم ما أحدث، فعذبه الله تعالى بضد ما أراد وقصد، وهذا في الدنيا، وأما بعدها:

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ في الآخرة.

﴿لَّن تُخْلَفَهُ﴾ أي: لن تستطيع أن تتخلَّف عنه، ولا نجاة لك منه، وهو العذاب في نار جهنم.

﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ﴾ أي: معبودك وهو العجل الذهبي.

﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: بقيت مصرّاً على عبادته.

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بالمبرد حتى يصبح ذرات صغيرة.

﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ أي: لنذرينَّ ذراته.

﴿فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ في مياه البحر وبين أمواجه.

فعل ذلك عليه السلام بالعجل ليظهرَ للذين فُتنوا به شدَّةَ غبائهم.

ثم التفتَ عليه السلام مخاطباً لهم يبيِّنُ لهم المعبودَ الحقيقي الذي يجبُ عليهم أن يلتزموا عبادته وطاعته دائماً فقال:

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يستحقُّ العبادةَ غيره جلَّ وعلا، فهو المتصف وحده بصفات الغنى والكمال والجلال.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إنها نفس الكلمة التي دارت في فلكها آيات السورة، ففي أولها: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]، وفي أول نداء إلٰهي أسمعه الحق لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤] كما هي هنا، إنها السبيل الوحيد لسعادة الإنسان في الدارين، ولقد شقي السامريُّ وأمثاله بإعراضهم عنها شقاءً ملازماً لهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أحاط علمُه سبحانه بكل المعلومات.

- **حاملو الأوزار:**

وعادت الآياتُ كما بدأت تخاطِبُ النبيَّ ﷺ في تعقيبها الأول على ما ورد في القصتين، فكأنه عليه الصلاة والسلام هو المقصودُ من عرض قصة موسى مع فرعون، وقصته مع السامري:

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي: هكذا نقصُّ عليك يا محمد من

أخبار الأمم الماضية مواساةً لك، وزيادةً في علمك، وتكثيراً لمؤيدات صدقك، وتنبيهاً وتبصيراً للمستبصرين من أمتك.

﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ وهو القرآن الكريم، وسُمِّي ذكراً، لأنَّه يذكِّر بالله تعالى وأسمائه وصفاته، ويذكِّر أيضاً بعبادته وطاعته وبدينه وشريعته.

وهو سبيل الهداية والسعادة، فمن تركه وأعرض عنه شقي شقاوة الأبد:

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾.

أي: يحمل عقوبة باهظة ثقيلة، وقد أخبرنا سبحانه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم أنَّ الكفار والفجَّار يُحشرون يوم القيامة، وهم يحملون أثقال ذنوبهم على ظهورهم؛ كقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقوله أيضاً: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

ويا لسوء ما يحملون، إنها أحمال وأثقال تلازمهم أبداً، لاصقة بظهورهم دائماً!.

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾.

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهِ﴾ فلا محيد لهم ولا فكاك عن العناء والشقاء بما يحملون.

﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا﴾ أي: بئس الحمل حملهم يوم القيامة.

- **النفخ في الصور:**

وفي هذا اليوم يزداد حاملو الأوزار شقاءً وعناءً بسبب أهواله وأفزاعه بالإضافة إلى ما يحملون على ظهورهم:

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ قال ابن كثير رحمه الله[1]: ثبتَ في الحديث: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِل عن الصور؟ فقال: «**قَرْنٌ يُنفخُ فيه**».

وهذا الحديث أخرجه أبو داود [٤٧٤٢]، والترمذي [٢٤٣٠] وحسَّنه، والنسائي في الكبرى [١١٢٥٠]، وصححه ابن حِبّان [٧٣١٢]، والحاكم [١/ ٥٥٩]: من حديث **عبد الله بن عمرو بن العاص** رضي الله عنهما قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «**قَرْنٌ يُنْفَخُ فيه**».

ورواه الترمذيُّ أيضاً وحسَّنه من حديث **أبي سعيد** مرفوعاً: «**كيفَ أَنْعَمُ وصاحبُ الصورِ قد التقمَ القرْنَ، واستمعَ الإذنَ متى يُؤْمَرُ بالنَّفْخِ**»[2].

﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ أي: عطاشاً، قد ازرقَّت أعينُهم من شدة العطشِ، أو نحشرهم مشوَّهين بزرقة عيونهم وسواد وجوههم[3].

ويؤيدُ القولَ الأول الآية الكريمة: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] أي: عطاشاً.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يتحادثون سرّاً بينهم لشدة خوفهم.

﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي: ما لبثتم في الدنيا إلا عشرَ ليالٍ.

يستقصرون حياتهم في الدنيا بسبب ما يرونَ من أهوال يوم القيامة، تضاءلتِ الدنيا في حسِّهم، وقلَّتْ أيامها في مشاعرهم، حتى أصبحتْ أياماً قليلةً

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٩٣.

(٢) فتح الباري: ١١/ ٣٦٨.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ١١/ ٢٤٤.

في نظرهم. ومع أنَّهم يتحادثون سرّاً بينهم، فإنَّ الله سبحانه يسمعهم، ويعلم كلامهم، إنَّه سبحانه يعلمُ السرَّ وأخفى:

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً﴾ أي: أصوبهم وأعقلهم.

﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾ أي: ما لبثتم في الدنيا إلا يوماً واحداً، هكذا تضاءلت أعمارُهم في الدنيا في نظرهم عندما عاينوا أهوال يوم القيامة.

• **نسف الجبال:**

وكان بعضُ منكري يوم القيامة يسأل رسولَ اللهِ ﷺ عن حال الجبال في هذا اليوم سؤال المستبعدِ لها، والمستهزئ بها، فما كانوا يتصورون أن تُزالَ الجبالُ عن مواضعها، وأجابت الآياتُ عن سؤالهم هذا في معرض حديثها عن أهوال يوم القيامة، فلا شكَّ أنَّ إزالة الجبالِ ونسفَها يزيدُ من أهوال هذا اليوم:

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴿١٠٥﴾﴾.

أي: يذريها ربي بقدرته تذريةً كاملةً. **فالنسفُ**: التذرية، فالله سبحانه يفتِّتُ هذه الكتل الصخرية الهائلة حتى تكونَ كالصوف المنفوش، كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

ثم ينثر أجزاءها ويفرق ذراتها: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴿٥﴾ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾ [الواقعة].

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

﴿فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: فيترك مواضع الجبال.

﴿قَاعٗا صَفۡصَفٗا﴾ سهلاً مستوياً أملس.

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾.

أي: لا ترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً.

- **تلبية الدعوة:**

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ الذي يدعوهم إلى أرض المحشر، لأنَّهم عندما يخرجون من قبورهم يتحيَّرون، لا يدرون أين يذهبون، يكونون حينئذٍ كما وصفهم الحق سبحانه: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤].

ثم يدعوهم الداعي إلى أرض المحشر، فيؤمون صوت الداعي ويتبعونه:

﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لا يعدل عن إجابته واتباعه أحد، فيتوجهون جميعاً مسرعين حيث يؤمرون بذلة وانكسار وخضوع، كما قال تعالى في **سورة القمر**: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: سكنت لجلاله تعالى ومهابته.

﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: لا تسمع إلا صوتاً خفيّاً خافتاً، ولعلَّه صوتُ خفقِ أقدامهم ونقلها إلى أرض المحشر.

ويخيِّم على أرض المحشر سكون رهيب، فلا يجرؤ أحدٌ على كلام، ولا يتقدَّم أحد لشفاعةٍ، حتى يأذن الحقُّ سبحانه له:

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ أي: لا تُقبل، فلا يجرؤ أحد عليها.

﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ أي: وقبل قوله في الشفاعة، كما قال

تعالى في **سورة النبأ**: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ].

فلا يتقدم أحد للشفاعة إلا بإذن منه سبحانه: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

حتى النبيّ ﷺ صفوته سبحانه من خلقه لا يقومُ مقامَه المحمودَ الذي يشفعُ فيه حتَّى يأذنَ له الحق سبحانه، قال ﷺ في حديث الشفاعة: «... **فيأتوني، فأستأذنُ على ربِّي، فإذا رأيتُه وقعتُ له ساجداً، فَيَدَعُني ما شاءَ الله، ثم يقال لي: ارفعْ رأسَك، وسَلْ تُعْطَه، وقُلْ يُسْمَع، واشفعْ تُشَفَّع...**» [رواه البخاري (٦٥٦٥)].

وقد أحاط سبحانه علماً بحال الشافعين والمشفوع لهم، وبحال الذين لا يستحقون الشفاعة:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما تقدم من أعمالهم وما تأخر.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ أي: لا يحيطون بالله تعالى علماً. وأنَّى للمخلوقِ أن يحيطَ بالخالق، وللضعيفِ العاجزِ القاصرِ أن يحيطَ بالقويِّ القادرِ القاهرِ.

- **خيبة الظالمين:**

﴿۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ أي: خضعت وذلَّت الوجوهُ كلُّها للحي القيوم، فهو سبحانه وحده المتصفُ بالحياة الحقيقية التي لا موتَ معها، والتي لم تسبق بعدم، ولا يلحقُها زوالٌ وانتهاء.

وهو سبحانه وحده القيوم، القائم بذاته، فلا يحتاجُ إلى أحد، والمقيم

لغيره، فكل المخلوقات تستمد وجودها وقيامها منه جلَّ وعلا، فهو الله لا إلٰه إلا هو الحي القيوم.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي: وقد خسر من حمل ظُلماً.

والشرك بالله تعالى أقبح أنواع الظلم، وكثيراً ما أطلقت كلمة الظلم على الشرك؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِابْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

فخيبة كل ظالم بقدر ما حَمَلَ من ظلم، فخيبةُ المشرك دائمةٌ مؤبدةٌ، وخيبة المؤمن العاصي مؤقتة بوقت العقوبة المقدرة لمعاصيه، إلا إذا غفر الله تعالى له، وتجاوز عن معاصيه، وهذا إذا كان ظالماً لنفسه فقط، أما إذا كان ظالماً لغيره، فلا بدَّ أن يُبْرِئَه المظلوم من مظلمته.

ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ كانتْ له مظلمةٌ لأخيه من عِرْضِهِ أو شيءٍ، فليتحَلَّلْهُ منه اليومَ قبلَ أَنْ لا يكونَ دينارٌ ولا درهمٌ، إنْ كانَ له عملٌ صالحٌ أُخِذَ منه بقدر مظلمتِهِ، وإنْ لم تكنْ له حسناتٌ، أُخذَ من سيئاتِ صاحبِهِ فحُملَ عليه**» [رواه البخاري (٢٤٤٩)].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

أي: فلا يخافُ أن يُظْلَمَ فيُزَادَ في سيئاته، ولا أن يُهْضَمَ فينتقص من حسناته، لأنَّه سبحانه الحكم العَدْلُ المنزَّه عن الظلم، القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

والقائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

فالمؤمن الذي لم يظلم أحداً آمِنٌ يوم القيامة من أهواله وأفزاعه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

- **القصة عبرية والتنزيل عربي:**

قصَّ الله تعالى على النبيِّ ﷺ أنباء السابقين كقصة موسى مع فرعون ومع السامري باللغة العربية؛ ومع أن القصة عبرية، فالتنزيل عربي مبين، وهذا يدل على أنَّ القرآن الكريم كلامُ الله تعالى العليم الحكيم، ولهذا قال تعالى في التعقيب الثاني على قصة موسى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ في أعلى درجات البلاغة والفصاحة والبيان.

وقد أكد سبحانه هذه الحقيقة في عدد من الآيات، منها قوله تعالى في **سورة الشعراء**: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.

وقوله تعالى أيضاً في **سورة فصلت**: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾.

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وأنزل الله تعالى في صدر **سورة يوسف** قوله الكريم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ وأشار بذلك إلى أن قصة يوسف أيضاً عبرية، وأنزلها سبحانه باللغة العربية، وتحدى ببلاغتها فصحاء العرب وأدباءهم وشعراءهم.

وكل ذلك يؤكد أن القرآن الكريم كلام الله تعالى أنزله على الرسول العربي النبي الأمي ﷺ.

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: رددنا فيه الوعيد، وكررناه بأساليب كثيرة متنوعة، هي الغاية في البلاغة والفصاحة والإتقان.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي.

﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: عظةً وتذكرةً تدفعهم إلى طاعة الله وعبادته وحده، أو يذكرهم بالله تعالى وصفاته العليا وأسمائه الحسنى ودلائل وجوده جلّ وعلا.

ولا شك أنَّ القرآن الكريم أعظم مذكِّر بالله تعالى، وقد سماه سبحانه ذكراً كما سبق معنا في قوله: ﴿ءَاتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]، ولعلَّ هذا سر إسناد فعل الذكر على القرآن نفسه ﴿يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾، بينما أسند فعل التقوى إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

• الملك الحق سبحانه:

وعظمةُ القرآن الكريم من عظمةِ منزله جلَّ وعلا، ولهذا عظَّمَ الله نفسَه في سياق الآيات التي تتحدَّثُ عن القرآن الكريم، فقال:

﴿فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

﴿فَتَعَالَى ٱللَّهُ﴾ أي: جلَّ الله وعظم وارتفع وتنزَّه في ذاته وصفاته وأفعاله عن مماثلة المخلوقين، وعن مماثلة صفاتهم وأفعالهم، وتنزَّه أيضاً عن إلحاد الملحدين، وعما يقوله المشركون والجاحدون. وفيه تنبيه عما يلزم خلقه من تعظيمه وتمجيده(١).

﴿ٱلْمَلِكُ﴾ المتصرف بالأمر والنهي، الحقيق بأن يُرجى وعدُه، ويخشى وعيدُه.

وهذا يدل على أن قوارعَ القرآن سياساتٌ إلٰهيةٌ تتضمن صلاح الدارين لا يحيد عنها إلا مخذول هالك(٢).

﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي: الثابت في ذاته وصفاته، أو الملك الحق، فملكيته سبحانه حق يستحقها لذاته وحده، فهو جلَّ وعلا الملك على الحقيقة، وأما غيره

---

(١) انظر: الخازن والبيضاوي: ٤/ ٢٢١.

(٢) روح المعاني: ٦/ ٢٦٨.

فمُلْكُهم مؤقتٌ زائل محدود، وقد مرَّ معنا قول السحرة لفرعون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٢٠].

وفي الحديث الشريف: **عن أبي هريرة** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**يقبِضُ اللهُ الأرضَ، ويطوي السماءَ بيمينِهِ، ثم يقولُ: أنا الملِكُ، أينَ ملوكُ الأرضِ؟!**» [رواه البخاري (٦٥١٩)].

وبعد التعظيم والتمجيد لذاته سبحانه يأتي التوجيه والإرشاد لنبيه ﷺ الذي أنزل عليه القرآن الكريم، والمخاطب بآيات السورة من أولها كما مرَّ معنا:

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ فقد كان ﷺ حريصاً أشدَّ الحرص على استيعاب القرآن الكريم وحفظه فور تلقيه من أمين الوحي جبريل عليه السلام، فكان يردد كلماته وهي تُلقى عليه، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقِّه لئلا يشقَّ عليه، فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة][1].

وقال سبحانه هنا: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ أي: من قبل أن يفرغ جبريل من قراءته وتبليغه، ويتفق هذا المعنى تماماً مع ما قرَّره سبحانه في أول السورة في قوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾ فالله سبحانه وضع عن النبي ﷺ مؤونة حفظه واستيعابه، وتكفَّل بتحفيظه للنبي ﷺ وجمعه في قلبه الشريف كما مرَّ معنا في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]، وقوله أيضاً: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦].

- **فضل العلم:**

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي: زدني علماً بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا، وكمالاتك التي لا تعد ولا تحصى.

ومن المعلوم أنه كلَّما ازداد الإنسانُ علماً بالله تعالى ازداد خشية منه،

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٩٥.

وتعظيماً له ﷻ، ونبينا ﷺ أعلمُ الخلق بالله جلَّ وعلا، وأشدهم له تعظيماً وخشية، وكان يقول: «**إنَّ أتقاكُم وأعلمَكم باللهِ أنا**».

فعن **عائشة** رضي الله عنها قالت: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا أمرَهُمْ، أمَرهُم من الأعمالِ بما يطيقونَ، قالوا: إنَّا لسنا كهيئتِكَ يا رسولَ اللهِ، إنَّ اللهَ قد غفرَ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ، فيغضبُ حتَّى يُعْرَفَ الغضبُ في وجهِهِ ثم يقولُ: «**إنَّ أتقاكُم وأعلمَكُم باللهِ أنا**» [رواه البخاري (٢٠)].

أو: ربِّ زدني علماً من الوحي الذي تنزله علي. ولا شك أنَّ الوحيَ علمٌ، وهو أوثقُ مصادر العلم وأعلاها وأعزها وأشرفها[١].

أو: زدني علماً بالقرآن الكريم الذي لا تنتهي معانيه، ولا يشبع منه العلماء.

أو: أي علم نافع لي في ديني ودنياي، وقد جاء في الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ كان يقول: «**اللهمَّ انفعني بما علَّمتني، وعلّمني ما ينفعُني، وزدني علماً**» [رواه الترمذي (٣٥٩٩) وابن ماجه (٣٨٣٣)].

ودلَّتِ الآيةُ على فضل العلم حيث أُمِرَ النبيُّ ﷺ بطلب زيادته، وذكر بعضهم أنَّه ما أمر عليه الصلاة والسلام بطلب الزيادة في شيء إلا العلم[٢].



---

(١) انظر: تفسير سورة يوسف (الوحي والنبوة والعلم في سورة يوسف)، في هذا التفسير الموضوعي الكبير.

(٢) روح المعاني: ٢٦٨/٦.

الفصل الرابع

قِصَّةُ آدمَ عليه السلام مَعَ الشَّيطَانِ

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾.

عرضت الآيات الكريمة جانباً من قصة آدم عليه السلام مع الشيطان، لتبين من خلال ذلك أنَّ سعادة الإنسان في طاعته لله تعالى، وفي وقوفه عند الحدود التي شرعها له، وأنَّ الله تعالى الرحمن أعطى الإنسانَ كل أسباب الراحة والسعادة، وأنَّه لا يشقى الإنسانُ إلا عندما يعرض عن عبادة ربه وطاعته، ويغفل عن ذكره، ويتجاوز الحدودَ التي شرعها الحقُّ سبحانه له، وهذا هو موضوع السورة الأساس كما بينا في بدايتها:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ﴾ أي: وصيناه أن لا يأكلَ من الشجرة، كما ذكره

سبحانه في قوله: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥][(١)].

﴿فَنَسِىَ﴾ أي: فترك الوصية وغفل عنها.

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ أي: لم نجد له ثباتاً وصبراً عن الأكل من الشجرة.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ سجودَ التكريم والتحية، وهذا قبل أن يخالف أمرَ الله تعالى، ويأكل من الشجرة، عندما أظهر الله تعالى فضله على الملائكة بما علّمه سبحانه، فصّل ذلك سبحانه في **سورة البقرة** فقال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ الذي كان يعيشُ مع الملائكة، وشمله الأمرُ الإلٰهي للملائكة بالسجود لآدم.

﴿أَبَىٰ﴾ أن يسجدَ تكبُّراً كما مرَّ معنا في **سورة الأعراف** في قوله أيضاً: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا﴾ أي: إبليس.

﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ فكونا على حذر منه.

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: فلا تطيعاه حتى لا يتسبَّب في إخراجكما من الجنة.

---

(١) انظر: تفسير سورة الأعراف (أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف)، في هذا التفسير الموضوعي الكبير.

﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ أي: فتقع في الشقاء والتعب والعناء إذا أُخرجتما من الجنة.

وسببُ هذا الشقاء والعناء: أنَّ أسبابَ العيش في الأرض غيرُ ميسرةٍ، فلا بدَّ أن يتعب الإنسانُ وينصبَ في تحصيلها والوصول إليها، وتعب الرجل وشقاؤه في هذا المجال أكثر من تعب المرأة، لأنَّه هو المكلَّفُ بالإنفاق على المرأة، ولعلَّ ذلك سببُ إسنادِ الشقاء إلى آدم دون حواء في قوله: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾.

والحال في الجنة يختلف، فالعيشُ فيها سهل ميسور، لا تعب فيها ولا نصب، وكل ما يحتاجه الإنسان فيها حاضر موفور؛ قال تعالى:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾.

لكثرة ما فيها من طعام ولباس.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا﴾ أي: لا تعطش، فالأشربة فيها كثيرة ومتنوعة.

﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أي: ولا يصيبك فيها حرُّ الشمس، لأنَّ ظلَّها ممدودٌ، فلا تحتاج إلى أسباب الوقاية من الحر ولا من البرد، لاعتدال مناخها.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: أنهى الشيطان إلى آدم وسوسته وأوصلها إليه. **والوسوسة**: الصوتُ الخفيُّ.

- **الأكل من الشجرة:**

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: الشجرة التي لا يموتُ مَنْ أكل منها.

﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ أي: لا يبيدُ ولا يفنى.

والإنسان بأصل فطرته يحبُّ البقاء، ويكرهُ الموتَ والفناءَ، وهي نقطةُ ضعفٍ كبيرة في الإنسان، اكتشفها إبليس الخبيثُ في الإنسان، وعن طريقها

تمكَّنَ من إغواء آدم وحواء؛ قال تعالى في **سورة الأعراف**: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

وهكذا غرهما بالأماني والأيمان الكاذبة حتى أكلا من الشجرة:

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ فماذا كانت النتيجة؟.

﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي: ظهرت لهما عوراتهما، وزالت عنهما الحرمةُ والكرامةُ اللتان كانا يتمتعان بهما من قبلُ، إذ كانا لا يريان عورتيهما تكريماً لهما.

وهذا أولُ شيءٍ أصابهما من شؤم المعصية، نُزع عنهما لباسُ الجنة، ورأى كلٌّ منهما عورةَ الآخر، فغلبَ عليهما الحياءُ من الله تعالى، فأخذا يبحثان عن شيء يستتران به، فلم يجدا غيرَ ورق شجر الجنة.

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: شرعا يجمعان ورق الجنة، ورقة فوق ورقة لكي يستترا به.

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ بالأكل من الشجرة.

﴿فَغَوَىٰ﴾ أي: ضلَّ عن طريق الرشد، واغترَّ بكلام عدوه.

ونسب سبحانه العصيان والغواية إلى آدم وحدهَ دونَ حواء، مع أنَّها أكلتْ معه، لأنَّ آدم هو المقصودُ في القصة، وحواءُ تبعٌ له في الحكم[١].

- **توبة وهداية:**

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: اختاره سبحانه للنبوة بعد أن أهبطه إلى الأرض، فَفِعْلُ المعصيةِ صدرَ منه قبل النبوة.

---

(١) انظر: روح المعاني: ٦/ ٢٧٥.

﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾ أي: قَبِل سبحانه توبةَ آدم وعفا عنه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وهي الكلماتُ التي تلقَّاها آدمُ من ربه ليستغفره بها، ويتوبَ عليه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

﴿وَهَدَىٰ﴾ أي: ووفقه سبحانه أيضاً في الثبات والاستقامة، أو بيَّن له سبيل الهداية والسعادة بما أوحى إليه.

ثم أمرهما سبحانه بالخروج من الجنة والهبوط إلى الأرض:

﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾.

﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ بسبب ابتلاء بعضكم ببعض، فحياةُ الإنسانِ في الأرض حياةُ ابتلاءٍ واختبارٍ، وقد قدَّر سبحانه أن يكونَ ابتلاءُ الناس بعداوة الشيطان لهم، وكذلك ابتلاؤهم ببعضهم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٠].

﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ بواسطة الرسل والكتب المنزلة عليهم.

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ لأنَّه سار على طريق الهداية والسعادة.

- **الشقاء في الدنيا والآخرة:**

﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾.

﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي﴾ أي: عن الكتاب الذي فيه ذكري وعبادتي وطاعتي وهو القرآن الكريم، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩﴾ وبيَّن سبحانه هناك شقاء المعرضين عن القرآن وعذابهم يوم القيامة فقال: ﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ١٠١﴾.

وأضاف هنا سبحانه إلى بيان شقائهم في الآخرة بيان شقائهم وتعاستهم في الدنيا، فقال:

﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: ضيقة شديدة قاسية تعيسة شقية.

فلا سعادة للإنسان إلّا في ظلٍّ دين الله تعالى وشرعه، ومهما أوتي الإنسانُ من أسباب الغنى والمتاع والسرف والترف، فإنّه يبقى شقيّاً قلقاً مضطرباً مهموماً، ما دام بعيداً عن حلاوة الإيمان وسكينته، وبرد اليقين وطمأنينته، ولذّة ذكره سبحانه وعبادته.

فالحياة المقطوعةُ الصلة بالله ورحمتهِ الواسعةِ ضَنْكٌ مهما يكن فيها من سعة المتاع، إنَّه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله، والاطمئنان إلى حماه... ضنك الحرص على ما في اليد، والحذر من الفوت، ضنك الجري وراء بارق المطامع، والحسرة على كل ما يفوت، وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله... إنَّ طمأنينة الإيمان تضاعِفُ الحياةَ طولاً وعرضاً وعُمقاً وسعة، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان[1].

إن أجمل تصوير لشقاء الإنسان المعرض عن الله وعبادته ورد في قوله تعالى في **سورة النور**: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾.

ذلك هو سبب شقائهم وتعاستهم، ينصبون ويتعبون وراء آمال براقة خادعة، ثم يسقطون على الطريق، ليواجهوا بعد ذلك مسؤوليتهم أمام ربهم سبحانه.

- **الجزاء من جنس العمل:**

وبيَّن سبحانه حالهم عندما يُحشرون يوم القيامة فقال:

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي: أعمى البصر كما كان في الدنيا أعمى البصيرة، فالجزاء من جنس العمل، قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٥٥.

وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وهذا في أول الحشر، أما بعد ذلك فدلت الآيات على أنهم يبصرون ويسمعون ويتكلَّمون، كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾.

في الدنيا.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ أي: فتركتها وأعرضت عنها.

﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي: وفي مقابل إعراضك عن آياتنا، فإنك تعامَلُ اليومَ معاملةَ المنسي المهمل، فتترك في العذاب والشقاء.

وقد أكَّد سبحانه هذا المعنى في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤].

ومرَّ معنا أنه ﷻ لا ينسى في قوله: ﴿فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] فهو سبحانه منزَّه عن كل صفات النقص.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾.

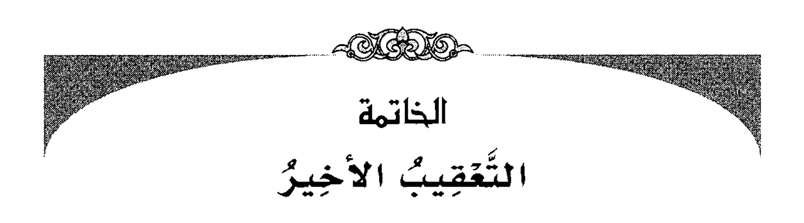
﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وهكذا.

﴿نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ فتجاوز الحد وطغى.

﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦٓ﴾ بل كذب بها، وأعرض عنها، فنجعل حياته وعيشته في الدنيا تعيسة شقية.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ من شقاء الدنيا وعذابها، فالله سبحانه يجمع للمكذبين بآياته بين شقاء الدنيا وشقاء الآخرة.





الخاتمة

التَّعْقِيبُ الأخِيرُ

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

- **الاتعاظ بالأولين:**

فالسعيد من وُعِظَ بغيره، والشقيُّ من وُعِظَ بنفسه، وفي أخبار الأمم الماضية مواعظ كثيرة، وعبر بليغة، ولهذا قصَّ الله علينا في القرآن الكريم كثيراً من قصص الأولين وأخبارهم، كما في هذه السورة، ودعانا سبحانه إلى الاتعاظ بمن سبقنا، قال تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي: أفلم يبيِّنِ القرآنُ الكريمُ للكفَّار المعرضين المكذبين.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي: ما أكثر الأجيال البشرية التي أهلكناها بسبب كفرهم وطغيانهم.

﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي: والكفار المعرضون يمشون في مساكن أولئك الهالكين، كما قال تعالى في **سورة إبراهيم**: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ أي: إن في النظر في مصائر الأمم السابقة لدلائل ومواعظ وعبراً لأصحاب العقول الناهية عن التغافل والطغيان، فلا ينبغي لهؤلاء الكفار أن يغتروا بإمهال الله تعالى لهم، وتأخيره العذاب عنهم، إنَّه قدرٌ سبقَ به علمُه سبحانه، وتعلَّقت به مشيئتُه، ولولاه لعاجلهم بالعقوبة:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير العذاب عنهم.

﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ أي: لكان العذابُ ملازِماً لهم، **فاللزامُ**: مصدرُ لازمَ يلازِمُ ملازمةً ولزاماً.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: ولولا الأجلُ المسمَّى أيضاً لكان عذابُهم لزاماً، ففي الآية تقديمٌ وتأخيرٌ.

- **الصلاة والرضا:**

ومن المناسب عندما بيَّن الله سبحانه أنه لا يعاجلهم بالعقوبة وأنه يؤخِّرهم إلى أجل مسمَّى، أن يأمر تعالى النبيَّ ﷺ بالصبر على أذاهم وما يسمعُ من أقوالهم وعنادهم على سبيل المواساة له والتثبيت، فما كان رسول الله ﷺ يستعجِلُ عذابهم، لأنَّه نبيُّ الرحمةِ، بل كان يتألَّمُ ويحزنُ عليهم بسبب إعراضهم، كما مرَّ معنا في أول السورة.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وما أكثر ما قالوا في حقه ﷺ من أكاذيب

وافتراءاتٍ، سيأتي معنا بعضها في أول **سورة الأنبياء** في الآية الكريمة: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾.

فلا تلتفتْ إلى أقوالهم، ولا تأبه بهم، واستعن على ذلك بالصلاة والذكر والتسبيح:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: وصلِّ حامداً لربك جلَّ وعلا، فقد يُراد بالتسبيح: الصلاة، قالت **عائشة** رضي الله عنها: «**ما رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ سبَّح سُبحةَ الضحى، وإنِّي لأسبِّحها**» [رواه البخاري (١١٧٧)].

﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: صلاة الصبح.

﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ أي: صلاة العصر.

﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ﴾ أي: ومن ساعات الليل.

﴿فَسَبِّحْ﴾ أي: فصلِّ، ولعلَّ المراد صلاة العشاء، أو التهجد في الليل.

﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ عند الزوال، وهو طرف النصف الأول من النهار، وقت صلاة الظهر، وعند الغروب، وقت صلاة المغرب.

وبهذا تكون الآية قد ذكرت الصلواتِ الخمسَ المفروضة.

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ قُرِئت بفتح التاء وبضمها. ومعناها بالفتح: لعلَّك ترضى بعطاء الله تعالى وفضله، كما قال سبحانه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

ومعناها بالضم: لعلَّ الله أن يرضيك بسبب كثرة صلاتك وتسبيحك.

والمعنيان متفقان، وذلك أنَّ الله تعالى إذا أرضاه، فلا شكَّ أنه يرضى، وأنه إذا رضي فقد أرضاه(١).

- **الرضا والغنى:**

وأقوال أكثر المفسرين تتَّجه إلى حصر الرضا بالآخرة، مع أنَّ الكلمة مطلقةٌ تشمل الرضا في الدنيا والآخرة.

وقد منَّ الله تعالى على النبيِّ ﷺ بالرضا في الدنيا وفي الآخرة: في الدنيا

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٦/١٦٩.

بالعزِّ والنصر، وبالقناعة وغنى النفس، فما توفي ﷺ حتى قرت عينُه برؤية دين الله تعالى ظاهراً، وكلمته سبحانه عالية عزيزة.

ولقد آتاه ربُّه قناعةً في نفسه، وغنى في قلبه حتى كان ﷺ يقول: «**ليس الغنى عن كثرةِ العَرَضِ، ولكنَّ الغنى غنى النفس**» [رواه البخاري (٦٤٤٦)].

فالمتَّصف بغنى النفس يكونُ قانعاً بما رزقه الله، لا يحرص على الازدياد لغير حاجة، ولا يلحُّ في الطلب، ولا يلحف في السؤال، بل يرضى بما قسم الله له، فكأنه واجدٌ أبداً، والمتصف بفقر النفس على الضد منه، لكونه لا يقنع بما أُعطي، بل هو أبداً في طلب الازدياد من أي وجه أمكنه.

ثم غنى النفس إنَّما ينشأ عن الرضا بقضاء الله تعالى والتسليم لأمره، علماً بأن الذي عندَ الله خيرٌ وأبقى[1].

القناعة والرضا من أهمِّ أسباب السعادة الدنيوية، ولا يشعرُ المؤمن براحة القلب والنفس إلا بهما، وهذا ما أبرزته الآيات وهي تخاطب النبي ﷺ بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تنظر نظر الرغبة والميل.

﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: إلى ما أعطينا بعضَ الناس من متاع الدنيا وزينتها وزخرفها.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم بما أعطيناهم، هل يشكرون أم يكفرون؟.

فالعطاءُ في الدنيا للاختبار لا للتكريم، ويخطئُ الذين يظنون أن توسعةَ الرزق عليهم في الدنيا دليلٌ على كرامتهم عند الله تعالى القائل في **سورة المؤمنون**: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

فالدنيا لهوانها على الله تعالى يعطيها لمن يحبُّ ولمن لا يحب، كما قال

---

(١) فتح الباري: ١١/ ٢٧٢.

سبحانه: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، أما الآخرة فلا يعطيها إلا لأحبابه.

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ الذي قدَّره سبحانه لك، والمراد منه: إما ثوابه في الآخرة، وإما الغنى والقناعة في الدنيا(١).

﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي: أفضل وأدوم.

ولا شك أن التعلق بالدنيا يؤدي إلى الطمع والجشع والحسد، وهي أهمُّ أسباب التنافس والخصام والاختلاف بين الناس، وكم أورثتهم شقاءً وعناءً وكوارثَ ونكباتٍ. بينما القناعة والرضا يمنحان صاحبهما هدوءَ النفس، وراحة القلب، ويبعدانه عن القلق والهم وتعب الأعصاب.

وما أجملَ قولَ النبيِّ ﷺ في هذا المعنى: «**قَدْ أفلحَ من أسلمَ، ورُزِقَ كفافاً، وقَنَّعَهُ اللهُ بما آتاه**» [رواه مسلم (١٠٥٦)].

والرزق الكفاف: ما يكفي صاحبه ويغنيه عن الناس.

ومن دعائه عليه الصلاة والسلام: «**اللهمَّ اجعلْ رزقَ آلِ محمَّدٍ قوتاً**» [رواه البخاري (٦٤٦٠) ومسلم (١٠٥٥) واللفظ له].

والقوت: ما يقوت البدنَ، ويكفُّ عن الحاجة، وفي هذه الحالة سلامة من آفات الغنى والفقر جميعاً(٢).

وهذا يدل على أنَّه ﷺ كان أبعدَ الناس عن التطلُّع للدنيا، والخطابُ في الآية له عليه الصلاة والسلام ليكونَ أسوتهم وقدوتهم.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾.

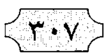
﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾ أي: بالصلاة المفروضة، والمراد أهل بيته الذين يعيشون معه فيه.

ويؤمر بأدائها الصبيُّ، وإن لم تجب عليه ليعتاد عليها كما في الحديث

---

(١) انظر: زاد المسير: ٥/ ٣٣٥.

(٢) فتح الباري: ١١/ ٢٩٣.



الشريف: «**مُرُوْا أولادَكم بالصلاةِ وهم أبناءُ سبع سنين**[(١)]، **واضربوهم عليها وهم أبناءُ عشرٍ، وفرِّقوا بينهم في المضاجعِ**» [رواه أبو داود (٤٩٥) بإسناد حسن].

ولا شك أنَّ البيت الذي تؤدَّى فيه الصلاةُ، ويذكَرُ فيه الله سبحانه، تتنزَّل فيه الرحمة، وتغشاه الملائكةُ، وتنأى عنه الشياطينُ، بينما البيت الذي لا تقامُ فيه الصلاة تغلِبُ عليه الوحشةُ، وعلى أهله الجفوة والقسوة، وتغشاه الشياطينُ، ويزدادُ فيه الشر والفساد والخصام والاختلاف، ولهذا فإنَّ صلاةَ التطوُّع في البيوت أفضلُ من صلاتها في المساجد، قال رسول الله ﷺ: «**اجعلوا في بيوتِكم من صَلاتِكم، ولا تتخذوها قبوراً**» [رواه البخاري (١١٨٧) ومسلم (٧٧٧) واللفظ للبخاري].

- **الصلاة وطلب الرزق:**

﴿وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ أي: داوم عليها، والمراد أداء الصلوات دائماً في أوقاتها المعينة لها لاستغراق الليل والنهار بها.

وأكَّدَ هذا المعنى الحديثُ الشريفُ: عن **عبد الله بن مسعودٍ** رضي الله عنه قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ: أيُّ العملِ أفضلُ؟ قال: «**الصلاةُ لوقتها**» قلتُ: ثُمَّ أيُّ؟ قال: «**بِرُّ الوالدينِ**» قلتُ: ثمَّ أي؟ قال: «**الجهادُ في سبيل الله**» [رواه مسلم (١٣٧)].

فلو كان المرادُ من الآية استغراق كل الوقت بالصلاة ما ذكر رسول الله ﷺ بعد ذلك بِرَّ الوالدين والجهاد في سبيل الله.

وقوله سبحانه بعد ذلك:

﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ﴾ دفع لما عسى أن يخطر ببال أحد من أنَّ المداومة على الصلاةِ ربما تضرُّ بأمر طلب الرزق، فكأنه قال: داوموا على الصلاة، ولا يشغلنَّكُم الاكتسابُ وطلبُ الرزق عنها، فإنَّ الرزق بيد الله تعالى، فإذا ما حانَ وقتُها، فاتركوا العملَ وطلبَ الرزقِ، وانصرفوا إلى الصلاة.

قال تعالى في **سورة الجمعة**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ

---

(١) إذا أُمِرَ الصبيُّ بالصلاةِ وهو ابن سبع سنين، فعلى وليه أن يعلِّمه الصلاة قبل هذا السن (ن).

ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾.

فالإسلام دين النظام، نظَّمَ حياة الإنسان، فجعلَ للعبادةِ بمعناها الخاص وقتاً معيناً محدداً، كما مرَّ معنا في أوقات الصلوات المفروضة: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

وكذلك خَصَّص لبقية العبادات أوقاتاً مخصوصة كالصيام والحج، وأمر الإنسان في غير أوقات العبادة المخصوصة أن يسعى في تحصيل رزقه، وألَّا يكونَ عالةً على غيره، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ويُعَدُّ سعيُ الإنسان في تحصيل رزقه عبادة إذا قصدَ به التقرُّبَ إلى الله تعالى بإعفاف نفسِه، وسعيه على عياله المكلَّفِ بالإنفاق عليهم، قال رسول الله ﷺ: «**إذا أنفقَ المسلمُ نفقةً على أهلِهِ، وهو يحتسِبُها، كانتْ له صدقةً**» [رواه البخاري (٥٣٥١)].

وتوعَّدَ النبيُّ الرجلَ الخاملَ الكسولَ الذي يتقاعس عن القيام بمسؤوليته نحو أهله وأولاده فقال: «**كفى بالمرءِ إثماً أن يضيِّعَ مَنْ يَقُوْتُ**» [رواه أبو داود (١٦٩٢) والنسائي (الكبرى: ٩١٣٢)].

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: العاقبة الحسنة الطيبة في الدنيا والآخرة لأهل التقوى.

والآيات في هذا المعنى كثيرة، يكفي منها قوله تعالى في **سورة الطلاق**: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾.

- **القرآن الكريم أعظم المعجزات:**

ختم سبحانه السورةَ بذكر صورة من صور عناد المشركين وبعض أقوالهم في حقِّ النبيِّ ﷺ بمناسبة أمره سبحانه له بالصبر على ما يقولون، فقال تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أي: هلا يأتينا محمد ـ ﷺ ـ بمعجزةٍ من ربه

تدلُّ على صدقه في دعوى النبوة. قالوا ذلك وهم يتغافلون عن المعجزة الكبرى التي تحدَّاهم الله تعالى بها، وهي القرآن الكريم.

ولهذا ردَّ سبحانه عليهم بتذكيرهم بمعجزة القرآن الكريم الكبرى التي تغافلوا عنها فقال:

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: ألم تأتهم معجزةٌ هي أمُّ المعجزاتِ وأعظمُها وأدومُها، لأنها باقية خالدة، وهي معجزة القرآن الكريم، المشتمل على زبدة ما في التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية، والمصدق لها، والشاهد على صحتها؟! وهذا كقوله تعالى في **سورة العنكبوت**: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

وهكذا عادت آياتُ السورةِ إلى القرآن الكريم كما بدأت به في قوله تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾ فهو الكتابُ الذي أنزله الله تعالى ليكونَ سبيلَ السعادة في الدنيا والآخرة، وهو أيضاً المعجزة الكبرى الخالدة للنبيِّ ﷺ على مدى العصور، وكر الدهور.

- **قامت الحجة وأنزل القرآن الكريم:**

القرآن الكريم حجةُ الله تعالى البالغة على الناس، لا عذرَ لهم بعد إنزاله أبداً، ولهذا أبقاه الله تعالى في الأرض كما أنزله وتكفَّل بحفظه، وهو سبحانه العليم الحكيم يعلمُ أنه لو لم ينزله لاعتذروا بعدم نزوله، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل نزول القرآن الكريم وبعثة النبي ﷺ.

﴿لَقَالُواْ﴾ يوم القيامة.

﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ بكتاب منزل عليه.

﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ التي جاءنا بها.

﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بعذاب الدنيا وشقائها وتعاستها.

﴿وَنَخْزَىٰ﴾ بعذاب الآخرة في النار. **والخزي**: أشد أنواع الذلة.

وهاهو القرآن الكريم بحمد الله تعالى قد أُنْزِلَ، والرسول الكريم خاتم النبيِّين ﷺ قد بُعِثَ، وقام ﷺ بتبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، فأقام الله به الحجةَ على الناس، فلا عذرَ لأحدٍ بعد ذلك، وما على الرسولِ ﷺ إلا أن يقولَ لهم بعد أن بلغهم:

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ (١٣٥)﴾.

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ أي: كل واحد منا ومنكم منتظر.

﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي: فانتظروا، وهو أمر فيه تهديد ووعيد.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب.

﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ﴾ المستقيم المؤدي إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: ومن عرف الصراط وسار عليه، وتمسك بهديه، حتى يلقى الله تعالى.

أسأله سبحانه الهداية والثبات والتوفيق.

❁ ❁ ❁



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَةُ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

أما بعد: يعاني المسلمون في العصر الحاضر من التمزُّق والاختلاف، وضعف الشعور بالانتماء إلى الإسلام، مما جعلهم يَصِلُون إلى مرحلةِ فقدان ذاتهم الإسلامية، وهويتهم الإيمانية، فهم في أمسِّ الحاجة إلى الالتفاف حول دينهم ورسالتهم، وتقوية ارتباطهم بها، وانتمائهم إليها، لكي يعرفوا حقيقتهم، ويدركوا منزلتهم، ويتحمَّلوا مسؤوليتهم التي خصَّهم الله تعالى بها.

ولا يتحقَّقُ لهم هذا إلا بالعودة إلى كتاب الله تعالى، يتدبرون آياته، ويستشعرون من خلالها التبعاتِ الجسامَ الملقاة على كواهلهم.

ولقد اهتمَّت سورةُ الأنبياء بهذا الموضوع، وركزت آياتها عليه، وهذا التفسير لسورة الأنبياء يبرزُ هذه المعاني من خلال السورة الكريمة.

وقد قسمتُه إلى فصلين:

● **الفصل الأول: كلمةُ التوحيد أساس الرسالة الإسلامية، ومسؤولية المسلمين عنها، ومواقف المشركين منها، والأدلة عليها.**

- **الفصل الثاني: الأنبياء رُوَّاد وَحَملة هذه الكلمة، وصلتهم بالأمة المسلمة.**

أسأله سبحانه أن يجعلنا من هذه الأمة، ويثبتنا على طريقها وسنة نبيها عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.



تَمْهِيد
مَوْضُوعُ السُّورَةِ

سورة الأنبياء من السور المكيَّة التي نزلت على النبيِّ ﷺ في وقت مبكِّر من دعوته عليه الصلاة والسلام، دلَّ على ذلك قولُ الصحابي الجليل **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه: بني إسرائيل (الإسراء)، والكهفُ، ومريمُ، وطه، والأنبياء، هنَّ من العِتاقِ الأُولِ، وهنَّ من تِلادي. [رواه البخاري (٤٧٣٩)].

والعتاق: جمعُ عتيق، وهو القديم. وقوله: «**مِنْ تِلَادِي**» أي: مما حُفِظَ قديماً. **والتلادُ**: قديمُ الملك، وهو بخلاف الطارئ.

قال ابنُ حجر رحمه الله: «ومرادُ ابن مسعود أنهنَّ مِنْ أوَّل ما تعَلَّمَ مِنَ القرآنِ، وأنَّ لهنَّ فضلاً لما فيهنَّ من القصص وأخبار الأنبياء والأمم»(١).

وقال في موضع آخر: «وحاصلُه أنَّه ذكر خمسَ سورٍ متوالية، ومقتضى ذلك أنهنَّ نزلنَ بمكة، ولكنِ اختُلفَ في بعض آياتٍ منهنَّ... وفي الأنبياء: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا﴾ الآية [الأنبياء: ٤٤] قيل في جميع ذلك: إنه مدني، ولا يثبتُ شيءٌ من ذلك، والجمهورُ على أنَّ الجميع مكيات، وشذَّ من قال بخلاف ذلك»(٢).

وتلتقي السورةُ مع السور المكِّية في التركيز على الموضوعات المتَّصلة بالعقيدة، وقد انفردتْ سورةُ الأنبياءِ من بينهنَّ، بأنَّها **أبرزتْ كلمة التوحيد ودعاتها من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام**، ومهَّدت لهذا **بوصف مواقفِ المشركين من النبيِّ ﷺ وأقوالهم في الوحي المنزل عليه.**

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٣٨٨.

(٢) المرجع السابق: ٨/ ٤٣٥.

ولمَّا شرعتْ في الحديث عَنْ حملةِ لواء التوحيد وكلمته، بدأت به عليه الصلاة والسلام، كما أنَّها خُتِمَت بالحديث أيضاً عنه ﷺ وعن رسالته وميزاتها وارتباطها بأساسها الأول وهو كلمة التوحيد، فهو ﷺ في السورة الفاتحُ الخاتِمُ، ورسالته أعظم الرسالات وأشملها، وأمته أعظم الأمم، ولها ارتباط وثيق بجميع الذين آمنوا بكلمة التوحيد ورسالته، وأذعنوا لها مستسلمين مسلمين.



الفصل الأول

المُسْلِمُونَ وَكَلِمَةُ التَّوحِيدِ وَمَوَاقِفُ المُشْرِكِينَ مِنْهَا وَالأَدِلَّةُ عَلَيْهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً

قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)﴾.

- **اقترب الحساب:**

بدأ سبحانه سورة الأنبياء بالإخبارِ عن أمرٍ مقدَّرٍ مقرَّر، وهو يوم الحساب والجزاء، يوم القيامة، وهو ركنٌ من أركان الإيمان، وهو أعظمُ الموضوعات الفكرية في القرآن، فقال جلَّ وعلا:

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١)﴾.

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ لأنه آتٍ، وكلُّ آتٍ قريبٌ أيضاً بالنسبة إلى ما مضى من عمر الدنيا، فما بقي من الدنيا أقل مما مضى(١).

وبعثة نبينا ﷺ تدلُّ على اقترابِ القيامة، إذ هو خاتَمُ الأنبياء والمرسلين، لا نبيَّ بعده، قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وانشقاقُ القمرِ من المعجزات الحسية الكبرى التي أجراها الله تعالى على يد النبي ﷺ.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١١/ ٢٦٧.

وفي الحديث الشريف: عن **سهل** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتينِ**» ويشيرُ بأصبعيه فيمدُّهما. [رواه البخاري (٦٥٠٣) ومسلم (٢٩٥٠) واللفظ للبخاري].

وأخرجه الطبري [١٤/ ٦٢١] بلفظ: وأشار بالسبابة والوُسْطى.

قال البيضاويُّ: «معناه أن نسبة تقدُّم البعثة النبوية على قيام الساعة كنسبة فضل إحدى الإصبعين على الأخرى»[١].

وعن **ابن عمر** رضي الله عنهما: أنَّه سَمع رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّما بقاؤكُم فيما سلف قبلَكُم مِنَ الأُممِ كما بَيْنَ صلاةِ العصْرِ إلى غروبِ الشَّمْسِ**...» [رواه البخاري (٥٥٧)].

وظاهر الحديث الشَّريف: أنَّ بقاءَ هذه الأمة وقع في زمان الأمم السالفة، وليسَ ذلك المرادَ قطعاً، كما قال ابنُ حجر رحمه الله، وإنما معناه أنَّ نسبةَ مدَّةِ هذه الأمة إلى مُدَّةِ مَنْ تقدَّمَ من الأمم مثل ما بين صلاة العصر وغروب الشمس إلى بقية النهار[٢].

وهذا لا يدلُّ على أنَّه ﷺ يعلمُ وقتَ الساعة على وجه التحديد، فهذا مما استأثر اللهُ تعالى بعلمه، وإنَّما يدلُّ على أنَّه عليه الصلاة والسلام عَلِمَ اقترابَ الساعة وأشراطَهَا بالوحي المنزَّل عليه.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي: والناسُ عن الآخرةِ والحسابِ ساهونَ لاهونَ.

﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن الاستعداد ليوم الحساب.

فأمرُ الناس في غفلتهم وإعراضِهم عن الاهتمام بأمر الساعة، وانسلاخهم عن الشعور بمسؤوليتهم عن حياتهم، أمرٌ عجيب، مع أنَّ الإيمان بيوم القيامة والشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى يعطي للحياة معناها، ويجعلُ الإنسان يتذوَّقُ طَعمَها الحقيقي، ويدرِكُ جوهرها، ومع هذا يتغافل الناس عنها، ويهتمُّون بلهو الحياة ومتاعها القليل الزائل.

---

(١) فتح الباري: ١١/ ٣٤٩.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٣٩.

• **والقلوب لاهية:**

وكلما أرسل اللهُ تعالى إليهم رسولاً، وأنزل عليهم الآيات لكي ينتبهوا من غفلتهم، ويستشعروا مسؤوليتهم، ويتذكَّروا يوم الحساب والجزاء، ويعرفوا حكمةَ حياتهم، وجوهرَ وجودِهم، استقبلوها لاعبين لاهين:

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾.

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ في تنزيله.

﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: استمعوه لاعبين، غير جادِّين ولا مهتمين، مما يدل على شدة غفلتهم، وانهماكهم بشهوات الدنيا.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي: غارقةً قلوبُهم في اللهو، مشغولةً عن الآيات الكريمة النازلة عليهم بشهوات الدنيا وزخرفها وزهرتها، فلا يتدبَّرون كلمات القرآن الكريم، ولا يتأمَّلون في معانيه، ولا يفكِّرون في بلاغته وإعجازه، كأنَّ بينهم وبين آياته حجاب يحجبهم عن أنواره، حتى إنَّهم كانوا يواجهون النبيَّ ﷺ بهذه الحقيقة: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

فالتعلُّقُ بالدنيا، والانهماكُ بها، يصرفُ الإنسانَ عن التأثر بآيات التنزيل الحكيم، وعن التفكير في يوم القيامة، ومسؤوليته أمام الله تعالى، وقد مرَّ معنا في خواتيم **سورة طه** قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١﴾، ثم قال تعالى في فاتحة **سورة الأنبياء** بعدها: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾.

وقد تكرَّرَ في القرآن الكريم مثل هذا التنسيق والاحتباك بين خواتيم السورة

وبين فواتح السورة التي بعدها عموماً، وتكرَّر على وجه الخصوص لإبراز هذا المعنى وتأكيده، ففي خواتيم **سورة الحجر** قال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾، وفي أول **سورة النحل** بعدها قال جلَّ وعلا: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾.

وكذلك صوَّرت الآيات الكريمة في ختام **سورة النجم** شِدّة غفلة الكفار وإعراضهم بقوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾، ثم قال تعالى بعدها مباشرة في أول **سورة القمر**: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾.

- **والنفوس مضطربة حائرة:**

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: وأسرَّ الذين ظلموا أنفسَهم بالإعراض عن آيات القرآن الكريم النجوى، وهي اسمٌ من التناجي، ولا تكونُ إلا سرّاً، ومعنى إسرارهم لها مبالغتهم في إخفائها، وإبدال ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ من فاعل ﴿أَسَرُّوا۟﴾ وهو الواو، ينبِئُ عن كونهم متَّصفين بالظلم القبيح الفاحش(١).

ومبالغتهم في إخفاء نجواهم يدلُّ على خطورةِ موضوعها، وشدَّةِ اهتمامهم به، وهو معارضةُ دعوةِ النبيِّ ﷺ، والبحث عن تهمةٍ يتهمونه بها، لكي يصدُّوا الناسَ عن الاستماع إليه وقبول دعوته.

﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ هذا أوَّلُ اعتراض لهم على النبي ﷺ، فهو بشر مثلكم، يتَّصف بكل ما يتَّصف به البشر من الأكل والشرب والحياة والموت، كما حكى سبحانه عنهم في **سورة الفرقان**: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾.

واعتراضُهم على بشرية النبي ﷺ يدل على أنَّ الحسدَ هو الباعثُ لهم على هذا الاعتراض، فكيف يمتازُ عليهم بالرسالة والنبوة وهو بشر مثلهم؟!.

ولهذا أضافوا إلى اعتراضهم على بشريته ﷺ اتهامه بالسحر:

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٦/ ٥٤.

﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وهو سؤالُ إنكارٍ، ينكِرُ فيه بعضهم على بعض إتيان النبي ﷺ والاستماع إليه، ويتهمونه بالسحر، فكأنَّ كُلَّ واحد منهم يلوم الآخر قائلاً: كيف تأتي السحر وأنت تعلم أنه سحر؟!.

وهذا يدلُّ على أنَّ سلطان القرآن الكريم كان يجذبهم إليه، وأنَّهم في قرارةِ أنفسهم يعلمون أنَّه ليس سحراً، وأنَّه عليه الصلاة والسلام أبعد الناس عن السحر والاتصاف بصفات السحرة.

وقد سجَّلت كتبُ السيرةِ صوراً من صور استماعهم للقرآن الكريم، قال ابن إسحاق: «وحدَّثني محمَّدُ بن مسلم بن شِهاب الزُّهري: أنَّه حدَّث أنَّ أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شُريق، خرجوا ليلةً ليستمعوا من رسولِ اللهِ ﷺ وهو يصلِّي من الليلِ في بيته، فأخذَ كُلُّ رجلٍ منهم مجلساً يستمعُ فيه، وكُلٌّ لا يعلمُ بمكانِ صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتَّى إذا طلعَ الفجرُ تفرَّقوا، فجمعهم الطريقُ فتلاوموا، وقال بعضُهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعضُ سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلةُ الثانيةُ عادَ كُلُّ رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتَّى إذا طلع الفجر تفرَّقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلةُ الثالثةُ أخذَ كلُّ رجلٍ منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلعَ الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرحُ حتى نتعاهدَ ألا نعودَ على ذلك، ثم تفرقوا»[1].

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٤﴾.

﴿قَالَ﴾ أي: النبي ﷺ يردُّ عليهم. وفي قراءة: ﴿قُلْ﴾ أمرٌ للنبيِّ ﷺ أن يرد عليهم قائلاً:

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٧٥.

﴿رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه شيء من أقوالكم في نجواكم مهما بالغتم في إخفائها.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ المتصف بكمال السمع والعلم جلَّ وعلا.

ثم أضافت الآياتُ أقوالاً أخرى للمشركين بأسلوب الإضراب والانتقال من قولٍ إلى قولٍ، يدلُّ على مدى الاضطراب والحَيْرة، وأنَّهم لا يكادون يقولون قولاً حتى ينصرفوا عنه إلى غيره:

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ٥﴾.

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: قالوا: القرآنُ مجموعةُ أحلامٍ مختلطة.

ثم لم يرتاحوا إلى هذا القول، فانصرفوا عنه إلى غيره قائلين:

﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: النبي ﷺ من تِلْقَاءِ نفسه.

ثم انتقلوا عنه إلى غيره فقالوا:

﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ وما كان ﷺ شاعراً أبداً، وما عُرِفَ عنه ذلك.

هكذا شأنُ المحجوج المُبْطِلِ، يتردَّدُ بين باطل وأبطل منه، ويتذبذب بين فاسد وأفسد منه[١].

وأخيراً أعرضوا عن كلِّ أقوالهم السابقة، وطلبوا من النبي ﷺ معجزةً تدلُّ على صدقه:

﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ﴾ أي: إن لم يكن محمَّدٌ كما قلنا، بل كان رسولاً من الله تعالى، فليأتنا بمعجزة تدل على صدق رسالته وصحة نبوته.

﴿كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أي: مثل المعجزات التي أرسل بها المرسلون السابقون.

- **الردود:**

وبعد أن صوَّرتِ الآياتُ الكريمةُ حَيْرةَ المشركين واضطراب أقوالهم

---

(١) تفسير أبي السعود: ٦/ ٥٥.

شرعت تردُّ عليها، وبدأت بقولهم الأخير، وهو طلب المعجزة، فردت عليهم بقوله تعالى:

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾.

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ أي: ما آمن من أهل بلد قبل مشركي قريش عندما جاءتهم المعجزاتُ التي اقترحوها، فأهلكهم سبحانه بسبب ذلك.

﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أفيؤمن هؤلاء المقترحون؟ أم يستمرُّون على كفرهم وعنادهم، كما فعل الكفار قبلهم.

ولقد علم سبحانه أنَّه لو أعطي هؤلاء ما يقترحون لظلّوا على كفرهم وعنادهم، فمن رحمته سبحانه أنه منع عنهم ما اقترحوا من معجزات، حتى لا يهلِكَهم كما أهلكَ الأمم المكذِّبة قبلهم، ولو أرادوا الإيمان لاكتفوا بالمعجزات التي أيَّد الله تعالى بها رسوله ﷺ ابتداءً، وأوضحُها دلالةً معجزةُ القرآن الكريم.

وأما اعتراضهم على بشرية الرسول ﷺ فبيَّن سبحانه بطلانه وسقوطه بقوله:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ من البشر، ولم نرسل ملائكة.

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: أهلَ العلمِ بأحوال الرسل السابقين، وهم أهل الكتاب.

﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أحوال الأنبياء السابقين وأخبارهم، فكلُّهم كانوا من البشر، يجوزُ عليهم ما يجوزُ على البشر:

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي: المرسلين.

﴿جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ بل جعلناهم أجساداً يأكلون ويشربون. ووحَّد الجسد لأنه مصدر أريد به الجنس.

﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ لا يموتون، بل ماتوا كما مات مَنْ قبلهم ومَنْ بعدهم من البشر.

ثم نبَّهتِ الآياتُ إلى أَنَّ موت الأنبياء والمرسلين ما كان بسبب العذاب الذي أنزله الله تعالى بأممهم المكذِّبة لهم، فقد وعدهم الله تعالى أن ينجيهم من هذا العذاب:

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ بإنجائهم.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ من المؤمنين المصدقين برسالة الأنبياء عليهم السلام، كما أخبر سبحانه في **سورة يونس** فقال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ وهم الطاغون الباغون المتجاوزون للحدود المشروعة، والعابثون اللاهون.

- **العرب والقرآن الكريم:**

ثم التفتتِ الآياتُ إلى مشركي مكة تخاطبهم على وجه الخصوص بأسلوب التقريع والتأنيب، تبيِّنُ لهم فضلَ الله العظيم عليهم بإنزال القرآن الكريم بلغتهم، وعلى رجلٍ منهم، فهو شرفٌ كبيرٌ خَصَّهم الله تعالى به دونَ سائر الأمم والشعوب، جعلَه لهم امتيازاً رفيعاً على الناس، فلماذا يعرضون عنه؟!:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: فيه شرفٌ لكم، وعزٌّ لكم، إن آمنتم به وعملتم بما فيه.

والمراد **بالذكر** هنا: الشرفُ، أي: فيه شرفكم، . . . وقيل: فيه ذكركم، أي: ذكر أمر دينكم، وأحكام شرعكم، وما تصيرون إليه من ثواب وعقاب. . . وقال مجاهد: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: حديثكم، وقيل: مكارم أخلاقكم، ومحاسن أعمالكم، والقول الأول يعمُّها إذ هي شرفٌ كلها، والكتاب شرف لنبينا ﷺ، لأنه معجزته، وهو شرف لنا إن عملنا بما فيه[١].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قدر هذه النعمة الجليلة التي خَصَّكم الله تعالى بها، فأينَ عقولكم؟! وهو سؤالٌ إنكاريٌّ توبيخي، يبعثهم على التفكير، ويدفعهم إلى إعادة النظر في موقفهم المعارض للنبيِّ ﷺ ورسالة القرآن الكريم.

لقد كان القرآن الكريم شرفاً للعرب وعِزّاً لهم، كما أخبر سبحانه في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] حين حملوا رسالته فشرَّقوا بها وغربوا . . . وقادوا به البشريةَ قروناً طويلة، فسعدوا وسعدت بما معهم من ذلك الكتاب، حتى إذا تخلَّوا عنه تخلَّت عنهم البشريةُ، وانحط فيها ذكرهم.

وما يملك العربُ اليومَ من زادٍ يقدِّمونه للبشرية سوى هذا الزاد، وما يملكون من فكرة يقدِّمونها للإنسانية سوى هذه الفكرة، فإن تقدموا للبشرية بكتابهم ذاك عرفتهم وذكرتهم ورفعتهم[٢].

- **إفناء وإنشاء:**

وبعد ما تقدَّم من توبيخ وتقريع وتقرير ملزم لهم بمسؤوليتهم عن حمل رسالة القرآن الكريم، ذكرت الآيات الكريمة صورةً من صور الأمم الهالكة المعذَّبة عند نزول العذاب بهم، لإثارةِ الهلع والرعب في قلوبهم؛ ذكرتها أولاً مجملة في قوله تعالى:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي: ما أكثرَ البلاد التي أهلكها الله

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١١/ ٢٧٣.

(٢) انظر: في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٧٠.

ودمَّرها بسبب ظلم أهلها وطغيانهم.

وكلمة ﴿كَمْ﴾ للتكثير، **والقَصْمُ**: الكسر الشديد الذي يفصل بين الأجزاء فصلاً كاملاً، ولا يتأتَّى ذلك إلا في الأشياء الصلبة القاسية، فدلَّت كلمةُ (**القصم**) على قوة هذه الأمة الظالمة، وشدة شكيمتها، فهي كالحجر الصلد في القوة والصلابة[1]، ومع ذلك دمَّرها الله تعالى، وأهلكها بسبب ظلمها، وهو الكفر والشرك.

﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ أي: أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاكهم واستئصالهم وقطع دابرهم بالكلية:

﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

وبهذا أظهرَ الحقُّ سبحانه كمالَ قدرته على الإفناء والإنشاء.

وقد ذكر تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة، وبأساليب متنوعة، منها قوله ﷻ في **سورة إبراهيم**: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

وقوله أيضاً في **سورة المؤمنون**: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

وبعد إجمال فصَّلت الآياتُ تفصيلاً موجزاً مرعباً أحوال أمة من هذه الأمم الهالكة عند نزول العذاب ببلدهم وساحتهم، قال تعالى:

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ أي: رأوا عذابنا، أو أدركوه بحواسهم، وتذوقوا مقدماته وبدايته.

﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يهربون ويفرون مسرعين من بيوتهم وقصورهم وأماكن لهوهم وفجورهم.

---

(١) انظر: نظم الدرر: ١٢/ ٣٩٤.

﴿لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ١٣﴾.

﴿لَا تَرۡكُضُواْ﴾ أي: قيل لهم ذلك، ويحتمل أن يكون القائلُ ملائكةَ العذاب، أو مَنْ كان ثَمَّةَ من المؤمنين، قالوا ذلك على سبيل الهزء بهم[1].

وقد يكون المنادي لسانَ الحال تقريعاً وتشنيعاً لحالهم وتفظيعاً، لأنَّهم كانوا قبل نزول العذاب بهم يتوعَّدون المؤمنين بالنفي عن البلد والوطن والتشريد، قائلين لهم: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣][2].

- **سقوط المترفين:**

﴿وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ﴾ أي: ارجعوا إلى النعيم الذي كان سبب بطركم وطغيانكم. **والمترف**: المتنعم، يقال: أُتْرِفَ على فلان، أي: وُسِّع عليه في معاشه[3].

ولا شكَّ أنَّ الله تعالى هو المنعم المتفضل، وقد انشغل القومُ عن المنعم بالنعمة، ولهذا جاء بناء الفعل ﴿أُتۡرِفۡتُمۡ﴾ بصيغة المجهول ليشير إلى غفلتهم عن ربهم سبحانه.

والترفُ مظهرٌ من مظاهر السقوط في الاختبار بالنعمة، وما أكثر الذين سقطوا في هذا الاختبار، وسارعوا إلى تكذيب الرسل، وعارضوا دعوتهم، كما قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

وقال أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٢٣].

ولهذا شرع الإسلام التوسط والاعتدال في الإنفاق، ونهى عن الإسراف

---

(١) روح المعاني: ١٧/ ١٦ ـ ١٧.
(٢) انظر: نظم الدرر: ١٢/ ٣٩٥.
(٣) تفسير القرطبي: ١١/ ٢٧٥.

والترف، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وآثار الترف والسَّرَفِ تظهر بشكل واضح جلي في مساكن المترفين، وهي تدل على مدى ترف أصحابها وسرفهم، ولعلَّ ذلك سبب تخصيصها بالذكر في قوله تعالى:

﴿وَمَسَٰكِنِكُمۡ﴾ التي شيدتموها وزخرفتموها لتكونَ موضع ترفكم وبطركم وطغيانكم وفجوركم.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ﴾ عما جرى عليكم ونزل بكم من أنواع العذاب، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة بلسان الحال التي تحوَّلتم إليها وأصبحتم فيها.

- **سؤال الأطلال:**

ولا شك أنَّ آثارَ الهالكين شواهدُ ناطقة، يسمعها المعتبرون المتَّعظون، فلا يمرون عليها مرورَ الغافلين العابثين اللاهين، كما يفعل أكثر الناس في العصر الحاضر، يهتمون برؤية آثار الأمم الغابرة، ويرون آثار الخراب والدمار الذي حلَّ بها، ولا يفكِّرون في أسباب الخراب والدمار، ولا قدرة الخالق العظيم الذي أنزل بهم هذا الخراب والدمار.

السياحةُ في الأرض للاعتبار والاتعاظ أمرٌ مشروع في الإسلام، ندب إليه القرآن الكريم في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى في **سورة الحج**: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

وقوله في **سورة آل عمران**: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾.

وأنكرت الآيات الكريمة على أولئك الذين يمرون على أطلال الأمم

الهالكة وآثارها، وينقبون في خرائبها، دون أن يتعظوا ويعتبروا، قال تعالى في **سورة الصافات**: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

ولما مرَّ النبي ﷺ على الحِجر بلادِ ثمود قومِ صالح، وهو في طريقه إلى تبوك، أمر عليه الصلاة والسلام أصحابه إذا دخلوا مساكنهم أن يدخلوها معتبرين خائفين من الله تعالى وسطوته وانتقامه، فقال: «**لا تَدْخُلُوا على هؤلاءِ القومِ المعذَّبينَ إلا أَنْ تكونوا باكينَ، فإنْ لم تكونوا باكينَ، فلا تدخلوا عليهم أن يصيبَكم مثلُ ما أصابَهم**» [رواه البخاري (٤٣٣) ومسلم (٢٩٨٠) واللفظ له].

- **إيمان اليأس:**

ولا ينتبه المسرفون المترفون من سكرةِ السرفِ والترفِ إلا عند نزول العذاب بهم، حينئذٍ تزولُ عنهم نشوةُ الترف، ويصحون من سكرة السرف، ويعترفون بقبح ما كانوا عليه وخسته:

﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: الويل والهلاك لنا بسبب إعراضنا عن طاعة ربنا، وانشغالنا بأسباب لهونا وسرفنا وفجورنا.

اعترفوا في وقت متأخر حيثُ لا ينفعهم الاعترافُ، وندموا ولاتَ ساعة مندم، إذ جاء اعترافهم متأخِّراً في وقت نزول البأس، واليأس من النجاة، وإيمانُ اليأس لا ينفعُ صاحبه، لأنَّه صدر عنه عندما يئسَ من الحياة، وشاهدَ أسباب الهلاك والعذاب؛ فهو مثل إيمانِ فرعون عندما أدركه الغرقُ، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس][١].

---

(١) انظر: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس)، وهو تفسير سورة يونس في هذا التفسير الموضوعي الكبير.

ودل قولهم: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ على أنهم يئسوا من النجاة، وأيقنوا بالهلاك، فلا ينفعهم فرار، فما كان منهم إلا الإقرار:

﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ١٥﴾.

﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ يرددونها، لا دعوى لهم غيرها، لأن أسباب الويل والهلاك قد طوقتهم.

﴿حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا﴾ أي: كالزرع اليابس المحصودِ بأسنة المناجل.

﴿خَٰمِدِينَ﴾ أي: لا حركة لهم ولا صوت، كالنار المنطفئة التي صارت رماداً، كما قال تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ [مريم: ٩٨].

أصبحت مدنُهم وقصورُهم التي كانت تموجُ بالحركة والنشاط قبوراً خامدةً ساكنةً هامدةً، لا حِسَّ فيها ولا حركة.

• **تنزُّهه سبحانه عن اللعب:**

بهذه الصورة المخيفة المرعبة هيأت الآياتُ الكريمةُ النفوسَ الغافلةَ العابثةَ اللاهيةَ، لمواجهة حقيقة الحياة، ومعرفة جوهرها، والوقوف على حكمتها.

فالحقُّ سبحانه الخالق العظيم، والعليم الحكيم، ما خلقَ المكوَّنات، وأبدعَ الموجودات للهو واللعب والعبث، حاشاه جلَّ وعلا وهو القائل:

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦﴾.

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ من المخلوقات التي لا تُحصى أجناسها وأفرادها، ولا تحصر أنواعها وصفاتها وخصائصها، على هذا النمط البديع المتقن المحكم.

﴿لَٰعِبِينَ﴾ أي: للهو واللعب، يتنزَّه الخلَّاق العظيم والعليم الحكيم عن

هذا، فهو كقوله جلَّ وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [صَ: ٢٧].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان].

وكم رد ﷻ على منكري الحساب والجزاء والبعث بعد الموت بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون].

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة].

ثم أكد ﷻ تنزهه عن اللعب والعبث فقال:

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي: لاتخذناه على الوجه اللائق بكمالنا وقدرتنا وحكمتنا، وحينئذٍ لا يكونُ لهواً، بل يكونُ عينَ الحكمة والحق والجد. فاللهو ممتنع في حقه جلَّ وعلا، لأنَّه من صفات النقص التي لا تليقُ بجلاله سبحانه، وكمالِ قدرته وعلمه وحكمته.

﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: ما كُنَّا فاعلين.

- **قذف الحق على الباطل:**

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: بل شأننا الذي يليق بكمالنا؛ إثبات الحق، وإبطال الباطل، وذلك برمي الحق على الباطل.

﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ أي: يصيبه في أُمِّ دماغه، مما يؤدي إلى إزالته ومَحْقه، فالحق قوي أصيل، لا ثبات للباطل أمامه.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: ذاهب بالكلية.

وفي ﴿فَإِذَا﴾ الفجائية، والجملة الاسمية، من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبُطلان ما لا يخفى، فكأنَّه زاهقٌ من الأصل[1] كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

فكأنَّ الحقَّ جِرْمٌ صَلبٌ قوي كالصخرة، قُذف بها على جرم رخو أجوف. **فالحقُّ**: هو القرآن الكريم المنزَّل على خاتم المرسلين. **والقَذْفُ**: الرمي الشديد. **والباطل**: كل ما استحدثه الناس من العقائد الفاسدة والأفكار الضالة.

﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أي: لكم يا أصحابَ الباطل الهلاكُ والعذابُ مما وصفتم به النبيَّ ﷺ والقرآن الكريم، حين قلتم ما قلتم، ما حكاه الله تعالى عنهم في أول السورة.

وقد يخيَّلُ لبعض الناس أحياناً مخالفة الواقع لهذه الحقيقة التي يقررها العليم الخبير، وذلك في الفترات التي يبدو فيها الباطل منتفشاً كأنَّه غالب، ويبدو فيها الحقُّ منزوياً، كأنَّه مغلوبٌ، وإن هي إلا فترة من الزمان، يمد الله فيها ما يشاء للفتنة والابتلاء[2].

وأعمارُ الأمم والشعوب لا تُقاس بأعمار الأفراد، إنَّها فترات تمحيص لأهل الإيمان، تنتهي بإحقاق الحق وثباته، وزهق الباطل وهزيمته، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

وسيأتي معنا في آخر السورة زيادة تقرير لهذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

- **تسبيح وتمجيد:**

كيف تجرَّأ المشركون على الله ﷻ، فوصفوه بصفات لا تليق بكماله

---

(١) روح المعاني: ١٧/ ٢٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٧٢.

وجلاله، وأنكروا حكمته في خلقه، وتكبَّروا عن طاعته، وأعرضوا عن عبادته، وكذَّبوا أنبياءه ورسله؟!.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: له ﷻ جميعُ المكونات خلقاً وملكاً، وإنشاءً وإفناءً، وإحياء وإماتة، وتدبيراً وتقديراً، وإثابةً وتعذيباً، وفوق كل ذلك:

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ أي: وله ﷻ من عنده، وهم الملائكة المقربون، الذين لا يعلم حقيقتهم وعظمتهم إلا هو.

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ جلَّ وعلا، وعن الانقياد والخضوع لأمره ومشيئته.

﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: ولا يطلبون الانقطاع والتوقف عن عبادته جلَّ وعلا وطاعته، بسبب إعياءٍ وتعبٍ يلحقُهم. بل:

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: ينزهونه جلَّ وعلا بأنواع التقديس والتمجيد والتعظيم دائماً في الليل والنهار.

﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي: دون توقف وانقطاع، ودون ضعف وملل وسآمة.

ثم اتجهت الآيات بعد هذا التنزيه والتمجيد للحق سبحانه إلى توبيخ المشركين، لأنهم عبدوا غير الله تعالى، واتخذوا آلهة ضعيفة عاجزة:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: من تراب الأرض وأحجارها.

و﴿أَمِ﴾ للإضراب والانتقال لتحكي جريمة أخرى من جرائم المشركين مع الإنكار عليهم.

﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي: هم قادرونَ على نشر الأموات، وإخراجهم من قبورهم؟.

فالإلٰه الذي يستحقُّ العبادةَ يجب أن يكونَ قادراً على الإعادة، كما هو قادر على الإنشاء والابتداء، وهذه الأصنام التي اتخذوها بأيديهم من الأرض ضعيفة عاجزة، فكيف عبدوها وأعرضوا عن عبادة الله تعالى القوي القادر القاهر، المبدئ المعيد، المحيي المميت، ﷻ؟!.

وهكذا بعد هذه المقدمة عن النبيِّ الخاتم، ومواقف المشركين منه ومن دعوته أوصلتنا الآيات إلى الموضوع الأساس للسورة، وهو كلمة التوحيد والأدلة عليها، وبدأت ببيان الدليل العقلي الملزم:

- **دليل التوحيد العقلي:**

أين عقولُ المشركين التي ميزهم الله تعالى بها، والتي جعلها سبحانه أعظمَ الوسائل التي يتعرَّفون بها على خالقهم ﷻ، الذي يجب عليهم عبادته وطاعته؟! وأين أبصارهم وأسماعهم؟!.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾ أي: في السماوات والأرض.

﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: غير الله تعالى.

﴿لَفَسَدَتَاۚ﴾ أي: لاختلَّ نظامُهما، وفسدتْ نواميسُهما.

فلو قدرنا إلٰهين، فإمَّا أن يتفقا أو يختلفا، فإن اتفقا على الشيء الواحد، فذلك الواحد مقدورٌ لهما، ومرادٌ لهما، فيلزم وقوعه بهما وهو محال، وإن اختلفا، فإما أن يقع المرادان، أو لا يقع واحد منهما، أو يقع أحدهما دون الآخر، والكل محال، فثبت أنَّ الفسادَ لازمٌ على كل التقديرات[١].

فلا يجري أمرُ العالم إلا بآمر واحد، ومدبر واحد، ومقدر واحد جلَّ وعلا، وهي حقيقةٌ يدركها الإنسان بأدنى تفكير ونظر، قررها سبحانه في هذه الآية، وفي آيات أخرى، منها قوله تعالى في **سورة المؤمنون**: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ٢٢/ ١٥١.

وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾.

وقوله أيضاً في **سورة الإسراء**: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾.

وكما ختم تعالى تلك الآيات بتنزيهه عما يقولون ويشركون، ختم الآية أيضاً بتنزيهه وتقديسه فقال:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: يتنزه الله رب العرش العظيم عمّا لا يليقُ به من صفات النقص التي يصفه بها المشركون، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنزَّه عن الشريك والصاحبة والولد.

ومن كماله جَلَّ جَلَالُهُ أنه:

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ أي: لا يَعْتَرِضُ عليه أحد، لأنَّه لا كفءَ له سبحانه في أي صفة من صفات كماله وجلاله، فهو واحدٌ في ذاته، وواحد أيضاً في أفعاله وفي صفاته جَلَّ جَلَالُهُ، تقدَّست ذاته، وتسامت صفاته.

﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ لأنَّهم مملوكون مقهورون، فهم مسؤولون أمامه جلَّ وعلا وحده، فهو مالكهم ورازقهم ومدبر أمرهم.

فلا ينبغي لأحدٍ أن يعترضَ على الله جَلَّ جَلَالُهُ، ولا يسعنا إلا أن نستسلمَ ونذعنَ لأمره التكليفي والقدري، فلا يقال: لم خلق الله الكافرَ؟ وإنَّما يتوجَّه السؤال إلى الكافر: لِمَ كفرَ باللهِ تعالى، وكلُّ الدلائل العقلية والنقلية تدله على وجوده ووحدانيته جلَّ وعلا؟! وهو سبحانه حكيمٌ عليمٌ، لا يفعل شيئاً عبثاً ولعباً ـ كما مرَّ معنا ـ فله الحكمة التامة والحجة البالغة.

فإذا ما استبانت لك الحكمةُ، فاحمد الله تعالى على ما أعطاك وأولاك،

وإذا ما قصَّر عقلُكَ عن إدراك الحكمة، فالزم الأدب مع الله تعالى، واتَّهم عقلك بالقصور، وقل: الله يعلمُ وأنتم لا تعلمون.

• **دليل التوحيد النقلي:**

ثمَّ اتجهت الآيات إلى بيان دليل التوحيد النقلي السمعي بعد بيان الدليل العقلي، والتزمتِ الأسلوب السابق نفسه، أسلوب الإضراب والانتقال من دليل إلى دليل، مع الإنكار والتوبيخ، واستدعى المقام أن تضيفَ إليه هنا التحدِّي في إظهار دليل سمعي واحد يستندون إليه في شركهم وكفرهم:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِيۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ﴾ أي: كيف اتخذوا من دونه جلَّ وعلا آلهة مزعومة.

وأفاد تكرير صيغة ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ تأكيد حدوث الشرك، فهو أمر مفتعل حادث طارئ، لم يكن مصاحباً للوجود البشري على الأرض، فالتوحيدُ هو الأصل الثابت الذي يتفق مع صفاء الفطرة الإنسانية، والشرك دخيل طارئ.

وبعد الإنكار جاء التحدي:

﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ﴾ على ما تدعونه من شرك وكفر من جهة السمع والنقل، ففي أي كتاب أُنزل؟.

﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ أي: هذا القرآن الكريم الذي معي ليس فيه إلا الدعوة إلى توحيد الحق جَلَّ جَلَالُهُ.

﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِيۗ﴾ في التوراة والإنجيل وغيرها من الكتب المنزلة قبلي، هل في كتاب من هذه الكتب أنَّ الله تعالى أمر باتخاذ آلهةٍ سواه جلَّ وعلا؟!.

فلا يُعْقلُ أنْ يأمرَ الله تعالى بعبادة أحد سواه، فهو شرك وكفر لا يأمر الله تعالى به، ولا يرضاه، وقد نزَّه كتبه سبحانه عنه، كما نزَّه رسله وأنبياءه عنه في آيات كثيرة، منها قوله تعالى في **سورة آل عمران**: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

فالشرك بالله تعالى لا يدل عليه دليل عقلي ولا دليل نقلي، وليس له سند سوى الجهل والتعصب واتباع الهوى، ولهذا قال تعالى:

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ﴾، وجهلهم بالحق أدى بهم إلى الإعراض عنه: ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

• **كلمة التوحيد:**

ثم بينت الآيات وحدة الرسالات الإلـٰهية، وأنَّ جميع الأنبياء والمرسلين أجمعوا على كلمة التوحيد، ودعوا إليها:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

فكلمةُ التوحيد: «**لا إلٰه إلا الله**» هي دعوة جميع الأنبياء والمرسلين، وهي التي تدلُّ عليها الأدلة العقلية والنقلية، ولم يرسلِ اللهُ تعالى نبيّاً إلا بها، كما قرر سبحانه هنا وفي آيات كثيرة من آيات التنزيل الحكيم، إذ هي أعظم المبادئ التي أنزل الله تعالى القرآن من أجل تقريرها، وهي الأصل الأصيل الذي تدور في فلكه جميع آيات الكتاب الكريم، وتُبنى عليها جميع تعاليم الإسلام؛ قواعده وأصوله وفروعه.

وهي الكلمة التي تلتقي عندها جميع دعوات الأنبياء والمرسلين، وما من نبي إلا قال لقومه هذه الكلمة: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وهذا يؤكد أنَّ مصدر جميع الرسالات السماوية مصدرٌ واحد، وهو الوحي الإلـٰهي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء].

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر].

نادى بها **إبراهيم** عليه السلام، وحطَّم من أجلها أصنام قومه ـ كما سيأتي معنا ـ قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

ودعا إليها **يوسف** عليه السلام وهو في قعر السجن: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف].

وتكلم بها **عيسى** عليه السلام وهو في المهد فقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦].

وتوسَّل بها إلى الله تعالى **ذو النون** عليه السلام وهو في بطن الحوت كما سيأتي معنا عند قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وأمر بها **خاتم المرسلين** عليه وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام].

- **براءة الأنبياء مما نُسب إليهم:**

والأنبياء عليهم السلام بريئون من كل أنواع الشرك التي نسبها الكفار إلى بعضهم زوراً وكذباً، ولهذا اتجهت الآياتُ بعد أن بينت أنهم مجمعون على كلمة التوحيد إلى الشهادة ببراءتهم مما نُسب إليهم:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ أي: قال ذلك بعض المنتسبين إلى الأنبياء زوراً

وبهتاناً، فالآية مشنِّعةٌ على كل من نسب إليه سبحانه ذلك؛ كالنصارى القائلين: عيسى ابن الله، واليهود القائلين: عزير ابن الله، تعالى الله عمَّا يقولون علوّاً كبيراً[1].

وقد ذكر الله أقوالهم هذه في الآية الكريمة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

فهو مجرد قول قالوه بأفواههم، لا نصيب له من الصحة أبداً، فما أمرهم أنبياؤهم إلا بعبادة الله الواحد الأحد ـ كما مر معنا ـ ولهذا نزَّه سبحانه ذاته المقدسة عن هذا القول الباطل فقال:

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، ثم بيَّن حقيقة هؤلاء الذين ينسبونهم إلى الله تعالى بنسب البُنُوَّة فقال:

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ فهم ليسوا أبناءً لله تعالى، بل هم عباد له ﷻ، كرَّمهم فاختارهم للنبوة والرسالة.

وهم أكمل الخلق طاعة لله تعالى، وتذللاً له جلَّ وعلا، شهد لهم سبحانه بذلك فقال:

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي: لا يتقوَّلون على الله تعالى بشيء أبداً، فلا يقولون قولاً حتى يأذن لهم، أدباً معه ﷻ، فأقوالهم تبع لقوله سبحانه، وأعمالهم أيضاً تبع لأمره سبحانه:

﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ فلا يعملون إلا بما يأمرهم به سبحانه، فهم بقوله تعالى يقولون، وبأمره يعملون.

ووصْفُه سبحانه للأنبياء بكمال انقيادهم له قولاً وفعلاً صدر عن علمه المحيط بكل شؤونهم:

---

(١) روح المعاني: ١١/ ٣٢.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مما قدموا وأخّروا.

وإلى جانب كل ما تقدم من الصفات الكريمة التي يتصف بها الأنبياء عليهم السلام، فهم أكملُ الناس معرفة بالله تعالى، وأكثرُهم تعظيماً له، وخشية منه جل جلاله، يظهر ذلك منهم على وَجْهِ الخصوص يومَ القيامة عندما تتجه إليهم أبصارُ الناس، مستشفعين بهم إلى الله تعالى، فلا يشفعون إلا بعد أن يأذن الحقُّ لهم بالشفاعة:

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ أي: إلا لمن رضي عنه سبحانه، وأذن الرحمن لهم أن يشفعوا له، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون، وأصل **الخشية**: الخوف مع التعظيم، ولهذا خص الله عز وجل بها العلماء[1] في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

ولا شكَّ أنَّ الأنبياء عليهم السلام أعلمُ العلماء بالله تعالى وبكماله وجلاله، فهم أعظم الناس خشيةً منه جل جلاله، وفي الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: صنعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم شيئاً، فرخَّص فيه، فتنزَّه عنه قومٌ، فبلغَ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فخطبَ، فحمِدَ الله، ثم قالَ: «**ما بالُ أقوامٍ يتنزَّهون عن الشيءِ أصنعُه، فواللهِ إنِّي لأعلمُهم باللهِ، وأشدُّهم له خشيةً**» [رواه البخاري (٦١٠١)].

وفي مقابل كمال عبودية الأنبياء لله تعالى أظهرت الآيات عزَّ ربوبيته سبحانه بقوله:

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ أي: من الأنبياء عليهم السلام، على سبيل الافتراض.

---

(١) تفسير أبي السعود: ٦/ ٦٤.

﴿إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: يدَّعي لنفسه صفة الألوهية التي لا يتصف بها إلا الله ﷻ.

﴿فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾ أي: نجزي الذي يدعي هذه الدعوى جهنم كائناً من كان.

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: وبهذا الجزاء العظيم نجزي الظالمين، الذين يضعون طاعتهم وعبادتهم في غير موضعها.

وحاشا الأنبياء عليهم السلام أن يكونوا ظالمين، وهم أكثرُ الناس معرفةً بالله تعالى، وانقياداً لأمره، وإذعاناً لمشيئته ﷻ الذي قال: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء].

- **من أدلة التوحيد المحسوسة:**

وما إنْ فرغت الآياتُ من بيان أدلة التوحيد العقلية والسمعية، حتى شرعت تبيِّن بعضَ أدلة التوحيد المحسوسة المبثوثة في الكون:

﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾:

والرتق في اللغة: الضم والالتحام خلقةً كان أم صنعةً، ومنه الرتقاء: المرأة الملتحمةُ محلَّ الجِماع.

وقرأ الحسن وزيد بن علي وأبو حَيْوَة وعيسى: **(رَتَقاً)** بفتح التاء، وهو اسم المرتوق، والقياسُ أن يثنى ليطابِقَ الاسم، فقال الزمخشري: هو على تقدير موصوف؛ أي: كانتا شيئاً رتقاً[١].

(١) انظر: روح المعاني: ١٧/ ٣٤.

والفتق: الفصل بين الشيئين، فهو ضد الرتْق.

وللعلماء قولان في المعنى المراد من الآية:

القول الأول: أن السماواتِ كانت لا تمطِرُ، ففتقها اللهُ بالمطر، والأرض كانت رتقاً لا تنبتُ، ففتقها الله تعالى بالنبات، وهو المأثور عن ابن عباس.

فقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في «الحلية» من طريق عبد الله بن دينار، عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رجلاً أتاه فسأله عن الآية، فقال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرني، وكان ابنَ عبَّاس، فذهب إليه فسأله، فقال: نعم كانت السماوات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبِتُ، فلمَّا خلقَ الله تعالى للأرض أهلاً، فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات. فرجعَ الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآنَ علمتُ أنَّ ابنَ عبَّاسٍ قد أوتي في القرآن علماً، صدق ابن عبَّاس، هكذا كانت[1].

القول الثاني: ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي: كانت السماوات والأرض شيئاً واحداً ملتزقتين ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ أي: فصلنا بينهما، وهو قول أكثر المفسرين المعاصرين، وقد استدلوا به على إعجاز القرآن الكريم العلمي، لأنه يتفق مع النظرية السائدة عند العلماء، التي تقول: كان الكون كتلة واحدة، ثم حدث انفجارٌ كبير أدى إلى انفصال الأرض والشمس والنجوم عن بعضها.

ولكن يعترض على هذا القول بأنَّه لا ينسجم مع قوله تعالى في صدر الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ وسواء قلنا: المراد من الرؤية: رؤية البصر أو رؤية البصيرة، وهي العلم، فمتى رأى الكفار هذه الظاهرة الكونية التي حدثت قبل وجودهم بزمن بعيد؟!.

والقولُ الأول الذي ذهب إليه ابنُ عباس وابنُ عمر رضي الله عنهم أولى، فالآية توجِّهُ الأنظار إلى الظاهرة الكونية المشاهدة الدالة على وجود الله تعالى ورحمته ووحدانيته، وهي ظاهرةُ إنزالِ المطر من جهة السماء بقدرته تعالى، وإنبات

---

(١) روح المعاني: ١٧/ ٣٦.

النبات من الأرض بقدرته تعالى أيضاً، وهو أمرٌ مشاهد ملموس، خاضعٌ لنواميس إلٰهية دقيقة، تدل على عظمة مكونها ومدبرها ومبدعها ووحدانيته جلَّ وعلا.

ويؤكد أنَّه هو المعنى المراد قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾.

وجاء هذا المعنى موضحاً في آيات أخر من كتاب الله تعالى، كقوله ﷻ في سورة الطارق: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ لأنَّ المراد **بالرجع**: نزول المطر تارةً بعد أخرى، والمراد **بالصدع**: انشقاقُ الأرض عن النبات.

وكقوله تعالى أيضاً في **سورة عبس**: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾[(١)].

- **الماء والحياة:**

وأما قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ فمعناه: وأحيينا بالماءِ الذي ينزلُ من السماء كلَّ شيءٍ من الحيوان والنبات والشجر[(٢)].

فالماء سببُ وجود الحياة بتقدير الله تعالى، والآيات بهذا المعنى في القرآن كثيرة، منها قوله تعالى في **سورة الروم**: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ومنها قوله تعالى في **سورة الروم** أيضاً: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ يفيدُ العمومَ، وأريد به الخصوص، وله نظائر في القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ

---

(١) انظر: أضواء البيان: ٤/ ٥٦٤.

(٢) تفسير الخازن: ٤/ ٢٤٥.

وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] ولا شك أنَّه كان عند سليمان أشياء ما كانت موجودةً عندها.

وقوله أيضاً: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥] ولا شك أنَّه أُريدَ به الخصوص، لقوله سبحانه بعد ذلك: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وقد يكونُ المراد من قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ ماءً مخصوصاً هو ماء النطفة، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

وقوله أيضاً: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات].

وثَمَّةَ قولٌ آخر يذهب إليه كثير من العلماء المعاصرين، ذكره سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ في «الظلال» فقال: «فأمَّا شطرُ الآية الثاني: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ فيقرر كذلك حقيقةً خطيرةً، يعدُّ العلماءُ كشفَها وتقريرَها أمراً عظيماً، ويمجدون داروين لاهتدائه إليها، وتقريره أنَّ الماء هو مهد الحياة الأول؛ وهي حقيقةٌ تثيرُ الانتباه حقّاً، وإن كان ورودها في القرآن الكريم لا يثيرُ العَجَبَ في نفوسنا، ولا يزيدنا يقيناً بصدق هذا القرآن، فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق في كُلِّ ما يقرره من إيماننا أنَّه من عند الله، لا من موافقة النظريات أو الكشوفات العلمية له، وأقصى ما يقال هنا كذلك: إنَّ نظرية النشوء والارتقاء لداروين وجماعته لا تعارِضُ مفهوم النص القرآني في هذه الآية بالذات»[١].

وأرى أنَّ هذا قولٌ لا يخلو من مجازفة، ولا يتفق كما سبق مع صدر الآية ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فمهدُ الحياة الأول غيبٌ عن الإنسان، لا يعلمه إلا الله

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٧٦.

تعالى القائل: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

فالآية تتحدَّثُ عن ظواهر كونية مرئية محسوسة تدل على وجود مكونها ووحدانيته سبحانه، ولهذا ختمها سبحانه بقوله:

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أفلا يصدقون بأنَّ خالق هذه الظواهر الكونية واحدٌ أحدٌ، منزَّه عن الشريك والصاحبة والولد.

• **الجبال أوتاد الأرض:**

وتابعت الآيات لفت الأنظار والأفكار إلى الدلائل الكونية المحسوسة الدالة على عظمة خالقها ووحدانيته:

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالاً ثابتة.

﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: لئلا تميدَ بالناس، أي: تضطربَ ويختلَّ توازنها فيتعذَّرَ قرارهم عليها.

ومن الثابت علميّاً أنَّ للجبال دوراً في توازن الأرض وتثبيت قشرتها بتقدير الله تعالى، فهي للأرضِ كالأوتادِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧].

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ أي: جعل الله تعالى في الأرض أو في الجبال، طرقاً واسعة، ليتمكن الناسُ بواسطتها من الانتقال من مكان إلى مكان، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣].

﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى مقاصدهم ومصالحهم، أو لعلهم يهتدون إلى الاستدلال على التوحيد وكمال القدرة والحكمة[١].

---

(١) روح المعاني: ١٧/٣٨.

• السماء سقف الأرض:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ﴾ أي: جعلنا السماء بمثابة السقف للأرض، تحيطُ بها، وتعلوها من جميع جوانبها، وهي مرفوعةٌ محفوظة بتقدير الله تعالى عن السقوط، كما قال جلَّ وعلا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

وهي محفوظة أيضاً من الزوال إلى الأجل المسمى الذي قدره العليم الحكيم القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، وزوالها يكون عند قيام الساعة، عندما تنشقُّ بقدرته تعالى وتُطوى.

وهي محفوظةٌ أيضاً من أي خللٍ يطرأُ على نواميسها الدقيقة المحكمة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك].

وقال جَلَّ جَلَالُهُ أيضاً: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [قٓ: ٦].

﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي: وهم عن كل هذه الأدلة الواضحة معرضون عن التفكُّر في خالقها ومبدعها، وعن الإيمان بأنَّه حكيم عليم واحد أحد، منزَّه عن الشريك والولد، فرغم كثرة الأدلة الدالة على وحدانية الخالق وعظمته، ورغم وضوحها وظهورها، فإنَّ أكثر الناس لا ينتفعون بها، كما في قوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

• **الليل والنهار والشمس والقمر:**

الليل والنهار، والشمس والقمر، أقربُ الظواهر الكونية إلى حواس الإنسان، وأكثرُها اتصالاً بحياته ومعيشته، ولهذا ذُكِرتْ كثيراً في القرآن الكريم كأدلة واضحة على عظمة قدرة الله تعالى ووحدانيته:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَهُوَ﴾ الله سبحانه وحده.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ اللذين يتعاقبان بنظام محكم ثابتٍ دقيقٍ لا يتغير، يدل على وحدة مُبدعه ومُدبره.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ اللذين أيضاً يسيران بحسب نظام دقيق بديع ثابت، لا يلحقه أدنى خلل.

﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ مما يدل على دقة النظام وإحكامه وإتقانه، كما في قوله تعالى في **سورة يسٓ**: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

وقوله أيضاً في **سورة الأنعام**: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

• **ناموس الموت والحياة:**

وانتقلتِ الآياتُ من نواميس الأفلاك السابحة في الفضاء، إلى ناموس الموت والحياة المقدر على جميع الأحياء، فهو من أعظم الأدلة على وحدانية الله تعالى، لأنَّه وحده جلَّ وعلا الذي لا يموت، فكل مخلوق يعرف أنه سيموت، فالموت هو اليقين الذي تستيقن به الأحياء كلها، وهاهي الآيات الكريمة تخاطب صفوة الله تعالى من خلقه خاتم الأنبياء بقوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ أي: البقاء والدوام.

﴿أَفَإِيْن مِّتَّ﴾ كما مات من قبلك الأنبياء والمرسلون.

﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ أي: أفإن مت أنت أيبقى هؤلاء الكفار المشركون؟! كلا بل سيموتون كما مات من قبلهم، وسيموت أيضاً كل الذين يأتون من بعدهم، فلا نجاة لأحد من الموت، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر].

فلقد قهر الله جلَّ وعلا بالموت كل المخلوقات، وهو يدل على كماله جلَّ وعلا ووحدانيته، كما يدل على ضعف المخلوقات ومحدوديتها، وخضوعها لمشيئته سبحانه وقدرته.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ هكذا على الإطلاق، فـ (كل) إذا أضيفت إلى نكره تعم، ويدخل في هذا العموم نفوس الأنبياء والملائكة المقربين.

﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: مدركة حقيقة الموت وطعمه، لأنها ستصاب به.

والله ﷻ وحده الباقي الذي لا يموت، فهو المحيي والمميت، والمبدئ والمعيد، وهو الأول بلا بداية، والباقي أزلاً بلا نهاية، فهو وحده المتصف بالقدم والبقاء، كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وقال أيضاً: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن].

ولهذا فهو وحده الإله المستحق أن يُعبد ويُطاع، وأما غيره من المخلوقات الحادثات القابلة للموت والفناء، فلا تستحق أن تُعبد وتُطاع، وهو سبحانه وحده الذي ينبغي الاستعانة به والتوكل عليه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

ولا يخفى أن الآية ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ تشيرُ إلى عبودية الأنبياء والمرسلين لله تعالى الذي قدَّر عليهم الموت كما قدَّره على غيرهم من المخلوقات، وهو رد على الذين غلوا في أنبيائهم، حتى رفعوهم عن مقام عُبوديتهم لله تعالى إلى مقام الألوهية، كما أنَّه تهديد ووعيد لجميع الكفار والمشركين، لأنَّهم سيحاسبون، ويُسألون عن شركهم وكفرهم بعد الموت.

فالموتُ ليس هو النهاية، والحياة الدنيا بما فيها من خير وشر اختبار وابتلاء، تظهر نتائجه بعد الموت، ولهذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ﴾ أي: نختبركم تارة بالشر، وتارة بالخير، بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال.

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي: تُرجعون بعد الموت إلى قدرنا وقضائنا فنجازيكم على أعمالكم في الدنيا.



الفَصْلُ الثَّانِي

حَامِلُو كَلِمَةِ التَّوحِيدِ ورُوَّادُهَا

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ

يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ
لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا
بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾
فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا
هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ
لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ
فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ
﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ
الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا
وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي
رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ
الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ
فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا
لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ
يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ
أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ
عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ
﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ
فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ
﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُم
مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن
لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ

﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

- **تمهيد:**

وبعد أن فرغت الآيات الكريمات من الحديث عن كلمة التوحيد وأدلتها

شرعت بالحديث عن حَمَلة كلمة التوحيد وروَّادها، عن بعض الأنبياء والمرسلين الذين شرَّفهم الله تعالى بحملها إلى الناس.

وأبرزت الآياتُ في حديثها عن الأنبياء نقطتينِ هامَّتين يشتركُ جميعهم بالاتصاف بهما:

أولهما: حاجةُ الأنبياء وافتقارُهم إلى الله تعالى، مما يدل على عبوديتهم له سبحانه.

ثانيهما: عنايته سبحانه بهم، واستجابته لدعائهم، وكثرة رحماته وألطافه المحيطة بهم عليهم الصلاة والسلام.

- **الفاتح الخاتَم:**

بدأت الآياتُ حديثها عن الأنبياء بخاتمهم سيدنا محمد ﷺ، كما ختمته بالعودة إليه، والحديث عنه ـ عليه وعليهم الصلاة والسلام ـ فهو الفاتحُ الخاتم، وكلمةُ التوحيد التي حملها إلى جميع الناس، قدَّر الله تعالى أن تكون الكلمةَ الباقيةَ في الناس إلى قيام الساعة، فهو سيِّدُ الموحِّدين، وخاتم النبيِّين والمرسلين.

أنزل الله تعالى عليه سورة الأنبياء، وهو في مكة المكرمة، يواجه بكلمة التوحيد جهل المشركين وعنادهم، ولهذا بدأت الآياتُ حديثَها عنه ﷺ من موقف العناد والجهل الذي كان عليه المشركون، تثبيتاً له عليه الصلاة والسلام في مواجهتهم، وتخفيفاً لمعاناته وأحزانه:

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: ما ينظرونَ إليه إلا نظرةَ المهزوء به، ويقول بعضهُم لبعضٍ بلغةِ الإنكار والاستصغار:

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ بتقبيحها وعيبها وبيان عجزها وضعفها،

فهم يرون أنَّ هذا من الأمور التي تؤخذُ عليه، وينتقدُ بسببها، مع أنها من مناقبه وكمالاته.

﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ المتصف بكل صفات الكمال والجلال والإحسان.

﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: منكرون جاحدون لفضله سبحانه وإحسانه ووحدانيته، التي تدلُّ عليها الأدلةُ العلميةُ والسمعيةُ والمشاهدة المحسَّة، كما مرَّ معنا.

فهم إذن الذين ينبغي أن يُهزأ بهم ويُسخَرَ منهم، وجاء بالضمير الثاني ﴿هُمْ﴾ زيادة في تأكيد المعنى.

- **المستعجلون للعذاب:**

وكانوا بسبب عنادهم وشدَّة جهلهم واغترارهم بأنفسهم يستعجلون نزولَ العذاب بهم، وغابَ عنهم أنَّ تأخير العذاب عنهم رحمة من الله تعالى بهم ببركة النبي الكريم نبي الرحمة الذي أُرسل إليهم، فللعذابِ موعدٌ قدَّره العليم الحكيم، فلا ينبغي لهم استعجاله:

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي: خُلق الإنسان وهو مطبوع على الاستعجال، وقلة التأني والثبات، فكأنَّه مخلوق من نفس العَجَل، تنزيلاً لما طُبع عليه من الأخلاق منزلة ما طبع منه، والعرب تقول لمن يكثر منه الكرم: خُلق من الكرم[(١)].

ونظيره في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤]. فمعناه كما قال في **سورة النساء**: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

وكذلك قال تعالى في معنى ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١٠].

واستعجالهم الذي طبعوا عليه جعلهم يستعجلون العذاب، ولهذا قال الله تعالى:

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي وتفسير النسفي: ٤/ ٢٤٨.

﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ أي: سأريكم الدلائلَ الدالَّة على صدق آياتي، وهي آياتُ العذاب التي توعَّدهم الله تعالى بها.

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: فلا تستعجلوني بالإتيان بها، لأنَّ فيها هلاككم وعذابكم.

ولا يقال: كيف نهاهم عن الاستعجال وقد طُبِعوا عليه؟.

لأنا نقول: نعم جُبل الإنسان على العجل، ولكن في استطاعته أن يلزم نفسه بالتأني، كما أنه جُبل على الشهوات، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وفي استطاعته أن يلزم نفسه بالكفِّ عنها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات][(١)].

وثمَّةَ باعث آخر كان يبعثهم على استعجال العذاب، وهو تكذيب النبي ﷺ واستهزاؤهم به عليه الصلاة والسلام، دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وهو يوم القيامة، أو وقت نزول العذاب.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بأنه سيأتي ويتحقق.

وردَّ سبحانه عليهم ببيان صورةٍ من صور عذابهم يوم القيامة، فقال:

﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: لو يعلم الذين كفروا حين وقوع العذاب بهم، وإحاطة النار بهم، وعجزهم عن دفعها عن ظهورهم ووجوههم، وعدم وجود مَنْ ينصرهم؛ فظاعة

---

(١) انظر: أضواء البيان: ٤/ ٥٧٦.

وشَناعة وشدة العذاب الذي يستعجلون نزوله، لما استعجلوا نزوله واستخفوا به، فجهلهم بشدة العذاب هو الذي جعلهم يستعجلون به.

وحذف مفعول ﴿يَعۡلَمُ﴾ لدلالة الكلام عليه، كما حذف جواب ﴿لَوۡ﴾ للدلالة على أنه من المسلَّمات المفروغ منها التي لا حاجة للتصريح بها.

والشؤون منوطة بمشيئة الله تعالى لا بمشيئتهم، ولهذا يأتيهم العذاب فجأة دون سابق اقتراح منهم:

﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ۝٤٠﴾.

﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ﴾ أي: فجأة.

﴿فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾ أي: تُدهشهم وتحيرهم بوقعها الشديد المفاجئ وقوتها.

﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: فلا يقدرون على دفعها والتخلص منها.

﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ ولا هم يُمْهلون ويُؤَخرون كما أمهلوا في الدنيا.

- **مواساة وتثبيت وتحدٍّ:**

والتفتتِ الآياتُ إلى النبيِّ ﷺ تواسيه عما يلقى من عناد المشركين واستهزائهم، بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٤١﴾.

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ كما استهزأ بك المشركون.

﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: نزل وأحاط بالمستهزئين عقوبة استهزائهم، انتقم الله تعالى منهم، وكذلك سينتقمُ الله تعالى مِنْ هؤلاء الذين يستهزئون بك ويكفيك شرهم وكيدهم.

وقد فعل الله سبحانه ذلك، وانتقم منهم، وأنزل على نبيِّه الكريم قوله: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ [الحِجر: ٩٥].

وأمرتِ الآياتُ النبيَّ ﷺ في معرض مواساته وشدِّ أزره أن يقول للمشركين متحدياً لهم:

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِۗ﴾ أي: من يحفظكم من بأس الرحمن وعذابه في الليل والنهار، فأنتم معرَّضون لعذابه وانتقامه في أي وقت، ونبَّههم بالاسم الكريم ﴿الرَّحْمَٰنِۗ﴾ على أنَّه لا كالئَ لهم غير رحمته العامة، التي بسببها أنظرهم، وأمهلهم، وأخَّرَ العذابَ عنهم[(١)].

ثم بيَّن سبحانه أن المشركين لا يستحقون رحمته سبحانه، ولا يصلحون لها، لإعراضهم عن ذكره وعبادته، فقال:

﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

وكما هم عاجزون عن دفع عذاب الله تعالى عنهم، كذلك آلهتهم، فهي أعجز منهم:

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ أي: ألهم آلهة سوى الله تحميهم وتحفظهم من عذابه، وكيف تحفظهم وهي ضعيفةٌ عاجزةٌ لا تستطيعُ أن تحمي نفسها.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: لا يستطيعونَ حماية أنفسهم، بل يحتاجون إلى مَنْ يحميهم وينصرهم، كما قال سبحانه في سورة يسٓ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

وقال هنا:

﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي: ولا يصحبهم نصر من الله تعالى، فكيف ينصرون غيرهم؟! ففاقد الشيء لا يعطيه.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٤/ ٢٥٠.

وقد يكون المعنى: ليس لتلك الآلهة مجير يجيرهم منا، فالله سبحانه يجير ولا يجار عليه، كما قال ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

والعرب تقول: أنا جارٌ لك وصاحبٌ من فلانٍ، أنا مجيرٌ لكَ منه[1].

• **دفع التوهُّم:**

وقد يتوهَّم متوهِّم فيقول: ألا ترى إلى ما هم فيه من طول الأعمار وسعة الأرزاق، أليس هذا من حفظ آلهتهم ورزقها لهم؟.

ودفعاً لهذا التوهم الباطل، قال سبحانه:

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ فتمتُّعهم هم وآباؤهم بطول الأعمار وسعة الأرزاق، بمشيئتنا وتقديرنا وحدنا، وهو استدراجٌ من الله تعالى لهم وابتلاء واختبار، وقد مرَّ معنا أنَّ الابتلاء يكون بالخير وبالشر عند قوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فلا ينبغي الاغترار ببعض ما يتمتع به الكفار في الدنيا، قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران].

والمتأمِّل لأحوال الزمان وتقلُّباته وما يحدث في الأرض من أحداث وتقلبات تستبين له الحقيقة:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بتدمير قُراها، وإهلاك أهلها، بسبب تكذيبهم وإعراضهم عن طاعة ربهم.

قال ابن كثير رحمه الله: «وأحسن ما فُسِّر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ

(١) انظر: أضواء البيان: ٤/ ٥٨٠.

ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧] والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة؟»[1].

وقد مرَّ معنا في أول السورة قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾؟ وهم أضعف حالاً وأقل عدداً من الأمم التي أهلكها سبحانه قبلهم؛ فهم إذن مغلوبون لا غالبون.

وكأني أرى في الآية الكريمةِ إشارةً إلى كروية الأرض، فأيُّ مكانٍ من سطحها المكوَّر يعد طرفاً من أطرافها. والله تعالى أعلم.

● **الإنذار بالقرآن العظيم:**

ثم أمرت الآيات الكريمة النبي ﷺ مرةً ثانيةً أن يقول للمشركين:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ وهو القرآن العظيم، فمهمتي أن أنذركم به، وأحذِّركم من مخالفته، وليس من مهمتي أن آتيكم بما تقترحون من معجزات، وبهذا الإنذار أقيمُ حجةَ الله عليكم، وأقطعُ أعذاركم، ومهما تغافلتم عنه، وتصاممتم عن سماعه، فقد قامت به الحجة عليكم.

﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ أي: مهما بالغت في إنذاركم فالقوم سادرون في غيهم وضلالهم، لا يسمعون الإنذار، ولا ينتفعون به، مما يدل على شدة غفلتهم، فلا ينتبهون من غفلتهم إلا عندما ينزل العذاب بهم.

● **نفحة عذاب:**

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ أي: إن أصابهم شيء يسير قليل من

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٠٩.

عذاب الله تعالى الذي توعَّدهم به.

فالنفحةُ تدل على القلة، لأنها تفيدُ معنى المرة الواحدة، وأصل النفح هبوبُ رائحةِ الشيء، وكلمة **(المس)** تدل على القلة أيضاً.

قال القرطبيُّ رحمه الله: «النفحة في اللغة: الدفعةُ اليسيرةُ، والمعنى: ولئن مسهم أقل شيء من العذاب»(١).

﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: عندئذٍ ينتبهون من سكرتهم وغفلتهم، ويدعون على أنفسهم بالهلاك، معترفين بأنهم كانوا ظالمين، تماماً كما اعترف أهلُ القرى الظالمة التي قصمها الله تعالى قبلهم، كما مرّ معنا في أول السورة (الآية: ١١).

نفحة عذاب واحدة تجعلهم هكذا، فكيف يكون حالهم إذا أصابهم العذاب كله بعد أن يحاسبهم الله تعالى يوم القيامة على جميع ما صدر منهم من أقوال وأفعال بموازين عدله الدقيقة؟!..

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ أي: ذوات العدل، **ووضعها**: إحضارها.

﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: لأجل محاسبتهم يوم القيامة.

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ مهما كان قليلاً يسيراً.

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ حتى ولو كان مقداره مقدار حبة خردل، فحبة الخردل مثل للصِّغر.

﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي: أحضرناها للحساب والسؤال، فلا ينقص من إحسان

(١) تفسير القرطبي: ١١/ ٢٩٣.

محسن، ولا يزاد في إساءة مسيء، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]، فاللطيف الخبير هو الحكم العدل جلَّ وعلا.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ فلا مزيدَ على علمه سبحانه وعدله.

• **التوراة والقرآن:**

ولمَّا وصلت الآياتُ إلى هذا المستوى من الوعيد والتهديد للمشركين المستهزئين بخاتم النبيِّين عليه الصلاة والسلام، عادت للحديث عن حَمَلة كلمة التوحيد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فذكرت النبيَّيْنِ الكريمَيْنِ موسى وهارون، واقتصرت على التوراة وصفاتها التي تجمعُها بالقرآن الكريم إبرازاً لوحدة الرسالتين فيهما:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي: آتيناهما التوراة الكتاب الفارق بين الحق والباطل.

وتلتقي التوراة مع القرآن الكريم بهذه الصفة؛ قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقال أيضاً: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال أيضاً: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران] وهو القرآن.

﴿وَضِيَآءً﴾ أي: ونوراً يُستضاء به في ظلمات الحيرة والجهالة.

وكذلك القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ

تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: موعظة للمتقين، أو شرفاً وعزّاً للمتقين، والقرآن الكريم كذلك أيضاً، وقد مرّ معنا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: الذين يخافون من الله سبحانه ولم يَرَوْه، أو يخافون من الله تعالى في الخلوات بعيدين عن الناس.

﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون من يوم القيامة.

ولا يخفى ما في الآيات من تعريضٍ بالمشركين المعرضين عن القرآن الكريم، والمستعجلين ليوم القيامة، ولهذا انتقلت الآيات بعد ذلك من التعريض إلى التصريح تواجههم بالحقيقة:

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَهَٰذَا﴾ أي: القرآن الكريم.

﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُۚ﴾ كثير الخير، غزير النفع.

﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ جاحدون لبركاته، وغافلون عن آياته.

فالقرآن الكريم لا يُجْحَدُ ولا ينكر، لظهور إعجازه، وقوة دلائله، لا يجحده إلا المعاندون المكابرون، الذين انطمست بصائرهم، وتجمَّدت أحاسيسهم ومشاعرهم.

- **إمام الموحِّدين إبراهيم** عليه السلام:

ثم وقفت الآيات طويلاً عند إبراهيم عليه السلام، لأنَّ لدعوة التوحيد صلة كبيرة به عليه السلام، فجذورها متصلة به، ومنتهية إليه، فهو من أعظم المنادين بها في التاريخ

البشري القديم، ولهذا ارتبطت به دعوة التوحيد حتى غدا عليه السلام عَلَماً عليها، وإماماً بين الناس لها:

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي: ألهمه الله تعالى دلائل التوحيد منذ نعومة أظفاره.

وكان عليه السلام أهلاً لذلك، فما اصطفاه الله لهذه الدعوة، وبين له حججها وأدلتها منذ صغره إلا بعلمه وحكمته، ولهذا قال:

﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ والله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ أي: الأصنام، مفردها تمثال، وهو اسم للشيء المصنوع على صورة مخصوصة كصورة إنسان أو غيره.

﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ أي: مقيمون على عبادتها باستمرار.

وسؤاله عليه السلام لأبيه وقومه سؤالُ إنكارٍ، أنكر عليهم فيه عبادتهم للأصنام، وكثرة ملازمتهم لها، وأشار إليها محقِّراً لها، ومهوِّناً من شأنها.

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

فلا حجَّةَ لهم في عبادتها سوى تقليد آبائهم وأجدادهم!.

وهو جوابٌ يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد الميتة، في مقابل حرية الإيمان، وانطلاقه للنظر والتدبر، وتقويمه الأشياء بقيمتها الحقيقية لا التقليدية، فالإيمان بالله طلاقة وتحرر من القداسات الوهمية التقليدية، والوراثات المتحجرة التي لا تقوم على دليل[1].

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٨٥.

وفي مقابل تحجُّرهم وتقليدهم حَكَم عليه السلام عليهم وعلى آبائهم بالضلال وواجههم بحكمه عليهم بشجاعة وصراحة:

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: بيِّنٍ واضح ظاهر، فالحق لا يصيرُ باطلاً بكثرة المعرضين عنه، والباطل لا يصيرُ حقّاً بتوالي الأجيال عليه.

وفوجئ القوم بجرأة إبراهيم عليه السلام وشجاعته وصراحته، فما كانوا يتوقعون مثل هذه المواجهة الجريئة من أحد، فسألوه مستوضحين:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: الجد.

﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ أي: المازحين الهازلين.

والمعنى: أبِجدٍ تقول ما تقول، أم تقوله لاعباً مازحاً؟.

ولم يجد عليه السلام حاجة إلى الجواب عن استفسارهم، بل بادر إلى تعريفهم بالإلٰه الحقيقي الذي يجبُ عليهم أن يعبدوه، فمن خلال كلامه سيعرفون مدى جده وعزمه وحزمه:

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ فخالق السماوات والأرض من العدم هو ربكم شئتم أم أبيتم.

﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الذين يشهدون أن ربكم هو رب السماوات والأرض، فلا إلٰه غيره، ولا رب سواه جل جلاله.

وهم الذين ذكرهم سبحانه بقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وكلمات إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ تدل على ثقته الكبيرة العظيمة بكلمة التوحيد التي يدعو إليها، إنه واثق وثوق الذي يشهد على واقع لا شك فيه، مع أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يشهد خلق السماوات والأرض... ولكن الأمر من الوضوح والثبوت إلى حد يشهد المؤمنون عليه شهادة قائمة على العلم والمعرفة، فكل ما في الكون ينطق بوحدة الخالق المدبر[1] كما مرَّ معنا عند الحديث عن أدلة التوحيد.

• **تحطيم الأصنام:**

ثم أقسم عَلَيْهِ السَّلَامُ على أنه سيدبر مكيدة لأصنامهم، يبين لهم فيها عجزها وضعفها، وأنها لا تستحق أن تكون مؤلَّهة معبودة:

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ أي: والله لأبذلنَّ جهدي في كيد أصنامكم.

والتاء من حروف القسم، ولا تستعملُ إلا مع اسم (الله) الجليل.

﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ أي: بعد أن تذهبوا بعيداً عنها، وما كانوا يتركونها إلا في عيد لهم، يجتمعون فيه بعيداً عنها.

ويبدو أن قومه لم يحملوا تهديدَه على محمل الجد، إذ ما كانوا يتصورون أحداً يتجرأ على أصنامهم.

ولما جاء يوم عيدهم خرجوا، وتخلف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الخروج، واحتجَّ أنه سقيم، كما أخبر سبحانه عن ذلك في قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [الصافات].

قال ابن كثير: «إنَّما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه ذلك، ليقيمَ في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه قد أزف خروجُهم إلى عيدهم، فأحبَّ أن يختليَ بآلهتهم

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/٢٣٨٦.

ليكسرَها، فقال لهم كلاماً هو حقٌّ في نفس الأمر، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه»[١].

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي: جعل الأصنام قطعاً مكسرة محطمة.

﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أي: إلا أكبر الأصنام استبقاه، ووضع الفأس بجانبه.

﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لعلَّهم يرجعون إلى هذا الصنم، فيسألونه عن كاسرها، فيتبين لهم عجزه، وتقوم بذلك الحجة عليهم.

وعندما رجعوا إلى أصنامهم ووجدوها محطمة مكسرة:

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠﴾.

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا﴾ أي: قال الذين سمعوا إبراهيم يتوعد الأصنام:

﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أي: يعيبهم.

﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ذكروه بصيغة التجهيلِ، تقليلاً لشأنه عليه السلام.

- **المحاكمة:**

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١﴾.

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي: أحضروه ليحاكم أمام الناس.

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ العقوبة التي سيُحكم عليه بها.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/ ١٨٥.

فما فعله إبراهيمُ ﷺ عدوانٌ في نظرهم على مقدَّسات الأمة، ومن حقِّ كلِّ فردٍ منها أن يشهدَ محاكمته وعقوبته.

وبدأت المحاكمةُ، وشرع القضاةُ يستجْوِبون إبراهيم ﷺ:

﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾.

فهي لا تزال بنظرهم آلهة، مع أنها أصبحت جُذاذاً وحُطاماً.

وأجاب إبراهيم ﷺ على سؤالهم جواب المستهزئ الساخر منهم:

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

وأراد ﷺ بهذا استدراجهم إلى الإقرار بالظلم بعبادتهم لهذه الأصنام.

ونجح ﷺ بأسلوبه الساخر المتهكِّم أن يجعلَ القضاةَ يقرون على أنفسهم بالظلم، وأنَّهم أحقُّ أن يكونوا في قفص الاتهام بدل إبراهيم ﷺ، إذ لامست كلماتُهُ مواضعَ الوجدان في أعماق نفوسهم:

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ﴾ أي: بعضهم لبعض:

﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بعبادة هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع.

وجاء إقرارهم بصيغة مؤكدة مُصدَّرةً بـ ﴿إِنَّ﴾ ووضعوا ضمير الفصل ﴿أَنتُمُ﴾ ليزيدوا في تأكيده.

ولم تدم صحوتُهم هذه سوى فترة وجيزة، فسرعان ما رجعوا إلى ظلمهم وعنادهم حرصاً على رتبتهم ومراتبهم وشهواتهم.

ورحم الله سيد قطب عندما قال: «كانت بادرةَ خيرٍ أن يستشعروا ما في موقفهم من سُخْفٍ، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظُلْمٍ، وأن تتفتح بصيرتُهم لأول مرة، فيتدبروا ذلك السخفَ الذي يأخذون به أنفسهم، وذلك الظلمَ الذي

هم فيه سادرون، ولكنَّها لم تكن إلا ومضةً واحدةً أعقبها الظلام، وإلا خفقةً واحدةً عادت بعدها قلوبهم إلى الخمود»[(١)].

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥﴾.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: رجعوا إلى ما كانوا عليه من ظلم.

وأصل **النكس**: قلب الشيء بحيث يصيرُ أعلاه أسفله، وذكر الرأس للتصوير والتقبيح[(٢)].

شبَّه عودتهم إلى الباطل بصيرورةِ أسفل الشيء مستعلياً على أعلاه، وقُرِئَ: **(نُكِّسُوا)** بالتشديد، و**(نَكَسُوا)** أي: نكسوا أنفسهم[(٣)].

وقالوا لإبراهيم عليه السلام:

﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ وبهذا أقر القضاةُ بعجز أصنامهم، واتصافها بالنقص، مما يتنافى مع تأليهها وعبادتها، وهو ما كان إبراهيم عليه السلام يسعى إليه.

ولعلَّها أوَّلُ مرةٍ في التاريخ يقومُ المتهم باستجواب قضاته، ويأخذ منهم اعترافاً بظلمهم، وإقرارهم بخطئهم، مما يؤهله لإصدار الحكم عليهم.

أصبح إبراهيم عليه السلام هو القاضي والحاكم وهو في قفص الاتهام، وأصبح القضاةُ هم المتهمين المعترفين بالجريمة، وهم وراء منصة الحكم!.

وأصدر عليه السلام حكمه منكراً وموبِّخاً:

﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦﴾.

أي: كيف تعبدون شيئاً عاجزاً ضعيفاً لا يملك لكم نفعاً ولا ضرّاً؟!.

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٨٧.

(٢) روح المعاني: ١١/ ٦٦.

(٣) تفسير البيضاوي: ٤/ ٢٥٧.

ثم أعلن تضجره من عنادهم وإصرارهم على الباطل، وتمسكهم بالظلم، بسبب عبادتهم غير الله تعالى، فقال:

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أتضجَّرُ منكم ومن عبادتكم غير الله تعالى، وبهذا حقَّرهم، وحقَّر معبوداتهم.

وكلمة ﴿أُفٍّ﴾ تدل على صوت المتضجر يعلن بها تضجره وسآمته. وهي الكلمة التي نهى الله تعالى الولد أن يواجه بها أحد والديه، لأنها تدل على سوء أدبه معهما، فقال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قبحَ ما أنتم عليه من تأليه هذه الأحجار وعبادتها، أين عقولكم التي ميَّزكم الله تعالى بها على كثير من خلقه؟!.

• **الحكم والتنفيذ:**

عند ذلك أخذتِ القضاةَ الظلمةَ عزةُ الإثم، كما تأخذ الطغاةَ دائماً حين يفقدون الحجة، ويعوزهم الدليل، فيلجؤون إلى القوة الغاشمة[1]؛ يلجؤون إلى القمع والبطش والإرهاب:

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾ بالنار، ووجهوا كلامهم إلى الجموع المحتشدة ليصرفوهم عن التفكير في كلمات إبراهيم عليه السلام، خشية أن تلامس موضع الفطرة في أعماق نفوسهم.

ثم أثاروا غضبَ الجماهير على إبراهيم، فذكروهم بأصنامهم المحطمة:

﴿وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ فأمر إبراهيم وعقابه موكول إليكم.

وبهذا نجحوا في إلهاء الجماهير الغاضبة عن رؤية الحقيقة، وشغلوهم بالانتقام من إبراهيم.

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٨٧.

وتدافعتِ الجماهيرُ الثائرة الغاضبة إلى الانتقام، فجمعوا أكواماً كبيرة من الحطب، وأججوا ناراً هائلة، وبنوا في مكان مرتفع مشرف على النار بناءً، جعلوا في أعلاه منجنيقاً، ووضعوا إبراهيم فيه لإلقائه في النار بواسطته، كما أخبر سبحانه في **سورة الصافات**: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾.

- **حسبي الله ونعم الوكيل:**

ولم يتزعزع عليه السلام ولم يهتز، بل بقيَ رابطَ الجأش، ثابتَ القلب، ولم تؤثر فيه ألسنةُ النيران المتصاعدة في جوِّ السماء، ولا صرخاتُ الرعاع والعوام من حوله، كان عليه السلام يردِّدُ بقلبه ولسانه: حسبي الله ونعم الوكيل.

ففي «صحيح البخاري» [٤٥٦٣]: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما: «﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيمُ عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمَّدٌ ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]».

وألقي عليه السلام في النار وهو يردِّدُ هذه الكلمة، وجاءه الفرجُ من الله تعالى مباشرةً، قال ابن كثير: «وذكر بعضُ السلف أنَّه عرض له جبريل وهو في الهواء، فقال: ألكَ حاجةٌ؟ فقال: أمَّا إليك فلا، وأمَّا من الله فلي، ويروى عن ابن عباس قال: لما أُلقي إبراهيمُ جعلَ خازنُ المطرِ يقول: متى أُوْمَرُ بالمطر فأرسله، قال: فكان أمرُ اللهِ أسرعَ من أمره»[1].

وليس غريباً أن تسعى ملائكةُ السماء لنصرة إبراهيم عليه السلام، فقد سعت دوابُّ الأرض لمساعدته، ففي الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنَّ إبراهيمَ حين أُلقي في النارِ، لم تكنْ دابةٌ إلا تطفئُ عنه النارَ، غيرَ الوزغ كان ينفخُ على إبراهيمَ**» فأمر رسولُ اللهِ ﷺ بقتله. [رواه أحمد (٦/ ٨٣) والنَّسائي (٥/ ١٨٩) وابن ماجه (٣٢٣١)].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٥١٤.

• **نجاة إبراهيم ﷺ من النار:**

وأمر الله جلَّ وعلا النَّار بأمره الكوني القدري أن تكونَ برداً وسلاماً على إبراهيم:

﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: كوني ذات بردٍ وسلامٍ، أي: ابردي برداً غير ضار، ولذا قال علي كرَّم الله تعالى وجهه فيما أخرجه عنه أحمد وغيره: لو لم يقل: ﴿وَسَلَـٰمًا﴾ لقتله بردُها[١].

فالنارُ من خلق الله تعالى، مسخَّرةٌ لقدرته، منقادةٌ لأمره ومشيئته، وإرادتُه جلَّ وعلا تامةٌ، نافذةٌ في جميع المخلوقات.

وانقادت النار لأمره جلَّ وعلا ومشيئته، فلم تحرق إبراهيمَ ﷺ، مع أنها بقيت على ما كانت عليه ناراً، دل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

ونجا إبراهيم ﷺ من النار، وردَّ الله عنه كيد الكائدين، ومكر الماكرين:

﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: أخسر من كل خاسر، حيث عاد سعيُهم في إطفاء نور الحق قولاً وفعلاً، برهاناً قاطعاً على أنه ﷺ على الحق، وهم على الباطل، موجباً لارتفاع درجته ﷺ، واستحقاقهم لأشد العذاب[٢].

• **الهجرة إلى الأرض المباركة:**

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا﴾ وهو الإنسان الوحيدُ الذي آمن برسالة إبراهيم؛ كان من أبناء عمومته، وقيل: ابن أخيه.

---

(١) روح المعاني: ١١/ ٦٨.

(٢) المرجع السابق: ١١/ ٧٠.

وكانت نجاة إبراهيم ولوط عليهما السلام تطبيقاً عملياً للمبدأ الذي قرره سبحانه في أول السورة في قوله الكريم: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩].

﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ وهي أرض بلاد الشام.

هجر إبراهيمُ عليه السلام قومه ووطنه بعد أن رأى إصرارهم على شركهم وكفرهم، وكانوا في العراق، ولم تتعرَّضِ الآياتُ لبيان مصيرهم، واقتصرت على الحديث على الأنبياء عليهم السلام، ولابدَّ من أن سنته تعالى في إهلاك المكذبين المعاندين بعد رؤيتهم للمعجزات، قد شملتهم، وهي التي سبق ذكرها في قوله تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٦] كما مرَّ معنا.

وخرج عليه السلام مهاجراً إلى الله تعالى، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

وقوله جل جلاله أيضاً: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وكان عليه السلام أوَّلَ مهاجرٍ في سبيل الله تعالى مع لوطٍ عليه السلام، كما كان عثمان رضي الله عنه أولَ مهاجرٍ في سبيل الله تعالى في عهد الرسول ﷺ مع زوجته السيدة رُقَيَّة بنت رسول الله ﷺ؛ ففي الحديث الشريف: عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال بعد أن خرجَ عثمانُ مع زوجته مهاجراً إلى الحبشة: «**إنَّ عثمانَ أوَّلُ مَنْ هاجرَ بأهلِهِ بعدَ لوطٍ**» [أخرجه البيهقي والطبراني].

وفي هذه الآية الكريمة دليلٌ على أن الفرار بالدين من دار الكفر إلى بلد يتمكن فيه الفارُّ بدينه من إقامة دينه واجب، وهذا النوع من الهجرة وجوبه باقٍ بلا خلاف بين العلماء في ذلك(١).

- **فضل بلاد الشام:**

والأرض التي بارك الله تعالى فيها للعالمين، هي أرض بلاد الشام، بيَّن

---

(١) أضواء البيان: ٤/ ٥٩١.

ذلك سبحانه في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقوله أيضاً في الآية التي ستأتي معنا: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١].

وصفها سبحانه بالبركة العامة لأنَّ أكثر الأنبياء عليهم السلام بُعثوا فيها، وانتشرت في العالم شرائعهم منها، وهي أسبابٌ لكلِّ خير ديني ودنيوي، وقيل: المراد بالبركات النعم الدنيوية من الخصب وغيره، والأول أظهر وأنسب بحال الأنبياء عليهم السلام(١).

وفي السُّنَّة النبوية عددٌ من الأحاديث الشريفة في فضل بلاد الشام، حتَّى عقد الإمام المنذري رحمه الله في كتابه: «الترغيب والترهيب» فصلاً خاصّاً، جعل عنوانه: «الترغيب في سكنى الشام وما جاء في فضلها» ذكر فيه ثمانية عشر حديثاً، منها:

عن **عبد الله بن حَوالة** رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**سيصيرُ الأمرُ أَنْ تكونوا أجناداً مجنَّدةً، جندٌ بالشامِ، وجندٌ باليمن، وجندٌ بالعراقِ**» قال ابن حَوالة: خِرْ لي يا رسولَ اللهِ إنْ أدركتُ ذلك، فقال: «**عليك بالشام، فإنَّها خِيْرَةُ اللهِ مِنْ أرضِهِ، يجتبي إليها خِيْرَتَهُ مِنْ عبادِهِ، فأمَّا إنْ أبيتُم فعليكم بيمَنِكم، واسقوا مِنْ غُدُرِكُم، فإنَّ اللهَ توكَّلَ** - وفي روايةٍ: **تكفَّلَ** - **لي بالشامِ وأهله**» [رواه أبو داود (٢٤٨٣) وابن حبان (٧٣٠٦) والحاكم (٤/ ٥١٠)]. وقوله «**غُدُركم**»: جمع غدير.

وعن **زيد بن ثابت** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ يوماً ونحن عنده: «**طوبى للشامِ، إنَّ ملائكةَ الرحمنِ باسطةٌ أجنحتها عليه**» [رواه الترمذي (٣٩٥٤) وصححه ابن حبان (٧٣٠٤) والطبراني بإسناد صحيح].

وفلسطين هي أفضلُ أرض في بلاد الشام، لأنَّ فيها أولى القبلتين: المسجد الأقصى، ومسرى رسول الله ﷺ، وهي الأرض المقدَّسة التي ذكرها

(١) انظر: روح المعاني: ١١/ ٧٠.

سبحانه في قوله الكريم على لسان نبيِّه موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١].

وعندما جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام سأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رميةً بحجر، قال رسول الله ﷺ: «**فلو كنتُ ثَمَّ لأريتُكم قبرَهُ إلى جانبِ الطريقِ عندَ الكثيبِ الأحمرِ**» [رواه البخاري (١٣٣٩)] وهي أرض فلسطين.

• **إسحاق ويعقوب** عليهما السلام:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي: وهبنا لإبراهيم إسحاق وولد ولده يعقوب، زيادةً على ما سأل، وكان قد سأل الله تعالى أن يرزقه الولد، فوهبَ له سبحانه إسماعيلَ من هاجر، وهو الذبيحُ.

وقد قَصَّ الله تعالى قصته في سورة الصافات بقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

وعاش نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام حتَّى قرَّت عينهُ برؤية ولد ولده يعقوب عليه السلام.

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ أي: جعلنا المذكورين جميعاً؛ وهم: إبراهيم، ولوط، وإسحاق، ويعقوب، أهل خير وصلاح.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ يُقتدى بهم في الخير والصلاح.

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يدعون إلى عبادة الله الواحد الأحد بإذنه، فهم أنبياء مرسلون.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: أمرناهم بواسطة الوحي بفعل الخيرات ليكونوا القدوة الصالحة علماً وعملاً.

﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ وأمرناهم أيضاً بأداء الصلاة على الوجه المستقيم، وإعطاء الزكاة للمستحقين.

وعَطْفُ الصلاةِ والزكاةِ على فعل الخيراتِ من قبيلِ عطفِ الخاصِّ على العام، تنويهاً بشرف هاتين العبادتين، فهما رأسُ أفعال البر والخير.

﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ أي: كانوا مطيعين وخاضعين لله تعالى وحده.

وهي شهادة عالية رفيعة من الله تعالى، تدلُّ على براءتهم عليهم السلام من جميع افتراءات المفترين، وسهام المغرضين، المذكورة في الكتب التي يتداولها أهل الكتاب، والتي حاولوا بها تشويه سمعتهم عليهم الصلاة والسلام.

• **لوط** عليه السلام:

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَلُوطًا﴾ الذي آمنَ بدعوة إبراهيم ـ كما مرَّ معنا ـ وهاجر معه، اختاره الله تعالى واصطفاه للنبوة.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ يحكم به على الأمة التي أرسل إليها.

﴿وَعِلْمًا﴾ بالوحي الذي أنزله الله سبحانه عليه.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ وهي قرية (سدوم) وما حولها، وكان أهلُها يعملون الأعمالَ المنكرة الخبيثة، ومن هذه الأعمال الخبيثة: الشذوذ الجنسي بإتيان الذكور، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ

أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف].

نجَّاه الله تعالى منها مع من آمن بدعوته، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت].

وبسبب خبث قوم لوط وفجورهم وصفهم سبحانه بقوله:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ في كفرهم وفجورهم.

﴿فَٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة ربهم، وعن سنن الفطرة التي فطرَ الناسَ عليها بميل الرجال نحو النساء، لا ميل الرجال نحو الرجال.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ الخاصة التي جعلها سبحانه للمؤمنين الصالحين يوم القيامة.

﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في عقيدته وعبادته وسلوكه وخلقه. وكأنَّه سبحانه بهذه الشهادة الكريمة أرادَ أن يظهِرَ براءة نبي كريم من أنبيائه من تخرُّصات أهل الكتاب وافتراءاتهم عليه، وخاصة أحبار اليهود فيما دسوه في كتبهم.

• **نوح** عليه السلام:

ثم استأنفتِ الآياتُ مسيرتها التاريخية مع بعض الأنبياء من حملة كلمة التوحيد، بعد أن توقَّفت عند نبي الله إبراهيم، ومن يتصل به من الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، فمرَّت على أقدم الأنبياء المذكورين تاريخاً، وأطولهم عمراً، على نبي الله نوح عليه السلام، الذي ظلَّ يدعو قومه إلى كلمة التوحيد وعبادة الله تعالى وحدَه ألف سنة إلا خمسين عاماً، دون كلل ولا ملل، وهو في أثناء

ذلك يتحمَّل جفوتهم وخشونتهم ووقاحتهم وسوء أدبهم، ولما ازداد عناؤه وبلاؤه منهم توجَّه إلى الله تعالى ضارعاً مستنصراً:

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: اذكر نبيَّ الله نوحاً عندما دعا الله تعالى من قبل إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه، كما قال تعالى في **سورة القمر**: ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: نجيناه مع أهله المؤمنين من الغم الشديد الذي أصابه من عناد قومه وأذاهم.

والكرب: أقصى الغم، وهذا يدل أنه ﷺ بلغ الغاية في الشدة والمحنة، كما يدل على عبوديته لله تعالى، وافتقاره إلى معونته ونصره جلَّ وعلا:

﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: منعناه وحميناه منهم بإهلاكهم وإغراقهم، أو نصرناه عليهم[١].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ أي: غلب الشر والفساد عليهم، ولهذا أهلكهم الله تعالى، وهي سنته في الأمم الكافرة والمجتمعات الفاجرة.

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

- **داود وسليمان** عليهما السلام:

ثم ذكرت الآياتُ نبيّين كريمين من أنبياء بني إسرائيل، هما: داود وسليمان

---

(١) انظر: روح المعاني: ١١/ ٧٣.

عليهما السلام؛ جمع الله لهما النبوة والملك، وكانت أيامُهم أنضرَ الفترات التي عرفها تاريخ بني إسرائيل وأزهاها، ومع ذلك ما سَلِما من أكاذيب وافتراءات أحبارهم ورهبانهم.

أبرزت الآياتُ عنايته تعالى بهما، وأظهرتْ في الوقتِ نفسهِ شدة عبوديتهما له جلَّ وعلا، وافتقارهما إلى رحمته ومعونته، مع ما كانا فيه من سَعةِ الملك، وقوة السلطان والحكم، فهما مفتقران إلى الله تعالى في كل قضية تعرض لهما، ومثلت الآيات لهذا بقضية رُفعت إليهما في أثناء حكمهما:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨﴾.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ أي: اذكر داود وسليمان.

﴿إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾ أي: عندما رفعت إليهما قضية حكومة في زرع.

﴿إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ أي: رعته غنم قوم في الليل، وكانت بغير راعٍ.

فالنفش: رعيُ الماشية في الليل بغير راعٍ، كما أنَّ **الهمل**: رعيها في النهار كذلك، وأصلُ النفش: الانتشار والتفرق، أي: تفرقت وانتشرت(١).

﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾ أي: وكنا مراقبين لحكمهم، لا نقرهم على خلل فيه، وهذا على طريقة قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨] في إفادة العناية والحفظ(٢).

﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾.

﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ أي: علمناه وألهمناه حكم القضية، وهذا من فضله تعالى على عبده ونبيِّه سليمان عليه السلام، وهذه الخصوصيةُ التي خَصَّه الله سبحانه بها

---

(١) روح المعاني: ١١/ ٧٤.

(٢) المرجع السابق نفسه.

لا تدل على أنَّه أفضل من أبيه داود ﷺ، فالخصوصيةُ لا تقتضي الأفضلية، ولهذا قال تعالى يبيِّن فضله عليهما:

﴿وَكُلًّا﴾ يعني: داود وسليمان.

﴿ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ أي: أعطيناه علماً بوجوه الاجتهاد وطرق استنباط الأحكام.

ودلَّتِ الآيةُ على **أنَّ المجتهد إذا أخطأ لا يؤاخذ**، قال الحسن البصري رحمه الله: لولا هذه الآية: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ...﴾ فحمد سليمان، ولم يلم داود، ولولا ما ذكرَ الله من أمر هذين لرأيت أن القضاة هلكوا، فإنه أثنى على هذا بعلمه، وعذر هذا باجتهاده[1].

وهذا يدلُّ أيضاً على جواز الاجتهاد للأنبياء، ليقتدي بهم العلماء في الحوادث التي لا نصَّ فيها في الكتاب والسُّنَّة.

قال ابن حجر رحمه الله: «واستدل بهذه القصة على أنَّ للنبيِّ أن يجتهدَ في الأحكام، ولا ينتظر نزول الوحي، لأن داود ﷺ على ما وردَ اجتهد في المسألة المذكورة قطعاً، لأنَّه لو كان قضى فيها بالوحي، ما خَصَّ الله سليمان بفهمها دونه، وقد اختلف من أجاز للنبي أن يجتهد، هل يجوزُ عليه الخطأ في اجتهاده؟ فاستدل من أجاز ذلك بهذه القصة، وقد اتفق الفريقان على أنَّه لو أخطأ في اجتهاده لم يقر على الخطأ»[2].

وفي الحديث الشريف: عن **عمرو بن العاص** رضي الله عنه: أنَّه سَمِعَ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إذا حكمَ الحاكِمُ فاجتهدَ ثم أصابَ فله أجرانِ، وإذا حكمَ فاجتهدَ ثُمَّ أخطأ فله أَجْرٌ**» [رواه مسلم (١٧١٦)].

هكذا لفظ الحديث في «**صحيح مسلم**»: «**إذا حكمَ الحاكِمُ فاجتهدَ**» فبدأ بالحكم قبل الاجتهاد، والأمرُ بالعكس، فإنَّ الاجتهادَ مقدَّمٌ على الحكم، فلا

---

(١) فتح الباري: ١٣/١٤٦.

(٢) المرجع السابق: ١٣/١٤٧.

يجوز الحكمُ قبل الاجتهاد بالإجماع، وإنَّما معنى هذا الحديث: إذا أراد أن يحكمَ، كما قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ...﴾ [النحل: ٩٨] إنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالماً بالاجتهاد والسنن والقياس وقضاء مَنْ مضى، لأنَّ اجتهاده عبادةٌ، ولا يؤجَرُ على الخطأ، بل يوضعُ عنه الإثم فقط... قال ابن المنذر: إنما يؤجر على اجتهادِهِ في طلب الصواب، لا على الخطأ، مما يؤيده قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾[1].

ومهما قيل في الآية الكريمة، فإنها تدل على بشرية الرسل، وحاجتهم إلى معونة الله تعالى وهدايته ورحمته، وأنَّه سبحانه لا يتخلَّى عنهم أبداً، ولا يقرهم على ما يمكن أن يصدر عنهم بحكم بشريتهم، عليهم الصلاة والسلام.

● **تسبيح الجبال والطير:**

وتابعتِ الآياتُ تبيِّن فضله سبحانه على داود وسليمان، وبعض ما تفضَّل به عليهما من الخصائص والنعم، وبدأت بداود ﷺ، لأنه الوالد:

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ أي: وسخرنا الجبال والطير يُسَبِّحْنَ مع داود، وكان ﷺ جميلَ الصوت، فإذا ما سبَّح الله تعالى ومجَّده، رددتِ الجبالُ والطير معه تسبيحه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ].

ولما سمع النبيُّ ﷺ أبا موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ القرآن، وكان جميل الصوت، قال له: «**يا أبا موسى لقد أُوْتِيْتَ مزماراً من مزاميرِ آلِ داودَ**» [رواه البخاري (٥٠٤٨)].

والمراد **بالمزمار**: الصوتُ الحَسَنُ، وأصلُه الآلةُ، أطلق اسمه على الصوت للمشابهة. وقوله: «**آل داود**» يريدُ داود نفسه، لأنَّه لم ينقل أنَّ أحداً من أولادِ داودَ ولا من أقاربِهِ كان أعطي من حُسْنِ الصوت ما أعطي[2].

﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ للأنبياء مثل هذه الأعمال الخارقة لعادات الناس.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١١/ ٣١٠.

(٢) انظر: فتح الباري: ٩/ ٩٣.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي: علمناه صنعة الدروع التي تلبسونها.

﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أي: لتحميكم في أثناء حرب عدوكم، فلا يصلُ سلاحُه إلى أجسادكم، وقد جاء في سورة سبأ أنه تعالى ألان له الحديدَ، فكان الحديدُ طوع يديه، يجعله خيوطاً، ينسجها بعد ذلك دروعاً، قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ أي: فاشكروا الله على هذه النعم.

- **تسخير الريح والجن لسليمان عليه السلام:**

أما سليمان فقد مكَّن الله تعالى له في الأرض تمكيناً كبيراً، وسخَّر له كثيراً من مصادر القوة المادية فيها؛ منها الريحُ، قال تعالى:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض بلاد الشام.

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ فما أعطيناه وأنعمنا عليه إلا عن علم وحكمة.

والملاحَظُ أنَّه سبحانه وصفَ الريحَ هنا بأنها ريح عاصفة، بينما وصفها في سورة صٓ بأنها تجري رخاءً، فقال: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ فهل كان تسخير الريح لسليمان أنها تتحول بأمره من ريح عاصفة مدمرة إلى ريح رخيَّة طيبة، تبشِّرُ بقدوم الخيرات، ونزول البركات، وتدفعُ السفن الجاريات في أعماق البحار، وهذا من أعظم فوائد الرياح الرخيَّة، فقد قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦]؟[١].

---

(١) انظر: تفسير سورة النمل، وأطلق عليه هنا في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (المعجزة والإعجاز في سورة النمل).

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ أي: وسخَّرنا له من الشياطين من يغوصون له في أعماق البحار، ليستخرجوا له ما فيها من اللآلئ والدرر.

﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: وسخَّرهم سبحانه لسليمان ليعملوا له ما ذكر من بناء القصور، وتشييد القلاع والحصون، قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ].

﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ أي: مراقبين، فلا يزيغ أحد عن أمر سليمان، أو يتوانى في عمله.

• **أيوب** عليه السلام:

الابتلاء، كما مرَّ معنا، يكون بالخير والشر، وقد عرضت لنا الآيات الكريمة كيف ابتلى الله تعالى داود وسليمان بالخير، فشكرا الله تعالى على ما أعطاهما من القوة والسلطان والتمكين في الأرض، واستعملا النعمة في طاعته تعالى والتقرُّب إليه، وهاهي الآياتُ تعرض لنا نبيّاً كريماً ابتلاه سبحانه بالشرِّ، فصبر على ابتلاء الله تعالى، ورضي بما قدر عليه وقضى، فلم يسخط، ولم يعترض، ولجأ إليه سبحانه يسأله المعونة والثبات، ويشكو إليه ما أصابه من ضر في أهله وماله وبدنه:

﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: واذكر أيوب عندما دعا الله تعالى واصفاً نفسَه بالعجز والضعف والافتقار، مثنياً على ربه بغاية الفضل والإحسان، فكأنَّه قال: أنت يا ربي أهلٌ أن تَرحمَ، وأيوبُ أهلٌ أن يُرحَمَ، فارحمه واكشف عنه الضر الذي أصابه.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي: أجبنا دعاءه.

﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ﴾ في جسده، وذلك بأن يسَّر الله تعالى له سبيلاً للشفاء، فأمره أن يضربَ الأرض برجله، ففعل، فنبعت بإذن الله تعالى عينُ ماءٍ باردٍ، اغتسل به وشرب منه، فزال بإذنه تعالى كل داء كان به، كما قال تعالى في سورة صٓ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾.

ثم ردَّ سبحانه على أيوب أهله، وبارك له فيهم:

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ أي: رد الله على أيوب أهله، وبارك له فيهم، رحمةً من الله لأيوب عليه السلام، وتذكرةً لغيره من العابدين، ليكونوا مثله في الصبر على البلاء، والرضا بما قدَّر الله وقضى.

ثم أجملتِ الآياتُ ذكر بعض الأنبياء، واكتفت بوصفهم بصفتي الصبر والصلاح:

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: كلهم متصفون بصفة الصبر.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآۖ﴾ الخاصة بالمؤمنين.

﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: الكاملين في الصلاح.

ولا شك أن هاتين الخصلتين: الصبر والصلاح، تجمعان للمتصف بهما كل الفضائل الطيبة والأخلاق الحسنة.

• **صاحب الحوت يونس عليه السلام:**

وتوقفت الآياتُ قليلاً عند نبي الله ذي النون، أي: صاحب الحوت، وهو يونس بن متى عليه السلام، وكانت له قصةٌ عجيبةٌ، وخبرٌ مذهل معجز، مع حوت من حيتان البحر:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ أي: اذكر ذا النون عندما ترك قومه وهجرهم غضباً منهم، فقد أرسله الله تعالى إليهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فلم يستجيبوا له، فغضبَ منهم، وهجرهم قبل أن يأذن الله له بذلك.

قال ابن كثير رحمه الله: «هذه القصةُ مذكورة هاهنا وفي الصافات وفي سورة نٓ، وذلك أنَّ يونس بن متى عليه السلام بعثه الله إلى أهل نينوى، وهي قريةٌ في أرض الموصل، فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم... فركبَ مع قوم في سفينة، فلججت بهم، وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوها، فوقعت عليه أيضاً، ثم أعادوها، فوقعت عليه أيضاً، قال تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١] فقام يونس عليه السلام، فألقى نفسه في البحر، فالتقمه الحوت، وأوصى الله إليه ألا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً، فإنَّ يونس ليس لك رزقاً، قال تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ [الصافات: ١٤٢]»[(١)].

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ أي: ترك قومه وهو يظنُّ أنَّ الله تعالى لن يؤاخذه ويضيِّق عليه بسبب تركهم.

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢/٥١٨.

فمعنى (يَقْدِرُ) يضيِّق، كما في قوله تعالى في **سورة الإسراء**: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

وقوله أيضاً: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وقَدَر، وقُدِر، مثل: قَتَر وقُتِر، أي: ضَيَّق وضُيِّق. والقول بأنه من القدرة والاستطاعة، مردود مرغوب عنه، لأن المعنى يكون: فظن أن الله لا يقدر عليه، ومن ظن بالله هذا الظن يكفر، ولا يصدر مثل هذا عن نبي من الأنبياء أبداً.

ويمكن أن يكون المعنى: فظن أن لن نقضي عليه بعقوبة، من القَدَر الذي هو القضاء والحكم، وهذا يتفق مع قراءة: (نُقَدِّر).

وكان على يونس عليه السلام ألا يترك قومه ويهجرهم، حتى يأذن الله له بذلك، ولهذا فإن نبينا محمداً ﷺ لم يترك مكة مهاجراً إلى المدينة حتى أذن الله تعالى له بالهجرة، ومما أنزله سبحانه عليه وهو في مكة قوله الكريم: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [ن: ٤٨].

والجدير بالذكر هنا: أنَّ الله تعالى خَصَّ قوم يونس بخصوصية عظيمة، فبعد أن خرج يونس من بينهم مغاضباً، أرسل الله عليهم العذاب، ولما رأوا مقدماته تابوا وآمنوا، فقبل الله توبتهم، وكشف العذاب عنهم، كما قال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

ولعلَّ سبب هذه الخصوصية أنَّه سبحانه علم صدقهم في إيمانهم، وإخلاصهم في توبتهم، حتى إنَّهم لما رفع عنهم العذاب ثبتوا على إيمانهم، واستقاموا على التوبة، ولم يرجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر[١].

﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: نادى يونس عليه السلام ربه ودعاه بعد أن التقمه

---

(١) انظر: تفسير سورة يونس، وقد أسميناه في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس).

الحوت، وهو في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت، جعلت الظلمة الشديدة المتكاثفة كأنَّها ظلمات، أو المراد: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل(١). نادى بكلمة التوحيد، وهي:

﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ أي: لا معبود بحق إلا أنت.

﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي: أنزهك تنزيهاً لائقاً بكمالك وغناك ووحدانيتك.

﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لنفسي، عندما تركت قومي قبل أن تأذن لي.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ ببركة تسبيحه ومناجاته، كما قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصافات].

فسبحانَ الذي وسع سمعُه كلَّ شيء حتى سمعَ تسبيحَ ذي النون وهو في بطن الحوت، ورضي الله عن **السيدة عائشة** أم المؤمنين التي قالت: «الحمدُ للهِ الذي وسعَ سمعُه الأصواتَ، لقد جاءتِ المجادِلةُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ تكلِّمُه في جانبِ البيتِ، ما أسمع ما تقولُ، فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ الآية [المجادلة: ١]» [ذكره البخاري تعليقاً (١٣/ ٣٧٢)، ووصله أحمد (٦/ ٤٦) والنسائي (٨/ ١٦٨) وابن ماجه (١٨٨)].

﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ الذي كان فيه.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: كذلك نخلِّص المؤمنين من غمِّهم وهمِّهم إذا تابوا وأنابوا إلى الله تعالى، وتوجهوا إليه داعين مسبِّحين.

وفي الحديث الشريف: عن **سعد بن أبي وقاص** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**دعوةُ ذي النُّونِ إذ دعاهُ وهو في بطنِ الحوتِ: لا إلٰهَ إلا أنتَ سبحانكَ إنِّي كنتُ من الظالمينَ، فإنَّهُ لَمْ يَدْعُ بها رَجلٌ مُسْلِمٌ في شيءٍ قطُّ إلا استجابَ اللهُ لَهُ**» [رواه الترمذي (٣٥٠٥) والنسائي (١٠٤١٦) والحاكم (٢/ ٥٨٤)].

---

(١) روح المعاني: ١١/ ٨٤.

• **زكريا** عليه السلام:

وكان نبيُّ الله زكريا عليه السلام آخرَ الأنبياء الذين ذكرتهم الآيات، وأبرزت عند ذكرها له نداءه ربه، وهو يدعوه ويسأله:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ أي: اذكر زكريا عندما دعا الله قائلاً:

﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي: لا تتركني وحيداً بلا ولد يرثني.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي: أنت خيرُ حيٍّ يبقى بعد ميت، وهو ثناءٌ على الله بأنَّه الباقي بعد فناء الخلق، وأنَّه الوارث لهم، فكلهم يموتون إلا هو سبحانه، كما مرّ معنا عند قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقد فصَّل سبحانه دعاء زكريا في **سورة مريم**، فقال: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾[1].

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧].

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ أي: جعلناها صالحةً للولادة، وأزلنا أسباب العُقم

---

(١) انظر: تفسير سورة مريم، الذي جاء في هذا التفسير الموضوعي تحت عنوان: (التوحيد والتنزيه في سورة مريم).

منها، فقد كانت عقيماً لا تلد، كما مرَّ معنا في الآيات السابقة الذكر، وقوله بعد ذلك أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ [مريم: ٨].

● **رجاء وخوف:**

وبعد ذكر زكريا عليه السلام أثنى الله تعالى على جميع الأنبياء الذين سبق ذكرهم، فقال:

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي: يسرعون إلى فعل الطاعات والقربات التي تقرِّبهم إلى الله تعالى، فالأنبياء عليهم السلام دعاةُ خير وصلاح، فهم يعملون الخير، ويدعون الناس إليه، ولا يصلحُ أمرُ الناس إلا بالأنبياء، ومن يقتدي بهم من عباد الله الصالحين.

﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ أي: يلجؤون إلى الله تعالى وحده، ويفزعون إليه في حال الرخاء وحال الشدة، وهذا يدل على كمال عبوديتهم لله تعالى، فهم مفتقرون إليه في جميع أحوالهم، فلا غنى لإنسان عن الله تعالى، فهو محتاج إليه مهما كان قويّاً متمكناً، وعليه أن يذكره ويدعوه في حال الرخاء والقوة كما يلجأ إليه ويدعوه في حال الشدة، وهذا حال الأنبياء عليهم السلام، وهم الأسوةُ الطيبة لجميع الناس.

ومن وصايا النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما قوله: «**تعرَّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة**» [رواه أحمد (١/ ٢٩٣) والترمذي (٢٥١٦)].

وقد يكون المعنى: يدعوننا وقت تعبُّدهم، وهم بحال رغبة ورجاء، ورهبة وخوف، لأنَّ الرغبة والرهبة تتلازمان[1].

وهو أمر واجبٌ على كل مؤمن، بأن يكون بين حال الخوف من الله تعالى، فلا يأمنُ عذابه، وبين حال الرجاء في رحمته تعالى، فلا ييئس من رحمته ومغفرته سبحانه، كما قال سبحانه: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

وقال أيضاً بعد ذلك: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ

---

(١) تفسير القرطبي: ١١/ ٣٢٦.

إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر].

﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أي: متواضعين لجلال الله تعالى خائفين منه.

وهذا يدلُّ على أنَّ حال التعظيم لله تعالى والخوف منه يغلب على قلوب الأنبياء عليهم السلام، لأنَّ **الخشوع**: هو الخوف اللازم للقلب، فيكون الخاشع هو الحَذِرُ، الذي لا ينبسط في الأمور خوفاً من الوقوع في الإثم(١).

وبهذا أثنى الله تعالى على الأنبياء بأعلى ما يمدَحُ به الإنسان، وهي صفةُ المسارعةِ إلى الخيرات، التي تدلُّ على حرصهم الكبير على طاعة الله تعالى، والوصول إلى رضوانه، دون عُجْبٍ أو غرورٍ، يصابُ به كثيرٌ من العبادِ، بل مع فزع مِنَ الله تعالى ورغبة في رحمته، وقلوب خاشعة لجلاله.

● **مريم وابنها عيسى عليهما السلام:**

قدَّر سبحانه وتعالى أن يكون جميع المرسلين رجالاً، لا نساءً، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]؛ إذ يترتب على حمل الرسالة تحمل أعباء ثقيلة، لا يستطيع النساء القيام بها.

أما النبوة فيمكن أن يكرمَ الله تعالى بها الكاملات من النساء كالسيدة مريم، عليها وعلى ولدها السلام، وقد يستأنس لهذا بأنه سبحانه ذكر السيدة مريم هنا في سورة الأنبياء في سياق من ذكر من الأنبياء عليهم السلام.

قال العلَّامة الآلوسي رحمه الله: «واستُدِلَّ بذكر مريم عليها السلام مع الأنبياء في هذه السورة على أنَّها كانت نبيَّة، إذ قُرنت معهم بذكر، إلا أن يقال: إنَّما ذُكرت لأجل ولدها عيسى عليه السلام»(٢).

وقد وصفها سبحانه بأنها صديقة، في قوله الكريم: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

---

(١) تفسير الخازن: ٤/ ٢٧٧.

(٢) روح المعاني: ١١/ ٨٩.

إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: ٧٥].

وشهد لها سبحانه هنا بالعفة والطهر، فقال:

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: اذكر مريم التي صانت نفسها، وحفظت عِرضها، وأحصنت فرجها إحصاناً كلياً من الحلال والحرام جميعاً، كما حكى سبحانه من قولها: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠][١].

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أي: أجرينا فيها روح المسيح، أو أمرنا جبريل فنفخ في جيب درعها، فأحدثنا بذلك النفخ عيسى في بطنها، وإضافة الروح إليه تعالى لتشريف عيسى عليه السلام[٢].

أو لكوْن الروح من أمره تعالى، فلا يعلمُ حقيقتها إلا هو جلَّ وعلا القائل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

والجدير بالذكر هنا أنَّه تعالى نسبَ روح آدم أيضاً إلى ذاته القدسية فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر].

قال السهيلي رحمه الله: فلا يذهبنَّ وهمُكَ إلى غير هذا، فإنه من لطيف الكناية، لأنَّ القرآن أنزه معنى، وأوزن لفظاً، وألطف إشارةً، وأحسن عبارة من أن يريد ما يذهب إليه وهم الجاهل، لا سيما والنفخ من روح القدس بأمر القدوس، فأضف القدس إلى القدوس، ونزِّه المقدسة المطهرة عن الظن الكاذب[٣].

---

(١) انظر: مجموعة التفاسير (الخازن والنسفي والبيضاوي): ٤/ ٢٧٧.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٢٧٧.

(٣) تفسير القرطبي: ١١/ ٣٣٨.

وبهذا أصبحت مريم وولدها آية معجزة دالة على كمال قدرته تعالى وتمام مشيئته.

﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: وجعلنا شأنها وشأن ولدها وأمرهما آية للعالمين، ولم يقل سبحانه (آيتين) لأن الآية فيهما واحدة.

• **أمة التوحيد:**

وجاء ذكر (**العالمين**) تمهيداً لتوجيه الخطاب إليهم بقوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ أي: إنَّ كلمة التوحيد التي دعا إليها جميعُ الأنبياء هي ملتكم ودينكم، والخطاب للناس قاطبة، والإشارة إلى كلمة التوحيد، واكتفى بالإشارة عن التصريح لبروزها وظهورها من خلال ما تقدَّمَ من آيات السورة.

والأمةُ في الأصل: القومُ يجتمعون على دينٍ واحدٍ، ثم اتُّسع فيها حتى أطلقت على نفس الدين، والأشهر أنَّها الناس المجتمعون على أمر ومقصد واحد، وإطلاقها على نفس الدين مجاز[١].

والجملة خبريةٌ أريد بها الأمر والإنشاء، والمعنى: أنَّ ملة التوحيد أو الإسلام ملتكم التي يجب عليكم أن تحافظوا عليها.

فجمهور المفسرين ذهبوا إلى أنَّ المراد بـ (**الأمة**) هنا الملة والدين، ولا مانع من حملها على معناها الأصلي، وأن المراد منها الناس المتمسكون بملَّة التوحيد، ويكون المعنى المراد من الآية: تقرير وحدة المتمسكين بملة التوحيد، ولو اختلفت أجناسُهم وأزمانُهم، وما الأنبياء الذين سبق ذكرهم إلا رواد هذه الأمة الواحدة. وسياق الآيات أكثر انسجاماً مع المعنى الثاني.

﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قُرئت بالنصب على الحال، أي: في حال اجتماعها على

---

(١) انظر: روح المعاني: ١١/ ٨٩.

الحق، كما يقول: فلان صديقي عفيفاً، أي: ما دام عفيفاً، فإذا خالف العِفَّة لم يكن صديقي[١].

وقُرئت بالرفع، بدل من ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ أو خبر ثان لها.

فكل من يتمسَّك بكلمة التوحيد يعدُّ فرداً من أفراد الأمة وجزءاً منها، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي: اعبدوني وحدي، وأطيعوني وحدي، فلا ربَّ لكم غيري، فربكم واحد، ودينكم واحد، وبهذا قررت الآية بكلام رب العالمين أعظمَ رابطةٍ تربطُ بين العالمين، وقد أنزل الله تعالى سائر الكتب في شأنها، وبعث جميع الأنبياء دعاة إليها.

• **اختلاف الناس:**

ومع ذلك اختلف الناسُ، وأخبرَ سبحانه عن اختلافهم، فقال:

﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ﴾ أي: جعلوا أمرَ دينهم بينهم قطعاً.

والآية تلقي في النفسِ الشعورَ بالأسف والإحباط، بسبب ما أحدثوا بينهم من تقطع واختلاف، ولهذا التفتتْ إلى الغيبةِ لتنعى عليهم ما أفسدوه من التفرق في الدين؛ وجعل أمره قِطَعاً موزعة، وتنهي قبائح أفعالهم إلى الآخرين، كأنه قيل: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله الذي أجمعت عليه الأنبياء عليهم السلام كافة[٢].

فالتوحيد هو الأصل الذي كان الناسُ عليه، والشرك طارئ عليهم، وهو الذي جعل الناسَ ينقسمون ويختلفون، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ

---

(١) تفسير القرطبي: ١١/ ٣٣٩.

(٢) تفسير أبي السعود: ٦/ ٨٤.

ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال سبحانه في **سورة مريم** بعد أن بيَّن حقيقة عيسى ودعوته للتوحيد: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

وقال أيضاً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون].

ثم قررت الآياتُ مسؤوليتهم عما أحدثوه من تقطيع في دينهم عندما يرجعون يوم القيامة إلى الله تعالى للحساب والجزاء بقوله سبحانه:

﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ أي: كل فرقة من هذه الفرق المتقطعة المختلفة راجعون إلينا وإلى حكمنا ومشيئتنا، فنسألهم ونجازيهم:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَـٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بما يجبُ الإيمانُ به من توحيدِ الله تعالى وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد، وصدَّق الرسلَ الذين أرسلهم الله تعالى بدعوة التوحيد.

وهذا الإيمانُ شرط أساسٌ لقبول العمل الصالح، فلا يقبل الله من كافر أي عمل صالح مهما كان عمله.

﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي: فلا يُجحَدُ سعيُه ولا يُرَدُّ عملُه، بل يُشكر ويُثاب عليه.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَـٰتِبُونَ﴾ أي: وإنَّا لسعيه وعملِه حافظون، لا نضيع منه شيئاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار].

• **بطلان مزاعم التناسخ والتقمُّص:**

والمسؤولية والجزاء في الحياة الثانية يوم القيامة، بينما السعي والعمل في الحياة الدنيا التي تنتهي بالموت، فإذا ماتَ الإنسانُ انقطع سعيه، وانتهى عمله، ولا عودةَ له إلى الدنيا مرةً ثانيةً، هكذا قدَّر الحق سبحانه، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يخرقَ أسوار ما قدَّر جلَّ وعلا، ويخالفَ هذا الناموس الكوني القدري، وقد أخبر سبحانه عن هذا الناموس الكوني في آياتٍ كثيرةٍ لكي يبادرَ الناسُ إلى العمل بطاعته قبل أن ينزلَ بهم الموت، فلن تتاح لهم الفرصة مرة ثانية، منها قوله تعالى هنا:

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

أي: وحرام على أهل قرية أهلكناهم أن يرجعوا إلى الحياة بعد إهلاكهم وموتهم، فلا رجوعَ إلى الحياة بعدَ الموت بأي شكل من الأشكال.

وهذا يدل دلالة قطعية على بطلان مزاعم كثير من الفرق الضالة بتناسخ الأرواح وتقمُّصها، ورجوعها إلى الحياة بعد مفارقتها لأجسادها بالموت بواسطة تقمُّصها لأجساد أخرى، هذه أقوال فاسدة باطلة تصادم دلالة النصوص القرآنية الكثيرة، فلا عودة إلى الحياة الدنيا بعد الموت أبداً.

وكلمة **(حرام)** تدل على المنع القطعي المطلق، وتؤكده القراءة الثانية **(إنهم لا يرجعون)**، كما تؤكده آيات كثيرة في سور أخر، منها قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون].

وحتى الأجل المقدر لموت كل إنسان لا يغير ولا يؤخر أبداً: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون].

• **يأجوج ومأجوج:**

والبرزخ الفاصل بين الدنيا والآخرة يبدأ بالموت وينتهي بالبعث والنشور يوم القيامة، وقد جعل الله تعالى لهذا اليوم علامات ومقدمات تدل على اقترابه، من أعظمها غلبةُ المفسدين، وظهورُ المشركين في الأرض، وضعفُ سلطان الموحدين، قال سبحانه:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ أي: حتى إذ قدَّر الله تعالى ظهورَ يأجوج ومأجوج في الأرض، وغلبتهم عليها، وتمكنهم منها.

فالفتح هنا: معناه الظهورُ والتمكُّنُ والغلبةُ، كما في قوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

وقوله أيضاً: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١][١].

﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ أي: وهم يسرعون في المشي إلى الفساد، وتخريبِ البلاد، وقتلِ العباد، **والحدب**: المرتفع من الأرض.

وهذا يدلُّ على كثرتهم، وقد دلَّت على ذلك أيضاً الأحاديث النبوية الشريفة، وفيها: أنَّهم يظهرون في آخر الزمان بعد نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض، وقتلِه الدجالَ، ففي حديث **النواس بن سمعان** رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ بعد أن وصفَ الدجالَ، ونزولَ عيسى عليه السلام إلى الأرض، وقتله الدجال قال: «... **ثم يأتي عيسى ابنَ مريمَ قومٌ، قد عصمَهم الله منه** (أي: من الدجال) **فيمسَحُ عن وجوهِهم، ويحدِّثهم بدرجاتهم في الجنَّة، فبينما هم كذلك، إذْ أوحى الله إلى عيسى: إنِّي قد أَخْرَجْتُ عباداً لي، لا يَدَانِ** (لا قدرة) **لأحدٍ بقتالهم، فَحَرِّزْ عبادي إلى الطُّوْرِ.**

---

(١) انظر: تفسير سورة الكهف، المسمى في تفسيرنا الموضوعي هذا: (العواصم من الفتن في سورة الكهف).

ويبعَثُ الله يأجوجَ ومأجوجَ، وهم مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أوائلُهم على بحيرةِ طبرية، فيشربونَ ما فيها، ويمرُّ آخرُهُم فيقولونَ: لقد كانَ بهذه مرةً ماءٌ، ويُحْصَر نبيُّ الله عيسى وأصحابُه، حتَّى يكونَ رأسُ الثورِ لأحدِهِم خيراً من مئةِ دينارٍ لأحَدِكُم اليومَ، فيرغَبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابُه (أي: إلى الله) فيرسل الله عليهم النَّغَفَ في رقابهم (دود يصيب البهائم) فيصبحون فَرْسَى (قتلى)، كموتِ نفسٍ واحدةٍ، ثم يهبطُ نبيُّ الله عيسى وأصحابُه إلى الأرض، فلا يجدونَ في الأرضِ موضعَ شبرٍ إلا ملأه زهمُهم ونتْنُهُم، فيرغبُ نبيُّ الله وأصحابُه إلى اللهِ، فيرسِلُ اللهُ طيراً كأعناقِ البُختِ، فتحملُهم فتطرحُهم حيثُ شاءَ اللهُ، ثم يرسِلُ اللهُ مطراً، لا يَكُنُّ منه بيتُ مَدَرٍ ولا وبَرٍ، فيغسلُ الأرضَ حتى يتركها كالزَّلفَةِ (المرآة).

ثم يقالُ للأرضِ: أنبتي ثمرتكِ، وردِّي بركتَكِ، فيومئذٍ تأكُلُ العصابةُ من الرمَّانةِ، ويستظلُّون بقحفها (قشرها) ويُبارَكُ في الرِّسْل (اللبن) حتى إنَّ اللِّقحةَ (الحلوبة) من الإبلِ لتكفي الفئامَ (الجماعة الكثيرة) من الناس.

فبينما هم كذلك إذ بعثَ اللهُ ريحاً طيبةً، فتأخذُهم تحت آباطهم، فتقبِضُ روحَ كُلِّ مؤمنٍ وكلِّ مسلمٍ، ويبقى شرارُ الناس، يتهارجون (يزني بعضهم ببعض) فيها تهارجَ الحُمُرِ، فعليهم تقومُ الساعة» [رواه مسلم (٢٩٣٧)].

● **الوعد الحق:**

﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾.

﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: اقترب يوم القيامة، فهو الوعد الثابت الذي لا شك في وقوعه، والذي ذكره سبحانه في أول آيات السورة عندما قال: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: فإذا هي بارزةٌ ساكنةٌ أبصارُ الذين كفروا، لا تكاد تتحرَّك أو تطرُفُ، من شدة الفزع والهول في ذلك اليوم.

ويقولون:

﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ أي: الويل والهلاك لنا، أو يا حسرتنا.

﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي: كنا في الدنيا غافلين عن هذا اليوم.

﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بوضعنا العبادة والطاعة في غير موضعها.

وهي الكلمة نفسها التي نطقوا بها عندما نزل بهم العذاب في الدنيا، الذي سبق ذكره في أوائل السورة: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾. فتأمل الانسجام والاتساق بين أول السورة وآخرها.

وما إن تنتهي الآيات من تقرير اقتراب يوم القيامة، حتى تفاجِئَ المشركين بتقرير أمر آخر، أكثر هولاً وأشد فزعاً:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: إنكم ومعبوداتكم من الأصنام والأوثان التي تعبدونها من دون الله، وقود جهنم، **فالحصب**: كُلُّ ما يُرمى في النار لزيادة لهبها واشتعالها، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ أي: داخلون.

ولا يخفى ما في الخطاب للكافرين من تقرير وتأكيد مع الجزم والحزم.

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ أي: لو كان هؤلاء الذين تعبدونهم آلهة ما دخلوا النار، فالمؤاخَذُ المعذَّب لا يكون إلٰهاً معبوداً.

﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: وكل من العابدين والمعبودين خالدون في النار، ماكثون فيها أبداً.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي: لهم في جهنَّم تنفُّسٌ شديدٌ عسير بسبب شدة حرها، **والزفير**: صوت نفس المغموم، ومعناه في الأصل إخراج النفس الطويل بعد حبسه في الرئتين، وضِدُّه الشهيق، وهو يدل على شدة الغم والضيق، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦].

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يسمع بعضُهم زفيرَ بعض لشدة الهول، وفظاعة العذاب، أولا يسمعون شيئاً يسرهم.

- **السابقة الحسنى:**

وقد عودنا ربنا في كتابه العزيز أنَّه كلَّما ذكر صورة من صور العذاب في جهنم، ذكر في مقابله صورةً من صور رحمته وفضله في الجنة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي: إن الذين وعدهم الله تعالى أن يرحمهم ويكرمهم بدخول الجنة، بسبب إيمانهم به جلَّ وعلا، وانقيادهم لأمره، واتباعهم لرسله.

﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أي: أولئك عن جهنم مبعدون بفضله سبحانه ورحمته، فهم أصحابُ السابقة الحسنة، أسأله سبحانه أن يجعلنا منهم.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: لا يقربونها حتى لا يسمعوا صوتها وأصواتَ المعذَّبين فيها، فلجهنم صوتٌ شديد مزعج مخيف، دل عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ أي: وهم مقيمون إقامة دائمة في

الجنة، يتمتعون بكل ما تشتهيه أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

• **الفزع الأكبر:**

> ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ وفي قراءة: **(لا يُحْزِنُهم)** وهو يدل على نجاتهم من كل الأفزاع والأهوال الكائنة يوم القيامة، فمن نجا من الفزع الأكبر نجا من غيره من الأفزاع.

وثمَّةَ أفزاع وأهوال كثيرة، **فأيها هو الفزع الأكبر؟**:

أهو فزع البعثِ من القبور وهولِ المطلع الذي وصفه سبحانه بقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ [النازعات].

وقوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج]؟.

أم عندما **يُساقون إلى أرض المحشر**: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

ويحشر المجرمون على وجوههم: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]؟.

أم عندما **تُعرض عليهم جهنم**، ويرون ما فيها من أنواع النكال والعذاب: ﴿وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣]؟.

أم عند **تطاير صحف الأعمال** ونشرها وتوزيعها، فلا يدري الإنسان أيُعطى كتابه بيمينه أم بشماله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق]؟.

أم عندما **توضع الموازين القسط**، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ

ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]؟.

أم عند **الوقوف بين يدي الملك الجبار** للسؤال والحساب، كما في قول النبي ﷺ: «**ثُمَّ ليقفَنَّ أحدُكُم بين يدي الله، ليسَ بينَه وبينَه حجابٌ ولا تَرْجمان يترجِمُ له، ثم ليقولنَّ له: ألم أوتِكَ مالاً؟ فليقولنَّ: بلى، ثم ليقولنَّ: ألم أرسل إليك رسولاً؟ فليقولنَّ: بلى. فينظرُ عن يمينِهِ، فلا يرَى إلَّا النارَ، ثم ينظر عن شمالِهِ، فلا يرى إلا النَّارَ، فَلْيَتَّقِيَنَّ أحدُكُم النارَ ولو بشقِّ تمرةٍ، فإنْ لم يَجِدْ فبكلمةٍ طيبةٍ**» [رواه البخاري (١٤١٣)]؟.

أم عند **الورود على جهنم والمرور على الصراط فوقها**، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم]؟ أم...؟ أم...؟ إلخ.

فيومُ القيامة يومٌ طويل وعسير، وفيه من الأهوال والأفزاع ما لا يعلمُ قدرها إلا الله جلَّ وعلا، أسأل الله أن ينجينا منها برحمته وفضله، وأن يجعلنا من الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر.

﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: تستقبلهم ملائكةُ الرحمةِ تهنئهم بنجاتهم من الفزع الأكبر، وفوزهم بالجنة والرضوان، قائلين لهم:

﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيوم القيامة في الحقيقة يومكم، لأنَّكم الفائزون فيه الفوز العظيم، وهو الذي كنتم توعدون به في الدنيا فصدقتم به وآمنتم، وعملتم لتكونوا فيه من الفائزين: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

- **طي السماوات:**

هذه أحداثٌ كائنة لا محالة، قدَّرها الحكيم العليم القادر القاهر، وأكدها جَلَّ جَلَالُهُ، فقال:

﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ﴾ أي: يوم القيامة نجمعُ السماء إلى بعضها بعد تقطيعها وتشقيقها، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ: «**يقبِضُ اللهُ الأرضَ، ويطوي السماءَ بيمينِهِ، ثم يقولُ: أنا الملكُ، أينَ ملوكُ الأرضِ؟!**» [رواه البخاري (٦٥١٩)].

﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ﴾ أي: كما تطوي الصحيفةُ ما كتب فيها.

قال ابن كثير رحمه الله: «الصحيح عن ابن عباس: أنَّ السجلَّ هو الصحيفة، ونصَّ على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير، لأنَّه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون المعنى: يوم نطوي السماءَ كطي السجل للكتاب، أي: على الكتاب بمعنى المكتوب، كقوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] أي: على الجبين. وله نظائر في اللغة»(١).

- **كيفية الحشر:**

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ أي: كما أوجدناه أولاً نعيده ثانياً، وهي قاعدةٌ منطقية مسلَّمةٌ، ذكرها سبحانه في مواضع كثيرة، منها قوله الكريم: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يسٓ].

وقوله أيضاً: ﴿قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْۚ فَسَيَقُولُونَ

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٢٤.

من يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء].

وقد يكون المعنى: نعيده مثل الذي بدأناه، كما في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وفي الحديث الشريف: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: قام فينا النبيُّ ﷺ يخطبُ، فقال: «**إنَّكم محشورونَ حُفاةً عُراةً غُرْلاً** ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]» [رواه البخاري (٦٥٢٦)].

وعن **عائشة** رضي الله عنها قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**تحشرونَ حفاةً عُراةً غُرْلاً**» قالت عائشةُ رضي الله عنها: فقلت: يا رسولَ الله، الرجالُ والنساءُ ينظرُ بعضُهم إلى بعض؟ فقال: «**الأمرُ أشدُّ مِنْ أن يهمَّهم ذلكَ**» [رواه البخاري (٦٥٢٧)].

قال ابن حجر رحمه الله: «**غُرْلاً**: جمع أغرل، وهو الأقلف، وهو من بقيت غُرْلته، وهي الجلدةُ التي يقطعُها الخاتِنُ من الذكر. ثم نقل عن ابن عبد البر قوله: يحشر الآدميُّ عارياً، ولكلٍّ من الأعضاء ما كان له يوم وُلدَ، فمن قُطِعَ منه شيءٌ يُردُّ، حتَّى الأقلف»[(١)].

﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ أي: نعيد الخلقَ بعد الموتِ وعداً كائناً لا محالة، لأنه تعلقت به مشيئتنا، وسبق به علمنا.

﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي: منجزين هذا الوعدَ، فاستعدوا له لكي تنجوا من أهواله وأفزاعه.

• **تمكين الصالحين من الأرض:**

والحياة في الدنيا تستمرُّ، والعمران فيها يبقى، ما دامت كلمةُ التوحيد قائمةً في الأرض، فما خلق الله تعالى الخلق إلا للموحِّدين، الذين يَعْمُرُوْنَ الأرض بطاعته وعبادته وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات].

---

(١) فتح الباري: ١١/ ٣٨٤.

ولا يقيم الله الساعة وينهي الحياة في الدنيا حتى يعرض الناس كلهم عن عبادته سبحانه وذكره، وتتعطل حكمة الخلق والوجود، حينئذٍ يقيم الله الساعة، كما جاء في الحديث الشريف: عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تقومُ الساعةُ حتَّى لا يقالَ في الأرض: الله الله**».

وفي رواية: «**لا تقومُ الساعةُ على أحدٍ يقولُ: الله الله**» [رواه مسلم (١٤٨)].

فالأرض وما فيها خلقها الله تعالى من أجل الموحِّدين، لا من أجل العابثين واللاهين والمشركين والظالمين، قرر ذلك سبحانه وأخبر عنه في كل الكتب المنزلة:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ أي: الكتب التي أنزلت على الأنبياء عليهم السلام.

﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ أي: من بعد ما كُتب في اللوح المحفوظ، فالذكر هنا هو اللوحُ المحفوظُ، الذي ذكر الله تعالى فيه كل ما يكون إلى قيام الساعة.

وفي الحديث الشريف: عن **عمرانِ بن حصين** رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**كان اللهُ ولم يكنْ شيءٌ قبلَه، وكانَ عرشُهُ على الماءِ، ثم خَلَقَ السماواتِ والأرضَ، وكتبَ في الذكرِ كُلَّ شيءٍ**» [رواه البخاري (٧٤١٨)].

﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أي: المؤمنون الصالحون، الذين يلتزمون بدين الله تعالى وحده وشريعته.

وهذا المعنى ذكره سبحانه في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ومنها قوله أيضاً: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وذكره أيضاً النبيُّ ﷺ في قوله: «**إنَّ الله زَوَى** (أي: جمع) **لي الأرضَ، فرأيتُ مشارقَها ومغارِبَها، وإنَّ أُمتي سيبلغُ ملكُها ما زُوِيَ لي منها**» [رواه مسلم (٢٨٨٩)].

وقد يقول قائل: فما بال المسلمين في العصر الحاضر، قد ضعف سلطانهم، وتمكَّن منهم أعداؤهم؟!.

فأقول: صار حال المسلمين إلى ما ذكرتَ، لأنَّهم ابتعدوا في كثير من جوانب حياتهم عن طاعة ربهم، وعن منهجه وشريعته، إذ قدَّر الله تعالى أن تكون قوتُهم وعزَّتُهم بتمسُّكهم بدينهم وشريعتهم، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧] وقد قلَّ في المسلمين الصالحون العاملون بدين الله تعالى وشريعته، فأصبحوا كما قال ﷺ: «**يذهبُ الصالحونَ الأوَّلَ فالأوَّلَ، ويبقى حفالةٌ كحفالةِ الشعيرِ أو التمر، لا يباليهم اللهُ بالَةً**» [رواه البخاري (٦٤٣٤)].

والحفالة: الحثالة، ومعنى: «**لا يباليهم الله بالة**» أي: لا يرفعُ لهم قدراً، ولا يقيمُ لهم وزناً.

فالمراد من (**الأرض**) في الآيةِ، أرضُ الدنيا كلها، والمعنى المراد ظاهر، وهو منسجم مع ما تقدم من الآيات ومع ما يأتي أيضاً، ولا حاجة إلى القول بأنَّ المرادَ أرض الجنةِ، كما قال بعض المفسرين، كما لا حاجة إلى أن نخصصها بالأرض المباركة والمقدسة، كما قال مفسرون آخرون، فرسالةُ التوحيد عامةٌ شاملةٌ جميعَ البشرِ في كل الأرض.

- **البلاغ والرحمة:**

ويدل على عموم الوعد قوله سبحانه:

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾.

أي: إن في هذا القرآن لكفاية موصلة إلى البُغْية، فهو الطريق الموصل إلى

النصر والتمكين في الأرض ووراثتها، من اتبع القرآن، وعمل بما فيه، وصل إلى ما يرجو من الخير والثواب.

وقيل: **البلاغُ**: الكفايةُ، أي: فيه كفاية، لما فيه من الأخبار، والوعد والوعيد، والمواعظ البالغة فهو زادُ العُبَّاد إلى الجنة[1].

ولا يخفى أنَّ المعنى الأول أوجه، لأنَّه يتفق مع ما تقدم من قول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ولا وراثةَ للأرض إلا بالتمسك بشريعة القرآن الكريم.

﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ الله وحده، وهم أمة محمد ﷺ.

قال ابن كثير رحمه الله: «هم الذين عبدوا الله فيما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم»[2].

والله سبحانه ما رضي للناس إلا الإسلام وشريعة القرآن: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وشريعة القرآن الكريم هي الرسالة التي بعث الله بها خاتم الأنبياء والمرسلين إلى العالمين، فهي رسالةٌ شاملة عامة تتجاوز حدود الزمان والمكان.

قرر سبحانه هذا المعنى بهذا الخطاب الصريح الواضح الموجَّه إلى النبيِّ ﷺ والمؤكد بأسلوب النفي والإثبات:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

أي: ما أرسلناك إلا لنرحم العالمين بإرسالك.

فهو ﷺ مرسل من الله تعالى الرحمن الرحيم، البر الكريم، رحمةً للعالمين، لا لعالم واحد، وإنما لجميع العالمين، فمهما امتد الزمان، وتوالت

---

(١) تفسير الخازن: ٤/ ٢٨٤.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٢٥.

الأجيال، وتقلَّبت العُصُورُ، فإنَّ بعثة النبيِّ ﷺ بالإسلام أعظمُ رحمةٍ تفضَّل بها سبحانه على الخلق، وهو أمر ظاهر من جوانب كثيرة، منها:

١ ـ الرسالة الإسلامية التي أُرسل بها النبيُّ ﷺ هي **سبيل السعادة في الدنيا** والآخرة، فما أنزل الله تعالى القرآن الكريم إلا لهداية الناس إلى أقوم طريق، وأكمل دين، وأتم شريعة، ولا سعادة للناس إلا في ظلال هذه الرسالة، فهي سبيلُ سعادتهم في الدنيا والآخرة كما مر معنا في **سورة طه**.

٢ ـ جعل الله تعالى أحكام هذه الشريعة **سمحة ميسرة** خالية من الآصار والأثقال التشريعية التي كانت في الشرائع السابقة، كما قال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ونفى عنها سبحانه كل ما يؤدي إلى الحرج والمشقة، فقال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وقد بوَّب الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه باباً خاصّاً لإبراز هذه الميزة الكبرى في الشريعة الإسلامية، فقال: باب الدين يُسر، وقول النبيِّ ﷺ: «**أحبُّ الدينِ إلى اللهِ الحنيفيةُ السمحةُ**»، ثم روى بسنده (٣٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولنْ يُشَادَّ الدِّيْنَ أحدٌ إلا غلبَه، فسدِّدوا وقارِبُوا، وأبْشِروا واستعينوا بالغُدْوَةِ والرَّوْحَةِ وشيءٍ من الدُّلْجَة**».

٣ ـ **قررت الشريعة الإسلامية مبادئ إنسانية رفيعة، كانت البشرية في أمس الحاجة إليها؛ منها:**

مبدأ **وحدة الأصل البشري**، مهما اختلفت ألوان الناس وأعراقهم.

مبدأ **المساواة بين الناس أمام دين الله** تعالى وشريعته.

مبدأ **تكريم الإنسان واحترام حقوقه** وصيانتها وحمايتها.

مبدأ **التعارف والتعاون بين الناس** ولو اختلفت ألوانهم وأوطانهم.

مبدأ العدل، ومقاومة الظلم، ونصرة المظلوم، ومساعدة الضعفاء في المجتمع، وصيانة حقوقهم.

مبدأ الشورى، ومقاومة الاستبداد والطغيان... إلى غير ذلك من المبادئ الإنسانية التي جعلت الشريعة الإسلامية بحق رحمة كبرى للبشرية.

٤ ـ **ولقد أثبت الواقعُ التاريخيُّ هذه الحقيقة بالحضارة الإسلامية** التي كانت أنضرَ حضارةٍ، سعدَ الناس في ظلالها على مدى أجيال وقرون كثيرة.

ولقد شملت هذه الرحمة الكفَّار الذين ما آمنوا برسالة الإسلام، والذين عاشوا في ظل هذه الحضارة، وتمتعوا بكل المبادئ الإنسانية التي قررتها الشريعة الإسلامية.

٥ ـ وفضلاً عن ذلك فإنَّه ﷺ **نبيُّ الرحمة، لم يدعُ على الكفَّار** الذين قاوموا دعوته، وعاندوا رسالته، ولم يأتهم بعذاب يستأصلهم ويهلكهم، كما حدث للأمم السابقة، ولما قيل له: يا رسولَ اللهِ ادعُ على المشركين، قال: «**إنِّي لم أُبْعَثْ لعَّاناً، وإنَّما بُعِثْتُ رحمةً**» [رواه مسلم (٢٥٩٩)].

وقال أيضاً: «**إنَّما أنا رحمةٌ مُهْدَاةٌ**» [رواه ابن عساكر].

٦ ـ **ومرَّ معنا أنَّ استمرار الوجود في الدنيا منوطٌ ببقاء الموحِّدين من الأمة المسلمة**، وأنَّ الساعة لا تقوم ما بقي في الدنيا من يعبد الله ويذكره.

● **لا إلـه إلا الله محمد رسول الله:**

وكلمة التوحيد هي الأساس الأول لرسالة الرحمة التي بُعث بها النبي ﷺ وبهذا أمرته الآيات أن يقول للناس:

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فكلمةُ التوحيد التي أنزلها الله على جميع الأنبياء والمرسلين، أنزلها سبحانه عليَّ، وجعلها أساس دعوتي

وشريعتي، وقد مرَّ معنا في أوائل السورة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

ويلاحظ أنَّه مع كون الخطاب في الآيتين للنبيِّ ﷺ، اختلاف في الأسلوب، ففي الآية الأولى أخبر عن حقيقة واقعة بأسلوب الخبر، بينما قررت الآية الثانية الحقيقةَ بأسلوب الأمر الصريح الملزم بأن يواجه النبيُّ ﷺ الناس بكلمة التوحيد، يدعوهم إليها قائلاً:

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: فهل أنتم مذعنون مستسلمون لهذه الكلمة: لا إلٰه إلا الله؟.

وجاء الأسلوب أيضاً في الآية الثانية بصيغة الحصر: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ كأنَّ الله تعالى ما أوحى إليه إلا هذه الكلمة، مع أنَّه سبحانه أوحى إليه غيرَها كآيات الأحكام، والقصص، والترغيب والترهيب . . . إلخ، وهذا يدلُّ على أنَّ المرادَ من الحصر هنا: تأكيد كلمة التوحيد، وإظهار أهميتها، لا نفي ما عداها، فهي الأصل الأصيل الأول لجميع ما أنزل الله تعالى في التنزيل الحكيم، وكل أحكام هذا الدين وشرائعه متصل بها، ومتفرع عنها.

فالاعتقادُ بأن الله وحده المستحقُّ للعبادة والطاعة، معناه الانقياد له وحده في كلِ ما أمر وشرع، والإعراضُ عن كل ما نهى عنه وزجر، وهذه هي حقيقةُ الإسلام، فالإسلامُ هو: **لا إلٰه إلا الله** اعتقاداً وقولاً، وسلوكاً وعملاً، ولهذا كان من لوازمها: **محمد رسول الله** ﷺ، لأنَّه الذي بيَّن للناس كيفية الاستسلام لكلمةِ التوحيد والعمل بها.

فلا يجوزُ الفصلُ بين الكلمتين، ولا يُستغنى بالأولى عن الثانية، فهما القرينتان، اعتقاداً وإقراراً وعملاً، ولهذا قرن الله تعالى طاعته بطاعة نبيه ﷺ في عدد من الآيات الكريمة، منها: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقوله أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وجعل سبحانه طاعة الرسول ﷺ طاعة له، فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

ودل قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ على أنّ المعرفة وحدَها لا تكفي في الإيمان؛ لا بدَّ مع المعرفة من الانقياد والاستسلام، ولا يتحقق ذلك إلا بتصديق النبيِّ ﷺ واتباعه والتزام شريعته، فمن علم أنه **لا إلـٰه إلا الله**، وعبد غيره، ولم يصدق برسالة نبيه ﷺ لا يكون مؤمناً، بل هو كافر مشرك.

- **آذنتكم على سواء:**

أمضى النبي ﷺ المرحلةَ المكية من دعوته، التي امتدت ثلاث عشرة سنة، يدعو الناس إلى كلمة التوحيد، والإذعان لها والاستسلام، تنفيذاً لأمره سبحانه.

وقد بيَّن له سبحانه الموقف الذي يقفه منهم في حال إعراضهم، فقال:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الاستسلام والإسلام.

﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي: أعلمتكم ما أمرت به، وبلَّغْتُكم الكلمة التي ينبغي أن يعلمها جميع الناس، ولم أخصص أحداً بشيء دون غيره من الناس، فكلمةُ التوحيدِ لجميع الناس، وواجبي تبليغها لكل الناس.

وقد دلت هذه الآية على بطلان ما يعتقده أتباعُ بعض الفرق الضالة أنَّ النبيَّ ﷺ خَصَّ علي بن أبي طالب وأهلَ بيته بعلوم خاصة بهم، لا يعلمها أحد غيرهم، وبطلان قول من يقول: إنَّ لآيات القرآن معنى ظاهراً ومعنى باطناً، وإن معانيه الباطنة لا يعلمها إلا أناس مخصوصون، وإن للشريعة الإسلامية ظاهراً وباطناً. كلُّ ذلك من الأباطيل والأكاذيب التي روَّجها أعداء الإسلام لتفريق الأمة المسلمة وتمزيقها منذ فجر وجودها، وقد نفاها علي رضي الله عنه لما سُئِلَ عنها.

ففي «**صحيح البخاري**» [١١١]: عن أبي جُحَيْفة قال: قلتُ لعليٍّ: هل عندَكُم كتابٌ؟ قال: لا، إلا كتابُ اللهِ، أو فهْمٌ أُعطيه رجلٌ مسلمٌ، أو ما في

هذه الصحيفةِ، قال: قلتُ: فما في هذه الصحيفةِ؟ قال: العُقُلُ، وفكاكُ الأسيرِ، ولا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بكافرٍ.

ومعنى قوله: «**هل عندكم كتاب؟**» أي: مكتوب أخذتموه عن رسول الله ﷺ مما أوحي إليه، ويدل على ذلك رواية المصنِّف في الجهاد: هل عندكم شيءٌ من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ وله في الديات: هل عندكم شيء مما ليس في القرآن؟ . . . وإنما سأله أبو جُحيفةَ عن ذلك لأن جماعة من الشيعة كانوا يزعمون أنَّ عند أهل البيت، لا سيَّما عليّاً، أشياءَ من الوحي خَصَّهم النبيُّ ﷺ بها، لم يطلع غيرهم عليها، وقد سأل عليّاً عن هذه المسألة أيضاً قيسُ بن عبَّادٍ، والأشترُ النخعيُّ وحديثُهما في مسند النسائي[1].

﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ﴾ أي: وما أدري.

﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ من نزول العذاب بكم، أو من يوم القيامة الذي استأثر سبحانه بعلمه.

فالمستقبل غيبٌ عني، لا أعلمُ منه إلا أن يطلعني ربي عليه، فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة.

والآية الكريمة تؤكد بشريته ﷺ، وتدل على صدقه أيضاً، فهي تقرر الحقيقةَ، وتبيِّنُ للناس أنَّه عليه الصلاة والسلام لا يدَّعي علمَ ما لم يعلم، كما يفعل الدجالون الكاذبون فكمال العلم لله تعالى وحده.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

في قلوبكم وأعماق نفوسكم.

﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ أي: وما أدري لعلّ تأخيرَ عذابكم استدراجٌ لكم وابتلاء واختبار.

---

(١) فتح الباري: ١/ ٢٠٤.

﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: وتمتيع لكم إلى حين وأجل مقدر، وهو ردٌّ على ما تقدم من استعجالهم نزول العذاب بهم، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨].

● **الخاتمة:**

وفي ختام السورة:

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿قَٰلَ﴾ أي: الرسول الخاتم ﷺ، وفي قراءة ﴿قُلْ﴾.

﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: اقضِ بيني وبين المعرضين عن دعوتي بالحق، ويكون ذلك بإظهار الحق وأهله، وبإعزازهم وتمكينهم، وقد فعل سبحانه ذلك كما مر معنا.

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ كثير الرحمة، المُنْعِم المتفضِّل على خلقه، والذي أرسل محمداً ﷺ رحمة للعالمين.

﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ أي: الذي يُستعان به وحده.

﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على إبطال أقوالكم وأكاذيبكم التي سبق ذكرها في أول السورة، والتي توعدهم الله من أجلها أشد الوعيد عندما قال: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

وبهذا ظهر لنا اتساق آيات السورة واحتباكها، واتصال أولها بآخرها، كما ظهر لنا موضوعها الأساس، الذي دارت آياتها في فلكه، وهو كلمة التوحيد ـ دعوة جميع الأنبياء والمرسلين ـ الذين هم رواد الأمة المسلمة أمة التوحيد، وهي الأصل الأصيل لرسالة القرآن، رسالة الرحمة العظمى التي أنزلها الله تعالى على النبي الخاتم عليه وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة وأتم التسليم.

❁ ❁ ❁



٢٢

تفسير سورة الحج

الطَّرِيقُ إلى الأُمَّةِ المُسْلِمَةِ في سُورَةِ الحَجِّ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ: فقد اشتدَّت مؤامرات أعداء الإسلام على شعوب العالم الإسلامي في السنوات الأخيرة، واستهدفت أكثرُ هذه المؤامرات تفتيتَ الروابط الداخلية للمجتمعات الإسلامية، وإحداثَ الانقسامات العرقية والإقليمية والطائفية والمذهبية في داخلها.

ويبدو أنَّ أعداءَ الإسلام يصدرون في كلِّ مؤامراتهم وكيدهم ومكرهم عن خطة خبيثة، هدفُها الأول والأخير اجتثاث جذور الصحوة الإسلامية التي بدأت تنتشر في العالم الإسلامي منذ منتصف القرن الرابع عشر الهجري.

وقد أقلقت هذه الصحوةُ أعداءَ الإسلام، وأزعجتهم، وجعلتهم يستشعرون خطر عودة المسلمين إلى تسنُّم القيادة السياسية والحضارية في العالم بعد انتزاعها من أيديهم، فحشدوا كلَّ ما لديهم من الكيد والمكر، وجنَّدوا كلَّ مراكز بحوثهم العلمية والاستراتيجية، وصدروا عن خطة موحَّدة ـ رغم ما بينهم من اختلاف

ونزاع ـ للعمل على امتصاص الصحوة الإسلامية بين المسلمين، وهي لا تزال تحبو ضعيفةً هزيلةً قبل أن تقوى وتشتدَّ، وللعمل أيضاً على استنزاف خيرات العالم الإسلامي؛ وإمكاناته المادية الكبيرة، كي يبقى عالَماً مقسَّماً متخلِّفاً محطَّماً، ومنشغِلاً بتخلفه ومشاكله الداخلية عن إحراز أيِّ تقدُّم وتحقيق أي تغيير.

لقد بدأت هذه الخطة الماكرة الخبيثة تفرز سمومها في جسم المجتمعات الإسلامية، وتنشر شباكها وشِراكها حول أية بادرة تقدُّم، وبارقة أمل تظهر بين المسلمين، وقد أدَّى ذلك إلى زيادةِ الانقسامات والنزاعات المصطنعة بين الشعوب الإسلامية، كما أدَّى بالتالي إلى زيادة كبيرة في ركام المشاكل التي تُعاني منها هذه الشعوب والمجتمعات.

ولا سبيلَ لمواجهة هذه الخطة الماكرة إلا بتوعية عامَّة المسلمين، وتحذيرهم من أخطارها، وتذكيرهم بروابط الأخوَّة الإسلامية التي أقامها الإسلام بينهم.

وإنَّ على قادة الفكر الإسلامي مسؤوليةً كبيرةً وجسيمةً في هذا المجال، وإن لديهم رصيداً كبيراً يستطيعون الاستفادة منه في التصدِّي لمؤامرات أعداء الإسلام وإبطالها:

لديهم **القرآنُ الكريمُ** الذي لا يزال بحمد الله تعالى غضّاً طريّاً كما أُنزل، وكلُّ ما فيه أسبابٌ تُوَحِّد المسلمين وتجمعُهم، وتُبعد عنهم كل أسباب الاختلاف والانقسام.

ولديهم أيضاً **الحجُّ إلى بيت الله الحرام**، الذي تهوي إليه قلوبُ المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وتأتي إليه وفودهم كل عام من شتى بقاع الأرض، يلتقون في رحابه عابدين، ويلتفون حوله طائفين، ويعيشون في جواره وحرمه ساعاتٍ من أعمارهم أمةً واحدةً، لا يُفرقهم اختلافُ ألوانهم، ولا يميِّزُ بينهم كثرةُ أجناسهم وتعدُّد ألسنتهم.

لقد قُدِّر لي أن أشهد حجَّ عام (١٤٠٧هـ)، ويسَّر الله تعالى لي في هذا الموسم أداء أكثر مناسك الحج في أوقاتها المستحبة التي أدَّاها فيها رسول الله ﷺ، فتذوقتُ من خلال هذه المناسك معانيَ روحية كبيرة ما تذوقت مثلها من قبلُ، لقد شعرتُ أني جزءٌ من أمة مسلمة واحدة ذات جذور قوية راسخة في أعماق التاريخ، فحمدتُ الله تعالى أن جعلني من هذه الأمة، وشرَّفني بالانتساب إليها، وعدتُ من هذا الموسم قريرَ العين، قويَّ الأمل بمستقبل هذه الأمة المسلمة رغم كل المشاكل والصعاب التي تواجهها، ورغم كل المؤامرات التي تُحاك في داخلها ومن حولها.

عُدت إلى كتاب الله تعالى، وأخذتُ أمعن النظر في آيات **(سورة الحج)** على الخصوص، فوجدتها ترسم الطريق إلى بناء المجتمع الإسلامي والأمة المسلمة، والعجيب أنني وجدتُ آياتها قد نزلت على الرسول ﷺ وهو يعيشُ المرحلةَ التي كان يتصدَّى فيها لبناء المجتمع الإسلامي الجديد، ووضع نواة الأمة الإسلامية الجديدة.

ثم يسَّر الله تعالى لي بعد ذلك الانتقالَ إلى مكة المكرَّمة، والعيشَ في جوار بيت الله الحرام، حيث يسَّر الله تعالى لي استكمالَ كتابة سطور تفسير هذه السورة (سورة الحج)، فجاء بحمد الله تعالى سوانح فكر وخواطر قلب في جوار بيت الله الحرام، كما جاء في **أربعة فصول** منسجماً مع تسلسل آيات السورة الكريمة.

- **الفصل الأول: الإيمان بالله واليوم الآخر.**
- **الفصل الثاني: البيت الحرام، وفريضة الحج.**
- **الفصل الثالث: الجهاد.**
- **الفصل الرابع: الاصطفاء والاختبار للأمة المسلمة.**

وإنني لأسألُ الله تعالى ألَّا يُبقي هذه الكلمات حبيسةَ أوراقها، وأن ييسِّر

لها طريقاً إلى قلوب المسلمين، كما أسأله سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به بفضله ورحمته يوم الدين، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء].



تَمْهِيد

مَوْضُوع السُّورَة

ابتدأ الله تعالى آيات سورة الحج بهذا الخطاب الشامل لجميع المكلَّفين من الناس، الموجودين عند نزول الآية، والحادثين بعد ذلك إلى قيام الساعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ [١].

وقد تكرر هذا النداء في سورة الحج عدَّة مرات:

ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [٥].

ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [٤٩].

ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ [٧٣].

ـ وختم الله تعالى سورة الحج بنداء خاص للمؤمنين بعد هذه النداءات الموجهة لجميع المكلَّفين من الناس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٧٧].

وإذا تأملنا الموضوعاتِ التي ركَّزت عليها آياتُ النداء للناس في السورة وجدناها تدور حول **تقوى الله تعالى، وهي أعظمُ ثمار الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر**، وبيان قدرته سبحانه على بعثِ الناس من قبورهم، وتفرده سبحانه بالخلق، مع الكشف عن عجز الآلهة المزعومة وبيان ضعفها، والتصديق برسالة النبي ﷺ مع الإذعان والقبول.

ومن خلال عرض هذه الموضوعاتِ الكبيرةِ ذكرت الآياتُ الكريمةُ **الحجَّ** إلى بيت الله الحرام، وحثَّت على تعظيم شعائره ومناسكه.

ثم شرعت **الجهاد**، وبيَّنت الحكمة من مشروعيته.

فكأنَّ السورة الكريمة بمعالجتها لهذه الموضوعات ترسمُ الطريقَ المؤدي

إلى بناء المجتمع الإسلامي، وظهور الأمة المسلمة، الأمة التي يجمعها الإيمانُ بالله تعالى الواحد الأحد، والتصديق برسالة الإسلام، ويمثل وحدتها وقوتها الحجُّ بمشاعرِه ومناسِكه، ويحمي كيانها ويصون حُرُماتها الجهادُ في سبيل الله تعالى، ولهذا ابتدأت السورة بنداء الناس عامَّة وانتهت بنداء المؤمنين خاصة.

لقد نزلت سورةُ الحجِّ في المرحلة التي انتقلت خلالها الدعوة الإسلامية من مكة المكرَّمة إلى المدينة المنورة، وهي مرحلة الهجرة، ومن المعلوم أن النبيَّ ﷺ بدأ بعد الهجرة مباشرةً بناء المجتمع الإسلامي، ووضع نواة الأمة المسلمة، فجاءت آياتُ السورة مزيجاً من الآيات المكِّية والمدنية على خلاف بين العلماء في تعيين المكِّي منها والمدني.

قال القرطبي رحمه الله: «وهي من أعاجيبِ السور، نزلتْ ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، مكيّاً ومدنيّاً، سلميّاً وحربيّاً»[١].

وإنَّ من حكمة الله تعالى في نزول القرآن الكريم مفرَّقاً على النبيِّ ﷺ أن تنزل الآياتُ الكريمةُ مواكِبةً للمراحل المختلفة التي مرَّت بها الدعوة الإسلامية في حياة النبي ﷺ، ترسم له طريق الدعوة في كل مرحلة، وتلبِّي الحاجات التشريعية لها، وتبيِّن الحلول المناسبة لما يجدُّ من الحوادث في وقت حدوثها، ومواجهتها.

وقد نزلت آياتُ سورة الحجِّ في مرحلة الهجرة تضع الأسسَ الكبرى للمجتمع الإسلامي، وترسمُ الطريقَ إلى ظهور الأمة المسلمة.



(١) الجامع لأحكام القرآن: ١/ ١٢.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

الإِيمَانُ بِاللهِ تَعَالَى وَاليَوْمِ الآخِرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ

بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

• زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ يأمر الله تعالى بهذا النداء جميع الناس بأن يتَّقوه. **والاتقاءُ**: تجنب المكروه والاحتراس منه، والمعنى: احترسوا بطاعته عن عقوبته[١]، أو افعلوا أوامره، واجتنبوا نواهيه.

ورغَّبهم سبحانه بتقواه بتذكيرهم بأنه سبحانه ربُّهم، فهو مالِكُ أمرهم ومربِّيهم، فلا يأمرهم إلا بما يُصْلِحهم ويُسعِدُهم، ولا ينهاهم إلا عمَّا يؤذيهم ويشقيهم.

ثم رهَّبهم سبحانه ببيان موجب الأمر بالتقوى فقال:

---

(١) تفسير القرطبي: ٣/ ١٢.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾، فلا نجاةَ لهم من أهوالِ الساعة وأفزاعها إلا بتقوى الله تعالى، فهي طريق النجاة وسُلَّم الأمان.

والزلزلةُ أمر عظيم، وخطبٌ جليل، وحادثٌ هائل، وكائنٌ عجيب، ويكفي أنه سبحانه عظَّمها، ولا عظيمَ أعظمُ ممَّا عظمه الله تعالى.

ومعنى الزلزلة: شدةُ الحركة، وهي على هذا المعنى حادثة قبل بعث الناس من قبورهم، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة].

وقال أيضاً: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة].

فهي حادثة في آخر عمر الدنيا، وأول أحوال يوم القيامة، وتصبحُ الأرضُ فيها كالسفينة في البحر الهائج، وتضطربُ اضطراباً شديداً، وتختل النظم والقوانين الكونية الدنيوية، فتتناثر النجومُ، وتنخسِفُ الشمسُ والقمرُ، وتنشقُّ السماء وتكشط.

وللزلزلة معنًى آخر: وهو ما يحصلُ للنفوس والقلوب من الرعب والفزع، وهي على هذا المعنى كائنةٌ داخلَ الصدور، وفي سويداء القلوب، كما في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١] عندما حاصرتهم جيوش الأحزاب في غزوة الخندق.

وهذه الزلزلةُ للقلوبِ تحدثُ بعد بعث الناس من القبور، عندما يرون أهوال القيامة وأفزاعها.

ويمكن أن يكون المرادُ من الآية كلا المعنيين: تضطرب الأرض وتتزلزل قبل قيام الساعة، وتتزلزل القلوب والنفوس بعد قيام الساعة في عرصات القيامة.

- **ذهول المُرضعات والحاملات:**

وبعد الحديث المجمل عن زلزلة الساعة في الآية الأولى تتجه الآية الثانية إلى شيء من التفصيل، فتتحدَّثُ عن أثر الزلزلة على النفوس البشرية، وشدَّة وقعها على قلوبهم، فالمرأة المرضعة، وهي التي تباشِرُ الإرضاع فعلاً، تذهل عن رضيعها من شدَّة ما يعتريها من الخوف والحزن:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ وجاء التعبير عن الرضيع بـ (ما) لتأكيد شدة الذهول، فالطفل الرضيع شيء تعرفه، ولكنَّها لا تدري مَن هو بخصوصه[(١)].

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: تُلقي كل ذات جنين جنينها قبل تمام حَمْلها، وقوله: ﴿ذَاتِ حَمْلٍ﴾ ولم يقل حامل أو حاملة، ليدلَّ على شدة اتصال الجنين بأمه، وقوة ملازمته لها، ومع ذلك فإنَّ شدة الهَوْل والفزع تحملها على وضعه وإلقائه[(٢)].

وقد لاحظ الأطباء كثرةَ حوادث الإجهاض أثناء الحروب والقصف الجوّي واختراق جدار الصوت، بسبب الرعب الشديد الذي يصيب الحوامل، ويؤدي إلى الإسقاط[(٣)].

ويحمل الكلام في الآية على التمثيل إذا كانت الزلزلة يوم القيامة، فلو كان هناك مرضعةٌ ورضيعٌ لذهلت المرضعة عن رضيعها، ولو كان هناك حامل لوضعت حملها، لشدة الهَوْل والفزع. وأما إذا كانت الزلزلةُ في الدنيا قُبيل الساعةِ فيمكن أن يكون الكلام على حقيقته.

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ على التشبيه من شدَّة الأمر الذي نزل بهم.

﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ على التحقيق.

﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ولكن ما أرهقهم من هَوْل عذاب الله تعالى هو الذي أذهب عقولهم وطيَّر تمييزهم.

---

(١) انظر: روح المعاني، للآلوسي: ١٧/ ١١٢.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر: كتاب القرار المكين، ص٦٦.

وجاء الخطابُ في رؤية الزلزلة للجمع بقوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ لأن جميع الناس يرونها، بينما جاء الخطاب لرؤية الناس سُكارى بصيغة المفرد: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾ لأن الرائي لا ينبغي أن يتَّصف بحال السكر، فلا بدَّ من إفراد المخاطب على وجه يعمُّ كل واحد منهم من غير أن يكون متَّصفاً بتلك الحالة، ويمكن أن يكون الخطاب للنبي ﷺ، ولكن تعميم الخطاب لكل من يصلح خطابه أبلغ في التهويل[1].

● **أصنَافُ الكُفَّارِ:**

وفي ظل هذا الهَوْل المرعب عرضت الآيات الكريمة أصناف الكفَّار بحسب الدوافع التي دفعتهم إلى الكفر إلى ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: وهم الذين كفروا بسبب التقليد الأعمى لغيرهم، فهم **المقلِّدون**.

والصنف الثاني: وهم الذين كفروا بسبب الكبر والحسد، فهم **المتكبرون**.

والصنف الثالث: وهم الذين كفروا بسبب حرصهم على مصالحهم المادية فهم **النفعيون**.

● **الصنف الأول من الكفَّار: المقلِّدون:**

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول الله تعالى ذامّاً لمن كذَّب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، مُعرِضاً عمَّا أنزل الله على أنبيائه، متبعاً في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مَريد من الإنس والجن، وهذا حالُ أهل البدَع والضلال المعرضين عن الحق، المتَّبعين للباطل، يتركون ما أنزل الله على رسوله ﷺ من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة الدُّعاة إلى البدعِ بالأهواء والآراء»[2]:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: وبعض الناس.

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٧/ ١١٣؛ والتفسير الكبير: ٢٣/ ٤.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٠٦.

﴿مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ أي: ينازع في شأن الله تعالى، سواء في وجوده سبحانه أو في وحدانيته أو في صفة من صفات كماله سبحانه، وهذا الجدال ـ كما قال سيد قطب رحمه الله ـ يبدو عجيباً من ذي عقل وقلب لا يتَّقي شرَّ ذلك الهَوْل المزلزل المجتاح، وهو جدال (**بغير علم**) جدالُ التطاولِ المجرَّد من الدليل، جدالُ الضلال الناشئ من اتِّباع الشيطان(١).

﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَـٰنٍ مَّرِيدٍ﴾: متجرد للفساد، بعيدٍ عن الخير، فهو من قولهم: شجرة مرداء، لا ورقَ لها، **والأمرد**: المتجرد عن الشعر، ففيه معنى التجرُّد والتعرِّي، والمراد به إبليس وجنوده ورؤساء الكفر والضلال(٢).

ويدل قوله تعالى: ﴿يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ على أنَّ الجدال في وجود الله تعالى ووحدانيته لا يكون مع العلم، لأنَّ العلم مع الإيمان بالله ووحدانيته، وإذا رأيتَ بعضَ مَن يُنْسَبُ إلى العلم يجادِلُ في الله تعالى، فاعلمْ أنَّ جداله جدالُ مكابرةٍ وجحودٍ وعنادٍ.

كما تدل الآية الكريمة على أن الإيمان بالله تعالى ينبغي أن يكونَ مستنداً إلى النظرِ والاستدلال، لا على مجرَّدِ التقليد الأعمى، فلا تقليدَ في أصول الاعتقاد.

﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾ أي: على الشيطان وأمثاله من رؤوس الضلالة، وهي كتابةٌ قدرِيَّةٌ ـ كما قال ابن كثير رحمه الله ـ أي: قدَّر الله تعالى عليه.

﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: اتبعه وقلَّده.

﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ أي: يضلُّه في الدنيا عن طريق الحق.

﴿وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير في جهنم.

---

(١) في ظلال القرآن: ١٧/ ٧٣.

(٢) انظر: روح المعاني: ١٧/ ١١٤.

• **تقرير الأدلة:**

وتقريراً للأدلة والبراهين وتقريباً لها من أذهان هؤلاء الناس قال الحق سبحانه:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

ويبدو أن الصنف الأول من الكفّار، صنف **المقلِّدين**، كان كفرهم ناشئاً بسبب شكِّهم في صفة من صفات كماله سبحانه، وهي كمال قدرته على إعادة الحياة إلى الناس بعد موتهم وبعثهم من قبورهم ليوم القيامة، ولهذا وجَّه سبحانه النداء إلى هؤلاء الناس وأمثالهم فقال:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: إن كنتم في ريب من البعث فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم وشكُّكم.

• **الإنسان والتراب:**

وخَلْقُ الناسِ من ترابٍ في ضمن خلق أبيهم آدم عليه السلام منه. أو: بِخَلْقِ الأغذيةِ التي يتكون منها المنيُّ، فالمنيُّ يستخلص من الدم، والدم مستمد من الأغذية التي يتناولها الإنسان، والترابُ مصدرُ أغذية الإنسان، ولعلَّ المعنى الثاني هو الأظهر لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

والسُّلالة: فُعَالة من السَّل، وهو استخراج الشيء من الشيء، تقول: سَلَلْت الشعر من العجين، والسيف من الغمد، والمعنى: خلقنا الإنسان من شيء مستخرَج من طين.

وقد ثبت علميّاً أنَّ العناصر التي تكوِّن البنية المادية لجسم الإنسان هي

العناصر الأساسية نفسها المكوِّنة للتراب، إلَّا أنَّ تحوُّل التراب إلى جسم إنساني يحتاج إلى قدرة قادر عليم حكيم، فهو دليل على وجود الله تعالى وكمال قدرته وعلمه وحكمته، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والإنسان ابن هذه الأرض، من ترابها نشأ، ومن ترابها تكوَّن، ومن ترابها عاش، وما في جسمه من عنصرٍ إلا له نظير في عناصر الأرض... ولكن أين التراب وأين الإنسان؟! أين تلك الذرَّات الأوليَّة الساذجة من ذلك الخَلْقِ السويِّ، والمركَّب الفاعل، المستجيب المؤثر المتأثر، الذي يضع قدميه على الأرض، ويرفُّ بقلبه إلى السماء، ويحلِّقُ بفكره فيما وراء المادة كلها، ومنها ذلك التراب، إنها نقْلةٌ ضخمة بعيدة الأغوار والآماد، تشهد بالقدرة التي لا يعجزها البعث، وهي أنشأت ذلك الخلق من التراب»[١].

ومن الثابت علميّاً أننا لو أخذنا قطعةً من جسم الإنسان وحلَّلناها لوجدناها تتألف من ستة عشر عنصراً، وهي العناصر نفسها المكوِّنة للتراب، وإنَّ نسبة هذه العناصر فيما بينها في جسم الإنسان هي نفسها فيما بينها في التراب[٢].

• **النطفة:**

ويأتي بعد التراب طور النطفة:

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهي مبدأ وجود الإنسان، فلا وجود له قبلها، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

وقال أيضاً: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة].

والنطفة في لغة العرب: الماءُ القليل، ويُطلَقُ على الكثير، إلا أنها بالقليل أخصُّ. وقد ورد ذكر النطفة في القرآن الكريم في اثني عشر موضعاً.

وذُكرت أحياناً باسم الماء المهين: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

---

(١) في ظلال القرآن: ١٧/ ٧٤.

(٢) انظر: مجلة أخبار العالم الإسلامي، العدد (١٠٦٤): الإعجاز العلمي في القرآن.

وذُكِرَتْ باسم الماء الدافق: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق].

وذكرت باسم المني أيضاً: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧].

وليست هذه الألفاظ مترادفة ومتطابقة تماماً في المعنى، فلفظ المنيِّ والماء يشمل النطفة ويزيد عليها السوائل التي تحتويها، يؤكد ذلك قوله تعالى الذي سبق ذكره: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧]؛ فالنطفة جزء من المنيِّ.

والأطباء يجعلون النُّطَفَ ثلاثة أنواع:

١ ـ **النطفة المذكَّرة**: وهي الحيوانات المنوية الموجودة في المنيِّ، والتي تفرزها الخصية.

٢ ـ **النطفة المؤنثة**: وهي البييضة التي يفرزها المبيض في المرأة.

٣ ـ **النطفة الأمشاج**: وهي البييضةُ الملقحة المختلطة من الحيوان المنوي والبييضة المؤنثة، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

● **الأربعينات:**

وبداية طور النطفة غيرُ محدودة، وربَّما كانت مفرطةً في القِدَم ـ كما يقول الطبيب مأمون شقفة في كتابه «القرار المكين» ـ لأنَّ النطفَ تتولد من النُّطف حتى النطفة الأولى في ظهر أبينا آدم، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وأما **نهاية طور النطفة** فمختلَف فيه بين الأطباء، فالطبيب محمد علي البار في كتابه «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» ذهبَ إلى أن طور النطفة ينتهي في اليوم السابع بعد التلقيح، عندما تلتصقُ البييضةُ الملقحةُ ـ والتي أصبحت بسبب الانقساماتِ الخلويةِ فيها كرةً جرثوميةً ـ بجدارِ الرحم[١].

---

(١) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص٣٦٧.

فهو يرى أنَّ المراحل الثلاث، وهي: مرحلة النطفة، ومرحلة العلقة، ومرحلة المضغة؛ تستغرِقُ كلُّها أربعينَ يوماً فقط، هي الأربعون الأولى من حياة الجنين، واضطر بسبب هذا إلى تأويل الحديث الشريف الذي أخرجه الشيخان [البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣)] من حديث **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: حدَّثنا رسولُ اللهِ ﷺ ـ وهو الصادقُ المصدوقُ ـ قال: «**إنَّ أحدَكُم يُجْمَعُ خَلْقُه في بَطْنِ أُمِّهِ أربعينَ يوماً، ثم يكونُ علقةً مثل ذلك، ثم يكونُ مضغةً مثل ذلك، ثم يُرْسَلُ المَلَكُ فينفخُ فيه الرُّوْحَ...**».

وذهب الطبيب مأمون شقفة إلى التمسُّك بظاهر الحديث، وأكد أن الأطوار الثلاثة متمايزة في الزمن، يستغرق كلُّ طور منها أربعين يوماً، وأكد رأيه بأحدث ما توصل إليه الطب، وأيَّده بالصور والحسابات الدقيقة، وخصَّص لحديث الأربعينات فصلاً خاصّاً في كتابه «القرار المكين». والله سبحانه أعلم.

- **العلقة:**

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ ويأتي بعد طور النطفة طور العلقة.

ومعنى **العلقة** في اللغة: قطعةُ الدمِ المتخثر الجامد، وكلُّ ما علَّقَ أو علَق بالشيء، أو دودة في الماء تعلقُ في حلوق الدواب، وتمتصُّ منها الدم، وكان علماء التفسير يقولون عن العلقة في الآية الكريمة: قطعة الدم الجامد، وقد بدأ المحدَثون من العلماء والأطباء ينصرفون عن هذا المعنى إلى المعنى الآخر للعلقة المشتقة من العلوق والتعلُّق، فالعلقة هي النطفة بعد أن تتعلَّقَ بالرحمِ وتكتسبَ صفة العلوق.

ويؤكد الطبيب مأمون شقفة أنَّ انطمارَ النطفة الأمشاج في جدار الرحم لا يعدُّ علوقاً، فلا تصبحُ علقةً حتى تكبرَ، وتأخذَ بالتدلِّي في جوف الرحم مرتكزةً من أحد أطرافها على جداره، ويبدأ هذا التعلق بعد مرور أربعين يوماً من أول أيام طمث المرأة الحامل، وينتهي في اليوم الثمانين عندما تكبر العلقة، وتملأ جوف الرحم وتستند إلى جدرانه[١].

(١) انظر: القرار المكين، ص١٩٧.

• **المضغة:**

﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ **والمضغة**: القطعة من اللحم بقدر ما يمضغ، إلا أنَّها لا تتقيَّدُ بهذا المقدار بدليل تسمية الحديث الشريف لقلب الإنسانِ مضغةً: «**ألا وإنَّ في الجَسَدِ مضغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كلُّه، وإذا فَسَدَت فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ**» [رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩)][1].

ووصف الله تعالى المضغة بأنها مُخَلَّقة وغير مُخَلَّقة، وقد تعددت أقوال المفسرين في المعنى المراد من هذا الوصف، والمشهورُ المتبادرُ أن **المخلَّقة**: المستبينة الخلق، أي: مضغة مستبينة الخلق مصوَّرة، **وغير المخلقة**: التي لم يستبنْ خلقُها وصورتُها بعدُ.

وقالوا أيضاً: **المخلَّقة**: المسوَّاة التي لا نقصان فيها ولا عيب، **وغير المخلَّقة**: غير المسوَّاة، التي فيها نقص وعيب، وهذا يؤدي إلى تفاوت الناس في خلقهم وصورهم، وطولهم وقصرهم، وتمامهم ونقصانهم[2].

وقالوا أيضاً: قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ صفة لما تسقطه المرأة قبل الولادة الطبيعية، فبعضها تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذاتَ شكل وتخطيط[3]. إلا أنَّ صدر الآية يردُّ هذا القول، فالآية تنادي الناسَ المخلوقين الموجودين، ولا يشمل الخطاب الذين لم يكتمل خلقُهم، وأسقطوا وهم أجنَّة في بطون أمهاتهم.

ويقول الأطباء في العصر الحاضر: إنَّ العلقة عندما تعلَقُ في جدار الرحم تبدأ في التمايز إلى طبقتين:

الأولى: خارجية، ووظيفتها قَضْم خلايا الرحم، والاتصال المباشر بالبرك الدموية الرحمية، لامتصاص الغذاء منها.

---

(١) انظر: إرشاد الناس إلى أحكام الحيض والنفاس، للمؤلف؛ وكتاب: القرار المكين.
(٢) انظر: روح المعاني: ١٧/ ١١٦.
(٣) انظر: تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٠٦.

والثانية: داخلية، ووظيفتها تكوينُ الجنين وأغشيته.

فالطبقة الخارجية غير مخلَّقة، والداخلية مخلَّقة يخلق منها الجنين[(١)].

ولصاحب كتاب «القرار المكين» رأي قريب من هذا إلا أنه أوضح، يقول فيه: لا يمكن أن توجدَ كلمة في لغة العرب تصفُ محصولَ الحمل في اليوم الثمانين أبلغ وأدق وأكثر إعجازاً من هذه الكلمة: ﴿مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾! إنها تتألف من جزء مخلَّق مصوَّر تعرفه إذا أخرج لك من الداخل على أنه بشر سويٌّ، ومن قرص لحمي أحمر، ليس عليه تصوير ولا تخلُّق ولا أعضاء، هو المشيمة، وهما مرتبطان معاً[(٢)].

• **تحريم قتل الأجنَّة المعوَّقين:**

ويجب التنبيه هنا إلى أنَّ ولادةَ بعض الأطفال مُعَوَّقين ومُشَوَّهين اقتضته المشيئة الإلٰهية والحكمة الربانية، فالحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار، ولا بدَّ فيها ليتم الابتلاء والاختبار من التفاوت بين الناس في الرزق والأولاد، والخلق والصور، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

فقد ابتلى سبحانه الفقراء بالأغنياء، والأغنياء بالفقراء، والمرضى بالأصحَّاء، وكاملي البنية بناقصيها من المعوَّقين والمشوهين... إلخ، ولا يعرفُ الإنسانُ قَدْرَ نعمة الله تعالى عليه إلا عندما يفقدها أو يرى مَن ابتُلي بفقدها.

ولا تتوقَّفُ سعادةُ الإنسان على كمال بنيته، فكم من المعوَّقين مَن يستشعر السعادة في حياته أكثر من كامِلي البنية الأصحَّاء، بل إنَّ في المعوَّقين من أنعمَ الله تعالى عليهم بقدرات ومواهب لا يوجدُ مثلُها عند كثير من الأصحاء.

أقول هذا ردّاً على أولئك الداعين إلى قتل الأجنَّة الذين يكتشف الأطباء أنهم ناقصو التخليق، وأنهم سيولدون معوَّقين، لقد وضع هؤلاء أنفسَهم في غير

---

(١) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن.

(٢) القرار المكين، ص٢٣٢.

موضعها، وتجاوزوا حدودَ عبوديتهم لله تعالى خالق الحياة ومالِكها، فرأوا أنفسهم كأنهم أصحابُ الحياةِ وصانعوها، يسمحون بالحياة لمَن يريدون من البشر، ويحرمون منها مَنْ يريدون، ونسيَ هؤلاء أو تناسَوا أنَّ الحياة مُلْكٌ لله تعالى وحده، وهو سبحانه أعلم منهم بما يصلح للحياة وما يناسبها، فعليهم أن يعرفوا قَدْرهم، ويلزموا حدَّهم، ويتركوا شأن تدبير الحياة وتنظيمها لخالقها وبارِئها سبحانه.

﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ﴾ معناه: لنبيِّن لكم قدرةَ الله تعالى على تطويرِ خلقِ الإنسانِ حالاً بعد حالٍ، وطوراً بعد طورٍ، فإنَّ كل ذلك يتمُّ بقدرته سبحانه ومشيئته، فكلُّ تغيُّر يحدثُ للجنين داخلَ الرحم يتمُّ بقدرته سبحانه ومشيئته وعلمه: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

فكمالُ التخليق والتصوير ونقصُه منوطٌ بمشيئته سبحانه وحده وقدرته وحكمته، ولا يستطيعُ أحد تغييره وتبديله.

قال سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ...﴾ فهنا محطةٌ بين المضغة والطفل، يقف السياق عندها بهذه الجملة المعترضة: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾ دلائل القدرة بمناسبة تبيُّن الملامح في المضغة، وذلك على طريقة التناسق الفني في القرآن»[1].

أو: لنبيِّنَ لكم ما يُزيلُ عنكم الريب والشك في قدرة الله تعالى على بعثكم يومَ القيامة من قبوركم وإعادة الحياة إليكم[2].

- **القدَر المعلوم:**

وبعد أن يتم تخليق الجنين وتنفخ فيه الروح يبقى في رحم أمه بمشيئة الله تعالى إلى وقت وضعه وخروجه من بطن أمه، قال تعالى:

﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ وهو الوقت الذي قدَّره الله تعالى لخروج الجنين طفلاً، كما في قوله سبحانه: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٢٠ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ۝٢٢ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ۝٢٣﴾ [المرسلات].

---

(١) في ظلال القرآن: ١٧/ ٧٥.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ٦/ ٢٢.

والقرار المَكين: هو الرحم الذي جعله الله تعالى بقدرته وحكمته مكيناً حافظاً للنطفة التي تُجْعَلُ فيه حتى يكتملَ نموُّها، وتصلَ إلى الأجَل المسمَّى في علم الله ومشيئته، فيلفظها الرحمُ، ويخرجها طفلاً:

﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ أي: طفلاً طفلاً، فهو مصدر يستوي فيه الواحِدُ وغيره[١].

وجاء قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ على سبيل الاستئناف ولم يُعطف على ما قبله، لأنَّ دلالة ما قبله على كمال قدرة الله تعالى أجلى وأظهر، أي: ونحنُ نقرُّ في الأرحام بعد ذلك ما نشاء أن نقرَّه فيها إلى أجلٍ مسمَّى، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ بعضَ ما في الأرحام لا يشاء الله تعالى إقراره فيها بعد تكامل خلقه فتسقطه[٢].

فالإقرار بمشيئته سبحانه، والإسقاطُ بمشيئته أيضاً، والأجلُ المسمَّى محسوبٌ بدقة وعناية، وإنَّ الزيادة عليه أو الإنقاص منه ليس في مصلحة الجنين والأُم.

وتقديرُ الأجل المسمَّى لولادة الجنين يتعلَّقُ بنموِّه، بحيث يستطيع التلاؤم مع الظروف خارج الرحم، وحين تصبحُ أقطارُ حجم رأسه قد بلغت أقل من أقطار حوض أمه بقليل، بحيث تتم ولادته ببطء ولطف، فلا يمرُّ فجأة فيؤذي ويتأذى، ولا يتأخَّر أكثر مما يلزم، وذلك لأنَّ حوضَ الأم قناةٌ مفصَّلة تفصيلاً دقيقاً على قياس رأس الجنين عند تمام الحمل، ولولا أنَّ الحوض قد أُعِدَّ على قياسه بعنايةٍ لما أمكنتِ الولادةُ، فلو كان الرأس صغيراً فإنه يمرُّ بسرعة تعرِّضه للمرض والنزف الدماغي[٣].

إنه التقدير الإلهي المحكم: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ٢١ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢٢ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ٢٣﴾ [المرسلات].

---

(١) روح المعاني: ١٧/ ١١٧.
(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ٤/ ٦.
(٣) انظر: القرار المكين.

- **من الأشُدِّ إلى أرذل العمر:**

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾ أي: لتبلغوا كمالكم في القوة والعقل والتمييز.

وذُكِرَتْ **لام التعليل** هنا لبيان أهميةِ مرحلةِ بلوغ الأشُد، فهي المرحلةُ التي يصبحُ فيها الإنسانُ مكلَّفاً ومسؤولاً، ولهذا أسند الله تعالى فعل البلوغ إلى المخاطبين تذكيراً لهم بأهمية مرحلة التكليف، وأنَّه أصبحَ لهم فيها استقلال وكسب واختيار.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ بمشيئة الله تعالى وتقديره قبل بلوغ الأشد وبعده، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ وهو سنُّ الضعف والهرم والخرف.

﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي: ليعودَ كهيئته الأولى عندما كان طفلاً فينسى ما علمه، قال تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يسٓ: ٦٨].

وكان النبيُّ ﷺ يستعيذُ من الارتداد إلى أرذل العمر فيقول: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من البخلِ، وأعوذُ بك من الجُبْنِ، وأعوذُ بك أن أردَّ إلى أرذلِ العُمرِ، وأعوذُ بكَ من فتنةِ الدنيا وعذابِ القبرِ**» [رواه النسائي (٥٤٩٦)].

- **الزوجية في المخلوقات:**

ثم ساقت الآية الكريمة دليلاً آخر يبيِّن قدرة الله تعالى على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم، وجاء هذا الدليلُ من الآفاق المحيطة بالإنسان بعد ما سبقَ من الأدلة القائمة في نفس الإنسان، فقال تعالى:

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ﴾ والخطابُ لكلِّ من تتأتى منه الرؤية، وصيغة المضارع **(ترى)** للدلالة على التجدُّد والاستمرار[1].

---

(١) تفسير أبي السعود: ٧/ ٤.

﴿هَامِدَةً﴾ أي: يابسةً ميتةً.

﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: تحرَّك ترابُها لأجل خروج النبات.

﴿وَرَبَتْ﴾ وانتفخت بسبب نموِّ النباتِ وتداخُلِ الماء.

﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أي: مِنْ كُلِّ صنفٍ جميلٍ حَسَنِ المنظر.

وسمَّاه الله زوجاً لأن له زوجاً آخر يقابله من جنسه ونوعه.

ومن الثابتِ علميّاً أنَّ عنصري المذكر والمؤنث موجودان في جميع النباتات كما هو الحال في الإنسان والحيوان، بل إنَّ الزوجية مشاهدةٌ في كل المخلوقات، وهذا من الحقائق العلمية التي أخبر عنها القرآن الكريم قبل أن يكتشفها الإنسانُ بزمن طويل، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقال سبحانه أيضاً: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يسٓ: ٣٦].

وهكذا يتحدَّث القرآن الكريم عن القرابةِ بين أبناء الحياة جميعاً، فيسلكهم في آية واحدة من آياته، وإنَّها للفتةٌ عجيبةٌ إلى هذه القرابة الوثيقة، وإنَّها لدليل على وحدانية الإرادة الدافعة لها هنا وهناك في الأرض والنبات والحيوان والإنسان(١).

هذه الأدلة القائمة في نفس الإنسان وفي الكون المحيط به تدل دلالة قاطعة على وجود الله سبحانه ووحدانيته وكمال قدرته:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ فهو سبحانه الحق وحده في ذاته وصفاته وأفعاله، المحقِّق لما سواه.

﴿وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بدءاً وإعادة، و إلا لما أحيا النطفة والأرض الميتة.

﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن: ١٧/٧٦.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ بمقتضى مشيئته سبحانه وحكمته.

﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا شك فيها.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾.

• **الصنف الثاني من الكفار: المتكبِّرون:**

ثم بيَّن الله تعالى حال الصنف الثاني من الكفَّار، وهم المتكبرون رؤوس الكفر والبدع ودعاة الضلالة، فقال عزَّ شأنه:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾.

أي: بلا عقل صحيح، ولا نقل صريح، بل بمجرد الرأي والهوى[(١)].

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾.

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ أي: معرضاً متكبراً، فإنَّ ثنيَ العطفِ كنايةٌ عن التكبُّر.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ فلا يكتفي بضلاله، بل يسعى لإضلال غيره.

وهذا الصنفُ من الناس لا ينفعُ معه بيانُ الدليل والبرهان، لا ينفعُ معه إلا التهديدُ والوعيدُ، ولهذا قال سبحانه مهدِّداً ومتوعداً:

﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ﴾ أي: ذلَّة وصَغار.

فلا يدع الله عز شأنه المتكبرين والمتعجرفين والضالِّين المضلِّين حتى يحطِّمَ كبرياءهم الزائفة، وينكسها ولو بعد حين، وإنَّما يمهلهم أحياناً ليكون خزيهم أعظم وتحقيرهم أوضح وأكبر، قال ﷺ: «**إنَّ اللهَ لَيُمْلِي للظالمِ حتَّى إذا أخذَه لم يُفْلِتْه**» [رواه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣)].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/٢٠٨.

﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾: وله في الآخرة عذاب أشد وأوجع، ويقال له تقريعاً وتوبيخاً:

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي: ذلك العذاب نتيجة عملك السيِّئ الذي عملته بكسبك واختيارك.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

- **الصنف الثالث من الكفار: الماديُّون النفعيون:**

وهم طلاب الدنيا، عبيدُ الدرهم والدينار، الذين يَزِنون كل شيء حتى العقيدةَ بميزانِ الربح والخسارة، ويوجَدُ هذا الصنفُ من الناس في كل زمان، ولكنَّهم في الزمن الحاضر أكثر عدداً وانتشاراً، بسبب طغيان الحضارة المادية المعاصرة. قال تعالى في شأنهم:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي: وهو على طرف من الدِّين لا ثباتَ له فيه، كالذي يقف في طرف الجيش فإنْ أحسَّ بِظَفَرٍ قرَّ، و إلا فَرَّ.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾ دنيوي في الصحة والسعة.

﴿ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ أي: ثبتَ على ما كان عليه ظاهراً، لا أنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين[1]، فثباتُه في الحقيقة ليس على الإيمان، إنما ثباته على ما حصل له من منفعة مادية.

﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ بلاء أو مكروه في نفسه أو أهله أو ماله.

---

(١) تفسير أبي السعود: ٤/ ٩.

﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: ارتدَّ ورجع عن دينه إلى الكفر.

وفي «**صحيح البخاري**» [٤٧٤٢]: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجلُ يقدمُ المدينةَ، فإنْ ولدتِ امرأتُه غلاماً ونتجتْ خيلُه، قال: هذا دين صالحٌ. وإن لم تلد امرأتُه، ولم تُنْتِجْ خيلُه، قال: هذا دينُ سوءٍ[1].

وقد جرت سنته سبحانه في خلقه أن يمتحن المؤمنين ويبتليهم تمحيصاً لهم، فيظهر سبحانه بهذا صدق الصادقين وكذب المنافقين، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت].

- **في حِمَى الإيمان:**

﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ﴾ لأنَّ الإيمان بالله تعالى فيه خير الدنيا والآخرة.

ورحم الله سيد قطب عندما تحدَّث في ظلال هذه الآية الكريمة عن أهمية العقيدة الإسلامية في حياة الإنسان الدنيوية، فقال: «إنَّ العقيدةَ هي الركيزةُ الثابتةُ في حياة المؤمن، تضطرب الدنيا من حوله، فيثبت هو على هذه الركيزة، وتتجاذبه الأحداثُ والدوافعُ، فيتشبَّثُ هو بالصخرة التي لا تتزعزع... لا ينتظر عليها جزاءً، فهي في ذاتها جزاءٌ، ذلك أنَّها الحمى الذي يلجأ إليه، والسند الذي يستندُ عليه، أجل هي في ذاتها جزاءٌ على تفتُّحِ القلب للنور، وطلبه للهدى، ومن ثَمَّ يهبه الله العقيدة ليأوي إليها، ويطمئنَّ بها، هي في ذاتها جزاءٌ يدرِكُ المؤمنُ قيمتَه حين يرى الحيارى الشاردين من حوله تتجاذبهم الرياح، وتتقاذفهم الزوابع، ويستبدُّ بهم القلق، بينما هو في عقيدته مطمئن القلب، ثابت القدم، هادئ البال، موصول بالله، مطمئن بهذا الاتصال»[2].

وتصديق ذلك في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٠٩.

(٢) في ظلال القرآن: ١٧/ ٧٩.

فما أعظم خسارة هذا الصنف من الناس!:

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ الذي لا عوض عنه و لا تلافي له.

• **الضلال البعيد:**

﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يعبد ويطيع غير الله تعالى.

﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ في حال الإعراض عن عبادته وطاعته.

﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ في حال عبادته وطاعته، لأنَّ النفع والضرَّ بيد الله سبحانه وحده، وهو القائل: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

وقال رسول الله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**احفظِ اللهَ يحفظك، احفظِ اللهَ تجده تُجاهك، إذا سألتَ فأسأل اللهَ، وإذا استعنتَ فاستعن باللهِ، واعلمْ أنَّ الأمةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعوكَ بشيءٍ لم ينفعوكَ إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ لكَ، ولو اجتمعوا على أنْ يضرُّوكَ بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبَه اللهُ عليكَ، رُفعَتِ الأقلامُ، وجفَّتِ الصُّحُفُ**» [رواه أحمد (١/ ٢٩٣) والترمذي (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ أي: عبادة وطاعة ما لا يملك نفعاً ولا ضرراً ضلال بعيد عن الحق والهدى، وعن من بيده وحده النفع والضرر.

ثم بيَّن سبحانه لأولئك الماديين النفعيين الذين يَزِنون عقيدتهم بميزان الربح والخسارة، ويبيعون دينهم بعرض من الدنيا قليل، بيَّن لهم خطأهم باللغة التي يفهمونها ويتأثرون بها، لغة النفع والضرر، فهم عندما يتوجَّهون لغير الله تعالى استجلاباً للنفع ودفعاً للضرر، فإنهم يتوجهون إلى مَن ضرره أقرب إليهم من نفعه:

﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ لأنه يجلب لهم في الدنيا الخزي و الذلَّة

والعار، ويوصلهم في الآخرة إلى العذاب الأليم في النار.

ثم بيَّن سوءَ حال معبودهم بعد أن بيَّن سوءَ عبادتهم، فقال سبحانه:

﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ الناصر.

﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ الصاحب من الأوثان والأصنام ورؤساء الكفر والضلال.

• **الفعَّال لما يريد:**

فعلى الذين يبحثون عن السعادة الحقَّة أن يتوجَّهوا بقلوبهم وعملهم إلى الجنة، فهناك السعادة الحقيقية والنعيم المقيم، عليهم أن يشمِّروا لها، ويعملوا من أجلها، ويتسابقوا على مضمارها ويتنافسوا في ميدانها، ففيها المنفعة الحقَّة التي تُرجى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾.

فهل يوجد أحدٌ غير الله يفعل ما يريد؟! هل في هؤلاء الذين يخشى الناسُ شرَّهم، ويرجون نفعهم مَن يستطيعُ فعلَ كل ما يريد؟! هل فيهم فعَّال لما يريد؟! مَنْ غيرُ اللهِ تعالى يتَّصف بالإرادة المطلقة، والمشيئة التامة النافذة في كل ذرَّة من ذرَّات الموجودات؟! مَنْ غيرُه تعالى يخلقُ الأسبابَ والمسبَّبات؟! مَنْ بيدِهِ ملكوتُ الأرض والسماوات؟!: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]؟!.

• **حُسْن الظن بالله تعالى:**

الله ﷻ هو الخالق المالك المُدَبِّر، وإرادته سبحانه نافذة في كل المخلوقات، والإنسان مملوك ومخلوق، وإرادته تابعة لإرادة خالقه ومالكه ومدبِّر أمره، ولا يمكن أبداً أن تكون إرادة المخلوق أقوى من إرادة الخالق سبحانه، فلا يتحرك متحرِّك، ولا يسكن ساكن في الكون كله إلا بإرادة الله تعالى ومشيئته.

هذا الاعتقادُ أصلٌ كبير من أصول عقيدة التوحيد يجب الانتباه إليه

وملاحظته في كثير من الأمور التي يواجهها الإنسان في حياته، فلا تعترضْ أيُّها الإنسان على الله تعالى إذا ضيِّق عليك في الرزق، فالأمر منوطٌ بمشيئته سبحانه لا بمشيئتك، ولن يأتيكَ من الرزقِ إلا ما شاء الله تعالى وقدَّره لك.

وإذا دعوتَ الله تعالى فلا تتعجَّل الإجابةَ وتقول: دعوتُ فلم يُستجب لي، فقد تكفَّل سبحانه بالإجابة في الوقت الذي يشاء، لا في الوقت الذي تشاء، واعلم أنَّ استعجالَ الإجابة من موانع الإجابة، كما في الحديث الشريف: «**يستجابُ لأحدِكُم ما لَمْ يَعْجَلْ يقولُ: قد دعوتُ فلم يُسْتَجَبْ لي**» [رواه البخاري (٦٣٤٠) ومسلم (٢٧٣٥)].

وإذا كنت في محنة أو ضائقة فثق بالله تعالى، وكن قويَّ الرجاء برحمته سبحانه وفضله، فلا ينبغي لطول المحنة وقوة الضائقة أن تزعزعَ ثقتك بالله تعالى ورحمته، فلا تستبطئْ نصرَ الله تعالى، اعتصمْ بالله، وتمسَّك بتقواه، وتذكر قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق].

فاستبطاء النصر لن يؤدي إلى تعجيله، بل يؤدي إلى حرمانك منه، لأنك تسيءُ الظن بالله تعالى، وهو سبحانه معك يؤيِّدك وينصرك ما دمتَ تُحْسِن الظَّنَّ به سبحانه: «**أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، وأنا مَعَهُ حيْنَ يذكُرُني**» [رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥)].

وسوءُ الظن بالله تعالى يحرِمُك من فضله وإحسانه، فمَن أنتَ حتَّى تسيءَ الظن بالله تعالى؟! أنتَ خلقٌ صغير وضعيفٌ من مخلوقاته التي يعجز عقلك عن الإحاطة بها، ومهما كنت قوي الإرادة وواسع الحيلة فلن تستطيع أن تغيِّر شيئاً أراده الله تعالى وقضاه:

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ۝١٥﴾.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: فليمدُدْ حبلاً إلى سقف بيته.

﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي: ليختنق بقطع نفَسه.

﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ أي: فليتصور في نفسِه هل يُذْهِبُ عملُه هذا غيظَ نفسِه؟!.

فما عليه إلا أن يرضى عن الله تعالى، وأن يكون دائماً على ثقة به سبحانه متوكِّلاً عليه متمسِّكاً بهدي كتابه:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾، معتقداً أنه سبحانه الفعَّال لما يريد:

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾: يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، له الحكمة التامة، والحجة البالغة، لا مُعَقِّب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه.

وكما أنَّ شأن الهداية والضلال في الدنيا منوطٌ بمشيئته تعالى، فهو سبحانه أيضاً يتولَّى يوم القيامة محاسبة الناس والفصل بينهم مهما اختلفت مِللهم ونِحَلهم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

فالله سبحانه شهيدٌ على أفعال جميع المخلوقات، حفيظٌ لأقوالهم، عليمٌ بسرائرهم وما تكنُّ ضمائرهم، وهؤلاء المذكورون في الآية هم أصلُ جميع المِلل والنِّحَل: المؤمنون وهو الناجون منهم، واليهود، والصابئون الذين لا دين لهم، والنصارى، والمجوس، والمشركون.

- **الخضوع والانقياد لله تعالى:**

والدليلُ على كمال قدرة الله تعالى وتمام مشيئته سبحانه أنَّ كلَّ مَن يتفكَّر في المخلوقات التي حوله يعلم أنها منقادةٌ انقياداً تامّاً لمشيئة الله تعالى وتدبيره، خاضعة خضوعاً كاملاً للنواميس الكونية التي أحكمها الله تعالى ببالغ حكمته وباهر صنعته، فالكلُّ في الحقيقةِ مسخَّرٌ ومذلَّل لتدبيره سبحانه، ونافذ في الجميع

أمره ومشيئته، ولا يشذ عن الخضوع لأمره إلا المكلفون من الناس، فالمؤمنون منهم يسجدون لله تعالى سجودَ طاعة وعبادة، والكافرون الذين حقَّ عليهم العذاب يأبون الخضوع والانقياد لله تعالى ويُعْرِضون عن أمره كفراً وعناداً:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (١٨)﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾، وحمل بعض المفسرين السجود على حقيقته وقالوا: إنَّ كل شيء يسجدُ لعظمته سبحانه، وسجود كل شيء مما يختصُّ به(١).

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ﴾: وما أعزَّ أحدٌ نفسه بمثل سجوده لله تعالى وطاعته له، وما أذلَّ أحدٌ نفسه بمثل إعراضه عن طاعة الله وعبادته، ولن يجد له مكرماً يكرمه إذا أهانه الله تعالى وأذلَّه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾: لأنه سبحانه يفعل ما يشاء.

• **الخصمان:**

وتمام مشيئة الله تعالى وإرادته لا يعني أن الإنسان لا مشيئة له ولا إرادة، فقد شاء الله تعالى أن يكون للإنسان المكلَّف مشيئة وإرادة، فله كسب واختيار في إيمانه وكفره وطاعته لله تعالى وإعراضه عنه، والدليل على ذلك أنَّ كثيراً من الناس اختاروا الكفر بالله تعالى، وأعرضوا عن عبادته وطاعته، فأصبح الناس نتيجة ذلك فريقين: فريق مؤمن، وفريق كافر، وحدث بينهم ما هو واقع مشاهد من الخصام والاختلاف والاقتتال بسبب الإيمان والكفر، قال تعالى:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٣/ ٢١١.

﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ ﴾.

﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾، وقد تعدَّدت أقوال علماء التفسير في الذين نزلت بهم الآية الكريمة، وكان أبو ذر رضي الله عنه يقسم قسَماً أنَّ الآية نزلت في الذين برزوا يوم بدر: من المؤمنين: حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم، ومن الكفَّار: عتبة وشَيْبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة.

وقال بعضُهم: هما المسلمون وأهل الكتاب.

وروي عن مجاهد عن ابن عباس: أنَّهم المؤمنون كلهم، والكافرون كلهم، من أيِّ ملَّة كانوا. وهذا القول يجمع الذين نزلت فيهم الآية وغيرهم[1]. وهو أظهر من غيره، لأن خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم.

• ثياب من نار:

وما دام الإنسان يتمتَّع بأهلية الكسب والاختيار فهو مسؤول أمام الله تعالى يوم القيامة عن كسبه واختياره، ويترتب على هذه المسؤولية العقاب والثواب، قال تعالى:

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ أي: تقطع لهم في الآخرة ثياب من نار جهنم. وذُكر بلفظ الماضي، لأن ما كان من أخبار الآخرة فالموعودُ منه كالواقع المحقَّق.

وقد تكون الثياب من قطران، كما في قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

وقد يكون المراد من ثياب النار ما يحيط بهم من النار كإحاطة الثياب، فصارت النار كالثياب كما صار الليل كاللباس في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ [النبأ: ١٠].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢/٢٦.

ومع ثياب النار:

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ وهو الماء الحار المغلي بنار جهنم.

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: يُذابُ به كلُّ ما في بطونهم حتى ينفذَ من جلودهم، قال ﷺ: «**إنَّ الحميمَ ليصبُّ على رؤوسهم، فينفذُ الحميمُ حتَّى يخلصَ إلى جوفه، فيسلتُ ما في جوفه حتَّى يمرقَ من قدميه؛ وهو الصَّهْرُ، ثم يُعادُ كما كان**» [رواه الترمذي].

﴿وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾.

يُضربون بها، **والمقامع**: جمع مقمعة، وهي آلة القمع.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا﴾ أي: من النار.

﴿مِنْ غَمٍّ﴾ أي: كلَّما أرادوا الخروجَ من النار بسبب ما يعتريهم من الغمِّ العظيم.

﴿أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ بأن يردوا من أعاليها إلى أسافلها بمقامع الحديد، فلا خروج لهم من النار أبداً، ويقال لهم تبكيتاً وتقريعاً:

﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

- **ثياب من حرير:**

ثم بيَّن سبحانه مصير الذين آمنوا بعد ما سبق ببيان مصير الذين كفروا فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾، ولا يخفى على المتأمل تغيُّر الأسلوب من الشدَّة والغلظة إلى اللين والطراوة.

وأسندتِ الآيةُ الكريمةُ الإدخالَ إلى الله تعالى تكريماً للمؤمنين، وتعظيماً لشأنهم، ولبيان فضله سبحانه عليهم.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ أي: يتمتَّعون بكل أنواع الزينة ومنها أساور الذهب.

﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ أي: ويحلَّون لؤلؤاً أيضاً، وهو ما يستخرجُ من البحر من جوف الصدف.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي: ثيابهم في الجنة من حرير الجنة، فما أعظم الفرق بين ثياب النار وثياب الحرير!.

- **القول الطيب:**

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: دلَّهم الله تعالى وأرشدهم إلى الجنة، التي لا يسمعون فيها إلا الكلام الطيب، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة].

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: الذي يحمدون فيه ربهم على إحسانه وإنعامه.

وقال بعض المفسرين: **القول الطيب** هو القرآن الكريم، وقيل: لا إله إلا الله، وقيل: الأذكار المشروعة. وأما **الصراط الحميد** فهو الطريق المستقيم في الدنيا.

وهذا المعنى لا يتنافى ـ كما قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ مع المعنى المذكور سابقاً[(١)]، ولعلَّه هو المعنى المراد من الآية، لأنه يتفق مع ما سبق الحديث عنه في موضوع سورة الحج، فإنَّ القرآن الكريم عموماً وكلمة (لا إله إلا الله) خصوصاً أساسُ المجتمع الإسلامي والأمة المسلمة.

ففي القرآن الكريم المنهج الكامل لكلِّ ما يحتاجُ إليه المجتمع من نظم

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٣/ ٢١٣.

وتشريعات وأسس وقواعد، وفي كلمة (لا إلـه إلا الله) العقيدة التي تربط بين أفراد المجتمع الإسلامي، وتخرج منهم الأمة المسلمة التي جعلها الله تعالى خير أمة أخرجت للناس.

إنها الكلمةُ الطيبةُ ذاتُ الجذور الراسخة الثابتة في قلب كل مسلم، والتي تمتدُّ فروعُها عاليةً شامخةً إلى السماء، فيستظلُّ بظلها المسلمون مهما اختلفت أعراقهم وألوانهم، وتباينت ألسنتُهم، وتباعدت بلادُهم وأقطارُهم.

إنها تمثل الرابطة المعنوية التي تربط بين أبناء الأمة المسلمة في مشارق الأرض ومغاربها، يستشعر المسلم من خلالها قوة وعمق الانتماء إلى الأمة المسلمة.



الفَصْلُ الثَّانِي
البَيْتُ الحَرَامُ وفَرِيضَةُ الحَجِّ

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

• **الصَّدُّ عنْ سَبيلِ الله:**

وثمة رابطةٌ أُخرى للأمة المسلمة ذاتُ رحمٍ وثيق بالكلمة الطيبة: **لا إلٰه إلا الله**، وهذه الرابطةُ هي **الكعبةُ المشرفة** في البلد الحرام مكة المكرَّمة، التي جعلها الله تعالى مثابةً للأمة المسلمة وأمناً، ورمزاً ماديّاً وروحيّاً لوحدة المسلمين وتوحيدهم، يتوجَّهون إليها في صلاتهم كل يوم خمسَ مرات، وهم يعبدون الله الواحد الأحد، كما يؤدون في حرمها ورحابها مناسك حجِّهم وعمرتهم، ولهذا جاء الحديث عن بيت الله الحرام في الآيات الكريمة بعد الحديث مباشرة عن الكلمة الطيبة لما بينهما من ارتباط، ولكونهما يمثلان الأساس المادي والروحي للأمة المسلمة، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

لقد عرف أعداءُ الإسلام منذُ فجر الإسلام أنَّ القرآن الكريم وبيتَ الله الحرام وما يؤدَّى فيه من المناسك مقوِّماتُ الأمة المسلمة، فعملوا جاهدين ليُبْعدوا المسلمينَ عن هَدْي القرآن الكريم وشرعه، كما عملوا على وضع المعوِّقات ـ ولا يزالون ـ لصدِّ المسلمين عن التوجُّه إلى بيت الله الحرام وأداء مناسك الحج والعمرة فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ **الصدُّ**: **المنع**، أي: وهم يصدُّون غيرهم، وبهذا حَسُنَ عطفُ المستقبل على الماضي، فالماضي **(كفروا)** والمستقبل **(يصدُّون)** فكأنه قال: إن الذين كفروا من شأنهم الصدُّ[١].

وإن وقائع الماضي والحاضر في المحاولات الكثيرة التي قام بها أعداء الإسلام ولا يزالون يقومون بها للصدِّ عن سبيل الله والمسجد الحرام لتؤكد حقيقة ما أخبر الله عنه في هذه الآية الكريمة، وتبيِّن إعجاز كلام الله سبحانه،

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١٢/ ٣١.

وهو يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

• الصَّدُّ عن المسجد الحرام:

فقد كان رسول الله ﷺ أول مَن صُدَّ عن المسجد الحرام عندما منعه المشركون من قريش من الدخول إلى مكة بعد خروجه إلى الطائف يدعو أهلها إلى الإسلام، ثم صدّته قريشٌ مرةً ثانيةً مع أصحابه في العام السادس من الهجرة عندما أتى مكة معتمِراً، وكان ما حدث بعده من صلح الحديبية.

وبقي أعداءُ الإسلام يعملون على وضع المعوِّقات في وجه الحُجَّاج والعُمَّار بعد أن فتح الله تعالى مكة للنبيِّ ﷺ في العام الثامن من الهجرة، وطهَّرها من الأصنام والأوثان، وأعاد عليه الصلاة والسلام للكعبة المعظَّمة صفاءَ التوحيدِ الذي بُنيت من أجله.

وكانوا يستغلُّون ضعفَ المسلمين وتفرُّقهم بعد أن دبَّ الوَهن والضعف إلى الخلافة الإسلامية، فيتعرَّضون للحُجَّاج والعُمَّار، بل كانوا أحياناً يتمكنون من الوصول إلى بيت الله الحرام في مكة المكرَّمة، ففي سنة (**٣١٧هـ**) تمكَّن بعضُ القرامطة الباطنيون من الوصول إلى مكة المكرمة، فعاثوا في رحاب حرمها وشِعابها فساداً، وقتلوا عدداً كبيراً من الحُجَّاج في داخل المسجد الحرام، وألقوا بجثثهم في بئر زمزم، ونزعوا كسوةَ الكعبة، وقلعوا الحجرَ الأسودَ، وأخذوه معهم إلى بلادهم، فمكث عندهم اثنتين وعشرين سنة حتى ردُّوه في سنة (**٣٣٩هـ**)[1].

وكذلك حاول الصَّليبيون بعد ذلك الوصول إلى بلاد الحجاز، ودخول أرض الحرم، ففي سنة (**٥٧٨هـ**) تعرَّض أرناط الذي كان مسيطراً على حصن الكرك لقافلةٍ من الحجَّاج، فاستولى عليها، ثم وضع مشروعاً ضخماً للزحف على الحجاز، فبنى أسطولاً بحريّاً في أيلة على ساحل البحر الأحمر بعد أن استولى عليها، ثم أغار بأسطوله على ساحل الحجاز، ونزل بالحوراء قرب ينبع، ثم أبحر إلى رابغ، فنزل بها وخرَّبها، فسارع العادل أخو صلاح الدين

---

(١) انظر: البداية والنهاية: ١١/ ٣١٧.

فأرسل أسطولاً من مصر تعقَّب سفنَ أرناط ودمرها أمام ساحل الحوراء، وقتل كلَّ من كان فيها من الصَّليبيين، وتعقَّب الفارِّين إلى الشاطئ فأسرهم جميعاً، وأرسل بعضَهم إلى منًى، فقُتلوا هناك في موسم حج هذا العام[١].

وفي العصر الحاضر أدرك المستشرقون والمنصِّرون أهمية المسجد الحرام ودوره في التأليف بين المسلمين وتوحيدهم، فعملوا على توجيه الدول النصرانية المستعمرة لوضع العراقيل والمعوقات في وجه المسلمين الذين يريدون أداء مناسك الحج والعمرة.

ولما لاحظت الحكومة الهولندية عندما كانت تستعمر أندونيسية أنَّ أكثر الذين ثاروا على حكمها من أجل الاستقلال كانوا من حجاج بيت الله الحرام، أرسلت جاسوساً ادعى الإسلام، وسمَّى نفسه عبد الغفَّار بعد أن كان اسمه كريستيان ستوك، لمراقبة الحجاج، وإرسال التقارير عن مكة وما يجري فيها وخاصة في مواسم الحج.

ومن الكلمات المشهورة التي قالوها ما نُقل عن **وليم جيفور ديلجران** أنه قال: «متى توارى القرآنُ ومدينة مكة من بلاد العرب يمكننا حينئذٍ أن نرى العربيَّ يتدرَّجُ في سبيل الحضارة الذي لم يبعده عنها إلا محمَّد وكتابه»[٢].

وفي موسم حج عام (١٤٠٧هـ) حاول الحجَّاج الإيرانيون الخُمَينيون إثارة الشغب في مكة بعد عصر اليوم السادس من ذي الحجة، وتوجهوا إلى المسجد الحرام، وهم يرفعون صور الخميني، لكنَّ قوات الأمن السعودية تمكنت بحمد الله تعالى من إيقافهم وتفريقهم، وأعادت النظام والأمن إلى ربوع الحرم الشريف، وأدى الحجَّاج مناسك حجِّهم بيُسْر وسهولة.

إن الصدَّ عن المسجد الحرام صَدٌّ عن سبيل الله ودينه وشرعه، والصدُّ عن سبيل الله صدٌّ عن المسجد الحرام، لما بينهما من تلازم واتصال، ولهذا توعَّدَ الله تعالى الذين ينتهكون حرمة المسجد الحرام بأشد أنواعَ الوعيد بعد أن بيَّن

---

(١) انظر: الصراع بين العرب وأوروبة.

(٢) الغارة على العالم الإسلامي؛ وكتاب اللسان العربي والإسلام معاً في معركة المواجهة.

حق جميع المسلمين بعبادة الله وحده فيه، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾: فلا فرق بين **العاكف فيه** وهو المكّي المقيم فيه، **والباد** وهو غير المكّي المسافر إليه؛ فلكلٍّ منهما الحق في عبادة الله تعالى في المسجد الحرام.

● **الإلحاد في الحرم:**

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾؛ وهي جملة شرطية جوابها:

﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

والإلحاد في اللغة: الميلُ، والمراد: الميل إلى الظلم في المسجد الحرام، والمقصود أرض الحرم بحدوده المعروفة حول مكة، حيث يمتد الحرم من المسجد ثلاثةَ أميال من جهةِ المدينة المنورة، وسبعةَ أميالٍ من جهة العراق والطائف، وعشرةَ أميالٍ من جهة جدَّة، وسبعةَ أميالٍ من جهة اليمن.

والإلحاد إلى الظلم يشمل جميع المعاصي الكبائر والصغائر حتى الإرادة السيئة، فلعظمِ حُرمة المكانِ توعَّدَ الله تعالى على النيَّة السيئة فيه، فمَن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب عليها إلا في مكة المكرَّمة، هذا قول ابن مسعود رضي الله عنه وجماعة من الصحابة وغيرهم[١].

● **الأمة المسلمة والبيت الحرام:**

وكما أنَّ للبيت الحرام ارتباطاً وثيقاً بعقيدة التوحيد، فله ارتباط وثيق أيضاً بالأمة المسلمة ووجودها على الأرض، فتاريخُ وجود الأمة المسلمة مرتبط بتاريخ البيت الحرام، فمنذ كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يرفعان قواعد بيت الله الحرام، كانا يرفعان إلى الله تعالى كلما ارتفع البناء هذه الدعوات: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣٦/١٢.

وعندما بوَّأ الله تعالى لإبراهيم عليه السلام مكان البيت، وأرشده إليه، وأمره أن يرفع قواعده، أوصاه أن يطهِّره من كلِّ مظاهر الشرك، ويجعله خالصاً لعبادة الله وحده:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ قال ابن كثير رحمه الله: «هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش، في البقعة التي أُسِّست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له»[1].

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي: اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له من الطائفين الذين يؤدون عبادة الطواف حول الكعبة المشرفة، وهو من أخصِّ العبادات التي لا تؤدَّى في مكان من الأرض سوى بيت الله الحرام، والمصلِّين القائمين في الصلاة الراكعين الساجدين، وقرن الطوافَ حولَ البيتِ بالصلاة إليه، لأنَّهما لا يشرعان إلا مختصَّين بالبيت، فالطوافُ حوله، والصلاة إليه في غالب الأحوال إلا ما استثني من الصلاةِ عند اشتباهِ القبلة، وفي الحرب، وفي النافلة في السفر[2].

والأمر بالطهارة يشمل الطهارة الحسيَّة والمعنوية، أي: وطهِّر بيتي من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلي عنده.

- **تلبية الدعوة:**

وبعد أن تمَّ البناءُ أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يدعو الناسَ إلى حج بيت الله الحرام، ويعلمهم بذلك:

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)﴾.

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ فذُكر أن إبراهيم عليه السلام لما أُمر بدعوة الناس إلى حج

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٣/ ٢١٦.

(٢) المصدر السابق نفسه.

بيت الله الحرم قال: يا ربِّ كيفَ أُبلِّغُ الناسَ، وصوتي لا ينفذهم؟! فقال تعالى: نادِ وعلينا البلاغ. فقام على مقامه، وقال: يا أيها الناسُ إنَّ ربَّكم قد اتخذَ بيتاً فحجُّوه، فيقال: إنَّ الجبال تواضعتْ حتَّى بلغَ الصوتُ أرجاء الأرض، وأسمعَ مَنْ في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل من كتب الله له أنْ يحجَّ إلى يوم القيامة: لبيك اللهمَّ لبيك(١).

وهكذا ظهرت الأمة المسلمة للوجود، أمة التوحيد وأمة الإجابة التي عبدت الله وحده، ولبَّت دعوته، وأصبح الحج منذ ذلك التاريخ رمزاً لتوحيد الأمة المسلمة ووحدتها، الأمة التي تجاوزت الحدود والحواجز، وقطعت البلاد طولاً وعرضاً إلى حرم الله تلبِّي دعوة الله.

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي: مُشاة.

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾: وركباناً.

﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾: من كل طريق بعيد.

ومَن لم يتمكن من هذه الأُمة أن يأتي بيتَ الله الحرام بجسده بسبب العجز والفقر، أتاه بروحه وقلبه واستقبله كلَّما وقفَ يناجي ربه في صلاته.

- **منافع الحج:**

﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ وللحج منافع كثيرة كبيرة جامعة لأمور الدنيا والآخرة، وجاء التعبيرُ عنها بصيغة التنكير للتعظيم والتكثير.

وأعظمُ منافع الحج الدينية: حصولُ الحاجِّ على التوبة والمغفرة، ووصوله

---

(١) ذكره ابن كثير (٣/ ١٢٦) وقال بعده: هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف، والله أعلم.

إلى رضوان الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ حَجَّ فلم يَرْفُثْ، ولم يَفْسُقْ، رَجَعَ مِنْ ذنوبه كيومَ ولدته أُمُّه**» [رواه البخاري (١٥٢١) ومسلم (١٣٥٠)].

وقال أيضاً: «**العمرةُ إلى العمرةِ كفَّارةٌ لما بينهما، والحجُّ المبرورُ ليسَ له جزاءٌ إلا الجنَّة**» [رواه البخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩)].

وهو مؤتمر جامع للمسلمين قاطبةً، مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الزمن منذ إبراهيم عليه السلام، ويجدون محورهم الذي يشدُّهم جميعاً إليه: الكعبة المشرفة، التي يتوجهون إليها جميعاً، ويلتفُّون حولها، ويجدون رايتهم التي يفيئون إليها، راية العقيدة الواحدة التي تتوارى في ظلها فوارقُ الأجناس والألوان والأوطان[(١)].

والحج موسم عبادة وتجارة، ففيه فوائد دنيوية لما يحدث فيه من مبادلات تجارية في مواسمه، فقد أباح الله تعالى الاكتسابَ في مواسم الحج، فقال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

ثم قال تعالى منوِّهاً بمنافع الحج الدينية:

﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ وجاء ذكرها على وجه الخصوص بعد ذكر منافع الحج إجمالاً لأهميتها، ولأنَّها المقصد الأساس من مشروعية الحج.

وذكْرُ الله تعالى: بعبادته وطاعته والتوجُّه إليه بالدعاء، مع التلبية والتسبيح والتكبير والتهليل في هذه البقاع الشريفة التي حرَّمها الله تعالى وفضَّلها على غيرها من بقاع الأرض.

- **الأيام المعلومات:**

ومن منافع الحج: أنه سبحانه جمعَ للحجَّاجِ فضيلةَ العبادةِ في أفضلِ مكان وزمان:

---

(١) في ظلال القرآن: ١٧/ ٨٩.

ـ **فالمكان**: بيت الله الحرام الذي قال فيه النبي ﷺ: «**إنَّ هذا بلدٌ حرَّمه الله يومَ خَلَقَ السماواتِ والأرضَ، وهو حرامٌ بحُرمةِ اللهِ إلى يوم القيامةِ، وإنَّه لم يحِلَّ القتالُ فيه لأحدٍ قبلي، ولم يحلَّ لي إلا ساعةً مِنْ نهارٍ، فهو حرامٌ بحرمةِ اللهِ إلى يوم القيامةِ، لا يُعْضَدُ شوكُهُ، ولا ينفَّرُ صيدُه، ولا يَلتقطُ لُقَطتَه إلا مَنْ عرَّفها، ولا يُختلى خَلاه**» قال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخِر. فقال ﷺ: «**إلا الإذخِر**» [رواه البخاري (١٨٣٤) ومسلم (١٣٥٣)].

وقوله: «**الإذخر**» نبات طيب الرائحة.

وقال رسول الله ﷺ أيضاً في مكة المكرَّمة: «**ما أطيبكِ مِنْ بلدٍ وأحبَّك إليَّ، ولولا أنَّ قومي أخرجوني مِنْكِ ما سكنتُ غيرَكِ**» [رواه الترمذي (٣٩٢٦)].

ـ **والزمان**: الأيام المعلومات، وهي أيام النحر والتشريق، وقيل: عشر ذي الحجة، وقد أقسم الله تعالى بها تنويهاً بفضلها وشرفها بقوله سبحانه: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر].

وقال فيها النبي ﷺ: «**ما مِنْ أيامٍ العملُ الصالحُ فيها أحبُّ إلى الله مِنْ هذه الأيامِ العَشْرِ**» قالوا: ولا الجهادُ في سبيل الله؟ قال: «**ولا الجهادُ، إلا رجلٌ خرجَ يخاطرُ بنفسِهِ ومالِهِ فلم يرجعْ بشيءٍ**» [رواه البخاري (٩٦٩)].

- **من مناسك الحج:**

﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ وهي الإبل، وينضمُّ إليها البقر والضأن والمعز.

وذكرها سبحانه ليدلَّ على أن ذبحَها في أيام النحر مَنْسَكٌ من مناسك الحج، يُسنُّ بعد رمي جمرة العقبة، ويستحبُّ الأكل منها، ولهذا قال سبحانه:

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ وهو أمرٌ للإباحة، وقد أكل النبيُّ ﷺ من لحوم هديه.

﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ أي: المحتاج الذي أصابه بؤس وشدَّة.

ومن مناسك الحج: حلق الشعر أو تقصيره بعد رمي جمرة العقبة وذبح الهدي، قال سبحانه:

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ أي: ثم عليهم بعد الحلق أو التقصير أن يزيلوا ما لحقَ بأجسامهم من أوساخ وأظفار وشعور زائدة.

﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ بإكمال أعمال حجِّهم، فإنَّ الإحرامَ بالحج أو بالعمرة التزامٌ بأداء جميع مناسكهما، فلا ينبغي التحلُّل من الإحرام إلا بعد أداء جميع المناسك.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وهو طواف الإفاضة، ويسمَّى أيضاً طواف الزيارة، وهو الطواف المفروض في الحج، ويُعدُّ ركناً من أركانه، ويؤدَّى في أيام النحر بعد الوقوف بعَرَفَة ورمي جمرة العقبة، وسُمِّي البيت بالعتيق تعظيماً له، فهو أول بيت وضع للناس لعبادة الله تعالى وحده: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران].

والعتيق أيضاً معناه: الجيد الأصيل، وفيه يعتق الله تعالى بفضله وكرمه رقاب المذنبين إذا أتوا تائبين مستغفرين.

- **تعظيم حُرُمات الله:**

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ **وحرمات الله**: جميع ما حرَّمه الله تعالى ونهى عنه في الحج وغيره، ولمَّا كانت مقارفة حرمات الله تعالى في أرض الحرم وأثناءَ القيام بمناسك الحج أقبح وأشنع، ذكرها سبحانه في سياق آيات الحج، والمعنى: ومن يجتنب المحارمَ التي حرَّمها الله تعالى، ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه:

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما جعل الله تعالى على فعل الطاعات ثواباً كثيراً وأجراً جزيلاً، كذلك جعل على

ترك المحرَّمات واجتناب المحظورات[١].

وفي معظم الحالات يكونُ تركُ المحرَّمات، والابتعاد عنها، أشقَّ على الإنسان من فعل الطاعات، إذ يحتاج الإنسانُ إلى مجاهدة نفسه الأمَّارة بالسوء ومغالبة إغراءات شياطين الإنس والجن.

وتشتد المجاهدةُ، وتزداد المعاناة، كلما ازداد الفساد، وانتشرت المعاصي، حتى يأتي زمانٌ يصبحُ القابضُ فيه على دينه كالقابض على الجمر، كما جاء في الحديث الشريف: «**ائتمروا بالمعروفِ، وانتهوا عن المنكرِ، حتَّى إذا رأيتُم شُحّاً مُطاعاً، وهوًى متَّبعاً، ودنيا مؤثرةً، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيه، فعليكَ بنفسكَ، ودَعْ عنكَ أمْرَ العوام، فإنَّ مِنْ ورائكم أياماً الصبرُ فيهنَّ كالقَبْضِ على الجمر، للعاملِ فيهنَّ مثلُ أجرِ خمسينَ رجلاً يعملونَ مثل عَمَلِكُم**» [رواه أبو داود (٤٣٤١) والترمذي (٣٠٦٠) وقال: حديث حسن غريب].

ويصبح أجر العبادة كبيراً يعدل ثواب الهجرة، قال رسول الله ﷺ: «**عبادةٌ في الهَرْجِ كهجرةٍ إليَّ**» [رواه مسلم (٢٩٤٨)] **والهرج**: الاختلاف والفتن.

وللشاب الذي يعظم حرمات الله تعالى، فيجاهِدُ نفسَه ليمنعها عن المعاصي والآثام، فضلٌ كبير عند الله تعالى يوم القيامة، يجعله الله تعالى مع الأصناف السبعة الذين يظلُّهم الله سبحانه في ظل عرشه، فلا يصيبهم خوف ولا فزع، قال رسول الله ﷺ: «**سبعةٌ يظلِّهم الله في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه: إمامٌ عادِلٌ، وشابٌّ نشأَ في عبادةِ اللهِ، ورجلٌ قلبُه معلَّقٌ بالمسجدِ حتَّى يعودَ إليه، ورجلان تحابَّا في اللهِ، اجتمعا على ذلكَ، وتفرَّقا عليه، ورجلٌ دعته امرأةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وجمالٍ فقال: إنِّي أخافُ الله، ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتَّى لا تعلمَ شمالُه ما تنفِقُ يمينُهُ، ورجلٌ ذكرَ اللهَ خالياً ففاضتْ عيناهُ**» [رواه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١)].

وتعظيم حُرُمات الله تعالى تعظيم له سبحانه، وخوف من حسابه وأليم عقابه، قال عزَّ شأنه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٣/٢١٨.

وقال أيضاً: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات].

• التحذير من الشرك وشهادة الزور:

ومن فضل الله تعالى على الأمة المسلمة أنه ما حرَّم عليها شيئاً إلا أحلَّ لها من المُباحات ما يُغني عنه، قال تعالى:

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أحَلَّ الله تعالى لكم أن تنتفعوا بسائر وجوه الانتفاع الموجودة في الأنعام، كالانتفاع من أصوافها وأوبارها وجلودها وألبانها ولحومها وغير ذلك، واستثنيَ ما ذُكر تحريمه في القرآن الكريم لعارض كالميتة والدم المسفوح وما ذُبح على غير اسم الله تعالى.

فعلى المسلمين أن يعظِّموا حُرُماتِ الله باجتنابها، والابتعاد عنها، وخاصة كبائر المحرَّمات، وأقبحُها: الشركُ بالله تعالى، وشهادة الزور:

﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ أي: اجتنبوا وابتعدوا عن الأوثان القذرة. والأمر باجتناب ذوات الأوثان للمبالغة في التنفير عن عبادتها(1).

﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ أي: قول الكذب، ومنه شهادة الزور، قال رسول الله ﷺ: «**ألا أُنبئكُم بأكبرِ الكبائر؟**» ـ ثلاثاً ـ قلنا: بلى، قال: «**الإشراكُ باللهِ، وعقوقُ الوالدينِ، وقتلُ النفسِ**» وكان متكئاً فجلس فقال: «**ألا وقول الزور، وشهادة الزور**» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت!. [رواه البخاري (٥٩٧٦) ومسلم (٧٨)].

وقال رسول الله ﷺ أيضاً: «**عَدَلَتْ شهادةُ الزُّوْرِ الإشراكَ باللهِ تعالى**» [رواه أبو داود (٣٥٩٩) والترمذي (٢٣٠٠)].

وذهب بعض علماء التفسير إلى أنَّ قولَ الزور هو الشركُ بالكلام، وذلك أنَّهم في الجاهليةِ كانوا يطوفون بالبيت، فيقولون في تلبيتهم: لبَّيكَ لا شريكَ لك إلا شريكاً هو لكَ تملكه وما ملك(2).

---

(1) روح المعاني: ١٧/ ١٤٨.

(2) المرجع السابق: ١٧/ ١٤٩.

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾.

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ **حنفاء لله**، أي: مائلين عن كل دين زائغ إلى الدين الحق؛ وهو دين الإسلام القائم على توحيد الله سبحانه.

أو: مخلصين لله تعالى[1]. والإخلاص لا يكونُ إلا بالابتعاد عن كلِّ مظاهر الشرك والوثنية ومنها الرياء وهو الشرك الأصغر.

ثم ضرب سبحانه مثلاً للمشرك في ضلاله وهلاكه وحيرته فقال:

﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سقط منها.

﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ أي: تقطعه الطيور الجارحة وهو في الهواء.

﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ بعيد مُهلِك.

شبَّه الله تعالى بهذا المثل الإيمان بالسماءِ لعلوِّه وعزَّته، والإشراك بالسقوط منها، فالمشرك ساقطٌ من أوج الإيمانِ إلى حضيض الكفر، وشبَّه حَيرة المشركِ وقلقه واضطراب نفسه وتشتُّت أفكاره بالطيور الجارحة وهي تتخطفه وتقطعه وتمزقه.

• **تعظيم شعائر الله:**

﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾.

﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ **الشعائر**: معالم دين الله تعالى، كالأوامر والنواهي والواجبات والمستحبات وأماكن العبادة والطاعات[2].

فشعائر الله أشملُ من حُرُمات الله، إذ الحُرُمات من الشعائر.

وتعظيمُ كلِّ شعيرة من الشعائر بحسبها، فإنْ كانت من العبادات فتعظيمُها

---

(١) تفسير أبي السعود: ٤/١٨.

(٢) انظر: تفسير سورة المائدة في تفسيرنا الموضوعي هذا، وقد أسميناه: (الحلال والحرام في سورة المائدة).

بأدائها على الوجه المشروع، مع الإخلاص لله تعالى، وإن كانت من أماكن العبادة فتعظيمُها باحترامها، والمحافظة على حرمتها، وتطهيرها من أيِّ مظهر من مظاهر الشرك.

والمراد من ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ في هذه الآية هنا: مناسك الحج ومعالمه، فقد جاءت الآيةُ في سياق الآيات التي تتحدَّث عن مناسك الحج، فالكعبةُ المشرفةُ، والطواف حولها بقصد العبادة من شعائر الله، وكذلك أرضُ الحرم، والموقف في عرفات، ومزدلفة، وأماكن رمي الجمار في منى من شعائر الله تعالى، والهدي والسعي بين الصفا والمروة، وغير ذلك من المناسك كلها من شعائر الله ومعالم دينه، يجب تعظيمها والمحافظة على حرمتها.

وحمل كثير من المفسرين الشعائر في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ على الهدايا التي تذبح يومَ النحر بعدَ رمي جمرة العقبة، وتعظيمها بأن يختارها جِساناً سِماناً غالية الأثمان، ولا شكَّ أنها من شعائر الله تعالى ومن مناسك الحج، ولكني أرى حملَ كلمة **الشعائر** في الآية على مناسك الحج عموماً أولى.

﴿فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ أي: فإنَّ تعظيمها ناشئ من تقوى القلوب، وهي التقوى الحقيقية التي يتصف بها المؤمن الصادق، أما تقوى الأعضاء فهي التقوى الصورية الكاذبة التي يتَّصف بها المنافق الذي تخشع أعضاؤه ولكن قلبه ساهٍ لاهٍ[١].

- **التحلُّل من الإحرام:**

﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ۝٣٣﴾.

﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ وهي منافع الحج الذي سبق ذكرها في قوله تعالى: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ [الحج: ٢٨]، والمراد من **الأجل المسمى**: انقضاء أيام الحج.

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ أي: ثم تحلُّل الحجَّاج من إحرامهم وأعمال حجِّهم.

﴿إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ أي: منتهٍ إلى الطوافِ حول بيت الله الحرام طواف

(١) انظر: روح المعاني: ١٧/ ١٥١.

الزيارة أو الإفاضة بعد قضاء المناسك، ويتحللون بهذا الطواف **التحلُّل الأكبر** من الإحرام، كما يقول الفقهاء، ويحلُّ لهم كل ما كان محظوراً عليهم في الإحرام حتى النساء.

وأما **التحلُّل الأصغرُ** من الإحرام فيكون بالحلق أو التقصير بعد رمي جمرة العقبة، فلا يحلُّ لهم بالتحلُّل الأصغر كل شيء، بل يبقى الجماع محظوراً عليهم حتى يطوفوا طواف الإفاضة.

- **الإسلام لله تعالى:**

والتقرُّب إلى الله تعالى بالذبح من العبادات التي شرعها سبحانه لكل الأُمم، قال تعالى:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤)﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: عبادة يتقربون بها إلى الله تعالى، والمراد هنا التقرُّب إليه سبحانه بذبح الأنعام كالهدايا في الحج، والأضاحي يوم النحر، والقصد من هذه العبادات تعظيمُ الله تعالى وبيان فضله سبحانه على عباده.

﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، ولهذا يجب ذبحها على اسمه سبحانه وحده، والتقرُّب بذبحها إليه سبحانه وحده، وفي تشريع عبادة الذبح لكل الأمم دليل على وحدانية الله تعالى.

﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: معبودكم واحدٌ، ولو تنوَّعت شرائع الأنبياء، ونسخ بعضها بعضاً، فالجميعُ يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أي: أخلصوا العبادة لله وحده، واستسلموا لحكمه وحكمته.

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾: وهم المستسلمون لله تعالى، والراضون بحكمه وقضائه.

والإخبات: الخشوع والخضوع والتواضع. والمخبتون هم:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت وخشعت.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ من المصائب والنوائب كالأمراض والمِحن والغربة عن الأوطان، فهم راضون بأحكام الله تعالى الشرعية والقدرية.

﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: الذين يؤدُّون الصلاة كاملةً مستقيمةً بمراعاة أحكامها وأوقاتها.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخير ومساعدة المحتاجين.

وهكذا تُظهر لنا الآيات الكريمة تأثيرَ عقيدة التوحيد على سلوك الإنسان المسلم، وشدَّة ارتباطها بعبادته ومنهج حياته.

● **البُدن من شعائر الله:**

مرَّ معنا أن تعظيم شعائر الله دليل على التقوى في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج]، وهنا يبيِّن لنا سبحانه ارتباط التقوى بشعيرة من شعائره بقوله:

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ **والبُدْن**: جمع بَدَنَة، وهي ناقة أو بقرة تُذبح تقرُّباً لله تعالى، وسمِّيت بدنة لضخامة بدنها، وكثرة لحمها.

﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي: نفع في الدنيا، وأجر في الآخرة.

﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي: قولوا عند ذبحها: باسم الله والله أكبر، اللهمَّ منك ولَك. [أخرجه جماعة عن ابن عباس][(١)].

---

(١) كما في روح المعاني: ١٧/ ١٥٦.

﴿صَوَآفَّ﴾ أي: وهنَّ قائماتٌ قد صففن أيديهنَّ وأرجلهنَّ. وكانوا إذا أرادوا ذبحها قيَّدوها وهي قائمةٌ وذبحوها.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سقطت على الأرض، وهو كناية عن الموت.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ وهو أمر للإباحة والندب، ولو لم يأكل وتصدَّق بكل لحمها جاز.

﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ﴾ وهو الراضي بما عنده من غير مسألة ولا تعرُّض لها.

﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ وهو الفقيرُ المتعرِّض للسؤال.

والأمر بالإطعام للإباحة والندب أيضاً، فيستحبُّ أن يأكل من هَدْي التطوع والتمتُّع والقِران والضَّحايا، ويستحب أيضاً أن يتصدَّق.

ثم بيَّن سبحانه فضله علينا بتسخير هذه الحيوانات لمنافعنا الدينية والدنيوية، فقال:

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أي: ذللناها لكم مع قوتها وضخامة أجسامها، فلا تستعصي عليكم، بل تقودونها وتعقلونها صافَّة قوائمها، ثم تطعنون في لبَّاتها، وهذا كله فضل من الله تعالى عليكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى على فضله وإحسانه.

- **التقوى والإحسان:**

ولا يكون الشكرُ على الحقيقة إلا بتقوى الله تعالى، والانقياد لأمره، والرضا بشرعه وقدره، ولهذا قال سبحانه:

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ فهو سبحانه غنيٌّ عنكم وعن عبادتكم، ولم يأمركم أن تتقرَّبوا إليه بذبحها لحاجته سبحانه إلى لحومها ودمائها.

﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ ولكنَّه سبحانه يتقبل منكم طاعتكم لأمره، وانقيادكم لشرعه.

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ﴾ كرره سبحانه تذكيراً بنعمته وفضله.

﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: لتعظموا الله تعالى وتوحِّدوه وتمجِّدوه.

﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾ أي: على هدايتكم وإرشادكم إلى عبادته وطاعته.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الذين يُخلصون لله تعالى في عبادته، ويُحسنون تطبيق شريعته.

وهكذا نلاحظ أنَّ الآياتِ الكريمةَ تشدُّنا إلى تقوى الله تعالى في كل شعيرة من شعائر دينه، وهي التقوى التي أمر الناس بها في أول السورة عندما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ [الحج: ١].

فكأن الآيات الكريمة تبيِّن للناس حقيقة التقوى، وأنها تلازِمُ المسلمَ بكل عبادة يتقرب بها إلى الله تعالى، كما تبيِّن مآل التقوى وعاقبتها الطيبة؛ وهي الوصول إلى مرتبة الإحسان، وهي أعلى المراتب في العبادة، وكثيراً ما نرى اقتران التقوى بالإحسان، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقوله أيضاً: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

فالتقوى تصل بصاحبها إلى مرتبة الإحسان إذا استقام عليها صاحبها، والإحسانُ أعلى المراتب، وأرفعُ المنازل، كما جاء في الحديث الشريف عندما أتى جبريلُ إلى النبي ﷺ يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان: قال ـ أي جبريلُ ـ: فأخبرني عن الإحسان، قال: «**أن تعبدَ الله كأنَّكَ تراه، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّه يراكَ**» [رواه مسلم (٨)].

❁ ❁ ❁



الفَصْلُ الثَّالِثُ

الجِهَادُ

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ

مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

- **تَمْهِيدٌ: سُؤَالٌ وجَوَابٌ:**

أثار ابن كثير رحمه الله سؤالاً في كتابه «البداية والنهاية» [١١/٣١٧] بعد أن ذكر ما فعله القرامطة الباطنيون عندما انتهكوا حرمة بيت الله الحرام، وقتلوا الحُجَّاج، وأخذوا الحجر الأسود، وقد سبق ذكره في بحث: (الصدُّ عن المسجد الحرام)، فقال رحمه الله: «وقد سأل بعضُهم سؤالاً فقال: قد أحلَّ الله سبحانه بأصحاب الفيل ما ذكره في كتابه، ومعلوم أنَّ القرامطةَ فعلوا بمكة ما لم يفعله أحد، فهلَّا عوجلوا بالعذاب كما عوجل أصحاب الفيل؟».

ثم أجاب على ذلك فقال: «إنَّ أصحابَ الفيل إنَّما عوقبوا إظهاراً لشرف البيت، ولِمَا يُراد به من التشريف العظيم بإرسال النبي الكريم من البلد الذي فيه البيت الحرام، ولم تكن شرائع مقررة تدلُّ على فضله، وأمَّا هؤلاء القرامطة فإنَّما فعلوا ما فعلوا بعدَ تقرير الشرائع، وتمهيدِ القواعد، والعلم بالضرورة من دين الله بشرف مكة والكعبة. . . وكل مؤمن يعلم أنَّ هؤلاء قد ألحدوا في الحرم إلحاداً بليغاً عظيماً فلهذا لم يحتج الحالُ إلى معاجلتهم بالعقوبة، بل أخَّرهم الربُّ تعالى ليومٍ تشخص فيه الأبصار».

وأقول إلى جانب ما ذكره ابن كثير رحمه الله: إنَّ معاجلة الله تعالى بالعقوبة

لأصحاب الفيل بواسطة الطير الأبابيل: حدث قبل الإسلام وقبل ظهور الأمة المسلمة المكلفة بالجهاد، التي أناط الله تعالى بها مسؤولية المحافظة على حُرُماته وشعائره، ومن أهمها وأعظمها: بيت الله الحرام.

فلا ينبغي للمسلمين أن ينتظروا نزول الطير الأبابيل على مَن ينتهكون حرمةَ بيتِ اللهِ الحرام، فالواجبُ ألقي عليهم، والويل لهم إن قصَّروا في القيامِ بواجب الجهاد وحماية حرمات الله تعالى وشعائره وقدسية بيته الحرام.

ولعلَّ مجيءَ أول آيات الجهاد في سياق الآيات الكريمة في سورة الحج بعد الآيات التي تحدَّثت عن بيت الله الحرام، وارتباطه بالأمة المسلمة وعقيدتها ومناسك حجِّها، يؤكِّد مسؤوليةَ الأمة المسلمة في المحافظة على حرمات الله تعالى، وأنَّ من أهمِّ واجباتها وتبعاتها مجاهدة أعداء الإسلام عندما يحاولون انتهاك حرمة بيت الله الحرام، فقد أنهت آيات الجهاد في سورة الحج عصور الطير الأبابيل، وفتحت عهداً جديداً، عهد الأمة المسلمة المجاهدة التي تعرف كيف تصونُ حرماتِ دينها، وتبذلُ دماءَها وأرواحها للمحافظة على حرمة بيت الله الحرام رمز وحدتها وتوحيدها.

• **مشروعية الجهاد:**

ويستدعي تعظيمُ شعائر الله تعالى حمايتها، والمحافظة على حرماتها، وقد مرَّ معنا أنَّ أعداء الإسلام ما فتئوا منذ فجر الإسلام يصدُّون الناس عن دين الله تعالى وعن المسجد الحرام، ويسعَوْن بكل ما أوتوا من قوة ومكر لينتهكوا حرمة شعائر الله تعالى، فلا بدَّ إذن من قوة تقمعُهم، وتدفعُ شرَّهم وكيدهم، ولهذا شرع الله تعالى الجهاد، وجعله من أفضل العبادات التي يتقرب بها المسلم المجاهد إلى الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وعن **عبد الله بن مسعود** ﷺ قال: سألتُ النبيَّ ﷺ: أيُّ الأعمالِ أحبُّ

إلى الله تعالى؟ قال: «**الصلاةُ على وقتِها**» قلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قال: «**برُّ الوالدينِ**» قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «**الجهادُ في سبيلِ اللهِ**» [رواه البخاري (٥٩٧٠) ومسلم (٨٥)].

والجهاد ضرورة للأمة المسلمة لا غنى لها عنه، إذ لا يمكن للأمة المسلمة أن تحمل رسالة الإسلام، وتتحمَّل تَبِعاتها الجسام، وتسعى لنشرها بين الأنام إلا إذا كانت أمةً قويةً، تستطيعُ حماية الدعاة إلى الله تعالى، حتى يبلِّغوا الدعوةَ للناس في يُسْرٍ وأمان.

ولهذا كان تشريعُ الجهادِ في الإسلام مرتبطاً ببداية بناء المجتمع الإسلامي وظهور الأمة المسلمة، فما إن هاجرَ النبيُّ ﷺ إلى المدينة المنورة وشرع يبني المجتمع الإسلامي، ويصوغ نواة الأمة المسلمة حتَّى نزلت أول آيات الجهاد في سورة الحج.

- **وعد ووعيد:**

ومن رحمته ﷻ بعباده المؤمنين: أنه أخبرهم قبل أن يكلفهم بالجهاد وقتال أعداء الإسلام أنه سبحانه يدافع عنهم ويؤيدهم وينصرهم على أعدائهم، فقال عزَّ شأنه:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ۝٣٨﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ وتدل صيغة المبالغة في كلمة ﴿يُدَٰفِعُ﴾ على شدَّة عنايته سبحانه بالمؤمنين المجاهدين، فدفاعه سبحانه عنهم مستمرٌّ لا ينقطِعُ، لأنه سبحانه يعلم أن عدوان الكفَّار على المؤمنين مستمرٌّ لا ينقطع.

وبعد أن وعد الله سبحانه المؤمنين توعَّد الكافرين فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾، لأنه سبحانه يبغض الكفَّار لكثرة خيانتهم لأمانات الله تعالى، وأهمها الإيمان بالله الواحد الأحد، وطاعته وعبادته، والتصديق برسالة رسله، ويبغضهم أيضاً لكثرة كفرانهم لنعمه وجحودهم لفضله.

• **الإِذن بالقتال:**

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ أي: رُخِّص للذين يقاتلهم المشركون ويعتدون عليهم بالقتال.

﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ﴾ بسبب ظلم المشركين لهم، وكانوا يؤذونهم، فيأتي المسلمون النبيَّ ﷺ بين مضروبٍ ومشجوجٍ يتظلَّمون إليه ﷺ، فيقول لهم: «اصبروا، **فإنِّي لَمْ أُوْمَرْ بقتالٍ**»، حتَّى هاجَر، فأنزلت هذه الآية، وهي أول آية نزلت في القتال بعدما نُهي عنه في نيِّف وسبعين آية، على ما روى الحاكم في «المستدرك» [٢٣٧٦] عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

وكلمة ﴿أُذِنَ﴾ تدلُّ على أنهم كانوا ممنوعين من القتال، وكانت الآياتُ الكريمةُ المكية تأمرهم بالصبر، وتقصُّ عليهم قصصَ المؤمنين من أتباع الأنبياء قبلهم، كيف أُوذوا وصبروا حتى أتاهم نصر الله تعالى، وهذا يدلُّ على أنَّ القتالَ في الإسلام ليس غايةً في حدِّ ذاته، بل هو وسيلة لحماية الدعوة الإسلامية وتأمين نشرها بين الناس.

• **قاعدة الانطلاق:**

وتدلُّ الآيةُ أيضاً على أنه لا ينبغي القتال حتى يصبحَ للمسلمين قاعدة انطلاق وارتكاز ينطلقون منها، ويفيئون إليها، فقد بقي النبيُّ ﷺ قبل هجرته إلى المدينة المنورة عدة سنوات يعرِضُ نفسه على قبائل العرب في أسواقها ومواسم حجِّها، يبحث عن مكانٍ يمتنع به حتى يبلِّغَ دعوة ربه[١].

---

(١) انظر: تفسير سورة الإسراء، المسمَّى: (المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء)، وهو جزء من هذا التفسير الموضوعي الكبير.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «فلمَّا استقروا في المدينة، ووافاهم رسول الله ﷺ، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومعقلاً يلجؤون إليه، شرع الله جهادَ الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك»[1].

كان النبيُّ ﷺ يسير في طريق نشر الدعوة وبناء المجتمع الإسلامي على منهج دقيق مقدَّر قدَّره الله العليم الحكيم، ولم تكن تصرفاته عليه الصلاة والسلام ارتجالية انفعالية للأحداث التي واجهها، صبر عليه الصلاة والسلام وأمر أصحابه بالصبر واحتمال المكروه والأذى عندما كان الصبر ضرورة من ضرورات المرحلة التي مرَّت بها الدعوة الإسلامية حينئذٍ، وقاتلَ عندما أصبح القتالُ ضرورةً لحمايةِ الدعوة، وتأمينِ نشرها بين الناس، بعد أن تمكن من استكمال أسباب القتال المادية، وصالح في الحديبية، لأنَّ مصلحة الدعوة في مرحلتها التي وصلت إليها اقتضت الصلح، وفي كلٍّ هذا لم يتأثر عليه الصلاة والسلام بعواطف أصحابه الثائرة وحماسهم الديني المتأجِّج في صدورهم، فالحماس العاطفي لا يصلُحُ لبناء الأمم وإقامة المجتمعات والحضارات.

لماذا يغفل كثيرٌ منَّا عن هذه الحقائق الناصعة الواضحة في كتاب الله تعالى وفي سنَّة رسول الله ﷺ؟!.

فما أكثر ما استغلَّ أعداءُ المسلمين بذكاء ومكر عواطفَ المسلمين ومشاعرهم الدينية، فقادوهم إلى مزالقَ خطرة، وأوقعوهم في شِراك مكرهم وخداعهم.

ثم بيَّن سبحانه سبب الإذن بالقتال فقال: ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ أي: بسبب ظلم المشركين لهم.

ولا يعني هذا أنَّ عليهم أن يقاتلوا فور وقوع الظلم عليهم، **فوقوع العدوان سبب لمشروعية القتال، ولكنَّ مباشرة القتال لا تكون إلا بعد الاستعداد له، والأخذ بالأسباب المادية الموصلة بإذن الله تعالى إلى النصر.**

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٢٥.

فقد بقي الصحابةُ ﷺ مع رسول الله ﷺ يتحمَّلون الظلم والأذى قبل الهجرة ما يزيدُ على عشر سنوات، حتى أذن لهم سبحانه بالقتال.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ وهو سبحانه قادر أن ينصرَ دينه، ويُعلي كلمته من دون قتال، ولكن حكمته تعالى اقتضت أن يبتلي المؤمنين بقتال الكافرين ومجاهدتهم، جاء ذلك صريحاً في قوله ﷻ: ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٤].

وفي قوله سبحانه أيضاً: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

• **الإخراج من الديار:**

وإكراه الإنسان على ترك دياره ووطنه من غير سبب يستدعي ذلك من أشد أنواع الظلم الذي يتعرض له الإنسان، وخاصة إذا أخرج من داره، وأبعد عن أرضه بسبب إيمانه وعقيدته، ومهما وجدَ الغريبُ بيتاً يؤويه، وبلداً يطمئن فيه، فسيبقى يستشعرُ ضعفَ الغربة وكربتها، ويعاني شوقَ الحنين إلى الأوطان، ويبكي على مفارقة الخلّان، ولهذا ذكر سبحانه الإخراج من الديار في معرض بيان بعض أنواع الظلم الذي تعرَّض له المسلمون عندما اضطروا للهجرة من أجل دينهم:

﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ أي: الذين أخرجوا من مكة إلى المدينة من دون إساءة ولا ذنب إلا أنهم وحَّدوا الله تعالى وعبدوه وحده لا شريكَ له، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

- **من سماحة الإسلام:**

ثم بيَّن سبحانه الحكمة من مشروعية الجهاد وقتال الأعداء، فقال:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: لولا أنه سبحانه يدفع بقوم عن قوم، ويكفُّ شرَّ أُناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدِّره من الأسباب، لَفَسَدَت الأرضُ، ولأهلكَ القويُّ الضعيفَ[1].

أو: لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء، لاستولى أهلُ الشرك، وعطلوا ما بنته أرباب الديانات من مواضع العبادات[2].

فالآية تحضُّ على القتالِ المأذونِ به، وتبيِّن ما يترتَّبُ عليه من قمع لأهل البغي والشرك والكفر.

﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ﴾ وهي المعابد الصغار للرهبان.

﴿وَبِيَعٌ﴾ وهي كنائس النصارى.

﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ وهي كنائس اليهود.

﴿وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ والمعنى: لهدِّمت صوامعُ الرهبان، وبيعُ النصارى، وصلواتُ اليهود، ومساجدُ المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً.

وقد دلَّت الآية الكريمة على المنع من هدم كنائس أهل الذمة وبيوت عبادتهم، لأنها جرت مجرى بيوتهم وأموالهم، ولا يجوز أن يمكنوا من الزيادة عليها، ومتى أحدثوا زيادة وجب نقضها[3].

- **بشارة وثناء:**

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ فنصر الله سبحانه عباده المؤمنين مؤكَّدُ الوقوع

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٢٦.

(٢) تفسير القرطبي: ١٢/ ٧٠.

(٣) المرجع السابق نفسه.

والحدوث إذا نصرَ المؤمنون ربهم بطاعته وحده، والتزام شريعته وأحكام دينه، كقوله عزَّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

ثم بيَّن سبحانه ما يترتب على انتصار المسلمين على أعدائهم من نتائج طيبة: من حُسن السيرة، وإقامة العدل، وقمع الشر والظلم، مما يؤدي إلى اتساع العمران وازدهار الحضارات:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، ولا يخفى ما في الآية الكريمة من بشارة لأصحاب النبي ﷺ بالنصر والتمكين في الأرض، وما فيها أيضاً من ثناء عليهم.

وعن **عثمان** رضي الله عنه: هذا واللهِ ثناءٌ قبلَ بلاءٍ. يريد أنَّه سبحانه أثنى عليهم قبل أن يُحدِثوا من الخير ما أحدثوا(١).

﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: ومرجع الأمورِ كلِّها إلى حكم الله تعالى وحده وتقديره.

- **نبي الرحمة:**

اقتضت حكمة الله تعالى ومشيئته أن يكون للنبيِّ عليه الصلاة والسلام الظفر بأعدائه والظهور عليهم بواسطة جهادهم وقتالهم، فشرع الله تعالى الجهاد في الإسلام، وجاهد النبيُّ ﷺ أعداءه بنفسه مع أصحابه حتَّى أظهره الله عليهم، بينما كان نصرُ الله تعالى للأنبياء السابقين يتمُّ بإهلاك الحقِّ سبحانه لأعدائهم بواسطة ما أنزل عليهم من أنواع العذاب الذي استأصلهم.

---

(١) تفسير أبي السعود: ٤/ ٢٢.

فقد أهلكَ سبحانه قومَ نوحٍ بالغرق، وكذلك فعل سبحانه بفرعون وقومه، كما أهلكَ قومَ صالح بالصيحة، وقومَ لوطٍ بقلب بلادهم، وجعل عاليها سافلها، وقوم هود بالريح الصرصر العاتية . . . إلخ.

وبهذا امتاز النبيُّ ﷺ على غيره من الأنبياء، فهو نبي الرحمة الذي لم يَدْعُ على قومه رغم كل الأذى والعذاب الذي لقيه منهم، وكان عليه الصلاة والسلام يدعو لهم، وإذا قيل له: ادعُ على المشركين؛ قال ﷺ: «**إني لم أبعث لعَّاناً وإنما بُعِثْتُ رحمة**» [رواه مسلم (٢٥٩٩)].

ومما يدل على كمال رحمته وشفقته عليه الصلاة والسلام أنَّه لما كذَّبه قومه أتاه جبريل عليه السلام فقال له: إنَّ اللهَ تعالى قد سمعَ قولَ قومِكَ لكَ وما ردُّوا عليك، وقد أمرَ مَلَكَ الجبالِ لتأمرَهُ بما شئتَ فيهم، فناداه مَلَكُ الجبالِ، وسلَّمَ عليه، وقال: مُرْني بما شئتَ، إنْ شئتَ أنْ أطبقَ عليهم الأخشَبين، قال النبيُّ ﷺ: «**بل أرجو أنْ يخرِجَ اللهُ مِنْ أصلابِهم مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وحدَه، ولا يشركُ به شيئاً**» [رواه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥)].

والأخشبان: جبلان في مكة يكتنفانها؛ وهما: أبو قبيس وقعيقعان.

● **الاعتبار بالآثار:**

ولهذا جاءت الآيات الكريمة بعد آيات الجهاد مباشرة تتحدث عن الأمم السابقة التي كذَّبت رُسُلها، وإهلاك الله سبحانه لها بما استأصلها، حتى لم يبقَ منها إلا آثارها لتكون عبرة لكل مَن يأتي بعدها:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: فكيف إنكاري عليهم، ومعاقبتي لهم، بعد أن أنظرتهم وأخَّرتهم.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: كم من قرية.

﴿أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مكذِّبة لرسلها.

﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ وهاهي الآن قد أصبحت خالية، قد تخرَّب عمرانها، وتهدمت أركانها، بعد أن أهلك الله تعالى أهلها وسكانها.

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ لا يستسقي منها أحد.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ منيع مرتفع، ومع شدة بنائه وارتفاع حصونه أنزل الله تعالى عذابه على سكانه.

ثم وجهت الآية الكريمة الدعوة إلى المشركين للسير في الأرض، والنظر في آثار الأمم السابقة نظر الاعتبار:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ فيعتبرون بما يرون من آثار، وما يسمعون من أخبار.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي: ليس العمى الحقيقي عمى البصر، ولكنه عمى القلوب التي لا تعتبر.

• الأجل المُسَمَّى:

والله سبحانه لا يعجل لِعَجَلة عباده، فقد كان مشركو قريش يستعجلون نزول العذاب بهم عناداً ومكابرة، جاء ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

فأنزل الله تعالى ردّاً عليهم:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾.

فاليوم الذي قدَّره سبحانه للانتقام منهم لا بدَّ أن يأتي، وإنَّ مقدار ألف سنة عند خَلْقِه كيومٍ واحدٍ عنده بالنسبة إلى حِلْمِه سبحانه(١).

فلكل شيء عنده أجلٌ لا يتقدَّم ولا يتأخر، وحتى الأمم والحضارات لها آجالها المحددة التي لا تتغير ولا تتبدل، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، ولهذا قال سبحانه هنا:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: أخَّرت عنها العذاب مع أنها ظالمة.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب عندما حان الأجل المسمى لها.

﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ فمآل ومرجع جميع الكائنات إلى حكم الله تعالى وقدره.

• **النبيُّ النذير:**

ثم أمرت الآيات الكريمة النبي ﷺ أن يوجِّه للناس هذا النداء:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾.

إن جو التخويف والتهديد هو الجو المخيِّم على سورة الحج في أغلب آياتها، فإنَّ كثيراً من آياتها اتجهت إلى الوعيد والتهديد، فقد ابتدأت بمطلع عنيفٍ مخيفٍ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾.

ثم انتقلت إلى مشاهد العذاب في جهنم: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٢٨.

ثم بدأت بتشريع الجهاد والقتال، وفيه ما فيه من عنف وشدَّة.

وبعده نقلتنا الآيات إلى مصارع المكذِّبين وآثار المعذَّبين: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

ثم أوصلتنا الآيات إلى هذا النداء من النبي ﷺ للناس:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، ولا يخفى ما تحمل كلمة (**نذير**) من تهديدٍ ووعيدٍ، مع أنه عليه الصلاة والسلام نبيُّ الرحمةِ كما مرَّ معنا، فهو بشيرٌ قبل أن يكون نذيراً.

تُرى هل لهذا الجو المخيِّم على سورة الحج علاقة بالمرحلة التي نزلت السورة فيها؟ وقد مر معنا أنَّ سورة الحج نزلت في الوقت الذي بدأ فيه النبي ﷺ يُرسي قواعد المجتمع الإسلامي الجديد، ويضعُ نواةَ الأمة المسلمة، وجوُّ التهديد والوعيد يعكِسُ لنا شدَّةَ الحرصِ على سلامة القواعد والأسس ومتانتها.

فبناء المجتمع الإسلامي الجديد وظهور الأمة الإسلامية من أعظم الأحداث التي شهدَها تاريخ البشرية على هذه الأرض، إنَّه يمثِّل ولادة حضارة إنسانية جديدة، يمتدُّ تأثيرُها إلى جميع شعوب الأرض ومجتمعاتها، فالواجب يقتضي أن تكون الأسسُ للمجتمع الجديد متينةً وسليمةً وواضحةً كي تتمكن هذه الأمة من تحمُّل تبِعاتها ومسؤولياتها الكبيرة تجاه البشرية كلها في مشارق الأرض ومغاربها.

وبعد الإنذار الذي توجَّه به النبي ﷺ إلى جميع الناس بيَّنت الآيات حالَ من آمن ورجع عمَّا هو عليه من الكفر فقالت:

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾.

وحال الذين ظلُّوا متمسكين بكفرهم معارضين لدعوة النبي ﷺ:

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا﴾ أي: بذلوا جهدهم في إبطالها.

﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ معارضين لها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ سمَّاهم أصحاباً لجهنم؛ لشدَّة ملازمتهم لها وطول مكثهم فيها.

- **جدال وضلال:**

وسعي المشركين في إبطال آيات الله تعالى أمر معهود عند جميع الأمم التي كذَّبت دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾، والنبي أعمُّ من الرسول، فالنبي مَن نبَّأه الله تعالى، وأوحى إليه، فإذا أمره تعالى بالتبليغ صار رسولاً.

﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أي: إذا قرأ شيئاً من الآيات ألقى الشيطان الشُّبه على الكفار، ليجادلوا الرسولَ بالباطلِ، ويردُّوا ما جاء به، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ولا يخفى ما في الآية الكريمة من مواساة للنبي ﷺ، وتسلية عمَّا يلقاه من عناد المشركين وجدالهم في آيات الله تعالى التي كان يتلوها عليهم.

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: فيبطل الله تعالى ما يلقيه الشيطان من تلك الشبه، إما بتوفيق النبي ﷺ لردِّه، أو بإنزال ما يردُّه.

﴿ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ أي: يأتي بها محكمةً مثبتةً، لا يستطيع أحد أن يعترضَ عليها بوجه من الوجوه.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾.

ثم بيَّن تعالى الحكمة من تمكين الشياطين من إلقاء الشبه على الكفَّار، فقال:

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً﴾ أي: ابتلاءً واختباراً.

﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك ونفاق.

﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: الكفَّار المُجاهرين بكفرهم.

• **قسوة القلب:**

فكِلا الفريقين من الكفَّار يحمل في قلبه علةً تجعله يتقبَّل نزغَ الشيطان ووسوسته، فالعلَّةُ في قلوبِ الفريق الأول النفاقُ والشكُّ، والعلةُ في قلوبِ الفريق الثاني قسوةُ القلبِ.

وثمة علاقة بين العلتين، فقسوة القلب مقدِّمة للنفاق والكفر. وكثرة المعاصي وإدمانها تؤدي إلى قسوة القلب، التي تدفع بصاحبها إلى اتباع هواه، حتى لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أُشْرِبَ من هواه، كما جاء في الحديث الشريف: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ على القلوبِ كالحصيرِ عُوداً عُوداً، فأيُّ قلبٍ أُشربَها نُكِتَ فيه نكتةٌ سوداءُ، وأيُّ قلبٍ أنكرَها نُكتَ فيه نكتةٌ بيضاءُ، حتى يصيرَ على قلبين: على أبيضَ مثلَ الصفا، فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامتِ السماواتُ والأرضُ، والآخر أسودُ مُرباداً، كالكوزِ مُجَخِّياً، لا يعرفُ معروفاً ولا يُنكرُ منكراً إلا ما أُشْرِبَ مِنْ هواه**» [رواه البخاري (٥٢٥) ومسلم (١٤٤)].

و«**المرباد**»: الذي في لونه غبرة. و«**المجخِّي**»: المنكوس أو المائل.

وتدفع قسوة القلب صاحبها إلى إنكار آيات الله تعالى وجحودها كما فعل بنو إسرائيل، قال تعالى توبيخاً لهم على إنكارهم لآياته التي شاهدوها بعد إحياء الميت لهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا

يَنفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

فلا خير يُرجى من أصحاب القلوب القاسية، ولهذا قال تعالى فيهم:

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: في عداوةٍ وضلالٍ وعنادٍ بعيد.

ولا علاجَ للقلوب القاسية إلا بالتوبة والإنابة والإكثار من ذكر الله تعالى وعبادته وطاعته: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وقد مر معنا في صفات المخبتين قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج].

وقال تعالى هنا يبيِّن الآثار الحميدة الطيبة للخشوع والإخبات:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، فشتَّان بين أصحاب القلوب القاسية وعنادهم وجدالهم لإبطال آيات الله تعالى، وبين أصحابِ القلوبِ المخبتة الخاشعة الذين علموا أن القرآن الكريم حق ثابت أنزله الله تعالى:

﴿فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ انقياداً وخشوعاً لكلام الله تعالى، الذي تخضع وتخشع لعظمته الجبالُ لو رُكِّبَ فيها ما في الإنسان من شعور وإدراك، ثم أنزل عليها كلام الحق سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، مكافأة لهم على إخباتهم وخضوعهم وخشوعهم لكلامه سبحانه، فيتولَّاهم برحمته وعنايته، ويثبِّتهم على الصراط المستقيم، فلا يضلُّون ولا يزلُّون، ويحفظهم من فتن الشيطان وضلالاته بهدايتهم إلى ما يردُّها ويبطلها.

• **اليوم العقيم:**

وأما أصحابُ القلوب القاسية من المنافقين والمشركين فيظلُّون يتخبطون في ظلماتِ كفرهم ونفاقهم وشكِّهم:

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في شك وحيرة من القرآن الكريم.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، وسمِّي عقيماً لأنه منفرد عن سائر الأيام، لا مثل له في شدَّته، أو لا يوم بعدَه، كأنَّ كلَّ يوم يلدُ ما بعده من الأيام، فما لا يومَ بعده يكون عقيماً[1].

ويؤكد أن اليوم العقيم هو يوم القيامة قوله سبحانه بعد ذلك:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ فهو سبحانه وحده المالك والحاكم يوم القيامة فلا مُلْك لأحد غيره ولا حكم.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

في مقابلة استكبارهم وجحودهم بآيات الله تعالى وسعيهم في إبطالها.

---

(١) روح المعاني: ١٧/ ١٧٥.

- **قصة الغرانيق:**

لا بدَّ لنا عند هذه الآيات الكريمة أن نتعرَّض لقصة الغرانيق التي ذكرها كثيرٌ من المفسرين عند تفسيرهم لهذه الآيات الكريمة، وأُولعَ بها المستشرقون وأعداءُ الإسلام.

والغرانيق: جمع غُرنوق، وهو في الأصلِ الذَّكرُ من طير الماء طويل العنق، وتقال للشابِّ الممتلئ شباباً وحُسناً وبياضاً، وأريد بها هاهنا الأصنام[١].

فقد روي: أنَّ النبيَّ ﷺ لما قرأ **سورة النجم** وقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ قال: (تلك الغرانيقُ العُلى، وإنَّ شفاعتها لتُرتجى)، ويروى: (ترتضى)، وفي رواية: (إنَّ شفاعتها لترتجى، وإنها لمعَ الغرانيقِ العُلى)، وفي أُخرى: (والغرانقةُ العُلى، تلك الشفاعةُ ترتجى).

فلمَّا ختمَ السورةَ سجد، وسجدَ معه المسلمون والكفَّار لمَّا سمعوه أثنى على آلهتهم، وما وقع في بعض الروايات: أنَّ الشيطانَ ألقاها على لسانه، وأنَّ النبيَّ ﷺ كان يتمنَّى أن لو نزل عليه شيءٌ يقارِبُ بينه وبين قومه، وفي رواية أخرى: أن لا ينزلَ عليه شيءٌ ينفِّرهم عنه، وأنَّ جبريلَ عليه السلام جاءه فعرض عليه السورةَ، فلمَّا بلغ الكلمتين قال له: ما جئتُكَ بهاتين، فحزنَ بذلك النبيُّ ﷺ، فأنزل الله تعالى تسلية له: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...﴾ الآية [الحج: ٥٢].

وهذه القصة مردودةٌ من عدة وجوه:

١ ـ **فهي من ناحية السند مردودة، فلم يخرِّج حديثَها أحدٌ من أهل الصِّحة،** ولا رواهُ ثقة بسندٍ سليمٍ متصل كما قال القاضي عياض في «الشفا»[٢].

ووصف ابنُ كثيرٍ رحمه الله أسانيدَها بعد أن أوردها فقال: «ذكرها محمد بن إسحاق في «السيرة» بنحو من هذا، وكلُّها مرسلاتٌ ومنقطعات»[٣].

---

(١) انظر: شرح الشفا، للقاري: ٤/ ١٤٠.

(٢) شرح الشفا: ٤/ ١٤٤.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٣٠.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «الأحاديث المروية في نزول هذه الآية ليسَ فيها شيءٌ يصحُّ، ثم نقل عن ابن عطية قوله: وهذا الحديثُ الذي فيه ـ هي الغرانيق العلى ـ وقعَ في كتب التفسير ونحوِها، ولم يدخله البخاريُّ ولا مسلمٌ، ولا ذكره في علمي مصنِّفٌ مشهور»(١).

وقال الشيخ الآلوسي رَحِمَهُ اللهُ: «وقد أنكر كثيرٌ من المحقِّقين هذه القصة، فقال البيهقي: هذه القصةُ غيرُ ثابتةٍ من جهة النقل، وذكر الشيخ أبو منصور الماتريدي في كتاب «قصص الأنبياء» أنَّ قوله: (تلك الغرانيق العُلى) من جملةِ إيحاءِ الشيطان إلى أوليائه من الزنادقة حتى يلقوها بين الضعفاء وأرقَّاء الدين ليرتابوا في صحة الدين، وحضرةُ الرسالةِ بريئةٌ من مثل هذه الرواية»(٢).

٢ ـ وهي مردودة أيضاً بسبب اضطراب متنها، وكثرة الاختلاف بين رواتها، فقائل يقول: إنَّه في الصلاة، وآخر يقول: قالها في نادي قومه حين أنزلت عليه السورة، وآخر يقول: قالها وقد أصابته سِنةٌ، وآخر يقول: بل حدَّث نفسَه فَسَها، وآخر يقول: إنَّ الشيطان قالها على لسانه ...إلى غير ذلك من اختلاف الرواة.

● **عصمة النبي ﷺ من الشيطان:**

٣ ـ وهي مردودة من جهة المعنى، لأنَّها تدلُّ على أنَّ للشيطان تسلطاً على النبي ﷺ، وهو بالإجماع معصوم من الشيطان، فلا سلطانَ للشيطان على المخلصين من المؤمنين: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

فكيف يكون له سلطان على رسول الله ﷺ المعصوم بعصمة الله تعالى ورعايته؟!: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨].

وكيف يستطيع الشيطان أن يدنوَ من النبيِّ ﷺ حينما ينزل عليه الوحي

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢/ ٨١.

(٢) انظر: روح المعاني: ١٧/ ١٧٧.

والملائكة تحيط به من كل جانب، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن] أي: قد يخصه بمزيد من الملائكة يحفظونه، ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ [الجن: ٢٨].

والمعنى: أنه سبحانه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي[(١)].

ولا يستطيعُ الشيطانُ أن يتشكَّلَ بصورة النبي ﷺ كما أنه لا يستطيع أن يتصوَّر بصورة المَلَك، قال القاضي ابن العربي رحمه الله: «تصور الشيطان في صورة المَلَك مُلَبِّساً على النبي ﷺ كتصوره في صورة النبيِّ ملبِّساً على الخلق، وتسليطُ الله تعالى له على ذلك كتسليطه في هذا، فكيف يسوغ في لبٍّ سليم استجازة ذلك؟!»[(٢)].

وقد صحَّ أن النبيَّ ﷺ قال: «**مَن رآني في المنامِ فَقَدْ رآني، فإنَّ الشيطانَ لا يَتَمَثَّلُ بي**» [رواه البخاري (٦٩٩) ومسلم (٢٢٦٦) واللفظ له].

وقال أيضاً: «**مَن رآني في النومِ فقد رآني، فإنَّه لا ينبغي للشيطانِ أن يتشبَّه بي**» [رواه مسلم (٢٢٦٨)].

وقال أيضاً: «**مَنْ رآني فقد رأى الحَقَّ**» [رواه البخاري (٦٩٩٦) ومسلم (٢٢٦٧)].

وعن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما مِنْكُمْ مِنْ أحدٍ إلا وقد وُكِّلَ به قرينُهُ مِنَ الجِنِّ**» قالوا: وإيَّاكَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**وإيايَ، إلا أنَّ الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرُني إلا بخيرٍ**» [رواه مسلم (٢٨١٤)].

- **السجود لله تعالى:**

أما سجودُ المشركينَ مع النبيِّ ﷺ حين سجدَ في آخر **سورة النجم**، فقد رواه البخاري [٤٨٦٣] ومسلم [٥٧٦] وأبو داود [١٤٠٦] والنسائي [٩٥٨] وغيرهم، وليس فيه أيُّ ذكر لقصة الغرانيق، فعن ابن مسعود رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ:

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٣٤.

(٢) روح المعاني: ١٧/ ١٧٨.

والنجم، فسجد فيها، وسجدَ كل مَنْ كان معه غير أنَّ شيخاً من قريشٍ أخذَ كفّاً من حصًى أو ترابٍ ورفعَه إلى جبهته وقال: يكفيني هذا.

وروى البخاري [٤٨٦٢] والترمذي [٥٧٥] عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ الله ﷺ سجدَ **بالنجم** وسجدَ معه المسلمونَ والمشركونَ والجنُّ والأنسُ.

وسبب سجود المشركين تأثُّرهم بسلطان آيات القرآن الكريم وبلاغتها، وما اعتراهم من خوفٍ عند سماعِ ما فيها من تهديدٍ شديدٍ، ووعيدٍ أكيدٍ، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم].

فغلب الخوف على قلوبهم أن ينزل مثل ذلك فيهم[١].

وتأثرهم بالقرآن الكريم عند سماع ما فيه من آيات الوعيد والتهديد ليس غريباً عليهم، فقد روي: أنَّ عتبة بن ربيعة لمَّا سمعَ النبيَّ ﷺ يقرأ **سورة فُصِّلت**، وفيها قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] أمسكَ على فمِ الرسولِ ﷺ وناشدَه الرَّحِمَ، ورجعَ إلى المشركين من قريشٍ، وهو يقولُ: أمسَكْتُ بفيْه وناشدتُهُ الرَّحِمَ أن يكفَّ، وقد علمتُم أنَّ محمَّداً إذا قال شيئاً لم يَكْذِبْ، فخشيتُ أن ينزلَ بكمُ العذابُ[٢].

وكانوا يتواصَون برفع أصواتهم وإحداث ضجة أثناء قراءة النبي ﷺ حتى لا يسمعوا القرآن الكريم ولا يتأثروا به: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وسجود المشركين هذا كان سبباً لعودة بعض المهاجرين إلى الحبشة، فقد تناقل الناس خبر السجود حتى وصل إلى مسامع المسلمين في الحبشة، فظنوا أن المشركين من قريش دخلوا في الإسلام فعاد بعضهم إلى مكة المكرَّمة.

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٧/ ١٨٣.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٤/ ٩١.

• **اتهام باطل:**

فقصةُ الغرانيق مردودةٌ من جهة النقل والعقل، ولا حاجة إلى تأويلها على فرض صحتها، كما فعل كثير من المفسرين.

وقد استبعد سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ أن تكونَ قصة الغرانيق سبباً لنزول الآية، ولكنَّه حاول تأويلها فلم يوفَّق، وجانبه الصواب، وذكر معنًى يصادِمُ ما قرره قبلَ ذلك عندما ردَّ حديثَ قصَّةِ الغرانيق فقال: وهو من ناحية موضوعه يصادِمُ أصلاً من أصول العقيدةِ، وهو عصمةُ النبيِّ ﷺ من أنْ يَدُسَّ عليه الشيطانُ شيئاً في تبليغ رسالته.

اتَّهم سيد قطب الرسلَ بأنهم يودُّون لو هادنوا الناس فيما يعزُّ على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات، فيسكتوا عنها مؤقتاً لعلَّ الناس أن يفيئوا إلى الهدى، فإذا دخلوا فيه أمكنَ صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة، ويودُّون مثلاً لو جاروهم في شيءٍ يسيرٍ من رغبات نفوسهم، رجاء استدراجهم إلى العقيدة، على أمل أن تتمَّ فيما بعدُ تربيتهم التربية الصحيحة التي تطرد هذه الرغبات المألوفة، ويودُّون... ويجدُ الشيطانُ في تلك الرغبات البشرية فرصةً للكيدِ للدعوة، وتحويلها عن قواعدِها، وإلقاءِ الشبهات حولها، ولكنَّ الله يحول دون كيدِ الشيطان، ويبيِّنُ الحكمَ الفاصل فيما وقع من تصرفات أو كلمات[(١)].

ولا أدري كيف وقع رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا التناقض، واتَّهم الرسلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بهذه التهمة الباطلة التي تصادِمُ عصمتهم عليهم الصلاة والسلام؟!.

ولا أظنُّ أن سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ كان يجهل حياة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولا يعلمُ صلابتهم في دين الله تعالى، وشدة تمسكهم برسالته، واتِّباعهم لوحيه، وخاصة نبيِّنا محمداً ﷺ.

ألم يقرأ سيد سيرةَ النبيِّ ﷺ في مكة، والمحاولات الكثيرة التي بذلها المشركون ليجعلوا النبيَّ ﷺ يتركُ تسفيه أحلامهم، وعيبَ آلهتهم، وأنهم سعَوا إلى عمِّه أبي طالب لهذا الأمر؟! وكيف أنَّ النبيَّ ﷺ واجههم بردِّه الحازم الذي

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١٧/١٠٨.

قال فيه لعمِّه: «**يا عمّ، واللهِ لو وضعوا الشمسَ في يميني، والقمرَ في يساري على أن أتركَ هذا الأمرَ حتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أو أهلِكَ دونه ما تركتُه**»؟![١].

فكيف يمكنُ أن نتصور أن يُجاريهم النبيُّ ﷺ في شيء من رغبات نفوسهم؟! ألم يقرأ عن ثباته عليه الصلاة والسلام عندما كان يعرِضُ نفسه على قبائل العرب في أسواقهم ومواسم حجِّهم، يطلب منهم أن يمنعوه حتى يبلِّغ دعوة ربه؟! وكيف رفضَ ﷺ طلبَ بعض القبائل أن يجعل لهم الأمرَ مِنْ بعده، فردَّ عليهم: «**الأمر لله يضعه حيث يشاء**»؟![٢].

ثم ألم يقرأ قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم]؟! فهل داهنهم النبيُّ ﷺ وتمنى أن يجاريهم في شيء يسير من رغبات نفوسهم؟! اللهمَّ لا.

• **أمثلة مردودة:**

وجانب سيد قطب رحمه الله الصوابَ أيضاً في الأمثلةِ التي ذكرها تأييداً لرأيه:

ذكر قصة النبيِّ ﷺ مع ابن أم مكتوم الأعمى، عندما أتى إليه عليه الصلاة والسلام يسأله عن أمر من أمور دينه، فأعرضَ النبيُّ ﷺ عنه، لأنه كان مشغولاً بدعوة بعض كبار مُشركي قريش إلى الإسلام، فعاتبه الله سبحانه بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس]، لكنَّ حرصه عليه الصلاة والسلام على نشر الإسلام ليسَ مجاراةً لرغبات المشركين، ولا سكوتاً على بعضِ عاداتهم وتقاليدهم وموروثاتهم، فالمثالُ بعيدٌ جدّاً عن المعنى الذي ذهبَ إليه سيد رحمه الله.

ثم ذكر سيد رحمه الله المثال الثاني، وهو ما روي في «**صحيح مسلم**» [٢٤١٣]: عن **سعد بن أبي وقاص** رضي الله عنه قال: كنَّا مع رسولِ اللهِ ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطردْ هؤلاءِ لا يجترئونَ علينا، قال: فوقع في نفس رسولِ اللهِ ﷺ ما شاءَ أن يقعَ، فحدَّثَ نفسَه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢].

---

(١) سيرة نبي الهدى والرحمة.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وقال سيد تعليقاً عليه: «وهكذا ردَّ الله للدعوة قيمها المجردة، وموازينها الدقيقة، وردَّ كيدَ الشيطانِ فيما أرادَ أن يدخلَ من تلك الثغرة، ثغرة الرغبة البشرية في استمالة كُبراء قريش بإجابة رغبتهم»(١).

ومَن يقرأ هذه الكلمات يظن أنَّ قيم الدعوة ضاعت، وموازينها الدقيقة اختلَّت، بمجرد حديثِ نفسٍ حدَّث النبيُّ ﷺ به نفسَه، وما ندري ما هو هذا الحديث، ولماذا نسيءُ الظنَّ بالنبي ﷺ ولا نقول: إن الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ. . .﴾ نزلت ردّاً على طلب المشركين ـ اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ـ ولم تنزل ردّاً على ما وقعَ في نفسِ رسولِ اللهِ ﷺ، ونحن لا ندري ما وقع في نفسه عليه الصلاة والسلام؟!.

وحاول سيد قطب رحمه الله أن يلحقَ قصة زواج النبيِّ ﷺ من السيدة زينب بنت جحش بعدَ أن طلَّقها مولاه زيدُ بن حارثة رضي الله عنه بالمثالين السابقين فقال بعد أن ذكر القصة المختصرة: «وهكذا أنفذ اللهُ شريعته وأحكمَها، وكشف ما خالجَ خاطِرَ رسول الله ﷺ من كراهيةِ القومِ لزواجه من مطلَّقة دَعِيِّه، ولم يمكِّنِ الشيطانَ أنْ يدخلَ من هذه الثغرة»(٢).

والمثالُ بعيدٌ جدّاً عن التأويل الذي ذهب إليه سيد رحمه الله في الآية الكريمة، فليس في موقف النبي ﷺ أدنى مجاراة لرغبات المشركين، ولا سكوتٌ على بعض عاداتهم وموروثاتهم، فقد بادر رسول الله ﷺ بعد أن طلَّق زيدٌ السيدة زينب إلى الزواج منها تنفيذاً لأمر الله تعالى، وأرسل زيداً يخطبها له(٣).

وما أخفى ﷺ في نفسه إلا ما أخبره الله تعالى به من أنها ستكون زوجةً له، والقصة حدثت في المدينة المنورة بعد عدة سنوات من هجرته عليه الصلاة والسلام، ولم يكن في المدينة مشركون ليجاريَهم في رغباتهم ويسكت عن بعض عاداتهم وموروثاتهم.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١٧/ ١٠٩.

(٢) انظر المرجع السابق: ١٧/ ١١٠.

(٣) انظر: تفصيل القصة في: (النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب) في هذا التفسير.

• **مصلحة الدعوة:**

فما ذكره سيد قطب رحمه الله في حقِّ الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام لا نوافقه عليه، وأمَّا ما ذكره في حق غيرهم من أصحاب الدعوات عندما تدفعهم حماستهم ورغبتهم الملحَّة في انتشار الدعوة إلى اتخاذ وسائل وأساليب لا تستقيمُ مع موازين الدعوة الدقيقة، حرصاً على سرعة انتصار الدعوة، واجتهاداً في تحقيق مصلحتها، فنحن نقرُّه عليه كلَّ الإقرار، ونقول معه لأصحاب الدعوات: إنَّ كلمة (مصلحة الدعوة) يجب أن ترتفع من قاموس أصحاب الدعوات، لأنها مزلَّةٌ ومدخلٌ للشيطان، يأتيهم منه حين يعزُّ عليه أن يأتيهم من ناحية مصلحة الأشخاص، وإنَّ على أصحاب الدعوات أن يتدبروا آيات سورة الحج، ويعيشوا جو الرعب المخيف الذي يخيم على السورة ليشعروا بمدى المسؤولية التي يحملونها، وعليهم أن يقفوا عند مدلولات الآية الكريمة: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]، والآية الكريمة: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]؛ ليعرفوا الطريق الحقيقي إلى بناء المجتمع الإسلامي والأمة المسلمة.

• **فضل الهجرة:**

شكَّل المهاجرون من مكة المكرَّمة إلى المدينة المنورة مع إخوانهم الأنصار نواة الأمة المسلمة، فكان لهم فضلُ الهجرةِ التي نقلت الدعوة الإسلامية إلى مرحلة جديدة، مرحلة التمكين في الأرض والانتشار في آفاقها البعيدة، فلا بد من التنويه بفضلهم، وبيان ما أعدَّ الله تعالى لهم من الكرامة يوم القيامة، فقال سبحانه:

> ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ﴾ وهم في طريق الهجرة،

فقد كان المشركون يتعرَّضون لهم، ويحاولون صدَّهم وردَّهم عن مقصدهم، أو قتلوا وهم يجاهدون في سبيل الله بعد أن أذن الله تعالى بالقتال ـ كما مرَّ معنا ـ.

﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ في الجنة.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لأنه سبحانه يرزق من غيرِ حسابٍ، بينما غيره يرزق مما رزقه الله جلَّ شأنه.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ وهذا تقرير لمضمون ما تقدم في الآية السابقة، والمراد من **المُدخل**: الجنة، أو درجات فيها مخصوصة لأولئك المهاجرين.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالهم وبما يرضيهم.

﴿حَلِيمٌ﴾ فلا يعاجل أعداءهم بالعقوبة.

- **مواجهة العدوان:**

ويستدعي الإذن بالقتال مواجهة العدوان بمثله، ولهذا قال تعالى:

﴿۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ سمَّى جزاء العقوبة عقوبة لاستواء الفعلين صورة، فهو كقوله سبحانه: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ﴾ أي: ثم ظُلم بالمعاودة إلى عقوبته.

﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ على من بغى عليه وظلمه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ مبالغ في العفو والغفران.

وفي الآيةِ الكريمةِ حثٌّ على العفو والمغفرة، مع القدرة على العقوبة، إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضدِّه(١).

---

(١) تفسير أبي السعود: ٤/ ٣٠.

ثم بيَّن الله سبحانه قدرته على نصرة المظلومين بمثال كوني يراه ويشعر به كل الناس من الظالمين والمظلومين، فقال:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى نصرة المظلومين.

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ فهو سبحانه قادر على إدخال الليل بالنهار، والنهار بالليل، ومن كان قادراً على المداولة بين الأشياء المتضادة، فهو قادر على نصر المظلومين على ظالميهم.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ لكل المخلوقات لا يخفى عليه منهم خافية.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الاتِّصاف بكمال القدرة والعلم دليل:

﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ذو الحق، فدينه سبحانه حق، وعبادته حق، ووعده بنصر المؤمنين حق.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ الذي لا يستحق العبادة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ على جميع الأشياء والمخلوقات.

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ ذو العظمة والجلال والكبرياء، فكل شيءٍ تحت قهره وسلطانه وعظمته؛ فهو العليُّ الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدَّس وتنزَّه ﷻ عمَّا يقول الظالمون المعتدون علوّاً كبيراً.

❁ ❁ ❁

الفَصْلُ الرَّابِعُ

الاصْطِفَاءُ والاخْتِيَارُ للأُمَّةِ المُسْلِمَةِ

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ

وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

• **الأرْضُ المُخْضَرَّةُ:**

وجاءت الآيات الكريمة في القسم الأخير من سورة الحج تتحدَّث عن اصطفاء الله تبارك وتعالى للأمة المسلمة والتَّبِعات الجِسام التي أُنيطت بها، بعد أن بيَّنت لنا الآياتُ السابقةُ الأسسَ الكبرى للمجتمع الإسلامي والأمة المسلمة، وقدَّم الله لذلك ببيان اتِّصافه سبحانه بكمال القدرة والعلم، وذلك بلفت أنظارنا إلى بعض الظواهر الكونية المحيطة بنا المسخَّرة لفائدتنا، فمن تعاقب الليل والنهار، إلى إنزال المطر واخضرار الأرض بالنبات:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةًۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وهو استفهام تقريري، يبيِّن قدرته سبحانه على إنزال المطر من السماء.

﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةًۗ﴾ أي: ذات خضرة، والفاءُ للتعقيب، تدل على استعجال ظهور النبات إثر نزول المطر، وفعل المضارع (**تصبح**) يدل على استمرار بقاء الخضرة بعد نزول المطر، كما هو الواقع المشاهد.

وقال بعضهم: ﴿فَتُصْبِحُ﴾ المقصود به صباح ليلةِ المطر، قال القرطبي رحمه الله: «وقد شاهدتُ هذا بسوس الأقصى ـ من بلاد المغرب ـ نزل المطرُ ليلاً بعدَ قحطٍ، وأصبحت تلكَ الأرضُ الرملةُ التي نسفتها الرياح قد اخضرَّت بنبات ضعيف رقيق»[(١)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بعباده.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١٢/ ٩٢.

﴿خَبِيرٌ﴾ بتدبير أمور خلقه.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ خلقاً ومُلكاً وتدبيراً.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن كل شيء.

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد لكماله وإحسانه.

• **النواميس الكونية:**

ومن إحسانه وكرمه أنه سبحانه سخَّر للإنسان كلَّ ما في الأرض:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فكل ما فيها مذلَّل لكم أيها الناس ومعدٌّ لمنافعكم.

﴿وَٱلْفُلْكَ﴾: وسخر لكم أيضاً السفن.

﴿تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: تسير في البحر لمنافعكم ومصالحكم بأمره سبحانه ومشيئته وتدبيره، فهو سبحانه الذي خلق النواميس التي تسمح بجريان السفن في البحر، ثم هدى الإنسانَ إلى هذه النواميس ليتمكنَ من الاستفادة منها.

﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ﴾ فكلُّ شيء في قبضة قدرته ﷻ خاضع لمشيئته، فهو سبحانه الذي يُمسك السماء بقدرته فلا تقع على الأرض إلا بإذنه ومشيئته، وما القوانينُ والنواميسُ التي تنظم دورة الفلك إلا من صنع الله ﷻ وتدبيره وحكمته، وهو سبحانه وحده قادر على خرق هذه النواميس وتعطيلها أو تبديلها، ولهذا قال ﷻ: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ﴾ أي: بمشيئته، وإن ذلك لكائن يوم القيامة عندما يبدل الله ﷻ النظم الكونية كلها: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث هيأ أسباب حياتهم على الأرض، ويسَّر لهم سبل الانتفاع بما فيها، وأوضح لهم الأدلة الدالَّة على وُجُودِهِ وَجُودِه ﷻ.

• **إحكام واتِّساق:**

والمتأمل لهذه الآيات الكريمة يرى مدى الإحكام والتناسق بين كلماتها وبين صدر كل آية وذيلها.

فتصدير الآيات بكلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾ وهي تستعمل إلى الإشارة للبعيد والدلالة على تفخيم المُشار إليه، يدل على أن قدرة الله تعالى لا يستعصي عليها شيء مهما كان بعيداً.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٦١] يتفق تماماً مع تغليب بعض الناس على بعض، ومع نصره سبحانه للمظلومين على الظالمين، وذَيْل الآية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ يدل على كمال صفاته سبحانه، فهو سميعٌ بصيرٌ ليلاً ونهاراً، لا يؤثر على سمعه وبصره ليل ولا نهار.

ثم أكد هذا المعنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، فلا يستحق العبادة غيره.

وأما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣] يدل على افتقار الإنسان وحاجته إلى الرزق، فكما هو محتاجٌ إلى العدل والتخلُّص من الظلم والحيف، فهو محتاج إلى فضل الله ورزقه، ولمَّا كان نزول المطر وخروج النبات أمراً محسوساً ملموساً ابتدأت الآية بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وما أجملَ خاتمةَ الآيةِ، وما أشد اتِّساقها مع معناها! **فاللطيفُ**: هو المحكم للأمور برفق، وهو سبحانه **لطيف** بأرزاق عباده، **خبير** بحاجاتهم وافتقارهم إلى الرزق، **لطيفٌ** بخلق النبات واستخراجه، **خبيرٌ** بكيفية خلقه، فالأرضُ تصبحُ مخضرَّة بكل ما فيها من جمال ونضرة بتدبير **اللطيف الخبير**.

وهو سبحانه المالك لكل ما في السماوات والأرض، الغنيُّ عن كل ما في

السماوات والأرض، فهو يعطي ويرزق كرماً وفضلاً لا ليأخذ بدلاً وعوضاً، فهو الغني الذي لا يفتقر إلى أحد، والمستحق للحمد لكماله وإحسانه ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤].

وبعد كل ما تقدَّمَ كرَّم الله تعالى الإنسان، وجعل له امتيازاً في الأرض على سائر المخلوقات، فكل ما في الأرض مسخَّرٌ للإنسان، ومذلَّل لفائدته، ولما كان هذا التسخير حقيقة يستشعر بها الإنسان ويلمسها صدَّر الله الآية بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥].

ويحتاجُ الإنسان إلى جانب إحساسه بالتكريم والامتياز في الأرض إلى الشعور والإحساس بالأمن فيها، فلا سعادةَ لمن لا يستشعر الأمن في الأرض التي يسكنها، والبيت الذي يأوي إليه، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥].

أرأيتَ عظيمَ فضل الله عليك أيها الإنسان؟! فلو كنتَ تسكنُ بيتاً فيه كل ما يُحتاج إليه من أنواع الطعام والأثاث واللباس والزينة إلا أنَّ سقفه ضعيف على وشك السقوط، هل تحسُّ بشيءٍ من السعادة والطمأنينة وأنت تعيشُ تحت هذا السقف المتداعي؟! فاعرف أيُّها الإنسان فضل الله عليك، فكل ما أنت فيه من النِّعَم من آثار رحمته ورأفته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

والعجيب بعد كل هذا أن أكثر الناس لا يشكرون الله على نعمه وفضله بل يكفرون:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ وأنتم في بطون أمهاتكم.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عندما تحين آجالكم.

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يوم القيامة.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ كثير الجحود لِنعم الله تعالى مع ظهورها وكثرتها.

• **المنازعة في الدِّين:**

كانت رسالةُ النبيِّ ﷺ رسالةً شاملةً لكل الناس، ولما هاجر عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة اتَّسعت دائرةُ المواجهةِ بينه عليه الصلاة والسلام وبين الكافرين، فقد كانت قبل الهجرة قاصرةً على مُشرِكي مكة، فاتسعت بعد الهجرةِ، وشملت الكافرين من مشركي العرب وغيرهم من أصحاب الديانات السابقة.

ودعا النبيُّ ﷺ أهل هذه الأديان إلى التصديق برسالته، والعمل بشريعته الإسلامية، فأبى أكثرُهم، وتمسكوا بأديانهم السابقة، وجادلوا النبيَّ ﷺ في هذا الأمر، فأنزل الله تعالى:

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ أي: لكل أمة وضعنا وعيَّنَّا شريعة خاصة.

﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: هم عاملون بها لا غيرهم.

﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: أمر الدين، فإنَّ تعيينه تعالى لكل أمة من الأمم شريعة مستقلة لا تتخطَّاها إلى غيرها يوجبُ على الجميع طاعته عليه الصلاة والسلام وعدم منازعتهم إياه زعماً منهم أنَّ شريعتهم هي ما في التوراة والإنجيل، فإنَّ ذلك شريعةٌ لمن مضى قبل نسخه بشريعة القرآن الكريم وبعثة النبي ﷺ، فإنَّ هذه الشريعة هي التي عيَّنها الله تبارك وتعالى لجميع الناس، وأمر النبيَّ عليه الصلاة والسلام أن يدعوهم إليها، فكأنه سبحانه نهى كل أمة عن التمسُّك ببقايا دينهم القديم، وألزمها أن تتحوَّلَ إلى اتباع الرسول ﷺ[1]، ولذلك قال:

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: ادْعُ جميع الأمم إلى توحيده وعبادته والتزام الشريعة التي أنزلها عليك.

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٣/ ١٩٧؛ والتفسير الكبير: ٢٣/ ٦٥.

﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: إنك على منهج مستقيم وشريعة قيِّمة مستقيمة.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ في أمر الدين.

﴿فَقُلِ﴾ لهم على سبيل الوعيد والتهديد:

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأضاليل والأباطيل ومجازيكم عليها.

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾﴾

من أمر الدين. وفي الآية كما قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: أدب حَسَن علَّمه الله عباده في الرد على من جادل تعنتاً ومراءً ألَّا يُجاب ولا يُناظر[1].

- **كمال علم الله تعالى:**

وتابعت الآياتُ الكريمةُ التمهيدَ للإخبار عن اصطفاء الأمة المسلمة، ببيان كمال علم الله ﷻ بخلقه، وأنه سبحانه محيطٌ بما في السماوات والأرض، فالاصطفاء تم بعلم وحكمة:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾: وهو اللوح المحفوظ، ففي «صحيح مسلم»: عن **عبد الله بن عمرو** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «**إنَّ الله قدَّرَ مقاديرَ الخلائقِ قبلَ خلقِ السماواتِ والأرضِ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، وكان عرشُهُ على الماء**».

(١) تفسير القرطبي: ١٢/ ٩٤.

والمراد أنه سبحانه أظهر في ذلك مقادير الخلائق التي سبق بها علمه الأزلي القديم، ومن جملة هذه المقادير التي قدَّرها سبحانه أمر الشرائع وأعمارها والعاملين بها.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾. ألا ترى أنَّ الله تعالى قال في القرآن الكريم: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البُرُوج].

ولا حجة ولا برهان لكلِّ مَنْ يخالِفُ دينَ الله تعالى، ويخرج على شريعته:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجةً سمعيةً مُنزَّلَةً من قِبَل الله سبحانه.

﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ﴾ أي: وليس لهم أيضاً أيُّ دليلٍ عقلي علمي.

وتقديم الدليل السمعي في الذكر، وتسميته بالسلطان يفيدُ أنَّ له الغلبةَ والظهورَ عند معارضة الدليل العقلي له، وقلَّ أن تجدَ المعارضة والاختلاف بين الأدلة السمعية والأدلة العقلية.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ينصرهم في الدنيا ويدفع عنهم العذاب يوم القيامة.

وكيف يكون لهم نصير وقد عارضوا آيات الله تعالى وما فيها من الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة على توحيده سبحانه وصدق رسالة نبيِّه عليه الصلاة والسلام؟!.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ﴾ أي: ترى الإنكار والشرَّ والتجهُّم ظاهراً على وجوههم.

﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ يهمُّون بالبطش من شدَّة الغيظ.

﴿بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ جهلاً وتعصباً لأباطيل وأضاليل أخذوها تقليداً.

﴿قُلْ﴾ ردّاً عليهم:

﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ أأخبركم.

﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ الذي فيكم من الغضب والرغبة في البطش والانتقام.

﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فالنار وما فيها من عذاب ونكال أشد وأشقُّ من غيظكم وحقدكم على المؤمنين الذين يتلون عليكم آيات الله تعالى.

- **كمال قدرته سبحانه:**

ثم بيَّنت الآياتُ كمالَ قدرة الله سبحانه بهذا المثل الرائع الموجَّه إلى جميع الناس على سبيل التحدي لهم ولما يعبدون من دونه سبحانه:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الذين تعبدون غير الله تعالى.

﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ استماع تدبُّر وتفكُّر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: إنَّ كل الأصنام والأوثان والأشخاص الذين تعبدونهم من دون الله تعالى لن يخلقوا ذباباً، ولو اجتمعوا وتساندوا على خلقه، وخلق الذباب مستحيلٌ من قبل غير الله الخالق المصوِّر كخلق الجمل والفيل، لأنَّ الذبابَ يحتوي على ذلك السرِّ المُعجز سرِّ الحياة، فيستوي في استحالة خلقه مع الجمل والفيل، ولكنَّ الأسلوبَ القرآني المُعجز اختار الذباب الصغير الحقير لأن عجز المخلوقات عن خلقه يلقي في الحس الشعور بالضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل[1].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١٧/ ١٢٣.

ثم بيَّنت الآية ما هو أبلغ بالعجز والضعف في قوله تعالى:

﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ أي: وإن يأخذ الذبابُ منهم شيئاً لا يقدروا على تخليصه منه، رغم ضعفه، وكان المشركون يَطْلون الأصنام بالطيب والزعفران، ويضعون على رؤوسها العسل، فيأتي الذُّبابُ فيأكله ويذهبُ به.

وكلُّ عاقل يستمع إلى هذا المثل استماع تدبُّر وتفكُّر لا بدَّ أن يصلَ إلى هذه النتيجة التي قررتها الآية الكريمة:

﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ أي: ضعف العابدُ والمعبودُ من دون الله تعالى، أو ضعف الذُّباب الطالبُ لما يسلبه، وضعفَ المعبودُ من دون الله تعالى.

ولو حققتَ النظر وجدتَ الصنمَ أضعف من الذُّباب بدرجات، وعابدَه أجهلَ من كل جاهل، وأضلَّ من كل ضالٍّ[1]؛ لأن الضعفَ يتنافى مع صفة الألوهية التي تستوجب كمال القدرة.

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٧٤﴾.

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ﴾ أي: ما عرفوا قَدْرَ الله تعالى وعظمته حين عبدوا معه غيره.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فهو سبحانه قادر على خلق المُمكِنات كلها، وإفناء الموجودات عن آخرها، غالب على كل الأشياء.

- **اصطفاء الرُّسُل:**

وجاءت الآيات في ختام سورة الحج بهذا الإعلان:

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٧٥﴾.

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾ يحملون رسالته سبحانه إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. **والاصطفاءُ**: معناه الاختيار والاجتباء.

وكذلك يصطفي سبحانه من الناس رُسُلاً يحملون رسالته إلى الناس،

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ١٢/ ٣٤.

ويبلغونهم ما أنزل الله عليهم، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ أي: ويصطفي من الناس رُسُلاً.

واصطفاءُ الرسل من الملائكة ومن الناس يدلُّ على أهمية الرسالة، وعظم شأنها، فهي رِسالته سبحانه إلى خلقه، وحجَّته البالغة على عباده، كما يدلُّ على فضل المصطَفين الأخيار من الملائكةِ والبشر، فلا يكون اصطفاؤه سبحانه إلا عن علم كامل وحكمة تامة: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ٢٤].

ولهذا ختم الله سبحانه الآية بقوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ أحاط سمعه وبصره بالأشياء كلها.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ﴾ أي: يعلم أحوال الرسل مستقبلاً وماضياً، فهو سبحانه عليم بأحوالهم قبل الرسالة وبعدها.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ لا إلى غيره؛ لأنه سبحانه المالك المُدبر.

- **اصطفاء الأمة المسلمة:**

جاء الإعلانُ عن اصطفاء الله تعالى للرسل مقدمة وتمهيداً لإعلان آخر وهو اصطفاؤه سبحانه لخير الأمم وأفضلها وهي الأمة المسلمة، فقد آن الأوان بعد هجرة النبيِّ ﷺ وتأسيس المجتمع الإسلامي لظهور الأمة المسلمة، أمةِ التوحيدِ التي تجمع بين قلوبها كلمة التوحيد، وأمةِ الإجابةِ التي لبَّت دعوة إبراهيم عليه السلام بعدما رفع قواعد بيت الله الحرام، ولبَّتْ أيضاً من بعده دعوة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، فجاءت إلى بيت الله الحرام رمز توحيدها ووحدتها من كلِّ فجٍّ عميقٍ تعلنُ كلمة التوحيد: (لبَّيك اللَّهمَّ لبَّيكَ، لبَّيكَ لا شريكَ لكَ لبَّيك)، وأُمة الجهادِ التي شرع الله لها الجهاد لإعلاء كلمته سبحانه في جنبات الأرض، ولهذا جاء النداء الأخير في سورة الحج موجهاً على الخصوص لأبناء هذه الأمة المسلمة بعد أن كانت النداءات في السورة موجهة إلى عامة الناس: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وهكذا فقد رسمت الآيات الكريمة في سورة الحج الطريق المؤدي إلى

ظهور الأمة المسلمة، وبعد أن اتَّضحت معالم الطريق، وسار عليه مَن اختاره الله تعالى واصطفاه من الناس ليكون من هذه الأمة.

ولمّا كان الإيمان بالله تعالى الواحد الأحد والتصديق بيوم القيامة وبقدرته سبحانه على بعث الناس من قبورهم لهذا اليوم، ولما كان ذلك مبدأ الطريق وقاعدة الانطلاق جاء النداء للسائرين عليه بأبرز الصفات التي يتَّصفون بها؛ وهي صفة الإيمان والتصديق مع القبول والإذعان، وجاء بعد ذلك التكليف بالأركان من صلاة وزكاة وحج وصيام، ومعه الالتزام بسائر الأحكام من الحلال والحرام في مضمون هذا النداء.

وركزت الآيات الكريمة على الصلاة خصوصاً، وعبادة الله وطاعته عموماً، فقال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ أي: صلُّوا. وعبَّر عن الصلاة بالركوع والسجود، لأنهما أعظم أركانها، ويدلّان على غاية الخضوع والتذلُّل لله تعالى.

﴿وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ بسائر ما تعبَّدكم سبحانه به من أداء لبقية الفرائض، وطاعته سبحانه في كل ما أمر به ونهى عنه.

﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ أي: افعلوا كلَّ ما فيه خيرٌ لكم ولسائر الناس، فأنتم خيرُ الأمم لأنكم تحملون الخير لكل الأُمم، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ويكفي أن هذه الأمة تحمل للناس رسالة الإسلام:

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فهي طريق الفَلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

- **الصلاة والتكليف بالجهاد:**

وقد عوَّدنا الله تعالى أنه إذا أرادَ اصطفاءَ أحدٍ من خَلْقِهِ وتكليفه بمهمة

خاصة أن يأمره بالإكثار من الصلاة، ألا ترى كيفَ خاطبتِ الملائكةُ السيدةَ مريم عندما اختارها الله تعالى لتكون أُمّاً لعيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران].

وتأمل الآيات الكريمة التي تخاطب النبي ﷺ وهو لا يزال في بواكير عهده بالتنزيل الحكيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل].

فالاصطفاءُ تشريفٌ، والتشريفُ يقتضي التكليف، والصلاة تمدُّ المكلف بالقوة الروحية التي تمكِّنه من القيام بأعباء ما كُلِّف به، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

ولهذا جاء التكليف بالجهاد بعد الصلاة بقوله تعالى:

﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: جاهدوا لأجل الله تعالى أهواءكم وأنفسكم وأعداء دينه وشريعته.

﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ جهاداً خالصاً لله تعالى.

ثم بيَّن سبحانه سبب التكليف بالجهاد، وهو الشرفُ الذي شرَّفكم الله به عندما اختاركم واجتباكم لتكوِّنوا الأمةَ المسلمةَ التي تحمل رسالة الإسلام لجميع الأمم والشعوب، فقال تعالى:

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي: اختاركم من بين سائر الأمم ليشرِّفكم بحمل رسالة الإسلام، قال القرطبي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي: اختاركم للذبِّ

عن دينه، والتزام أمره، وهذا تأكيدٌ للأمر بالمجاهدة، أي: وجب عليكم أن تجاهدوا لأن الله تعالى اختاركم له»[1].

وتأتي المعونة من الله على قدر المؤونة، ومن لطف الله تعالى بالأمة المسلمة أنه جعل التكليفَ عليها منوطاً بوسعها، وجعل الدين الإسلامي ميسَّراً لا حرج فيه ولا مشقَّة، فقال سبحانه بعد أن ذكر منَّته على المسلمين بالاجتباء والاختيار، يذكر فضله سبحانه عليهم برفع الحرج وتيسير الدين:

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، فلا عذر لكم إن ضعفتم عن حمل الرسالة وتخاذلتم في أداء الأمانة.

ثم بيَّن سبحانه أصالةَ الأمةِ المسلمة وجذورَها القوية المتينة الضاربة في أعماق التاريخ:

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: تمسَّكوا بملَّة التوحيد المتصلة بالعقيدة التي نادى بها إبراهيم عليه السلام الذي رفع قواعد بيت الله الحرام.

● **خير الأُمم:**

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي: إنَّ الله سبحانه سمَّاكم بهذا الاسم في الكتب السابقة من قبل نزول القرآن الكريم.

﴿وَفِي هَٰذَا﴾: وسمَّاكم أيضاً بهذا الاسم في القرآن الكريم.

فاعرفوا قدر أنفسكم ومقدار التَّبِعات الجِسام الملقاة على عاتقكم، واتركوا الدعوات الجاهلية التي تفرِّقكم وتبعِدُكم عن شرف الدعوة الإسلامية، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ دَعَا بدعوى الجاهليةِ فإنَّه مِنْ جُثِيِّ جَهَنَّم**» قال رجلٌ: يا رسولَ اللهِ، وإن صام وصلى؟ قال: «**نعمْ؛ وإنْ صامَ وصلَّى، فادعوا بدعوةِ اللهِ التي سمَّاكُم بها المسلمينَ المؤمنينَ عبادَ اللهِ**» [رواه النسائي في الكبرى (٨٨١٥)].

وقوله: «**جثي**» جمع جاثٍ، وهو الجالس على ركبتيه.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢/ ١٠٠.

وانتسابكم إلى الأمة المسلمة شرفٌ كبيرٌ لكم في الدنيا والآخرة، إنه يستدعي أن يكرمكم الله تعالى بشهادة الرسول ﷺ عليكم يوم القيامة أنه ﷺ بلَّغكم الرسالة، وحمَّلكم الأمانة، كما يستدعي شهادتكم على كلِّ الأمم يوم القيامة بأنَّ رُسُلَهم بلَّغتهم رسالة ربهم، قال تعالى:

﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، وهذا دليلٌ على أنكم عُدولٌ خيار مشهودٌ بعدالتكم عند جميع الأُمم، فالجميع معترفون بفضل الأُمة المسلمة كما قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٢].

والوسط: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسطُ العربِ داراً، أي: خيرُها، وكان رسولُ الله ﷺ وسطاً في قومه، أي: أشرفُهم نسباً، ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصَّها الله تعالى بأكمل الشرائع، وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب[1].

فاشكروا الله تعالى على نعمة الانتماء إلى خير الأُمم، إلى الأمة المسلمة، وقابلوا هذه النعمة العظيمة الجليلة بأداء الصلاة كاملة مستقيمة، وإيتاء الزكاة لمستحقيها من أبناء الأمة المسلمة، والاعتصام بالله بالتوكل عليه والاستعانة به، والتمسُّك بشريعته.

﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم وحافظكم ومتولِّي أُموركم.

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ فلا وليَّ ولا نصير في الحقيقة سواه، فثقوا بالله تعالى في جميع أموركم، ولا تطلبوا الإعانةَ والنصرةَ إلا منه سبحانه.

وفي الختام: أسأله جلَّ وعلا أن يجعلنا من هذه الأمة، وأن يحشرنا يوم القيامة تحت لواء نبيِّها وقائدها سيِّدنا محمد ﷺ، وأن يسدِّدَ خطانا، ويوفِّقنا لما يحبه ويرضاه. **وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.**



(١) تفسير ابن كثير: ١/ ١٩٠.



٢٣

تفسير سورة المؤمنون

الإِنْسَانُ مِنَ البِدَايَةِ إِلَى الخُلُودِ فِي سُورَةِ المُؤْمِنُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنّ أعظمَ الموضوعات التي اهتمَّ بها القرآن الكريم بعد موضوع التوحيد، موضوع حياة الإنسان في الدنيا، وحِكْمة خَلْقه ووجوده فيها، وارتباط ذلك بتشريفه وتكليفه ومسؤوليته وحسابه وجزائه.

هذه القضيةُ جزءٌ لا يتجزّأ عن موضوع العقيدة الأساس، وهو التوحيد، لأنَّه يؤكد توحيدَ الله تعالى واتصافه بصفات الكمال في ذاته وفي أفعاله، وتنزُّهه تعالى عن كل صفات النقص.

فما خلقَ الله الإنسانَ للعبثِ وللعبِ في حياته الدنيوية القصيرة، ثم ينتهي بالموت، يتنزَّه الحقُّ سبحانه عن ذلك، ما خلقه إلا للفلاح والبقاء والخلود.

فعلى الإنسان أن يدركَ هذه الحقيقة، فيعرفَ حكمة وجوده، وجوهر حياته، وما يترتَّب على سلوكه فيها من خلودٍ وبقاءٍ في النعيم أو في الشقاء، فقد

ابتدأ وجود الإنسان وخلوده عندما أخرج من العدم، إنها بداية الرحلة الخالدة التي لا تنتهي بتقدير الله تعالى.

وإنَّ هذه الحقيقة أيضاً أهم قضيةٍ في حياة الإنسان، على تَفَهُّمِهِ لها يتحدَّد سلوكه، وبها يعرف حكمة وجوده وجوهر حياته وطبيعة الطريق الذي يسير عليه، ولهذا كانت أعظمَ القضايا في التنزيل الحكيم عالجها في سُورِهِ من جميع جوانبها، وطرحها بأساليب متنوعة، وخصَّ سورة المؤمنون بعرض هذه القضية بأسلوب متفرِّد متميز، بإبراز طرفي وجود الإنسان، وارتباط ذلك بتكليفه ومسؤوليته.

وقد جاء تفسير هذه السورة بحمد الله في فصل واحد، متفقاً ومنسجماً مع تسلسل آيات السورة، وموضحاً الاتساق والانسجام بين آياتها وموضوعها الأساس.

أسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.



تَمْهِيد
مَوْضُوعُ السُّورَةِ

اهتمَّت سورة المؤمنون بإبراز حكمة خلق الإنسان، وبيان أنه لا ينتهي بالموت، إذ ينتقل بالموت من الدنيا إلى البرزخ، الذي يفصله عن الآخرة، ثم يبعثه الله تعالى يومَ القيامة للخلود في النعيم أو في الجحيم.

بدأت السورةُ بتقرير فلاح المؤمنين، وهو بقاؤهم في الخير، وخلودهم في النعيم، فأشارت بذلك إلى أنَّ حكمته تعالى من خلقهم، هي أن يتشرَّفوا بعبادته وطاعته في الدنيا، ليرحمهم في الآخرة بالخلود في فراديس جنته، وساحات فضله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

فما خلقهم الله تعالى للشقاء والخلود في العذاب، فشقاءُ المعذَّبين نابعٌ من كسبهم واختيارهم، وقد أبرزت الآياتُ هذا المعنى في آخر السورة عند خطاب التوبيخ والتقريع الموجَّه للمعذبين في جهنم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

وأكدته أيضاً آيات السورة عندما تحدثت عن عنايته تعالى بالإنسان ورحمته به، من بداية خلقه في رحم أمه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾.

وببيان تيسير سبل معيشته في الدنيا، بتسخير المكونات له: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ . . .﴾.

وكما أنعم الله على الإنسان بنعمة الإيجاد والإمداد، أنعم عليه أيضاً بأسباب الهداية إلى طريق الفلاح والخلود في النعيم، وذلك بتوالي الرسالات الإلـٰهية عليه، بواسطة الأنبياء والمرسلين، وهو ما بينته الآياتُ أيضاً عندما تحدَّثتْ عن نبيٍّ الله نوح عليه السلام ورسالته، ثم أعقبته بالحديث عن توالي الرسالات الإلـٰهية مع توالي الأجيال البشرية: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

وركزتْ آياتُ السورةِ من خلال حديثها هذا، على عناد المعاندين، وإعراضهم عن رسالات الله تعالى، وعدم انتفاعهم بوسائل التمكين، التي زوَّدهم الله بها، للتمييز بين الخير والشر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

ومع ذلك بقي القومُ في غمرةِ غفلتهم، وسكرةِ شهواتهم، حتى نزل بهم الموتُ، حينئذٍ انتبهوا وزالتْ عنهم غفلتُهم وغمرةُ شهواتهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾.

وهي صحوة متأخرة لا تنفعهم، لأنَّ اللهَ تعالى قدر عدم الرجوع إلى الوراء، فقد ضيَّعَ القومُ حياتهم في العبث واللعب، الذي ما خلقوا من أجله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

تلك هي الخطوط العريضة الرئيسة لموضوع سورة المؤمنون، كما سيظهر لنا ـ إن شاء الله ـ عند الحديث عن تفصيله.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة المؤمنون

الإنْسَانُ مِنَ البِدَايَةِ إلَى الخُلودِ فِي سُورَةِ المُؤْمِنُونَ

المؤمنون هم المفلحون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾.

- **على طريق الفلاح:**

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١)﴾.

أي: قد نال المؤمنون الفلاحَ، وفازوا به، أو دخلوا في الفلاحِ، وساروا على طريقه، لأنَّ الإفلاح الدخول في الفلاح.

ويطلقُ الفلاحُ في لغة العرب على معنيين:

الأول: الفوز بالمطلوب الأكبر.

والثاني: البقاء السرمدي في الخير واستمرار الوجود، ومنه قول لبيد:

لَوْ أنَّ حَيّاً مُدْرِكُ الفَلاحِ ... لَنَالَهُ مُلاعِبُ الرِّمَاحِ

يعني: مدرك البقاء، ومنه بهذا المعنى قولُ كعبِ بنِ زهيرٍ، أو الأضبطِ بن قُريع:

لِـكُـلِّ هَـمٍّ مِـنَ الـهـمـومِ سَـعَـهْ   والـمَـسَـا والـصـبـحُ لا فـلاحَ مَـعَـهْ

أي: لا بقاءَ مَعَه[1].

ويقال أيضاً في أصلِ الفلاح: الشقُّ والقطع، ومنه سُمِّيَ الأكَّار فلَّاحاً، لأنَّه شقَّ الأرض بالحرث، فكأنَّ المفلح قد قطعَ المصاعبَ حتى نال مطلوبه.

قال القرطبي: وقد يُستعمل في الفوز والبقاء، وهو أصله أيضاً في اللغة[2].

فالبقاءُ في الخير والخلود أمنيةُ كُلِّ حي، وقد فاز به المؤمنون، وكانوا يتطلَّعون إليه ويرجونه، وهذا ما دلَّت عليه كلمة **(قد)** فهي تثبت المتوقَّع، وتدلُّ على ثباته إذا دخلت على الماضي، فتقرِّبه من الحال، ولمَّا كان المؤمنون متوقعين ذلك من فضل الله، صدرت بها بشارتهم[3].

فالفلاحُ قد ثبتَ لهم في الحال، وهم على طريقه، فالآيةُ حملت البشارة الكبرى للمؤمنين، ولعلَّ هذا سر الدعوات الكريمات، التي دعا بها النبي ﷺ، بعد أن أنزل الله عليه هذه الآيات:

روى الإمام أحمد [١/ ٣٤] والنسائي في الكبرى [١/ ٤٥٠] والترمذي [٣١٧٣]: عن **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه قال: كان إذا نزل على رسولِ الله ﷺ الوحيُ، يُسْمَعُ عند وجهه كدوي النحل، فلبثنا ساعةً، فاستقبل القبلةَ، ورفعَ يديه وقال: «**اللهمَّ زِدْنا ولا تَنْقُصْنا، وأكْرِمْنَا ولا تُهِنَّا، وأَعْطِنا ولا تَحْرِمْنا، وآثِرْنا ولا تُؤْثِرْ علينا، وأَرْضِنا وارضَ عنا**»، ثم قال: «**لقد أنزل عليَّ عشر آيات، من أقامهنَّ دخلَ الجنَّة**» ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ①...﴾ حتى ختم العشر.

- **الخاشعون في الصلاة:**

ثم بينت الآيات الأعمال التي أفلح المؤمنون بسببها، وهي:

---

(١) انظر: أضواء البيان: ٥/ ٧٥٧.

(٢) فتح القدير: ١/ ٣٧.

(٣) تفسير البيضاوي: ٤/ ٣٣٢.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾.

أي: خائفون من الله تعالى، متذللون له.

وأصل **الخشوع**: السكون والطمأنينة والانخفاض، وجعله بعض العلماء من أفعال القلوب، كالخوف والرهبة، وجعله بعضهم من أفعال الجوارح، كالسكون وترك الالتفات والعبث، ولا شكَّ أنَّ القلبَ إذا خشع خشعت الجوارح؛ إذ هو أميرٌ عليها، فالخشوع من أعمال القلب يظهر أثره في سكون الجوارح، فالظاهر عنوان الباطن، ولهذا كان النبيُّ ﷺ إذا قامَ إلى الصلاة أقبل على أصحابه فوعظهم قائلاً: «**هل ترونَ قِبْلَتِي هاهنا؟ والله ما يخفى عليَّ ركوعُكم ولا خشوعُكم، وإنِّي لأراكُم من وراءِ ظهري**» [رواه البخاري (٧٤١)].

والخشوع روح الصلاة، يروِّضُ النفسَ ويهذبها، ويجعلها تتذوَّق لذَّة مناجاة الله تعالى وحلاوة ذكره، فتُقْبِل على عبادته وطاعته بهمة ونشاط، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

- **المعرضون عن اللغو:**

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾.

أي: مبتعدون عن اللغو، ومتجنبون له في جميع الأوقات.

واللغو: الباطلُ واللهو، وكلُّ ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال. والإعراضُ عنه يدلُّ على بُعدهم عنه رأساً وتسبباً وميلاً وحضوراً، فإنَّ أصله أن يكون في عرض غير عرضه[١].

فلا مكان في حياة المؤمن للغو واللهو والعبث؛ لأنَّ ميدان عبوديته لله تعالى وطاعته رحب فسيح، فهو أوسع من حياته مهما امتدت، ولو صرف الإنسانُ كلَّ حياته في طاعة ربه وعبادته وشكره، فإنه يبقى مقصِّراً في حق شكر

---

(١) تفسير البيضاوي: ٤/ ٣٣٣.

نعم الله تعالى عليه، وفي القيام بحق عبوديته له جَلَّالهُ، كما في قوله سبحانه: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٣].

فليس في الإسلام لهو وعبث، ويجب أن تكون حياة المسلم حزماً وعزماً وجدّاً، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وتصرُّفات المسلم في حياته كلها موصولة بحكمة وجوده، وهي طاعة الله تعالى، وعمارة الأرض والحياة بعبادته، ولا شك أنَّ جده واجتهاده في طاعة ربه يشغله عن اللهو واللعب، ولهذا لما وصفهم بالخشوع في الصلاة، أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو، ليجمع لهم الفعل والترك، الشاقَّيْن على الأنفس، واللذين هما قاعدتا بناء التكليف[١].

- **الفاعلون للزكاة:**

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

أي: يؤدُّون زكاة أموالهم، أو يزكون أنفسهم، ويطهرونها من لوث الكفر والشرك، والعادات القبيحة المذمومة، ولا شك أنَّ تزكية النفس وتطهيرها من أعظم أسباب الفلاح، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩].

ولفظ ﴿فَٰعِلُونَ﴾ يدل على المداومة والاستمرار، بخلاف كلمة: مؤدُّون، فتزكية النفس عمل دائم يستمرُّ مع الإنسان طول حياته، ولذلك سمَّاه بعضهم بالجهاد الأكبر، وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ودل هذا الوصف على أنَّهم بلغوا الغاية في القيام على الطاعات البدنية والمالية، والتجنب عن المحرمات[٢].

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٣٣٣.

(٢) تفسير البيضاوي: ٤/ ٣٣٤.

• **الحافظون لفروجهم:**

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾.

أي: ممسكون لعوراتهم وسوءاتهم عمَّا تدعو إليه شهواتهم.

ثم استثنتِ الآياتُ السبيلَ الشرعي لقضاء الشهوة، بقوله تعالى:

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾.

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ أي: إلا مع زوجاتهم أو المملوكات لهم ملكاً شرعيّاً، وهنَّ الأسيرات اللواتي أذن ولي الأمر باسترقاقهنَّ، فقد أباحَ الإسلامُ لمالك الأَمَة أن يتسرَّى بها، بعد أن يستبرئ رحمَها بحيضةٍ، وإذا ما حملت منه وولدت أصبحت أمَّ ولدٍ، لا يجوزُ له بيعها، وتصبح حرة بعد وفاته.

﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ أي: لا لومَ عليهم في قضاء شهوتهم مع زوجاتهم، أو ما ملكتْ أيمانُهم.

فالإسلامُ دينُ التوسُّط والاعتدال، وما حرَّم الله تعالى على الإنسان شيئاً إلا وأحلَّ له ما يُغنيه عنه، فقد حرَّم الزنى، وشرع الزواج، وحَثَّ عليه، ففي الحلال ما يُغني عن الحرام، ولهذا أمر تعالى بالوقوف عند حدود الحلال، وحرم تجاوزها، فقال:

﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧﴾.

أي: فمن قصد غير الزوجات والمملوكات، فأولئك هم المتجاوزون للحدود المشروعة، الكاملون في العدوان والمخالفة لأحكام شرع الله تعالى، فهم كما قال نبيُّ اللهِ لوط ﷺ لقومه: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء].

ودلت الآيةُ على تحريم قضاء شهوة الجنس عن غير طريق الزواج الشرعي الصحيح وملك اليمين الصحيح.

• الراعون للأمانات والعهود:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾.

أي: قائمون بحفظها.

فالراعي: القائمُ على الشيء بالحفظ والإصلاح، كراعي الغنم.

والمراد من الأمانات والعهد العموم، في كُلِّ ما اؤتُمِنوا عليه وعوهدوا، من جهة الله ﷻ، ومن جهة الخلق[1].

فالإسلام يوجبُ حفظَ الأمانات والوفاء بالعهود، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وقال أيضاً: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

ولهذا قال في صفات المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرعد: ٢٠].

بينما قال في صفات الكافرين: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقال عليه الصلاة والسلام في صفات المنافقين: «**آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا وعدَ أخلفَ، وإذا اؤتُمِنَ خانَ**» [رواه مسلم (٥٩)].

• المحافظون على صلواتهم:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾.

أي: يواظبون ﴿عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ﴾ ويؤدونها في أوقاتها.

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٣٣٤.

وأفاد لفظُ الفعل: ﴿يُحَافِظُونَ﴾ الاستمرار والتجدد، فالتكليفُ في أداء الصلاة متجدِّدٌ ومتكرر كلَّما دخل وقتها، والمداومةُ على أداء الصلاة في أوقاتها من أفضل الطاعات وأعظم القربات.

وفي الحديث الشريف: عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: سألتُ النبيَّ ﷺ: أي العملِ أحبُّ إلى اللهِ؟ قال: «**الصلاةُ على وقتِها**» قال: ثم أي؟ قال: «**بِرُّ الوالدينِ**» قال: ثم أي؟ قال: «**الجهادُ في سبيلِ اللهِ**» [رواه البخاري (٥٢٧)].

كما أفاد تصديرُ صفات المؤمنين بالخشوع في الصلاة، وختمُها بالمحافظة عليها، تعظيمَ شأن الصلاة، وبيان أهميتها في حياة المؤمنين، ودورها الكبير في فلاحهم وخلودهم في النعيم.

- **الوارثون:**

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾.

أي: أولئك الجامعون لهذه الأوصاف، هم الأحقاء بأن يسموا وُرَّاثاً، دون مَنْ عداهم ممن ورث الأموال والأمتعة الزائلة الفانية، لأن أولئك ورثوا الفلاح، وهو البقاء السرمدي في الخير والنعيم في الجنة.

أو ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ الذين يرثون منازلَ أهل النار من الجنة، ويؤيده الحديث الشريف: عند ابن ماجه [٤٣٤١] بسند صحيح: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «**ما مِنْكُم مِنْ أحدٍ إلَّا وله منزلانِ: منزلٌ في الجَنَّةِ، ومنزلٌ في النَّارِ، فإذا ماتَ ودخلَ النارَ، ورثَ أهلُ الجنَّةِ منزلَهُ**»، فذلك قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾ [رواه أيضاً أحمد (١/ ١٣٣) عن علي رضي الله عنه].

قال القرطبيُّ: يحتمل أن يسمى الحصول على الجنة وراثةً، من حيث حصولها لهم دون غيرهم، فهو اسم مستعار على الوجهين[1].

فهي كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢/ ١٠٨.

وقوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ أي: الذين يرثون أعلى الدرجات في الجنة وأفضلها، التي ورد وصفُها في قول النبيِّ ﷺ: «**إنَّ في الجنَّةِ مئةَ درجةٍ أعدَّها اللهُ للمجاهدينَ في سبيلِ اللهِ، ما بينَ الدرجتينِ كما بينَ السماءِ والأرضِ، فإذا سألتُمُ اللهَ فاسألوه الفردوسَ، فإنَّه أوسطُ الجنةِ وأعلى الجنَّةِ** ـ أراه قال: **وفوقَه عرشُ الرحمنِ ـ ومنه تفجَّرُ أنهارُ الجنة**» [رواه البخاري (٢٧٩٠)].

ويطلَقُ الفردوسُ في اللغة، على البستان الذي يجمَعُ كل شيء، وقيل: هو الذي فيه العنب[1].

﴿هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ أي: ماكثون فيها أبداً، لا يتحوَّلون عنها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف].

وهذا منتهى فلاح المؤمنين وغايته، وهو الوصول إلى دار البقاء السرمدي، والخلود الأبدي، في نعيم لا ينفد ولا يبيد.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي سعيد الخدري وأبي هريرة** رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**ينادي منادٍ: إنَّ لَكُمْ أن تصحُّوا فلا تسقموا أبداً، وإنَّ لكم أن تَحْيَوْا فلا تموتوا أبداً، وإنَّ لكم أن تشبُّوا فلا تَهْرَمُوْا أبداً، وإنَّ لكم أن تنعَمُوا فلا تَبْأَسُوْا أبداً**» فذلك قوله ﷻ: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. [رواه مسلم (٢٨٣٧)]. أسأله تعالى أن يجعلنا منهم.

* * *

(١) فتح الباري: ٦/ ١٣.

البداية والخلود

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَـٰةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

• **البداية:**

وبعد أن وصفت الآياتُ طريق الفلاح والبقاء في النعيم، شرعت في الحديث عن بداية الإنسان وأطوار خلقه الأولَى، وكيف أخرجه الله تعالى من العدم، ووضعه على أول طريق الحياة:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

أي: خلقناه من خلاصة استخلصت من طين.

فالسلالة: فعالة من السَّلِّ، وهو استخراج الشيء من الشيء، تقول: سللتُ الشعر من العجين، والسيف من الغمد.

والمعنى: خلقنا الإنسان من شيء مستخرج من طين، وهو المني المستخلص من الدم، والدم مستمد من الأغذية التي يتناولها الإنسان، والتراب مصدر هذه الأغذية، ومرَّ معنا في **سورة الحج** عند قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [٥] أنه قد ثبت علميّاً أنَّ العناصر التي تكوّن البنية المادية لجسم الإنسان، هي نفس العناصر الأساسية المكونة للتراب.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾.

أي: ثم جعلنا الإنسان نطفة في مستقر حصين، وهو الرحم.

والنطفة: هي البُيَيْضة الملقحة، المختلطة بالحيوان المنوي، الذي أفرزه الرجل، فهي النطفة الأمشاج، التي قال الله تعالى فيها: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

فهذه النطفةُ هي بداية وجود الإنسان، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة].

ورَحِمُ المرأة الذي هو القرار المكين، أحصن مكان في جسمها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات].

● أطوار الخلق:

وبعد أن وصفت الآياتُ بدايةَ خلق الإنسان، بينت أطوار خلقه، التي يقلِّبه الله تعالى فيها:

> ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي: ثُمَّ حولنا وصيرنا النطفة علقة.

والعلقة في اللغة: قطعةُ الدم المتخثِّر الجامدِ، وكل ما عَلق أو عُلق بالشيء، أو دودة في الماء تعلَقُ في حلوقِ الدواب، وتمتصُّ منها الدم، وكان علماء التفسير يرون أنَّها قطعة الدم الجامد، لكنَّ المُحْدَثين من العلماء والأطباء ينصرفون عن هذا المعنى إلى المعنى الآخر للعلقة، المشتقة من العلوق والتعلُّق، فالعلقة هي البييضة الملقحة بعد أن تتعلق بالرحم، وتكتسب صفة العلوق(١).

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي: فصيَّرنا العلقة قطعة لحم صغيرة قدر ما يُمضغ.

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ وهذه العظام تكوِّن الهيكل العظمي الأول للإنسان.

---

(١) انظر: تفسير سورة الحج، المسمَّى في تفسيرنا الموضوعي الكبير هذا: (الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج).

﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ أي: جعلنا للعظام العارية كساء من اللحم، وهي العضلات والأغشية التي تغطِّي العظام، وقد ثبت علميّاً أنَّ الخلايا التي تتكون منها العظام توجد قبل الخلايا التي يتكون منها اللحم(١).

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ أي: خلقاً مبايناً للخلق الأول في الصفات.

وذهب أكثرُ المفسِّرين إلى أنَّ المراد من الخلق الآخر نفخ الروح، ولكن العلَّامة البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يقصر الآية على هذا المعنى، فقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ هو صورة البدن أو الروح أو القوى، بنفخه فيه، أو المجموع، و﴿ثُمَّ﴾ لما بين الخلقين من التفاوت(٢).

ويقرر علماء الطب أنَّه يتمُّ تصويره وتسويته وتعديله، وتنفخ فيه الروح، في هذا الطور، ومَنْ له أدنى إلمام بعلم الأجنة يعرف كيف أنَّ أجهزة الجسم المختلفة تُهدم ويُعاد بناؤها باستمرار، وتتجلى هذه الحقيقة في أجلى صورها في الجنين، ثم تقل نسبيّاً بعد الولادة، ثم تقل كذلك بعد البلوغ، ولكنها لا تتوقف حتى في الشيخوخة(٣).

فتصوير الإنسان وتشكيله يتم في داخل الرحم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦].

والآيات تدل على أن التصوير يتم بعد الخلق، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

فخلق الإنسان يمر بمراحل قدَّرها العليم الخبير، وأشار إليها بقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

---

(١) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص٣٧٢.

(٢) تفسير البيضاوي: ٤/ ٣٣٦.

(٣) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص٣٧٤.

ففي الخلق الأول لا تتضح المعالم المميزة لشكل الإنسان، أما في الخلق الآخر فتتضح المعالمُ، وتظهر الصورةُ الإنسانيةُ المميزة له، ولهذا ختم الله تعالى الآية بقوله:

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي: تعالى أمره سبحانه في قدرته وعلمه وحكمته، فهو أحسن المصوِّرين والمقدِّرين.

أو: ﴿فَتَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة، ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أتقن الصانعين[1].

فهو المستحق للتعظيم والثناء على باهر حكمته وبديع صنعته، الذي صوَّر الإنسان في أحسن صورة وأعدلها وأقومها، كما في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

وقد أقسم الله تعالى على تصوير الإنسان في أحسن الصور وأعدل الأشكال، تعظيماً لهذه الظاهرة الدالة على كمال قدرته ورحمته، فقال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين].

ثم أجملت الآيات ذكر المراحل الكبرى، التي يمر بها الإنسان، وهو يسير على طريق الوجود والبقاء:

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥﴾.

أي: ثم إنكم بعد المرحلة الأولى من وجودكم، لصائرون إلى الموت لا محالة، ولذلك جاء الخبر عنه مؤكداً بعدد من المؤكدات، فهو أمر محتم مقدر لكم، لا خيار لكم فيه ولا إرادة، كأطوار خلقكم التي سبق ذكرها.

ثم تُبعثون بعد انتهاء المرحلة الفاصلة الممتدة بعد الموت إلى الحياة الثانية، والتي ستذكرها آيات السورة باسم البرزخ.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢/ ١١٠.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

أي: تخرجون من قبوركم للحساب، وما يترتب عليه من خلود وبقاء في النعيم، أو في الشقاء والعذاب.

* * *

الإمْدادُ بأسبابِ الحياةِ

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

جاء في السورة بعد بيان الإيجاد: بيان الإمداد، فالإنسان مفتقر دائماً إلى خالقه في وجوده وفي بقائه، وكما أوجده سبحانه، وأخرجه من العدم إلى الوجود، أمدَّه بكل أسباب وجوده وأسباب بقائه، بفضله وإحسانه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ أي: سبع سماوات، بعضها فوق بعض، وكل سماء طريق إلى السماء التي فوقها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥].

ومع أن الإنسان خُلِقَ من الأرض، ويعيش عليها، فهو محتاج إلى ما في السماوات من أسباب عيشه، واستمرار وجوده، ولهذا سخَّر له تعالى ما في

السماوات، كما سخَّر له ما في الأرض، قال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ أي: وما كنا عن تدبير أمر الخلق مهملين، فنحن نعلم كل ما يحتاجون إليه، وما يصلح لهم، فهو الخلاق العليم الحكيم، يخلق الخلق ويدبر أمره.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ أي: أنزلنا من جهة السماء ماء بمقدار معين، حسب ما تعلقت به إرادتنا، وسبق به علمنا، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا له مسكناً ومستقرّاً في الأرض، لكي يتمكن الناسُ من الانتفاع به، فالمياه الجوفية التي في باطن الأرض، أصلُها من مياه الأمطار.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: وإنا على إزالته، وحرمانكم من الانتفاع به لقادرون، كما نحن قادرون على إنزاله.

فاعرفوا فضله تعالى عليكم، وشدة افتقاركم إلى رحمته، فلا غنى لكم عن فضله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: ٣٠].

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: أنشأنا لكم بهذا الماء بساتين منها تتفكَّهون وتأكلون.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ أي: وأنبتنا لكم بماء المطر أيضاً، شجرة

تخرج من جبل سيناء، وهي شجرة الزيتون، ويبدو أنها أول ما نبتت في جبل الطور، في منطقة سيناء، الواقعة بين فلسطين ومصر، وهي شجرة مباركة، أنبتها الله في أرض مباركة، في المكان الذي كلَّم الله فيه موسى، ولعلها الشجرة التي ذكرها سبحانه في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

ووصفها أيضاً بالبركة في قوله الكريم: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

ومن بركتها: كثرة منافعها للناس، فهي طعام ودواء، أخرج الترمذي [١٨٥١]: عن **عمر** رضي الله عنه مرفوعاً: «**كُلُوا الزيتَ وادَّهِنوا بِهِ، فإنَّهُ يخرجُ مِنْ شجرةٍ مباركَةٍ**».

﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ أي: تنبت بثمر الزيت، وهو الزيتون الذي يستخرج منه الزيت.

﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ أي: وإدامٍ يأتدم به الآكلون، ففي الزيتون دهن وإدام.

وخص سبحانه هذه الأشجار الثلاثة بالذكر لكثرة منافعها، كما أنه ذكرها في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل].

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ أي: وإن لكم في الإبل والبقر والغنم لآية وموعظة تعتبرون بها، وتعرفون فضله تعالى عليكم.

﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ أي: نسقيكم من ألبانها، وإخراج اللبن مما في بطون الأنعام من أخلاط الطعام والعصارات والدماء من أعظم الأدلة الدالة على

كمال قدرة الخالق العظيم، القائل: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ أي: ولكم في الأنعام منافعُ كثيرةٌ من وجوه متعددة، فصَّلها تعالى في **سورة النحل** بقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾.

وقوله **فيها** أيضاً: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

وقوله أيضاً في **سورة يسٓ**: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: وكما تنتفعون بها وهي حية، تنتفعون بها بعد ذبحها، فتأكلون من لحومها.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: وعلى الإبل في البر، وعلى السفن في البحر تُحملون في أسفاركم. فما أعظم فضله تعالى على الإنسان!.

* * *

الإمداد بأسباب الهداية

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

وكما أمد الله الإنسان بأسباب معيشته، أمده أيضاً بأسباب هدايته وسعادته، فبيّن له بواسطة الأنبياء والمرسلين طريق الفلاح والبقاء في الخير والنعيم، وهو ما شرعت الآيات ببيانه، من خلال حديثها عن بعض المرسلين:

- **نوح** عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي: اعبدوا الله وحده، فلا معبودَ لكم يستحق العبادة غيره جل وعلا.

ومر معنا في **سورتي الأعراف وهود** أنَّ جميع الأنبياء والمرسلين قالوا هذه الكلمة، فهي أساس جميع الرسالات الإلٰهية، إذ هي سبيلُ الفلاح والفوز بالنجاح والبقاء.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تخافون عقابه إذا عبدتم غيره، وأعرضتم عن دينه وشرعه.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي: فقال وجهاء قومه ذوو الغنى والترف، الذين سارعوا إلى الكفر به، ومعارضة دعوته؛ قالوا لعامة الناس من قومه:

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يريد أن يكون له فضل عليكم، حتى يسودكم، وتصبحوا له أتباعاً، فالحسد والخوف على مناصبهم جعلهم يبادرون إلى معارضة دعوته عليه السلام.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: ليكونوا رسلاً.

﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهذا يدل على تحجُّر عقولهم، وتقليدهم الأعمى لآبائهم.

ثم انتقلوا من اتهامهم له بحب الرئاسة، إلى اتهامهم له بالجنون:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: فانتظروا واحتملوه حتى يفيق من جنونه، أو حتى يموت.

واقتصرت الآياتُ على بيان معارضة قوم نوح لدعوته عليه السلام، واتهامهم له بحب الرئاسة والجنون، ولم تذكر رَدَّ نوح عليهم ومحاورته لهم، كما مر في **سورة هود**، لأنَّ مهمة الآيات هنا بيان فضل الله تعالى على الناس، بتيسير أسباب الهداية والسعادة، كما يسَّر لهم أسباب المعيشة والانتفاع، بما خلق لهم وسخر في الكون، ومع ذلك أعرضوا عن عبادته تعالى وطاعته وكذبوا رسله، واتهموهم بأقبح التهم.

وبعد طول معاناة وصبر على مدى ألف سنة إلا خمسين عاماً، دعا نوح عليهم، وتوجه إلى الله تعالى يستنصره عليهم:

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٢٦﴾.

أي: بسبب تكذيبهم وإصرارهم على كفرهم وفجورهم.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٢٧﴾.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي: اصنع السفينة محفوظاً برعايتنا وحمايتنا، على حسب ما نوحي إليك ونعلمك، فقد كان عليه السلام يجهل كيفية صنعها، فأوحى إليه الله سبحانه ذلك، وعلَّمه وأرشده، كما في قوله: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي: جاء أمرنا بإنزال العذاب بهم، ونبع الماء بقوة وغزارة من التنور، وهو تنور الخبز، فقد جعل الله تعالى نبعَ الماءِ منه علامة لنوح على وقت نزول العذاب بقومه، مما يدل على كمال قدرته تعالى بإخراجه الماء من موضع وجود النار.

﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: أدخلْ في السفينة، واحمل فيها، من كل أنواع المخلوقات الأرضية البرية زوجين ذكراً وأنثى، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

ولا بدَّ أنه تعالى سخَّر هذه الأزواج لنوح عليه السلام، فجاءته منقادة طائعة، إذ هو سبحانه الآمر والمعين على تنفيذ الأمر، والمعونة تأتي على قدر المؤونة، فلا حاجة بنا إلى الخوض في كيفية الشحن، كما فعل بعض المفسرين.

﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي: واحمل فيها أهلك أيضاً، من النساء والأولاد، إلا من وجبَ عليه العذاب منهم بسبب كفره، وهما امرأته

ولده الكافران، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود].

وقال أيضاً: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أي: لا تسألني نجاة الذين كفروا، إنهم مغرقون لا محالة، بسبب إصرارهم على الكفر والظلم.

وشحن ﷺ السفينة كما أمره تعالى، فكانت سبب نجاة نوح والمؤمنين معه، ولهذا أمره تعالى أن يتوجَّه بالحمد والشكر له وحده:

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ﴾ أي: إذا تمكنت.

﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ من المؤمنين على الركوب في السفينة.

﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا﴾ يسَّر لنا سبيل النجاة.

﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وكما علمه تعالى أن يحمده ويثني عليه، علَّمه أيضاً أن يسأله أن ييسر له موضعاً صالحاً ينزل فيه بعد انتهاء الطوفان، يتمكن فيه مَعَ مَنْ كان معه في السفينة، من إنعاش الوجود البشري مرة ثانية في الأرض، فالإنسان مفتقر دائماً إلى الله تعالى في معيشته وهدايته:

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

لأنك تحفظنا وترعانا وتبارك لنا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ أي: إنَّ فيما تقدم لعبراً وعظات ودروساً تدل على رحمته تعالى وفضله وإحسانه.

﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي: مختبرين بهذه الآيات، لننظر من يعتبر ويتعظ، أو يعرض ويعاند، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥].

والابتلاء ألوان: ابتلاء للصبر، وابتلاء للشكر، وابتلاء للتوجيه، وابتلاء للتأديب، وابتلاء للتمحيص... وفي قصة نوح ألوان من الابتلاء له ولقومه ولذريته من بعده[١].

* * *

التوحيد أولاً

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

وبارك الله تعالى في نوح عليه السلام وأبنائه الذين كانوا معه، فانتعش بهم الوجود

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/٢٠٦٦.

البشري في الأرض مرة ثانية، وقدَّر تعالى أن يكون نوح الوالد الثاني للبشرية بعد آدم، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

وبدأت البشرية الجديدة حياتها على طريق الحق والفلاح، كما كانت في بدايتها الأولى في عهد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالتوحيد هو الدين الأول الذي كانت عليه البشرية في مبدأ وجودها، والكفر أمر طارئ عليها.

ومن رحمته تعالى أن رسالات الأنبياء بقيت تتوالى على الناس، مع توالي أجيالهم وقرونهم، تبين لهم أسباب الهداية، وتوضِّح لهم معالم طريق الفلاح والنجاح، حتى تمت وخُتمت برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين، عليه أفضل الصلاة والتسليم.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: قوماً آخرين، فانحرفوا عن طريق التوحيد والفلاح، إلى طريق الشرك والكفر، ولم تكشف الآيات هوية هؤلاء القوم، إذ المهم أن تظهر الآياتُ فضلَه تعالى على الناس، وأنه ما تركهم من غير هادٍ يدعوهم إلى طريق الهداية ويرشدهم إليه.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

إنها نفس الكلمة التي قالها نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ونعَّمْناهم في الحياة الدنيا بسعة العيش، فعاشوا حياة الترف والبطر.

ودلَّ وصفُ الآية لهم بصفة الترف، على أنَّه من أسباب الضلال والكفر، وغالباً ما يكون رؤساء الضلال والكفر من الأغنياء المترفين.

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ﴾ أي: ما هذا الرسول إلا بشر مثلكم في صفات البشرية. وتقريراً لتمام المماثلة وصفوه بالأكل والشرب.

﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرًا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ٣٤﴾.

هكذا أعماهم الترف والبطر عن رؤية الحقيقة الواضحة، حتى جعلوا طاعة الرسول واتباعه في عبادة الله تعالى وحده خسارة ونقصاً.

﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥﴾.

أي: تخرجون من قبوركم أحياء للحساب والجزاء.

وهو استفهام إنكاري، يدل على إنكارهم ليوم القيامة واستبعادهم لوقوعه.

﴿هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦﴾.

أي: بعيد بعيد ما توعدون.

وأرادوا بهذا الاستبعاد نفيه مطلقاً، وأنه في نظرهم لا يكونُ أبداً، فالإنسان في نظرهم ينتهي بالموت، وأنه خُلق ليعيش في هذه الدنيا فقط، يأكل ويشرب ويلهو ويلعب، ويبغي ويظلم، ثم ينتهي بالموت، ولهذا أضافوا قائلين:

﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٣٧﴾.

أي: لا حياة لنا إلا هذه الحياة في الدنيا، يموت الآباء ويحيى الأبناء، وما نحن بمبعوثين بعد الموت.

وهو تكذيب ضمني للرسول المرسل إليهم، أكَّده قولهم:

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ٣٨﴾.

أي: بمصدقين.

فما كان من الرسول ﷺ إلا أن لجأ إلى الله تعالى يستنصر به على هؤلاء المعاندين المكذبين:

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠﴾.

أي: بعد قليل ليصبحن نادمين على كُفرهم وتكذيبهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، فما عذبهم الله إلا بعدله.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ أي: هلكى هامدين كغثاء السيل، وهو ما يحمله السيل من الحشيش والقصب اليابس المتفتت.

﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: بُعداً لهم عن رحمته تعالى.

* * *

مع الأنبياء والمرسلين

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ۝٤٢ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٤٣ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٤٤ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٤٥ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ۝٤٦ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۝٤٧ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ۝٤٨ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٤٩ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾.

وتكاثر البشر، وانتشروا في الأرض أمماً وشعوباً، ومن سنته تعالى في الناس أنه جعل للأمم والأجيال أعماراً وأزماناً لا تتجاوزها، فالحياة في الدنيا

ممر إلى الآخرة، ولا خلود فيها لأحد، وكما قدر سبحانه للأفراد آجالاً، قدر أيضاً للأمم والشعوب آجالاً، وهو ما دلت عليه الآيات الكريمة:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: لا يتقدمون عن الأجل المقدر لهم ولا يتأخرون عنه.

وكلَّما تتابعت الأمم، وتوالت الأجيال، تتابعت رسالات الله تعالى إليها، بواسطة المرسلين:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ أي: يتبع بعضهم بعضاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

وما من رسول إلا وكذبه قومه وعارضوا دعوته، وكان ذلك سبب هلاكهم:

﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: أتبعنا بعضهم بعضاً في الهلاك، فلم يبقَ منهم إلا أخبارهم، يتحدث بها الناس في مجالسهم.

﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

وتوقفت الآيات في أثناء هذا العرض التاريخي السريع المجمل، عند الرسولين الأخوين الكريمين موسى وهارون عليهما السلام؛ لأنهما من المعالم البارزة في تاريخ الرسالات الإلـهية:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: أرسلناهما مؤيدَيْنِ بالمعجزات والحجة الواضحة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: امتنعوا عن الإيمان تكبراً وترفعاً.

﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: خاضعون متذللون.

أنكروا بهذا القول بشرية الرسولين، وأنكروا أيضاً اختيارهم من بني إسرائيل، الذين كانوا يعانون من ظلم فرعون وقومه، واستعلائهم عليهم.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

أهلكهم الله في البحر، وأنجى بني إسرائيل من ظلمهم وبغيهم.

ثم أنزل الله سبحانه التوراة على موسى عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: لعل بني إسرائيل يهتدون به إلى طريق الفلاح.

وختمت الآيات استعراضها السريع، بذكر عيسى عليه السلام وأمه:

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ أي: إن الله تعالى جعل عيسى عليه السلام وأمه من أعظم الآيات الدالة على كمال قدرته وطلاقة مشيئته جل وعلا، وأنه قادر على الخلق من دون أسباب، فهو خالق الأسباب المسببات.

﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ إلى مكان من الأرض، مرتفع ومنبسط.

﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ فيه قرار وماء ظاهر يجري تراه العيون.

واختلفوا في هذا المكان، فقيل: موضع في غوطة دمشق، وقيل: بيت

المقدس، وقيل: الرملة من أرض فلسطين، ولعلَّه المكان الذي ولد فيه عيسى عليه السلام، والذي جعل الله فيه الثمر والماء، الذي قال تعالى فيه في **سورة مريم**: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾.

- **الطعام الحلال والعمل الصالح:**

والتفتتِ الآياتُ بعد هذا الاستعراض السريع لأهم الرسالات الإلٰهية، تخاطب جميع المرسلين، كأنَّهم كانوا مجتمعين في زمن واحد ومكان واحد، عند توجيه هذا الخطاب لهم، مما جعل بعض المفسرين يرى أنَّ المقصود بهذا الخطاب، هو خاتم الأنبياء المرسلين، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وقد يكونُ المرادُ الإعلامَ بأن كل رسول في زمانه نودي بذلك ووصي به، ليعتقد السامعُ أنَّ أمراً نودي له جميع الرسل ووُصُّوا به، حقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه[1]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ أي: كلوا من الطيب الحلال، واعملوا العمل الصالح، وهو العمل المشروع، فلا يكون العمل صالحاً إلا إذا وافق شرع الله تعالى. والأمر للتكليف، لقوله تعالى بعد ذلك:

﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي: فاحذروا عقابي، والتزموا حدود شرعي في مأكلكم وجميع أعمالكم.

ولا شك أن لتطييب المأكل والمشرب تأثيراً كبيراً في صلاح العمل وقبوله، ففي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**أيها الناسُ، إنَّ اللهَ طيبٌ لا يقبلُ إلا طيباً، وإنَّ اللهَ أمرَ المؤمنينَ بما أمرَ به المرسلينَ، فقال**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون] **وقال**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]. **ثم**

(١) انظر: تفسير النسفي: ٤/ ٣٤٧.

ذكر الرجلَ يطيلُ السفرَ أشعثَ أغبرَ، يمدُّ يديه إلى السماءِ: يا ربِّ يا ربِّ، ومطعمُه حرامٌ، ومشربُهُ حرامٌ، وملبسُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرامِ، فأنَّى يستجابُ لذلك» [رواه مسلم (١٠١٥)].

ودلتِ الآيةُ الكريمة على أنَّ تكليف الإنسان بالشرائع السماوية لسعادته وإصلاح حياته، لا لإعناته والتضييق عليه، كما أفادت وحدة الرسالات الإلٰهية، وأنها جميعاً منزلةٌ لرعايةِ مصالح الناس وهدايتهم إلى طريق الفلاح.

- **الاختلاف والكُفر:**

وطريق الأنبياء والمرسلين واحد، وهو الطريق المؤدي إلى الفلاح والخلود في النعيم، والسائرون عليه أمة واحدة، مهما اختلفت أجناسهم وأعصارهم وأمصارهم:

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾.

والدين الواحد أعظم مقومات الأمة الواحدة؛ لأنه يوحِّد قلوبهم وسلوكهم واتجاههم وطريقهم، يكفي أنهم جميعاً يتجهون بالعبادة والطاعة إلى ربٍّ واحد، ويلتزمون منهجاً واحداً: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وهو ما كان عليه الناس في فجر وجودهم الأول، وفي فجر وجودهم الثاني بعد الطوفان، عندما كانوا سائرين على دين التوحيد، الذي بشَّر به آدم ونوح وسائر الأنبياء والمرسلين بعدهما، وما تفرق الناس إلا عندما طرأ عليهم الكفر والشرك، فانحرفوا عن الطريق، وتشعَّبت بهم الملل الباطلة والنِّحَل الفاسدة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

وقال أيضاً: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وهذا ما صرحت به الآيات بعد ذلك بقوله تعالى:

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾.

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ﴾ أي: تقطعوا أمر دينهم، وجعلوه نِحَلاً مختلفة، وقطعاً متباينة، فاختلفوا، وتفرقت بهم الطرق، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

والعجيب أنه تعالى ذكر مثل هذا أيضاً في **سورة الأنبياء** فقال: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣﴾.

﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ أي: مسرورون مُعْجَبون بما عندهم من الآراء والأهواء.

* * *

غفلة وغرور

﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾.

وإعجابهم وفرحهم بما عندهم من ملل باطلة، نابع من سببين:

السبب الأول: غفلتهم عن الحق وشواهده الساطعة، وبراهينه الواضحة.

وصورت الآيات هذه الغفلة، وهي تخاطب النبي ﷺ، مواسية له ومثبتة، بقوله تعالى:

﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤﴾.

﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ﴾ أي: دعهم في غفلتهم.

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ موعد نزول العذاب بهم.

شبَّه غفلتهم وجهالتهم بالماء الذي يغمر أصحابه، فهم منغمسون في الغفلة، تحيطُ بهم من جميع جوانبهم.

والأمر لا يفيد الإعراض عن تذكيرهم وتبليغهم، فالنبي ﷺ مأمور بذلك، وإنَّما جاء على سبيل الوعيد والتهديد لهم، ولهذا الأسلوب نظائر في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٢].

وقوله سبحانه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات].

والسبب الثاني: اغترارهم بما في أيديهم من زينة الدنيا ومتاعها وزخرفها، إذ حسبوه إكراماً لهم، بينما هو في الحقيقة ابتلاء واختبار، سقطوا فيه، فأصبح مكراً بهم واستدراجاً لهم إلى سخط الله تعالى وعذابه:

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ﴾ أي: نعجِّل لهم في الخيرات؛ إكراماً لهم، لمرضاتنا عنهم.

﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يشعرون أنَّ ذلك استدراجٌ لهم ومكر بهم، قال تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [القلم].

وقال أيضاً: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥].

فالدنيا هينةٌ على الله تعالى، يعطيها من يحبُّ ومن لا يحبُّ، كما قال سبحانه: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

والإكرامُ الحقيقي هو بالتوفيق إلى الطاعات، والاستقامةِ على طريق الفلاح، ومن وفقهم الله تعالى للاستقامة على طريق الفلاح، فقد أكرمهم سبحانه أعظم كرامة.

* * *

المسارعون إلى الخيرات

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

فهم المسارعون الحقيقيون في الخيرات، الذين تدفعهم خشيتهم من ربهم إلى الإسراع في طاعته ومرضاته:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: حَذرون خائفون؛ إجلالاً لربهم وتعظيماً له، بسبب إيمانهم بلقائه يوم القيامة، ووقوفهم بين يديه سبحانه للحساب والجزاء:

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: يصدِّقون بكل ما أخبر تعالى عنه بآياته المنزلة على رسوله. ومن أعظم القضايا التي اشتملت عليها هذه الآيات، يوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

فلا يعبدون غيره، ولا يطيعون سواه، وينأون بأنفسهم عن جميع أنواع الشرك الخفية والجلية.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ أي: يتقربون إلى الله تعالى بأنواع الطاعات والعبادات.

﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ وهم خائفون ألا يتقبلها سبحانه منهم.

﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ لأنهم يوقنون أنَّ مصيرهم إليه تعالى، وهو عليم بأحوالهم وما تكنُّه ضمائرهم وقلوبهم.

وهذا يدل على أنهم غير معجبين بأعمالهم، ولا مغترين بها، يتهمون أنفسهم دائماً بالتقصير في طاعة ربهم وشكره على نعمه وإحسانه.

وفي الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها: أنها قالت: قلتُ: يا رسول الله، الذينَ يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة، أهم الذين يشربون الخمرَ ويسرقون؟ قال: «**لا يا بنتَ الصديقِ، ولكنَّهم الذين يصومونَ ويتصدَّقونَ، ويخافون ألا يُقْبَلَ منهم، أولئكَ الذين يسارِعُوْنَ في الخيرات**» [رواه الترمذي (٣١٧٥) وابن ماجه (١١٩٨) وأحمد (٦/ ١٥٩)].

فيجب على المؤمن ألا يغتر بعمله، ولا يعجب به، حتى يبقى على حذر ووجل من عذاب الله تعالى، فلا يكون كالكفار المغترين بالدنيا وزخارفها، والمطمئنين إليها، أو يكون من المغترين بأعمالهم المعجبين بها، الذين يشعرون بالأمن من عذاب الله تعالى، كما قال سبحانه فيهم: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

فالتصديق بالمسؤولية أمامه تعالى يوم القيامة أمرٌ هام في حياة المؤمن، راسخٌ في وجدانه، مؤثِّرٌ في سلوكه، يجعله دائماً راغباً في طاعته تعالى أشد الرغبة، غير زاهد فيها، يستكثر منها ويسارع إليها:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

فهم المتسابقون في طريق المكرمات، الواصلون إليها قبل غيرهم، الذين يكرمهم الله تعالى بتعجيل ثوابها لهم في الدنيا، بتوفيقه ومعونته وتيسيره، وفي الآخرة بالخلود في فراديس جنته، فهو سبحانه أسرع بكل خير إليهم منهم إليه، كما جاء في الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ قال: «**يقول**

الله ﷻ: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، وإنْ ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ هم خير منهم، وإنْ تقرَّبَ عبدي مِنِّي شبراً تقرَّبتُ إليه ذِراعاً، وإذا تقرَّبَ مني ذِراعاً تقرّبتُ منه باعاً، وإذا أتاني يمشِي أتيتُهُ هرولةً» [رواه مسلم (٢٦٧٥)].

فالحياةُ في الإسلام ميدان سباق، يتسابق فيه المؤمنون للوصول إلى الفوز برضوانه تعالى، وهو سباق مشروع محمود، أمر به تعالى فقال: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وقال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ومن رحمته تعالى أنه جعل المسارعة إلى الخيرات سهلةً ميسورةً، لا حرجَ فيها ولا مشقة، لأنَّ أساسَ التكليف فيها قائمٌ على الوسع:

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ﴾ أي: إلا ما تتسع له طاقتها، فكل ما كلف به المؤمنون في الإسلام لا يخرجُ عن حدود طاقتهم، بل هو دونها؛ إذ الوسعُ هو ما تتسع له قدرةُ الإنسان، وتتسع لأكثر منه، فلا عذر لأحدٍ في التباطؤ والتثاقل عن عبادة الله تعالى وفعل الخيرات، فهو مكلَّف بها، ومسؤول عنها، وهي مسجلةٌ عليه في صحيفة أعماله.

﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ﴾ أي: يبين الحق ويشهد على صاحبه بالصدق.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: وهم عند المسؤولية والحساب لا يظلمون.

* * *

الصحوة المتأخِّرة

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾

ورجعت الآيات إلى الكفار تبين أحوالهم، بعد أن بينت أحوال المؤمنين:

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي: بل قلوب الكفار في غفلة عن الشعور بالمسؤولية، وعن الإيمان بأنَّ أعمالَهم تكتب عليهم، وأنهم محاسبون عليها يوم القيامة.

ففي الآيةِ إضرابٌ عمَّا قبلها، وهي المرة الثانية في السورة، التي تصف فيها الآياتُ الكافرينَ بالغفلة الغامرة، المسيطرة على قلوبهم، والمستوطنة في أعماق نفوسهم، وهذا يجعلهم يصرون على أعمالهم الفاجرة الخبيثة.

﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أي: ولهم أعمال سيئة غير الغفلة الغامرة لقلوبهم، وهم مستمرُّون عليها، ومنهمكون فيها، مما يدلُّ على أنَّ الفساد قد استشرى وتمكَّن في قلوبهم وأعمالهم، بسبب كفرهم بالله تعالى، وإنكارهم لمسؤوليتهم عن أعمالهم وحياتهم يوم القيامة.

فما أعظمَ الفرقَ بين هؤلاء المغمورين بغفلتهم، المنهمكين بشهواتهم، وبين المؤمنين الحذرين الخائفين من ربهم، المسارعين إلى الخيرات،

والمتنافسين في الطاعات والمبرَّات! فالإيمانُ حين يشرق في القلب، ينير لصاحبه الدرب، ويجعله سائراً عليه في يقظة وحذر وانتباه.

ولا رجاء في يقظة الكفار، ولا أمل في انتباههم وإدراكهم خطورة الطريق التي يسيرون عليها، حتى يصلوا إلى نهاية الحياة، حينئذ يستيقظون من غفلتهم، وينتبهون من سكرتهم، فهم نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ٦٤﴾.

أي: يصرخون مستغيثين. فالجُؤار مثل الخوار، يقال: جأر الثور يجأر إذا صاح، وجأر الرجل بالدعاء إلى الله تعالى، إذا تضرع بالدعاء[1].

وخصصتِ الآيةُ المترفين بالذكر، لأنَّهم ـ كما مر معنا ـ رؤوس الكفر والضلال، وعندما ينزل بهم العذاب، ينزل أيضاً بأتباعهم ومقلديهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٦].

وجاءت صحوتهم هذه متأخرة، فلا ينتفعون بها، ويقال لهم عندها توبيخاً وتقريعاً:

﴿لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ٦٥﴾.

أي: لا تمنعون منا، ولا ينفعكم جؤاركم.

﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ٦٦﴾.

﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: تُقرأ عليكم، تنبهكم وتحذركم، وتبيِّنُ لكم خطرَ الطرق التي تسيرون عليها، وتدعوكم إلى السلامة والأمن.

---

(١) روح المعاني: ١٨/٤٨.

﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي: تعرضون مدبرين عن سماعها والاستجابة إليها.

والنكوص: الرجوع إلى الوراء، وهو أقبحُ مشيةٍ؛ لأنَّ الذي يرجع ماشياً القهقرى لا يرى ما وراءه.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي: مستكبرين بالبيت الحرام، وشهرة استكبار مشركي قريش بالبيت الحرام، وافتخارهم بأنهم سدنته وجيرانه، أغنت عن سبق ذكره.

﴿سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ أي: تسمرون بذكر النبي ﷺ بالقول الفاحش القبيح المهجور.

فالهجر: الكلام المهجور لقبحه، وهجر فلان: إذا أتى بهجر من الكلام عن قصد، وأهجر المريض: إذا أتى بذلك عن غير قصد[١].

وكان مشركو قريش يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون، وكان عامَّةُ سمرهم يدور حول القرآن الكريم والنبي ﷺ، ووصفهما بأوصاف لا تليقُ بهما.

ولهذا دعتهم الآياتُ إلى تدبر آيات القرآن الكريم، كما ذكَّرتهم بحقيقة الرسول ﷺ:

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: أفلم يتأمَّلوا معاني القرآن الكريم؟!.

وهي دعوةٌ لهم بأسلوب الاستفهام، ممزوجة بالإنكار والتوبيخ، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم الأولين، فاستبعدوه، وأعرضوا عنه؟!.

فكلمة ﴿أَمْ﴾ للإضراب، والانتقال من توبيخ إلى توبيخ آخر، فإنزالُ

---

(١) روح المعاني: ١٨/ ٥٠.

الكتبِ، وبعثةُ الرسل من سنن الله تعالى القديمة المعروفة المشهورة، التي لا تُنكَرُ، والنبيُّ عليه أفضل الصلاة السلام ليس بِدْعاً من الرسل.

كما أنهم كانوا يعرفونه بشمائله الكريمة الرفيعة، ولهذا تابعت الآيات توبيخهم، بأسلوب الإضراب والانتقال من توبيخ إلى توبيخ، فمواقفهم القبيحة كثيرة، تستدعي زيادة في توبيخهم:

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ أي: بالصدق والأمانة والأخلاق الكريمة.

﴿فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أي: فكيف ينكرونه ويكذبون رسالته، ويعرضون عن دعوته، وقد عرفوه بما عرف به واشتهر من الأخلاق الكريمة، حتى كانوا يلقبونه بالأمين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

فإنكارهم له ليس بسبب جهلهم به، وإنَّما بسبب بغيهم وحسدهم له عليه الصلاة والسلام.

- **الحق متبوع لا تابع:**

واستمرت الآيات على هذا الأسلوب، توبخ المشركين، وتدفع عن النبي ﷺ الأوصافَ القبيحةَ التي وصفوه بها، وكانت أحاديثُهم تردد وهم يسمرون بجوار بيت الله الحرام:

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: جنون، وهم يعلمون أنه عليه الصلاة السلام أرجحهم عقلاً، وأثقبهم نظراً.

﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ أي: جاءهم بالصدق والقول الذي لا تخفى صحته وحُسنه على عاقل، ومع ذلك فإن أكثرهم يكرهون الحق ولا ينقادون له، لأنه يصادم أهواءهم وشهواتهم.

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أي: لو جاء القرآن الكريم وما فيه من تشريع موافقاً لأهوائهم وشهواتهم لاختلَّ نظام العالم، بسبب قصور عقولهم، وتناقض آرائهم، وتضارب أهوائهم ومصالحهم.

فالحق متبوعٌ لا تابع، ومصدره دين الله تعالى وشرعه، وعلى الناس أن يستسلموا لأحكامه، لأنَّ فيه صلاح البلاد والعباد، والإعراضُ عنه يؤدِّي إلى الخلل والفوضى والفساد، وما أكثرَ ما أورثت القوانينُ الوضعية الناس اضطراباً وفساداً وتنازعاً واختلافاً، وكلَّما ابتعدَ الناس عن دين الله تعالى وشرعه، ازدادوا عناء وشقاء وتعاسة.

فمن الضروري لصلاح العالم واستمرار وجوده، أن يكونَ تشريع الأحكام منوطاً بخالقه ومبدع سننه، حتى يتم التوافق والانسجام بين السنن الكونية، وبين القوانين التشريعية، والله تعالى وحده هو العليم الحكيم بما يصلح عباده ومخلوقاته: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وهذا سِرُّ امتياز الشريعة الإلٰهية على الشرائع الوضعية، فهي شريعة كاملة منسجمة تماماً مع السنن الكونية، ومع أصل الفطرة البشرية التي فطر سبحانه الناس عليها.

وفضلاً عن ذلك، فقد جاء القرآن الكريم بميزة خاصة، خَصَّ بها العرب دون غيرهم من الأمم، إذ أنزله سبحانه بلغتهم، على رجل من أوسطهم نسباً، وأكرمهم محتداً، فلماذا يعرضُ المشركون عنه، وفيه عزهم وشرفهم؟!.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي: أتيناهم بما فيه شرفهم وعزهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: فهم لا يكرهون الحق ويعرضون عنه فقط، بل يعرضون عما فيه عِزُّهم وشرفهم، فما أغباهم وأجهلهم!.

وقد ظلت أمةُ العربِ لا ذكرَ لها في تاريخ العالم، حتى جاءها الإسلام، وقد ظلَّ ذكرُها يدوِّي في آذان القرون طالما ظلت به مستمسكةً، وقد تضاءل ذكرها عندما تخلَّت عنه، فلم تعد في العير ولا في النفير، ولن يكون لها ذكر إلا أن تفيء إلى عنوانها الكبير[١].

وبهذا الأسلوب الرائع بلغت الآياتُ الغايةَ العظمى في توبيخ وتقريع المعرضين عن دين الله وشرعه، وفي الوقت نفسه أظهرت مزايا الشريعة الإسلامية، وما فيها من خير عام للعباد والبلاد، ومن خير خاص بقوم النبي ﷺ، الذين بادرَ أكثرُهم إلى معارضتها، وحاولوا طمس معالمها.

وبهذا بلغت الآيات أيضاً الغاية العظمى في توبيخهم وتقريعهم، وأظهرت في الوقت نفسه مزايا الرسالة الإسلامية، وما فيها من خير عام للعباد والبلاد، وخير خاص بقوم النبيِّ ﷺ، الذين أنزل الله القرآن الكريم بلغتهم.

* * *

إعراض وعناد

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾

ومن مزايا الرسالة الإسلامية أيضاً: أنها رسالة منزهة عن أي غرض دنيوي وكسب مادي، فما جاءت إلا لإصلاح العباد، ودفع الخلل والفساد عن البلاد، فلا

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٤٧٥.

عذرَ لمشركي قريش في الإعراض عنها، ولهذا تابعت الآيات الكريمة توبيخهم، وهي تنزه دعوة النبي عليه الصلاة والسلام عن أي كسب مادي ونفع دنيوي:

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ أي: أم يزعمون أنك تسألهم على أداء الرسالة أجراً ومالاً، ولهذا يعرضون عنك.

﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي: فرزقُ ربك وثوابُه خيرٌ، لأنه أفضل المعطين في الدنيا والآخرة، فالرزقُ في الحقيقة رزقه، والعطاء عطاؤه، والغنى والفقر بمشيئته تعالى وتدبيره، وهو القائل: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾.

أي: وإنك حقيق بالاتباع، لأنك تدعوهم إلى طريق الفلاح والفوز والنجاح، وهو الصراط المستقيم الذي يوصلهم إلى الخلود في الجنان، كما تقدَّم في صدر السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

ومع أنه عليه الصلاة والسلام حقيقٌ بالاتباع فقد أعرضوا عنه:

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

أي: عادلون ومنحرفون عن طريق الفلاح، لأنهم لا يؤمنون بيوم القيامة، ويرون أن حياتهم تنتهي بالموت.

وبينتِ الآياتُ أنَّ سببَ إعراضهم، نابعٌ من سوء اختيارهم، وشدة تمسكهم بباطلهم، وإعجابهم بالطرق الضالة المنحرفة التي يسيرون عليها:

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥)﴾.

أي: لو أزحنا عنهم الضر الذي يغلف قلوبهم، ويحجبهم عن رؤية الحق، لتمادوا في ضلالهم وعنادهم، واستمروا على كفرهم وطغيانهم، يترددون متحيرين، دون تمييز بين الحق والباطل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

فالقوم لا خيرَ فيهم أبداً، ولا يوجد فيهم أدنى استعداد لقبول الحق والإذعان له، ومما يدل على ذلك: أن البلايا والمصائب التي نزلت بهم، لم تنبههم من غفلتهم، ولم تزل قسوة قلوبهم:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦)﴾.

أي: أخذناهم بالمصائب والمحن، كنقص الأموال والأنفس، فما وجدت منهم استكانة وخضوع لله تعالى، وظلوا غافلين عنه لا يعبدونه ولا يدعونه خاشعين متضرعين، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام].

ويبقى القوم في غمرة غفلتهم، منهمكين بشهواتهم، لا ينتبهون إلا عند نزول الموت وسكراته بهم:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧)﴾.

أي: حتى إذا نزل الموتُ بآلامه وسكراته فيهم، أو عند رؤيتهم للعذاب

يوم القيامة، إذا هم آيسون من النجاة، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢].

وقوله أيضاً في سياق ما استشهدنا به من آيات **سورة الأنعام**: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

فالإبلاسُ، وهو اليأس والقنوط من النجاة، يسيطر عليهم في الدنيا عند الموت، وفي الآخرة عندما يُساقون إلى جهنم.

* * *

تقرير وإلزام

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، وبسبب غفلتهم وعنادهم، لم ينتفعوا بوسائل التمكين التي زودهم الله تعالى بها، والتي تمكِّن الإنسان من العلم والمعرفة والتمييز، وهي من أعظم النعم التي تفضَّل الله بها على الإنسان.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: ما شكرتم الله تعالى عليها، لأنكم لم تستعملوها في الاستدلال على عظمته ووجوده ووحدانيته، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ

فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ولو أنهم استعملوا وسائل التمكين هذه أدنى استعمال، لعرفوا أنهم في قبضة قدرته تعالى وحده، وأنَّ مصيرهم إلى حكمه يوم القيامة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

أي: هو وحده الذي خلقكم وبثكم في جنبات الأرض، فلن يترككم، وإليه وحده تُجمعون يوم القيامة للحساب والجزاء.

فحياتكم وموتكم بيده جل وعلا، والسنن الكونية المحيطة بكم بتقديره وتدبيره:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

ومع كل هذه الدلائل الظاهرة الواضحة المحيطة بهم، لم يعقلوها ولم يفهموا مدلولها:

﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾.

أي: بل قال المشركون المعاندون، مثل ما قال الأولون من الأمم السابقة الكافرة المعاندة:

﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وهو سؤال إنكار، يدل على أنهم أنكروا قدرة الله تعالى على بعثهم بعد موتهم وتفتت أجسامهم.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل مجيء محمد عليه الصلاة والسلام، ولم يأتنا ما وعدنا به من العذاب.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا إلا أكاذيب الأولين المسطورة في كتبهم.

وردَّ الله تعالى عليهم، بأنْ جعلَهم يقرُّون بكمال سلطانه، وتمام قدرته، وأنه وحده الخالق المالك المدبر:

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

ولا يخفى ما في السؤال من استهانة بهم، وتعريض بجهلهم، ولهذا أخبر سبحانه بجوابهم قبل أن يجيبوا، فإنَّ بديهة العقل تلزمهم بالاعتراف بأنه تعالى هو الخالق والمالك، فهو تعالى يطوقهم بالحجج من طريق المسلمات العقلية الفطرية، التي لا يمكن إنكارها؛ لأنها ثابتة راسخة في أصل خلقتهم وجبلتهم.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم والمعرفة.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ﴾ أي: الأرض ومن فيها لله تعالى وحده خلقاً وتدبيراً.

﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتذكرون أنَّ خالق الأرض ومَنْ فيها قادِرٌ على إعادتها وإعادة من فيها بعد موتهم وتفتتهم؟!.

وتابعت الآيات إلزامهم بأسلوب السؤال التقريري، وانتقلت من الأدنى إلى الأعلى:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: مَنْ خالق ومالك ومدبر هذه المكونات الكبيرة، السماوات السبع

والعرش العظيم؟.. وأُعِيْدَ ذكرُ الرب تنويهاً بشأن العرش، ورفعاً لمحله عن أن يكون تبعاً للسماوات وجوداً وذكراً[1].

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧﴾.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ أي: له وحده خلقاً وملكاً وتدبيراً، وجاء الجواب ﴿لِلَّهِۚ﴾ باللام نظراً إلى معنى السؤال، فمن ربه؟ ولمن هو؟ في معنى واحد، وفي قراءة ثانية هنا وما بعدها، جاء الجواب موافقاً للفظ: **(سيقولون الله)**.

﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تتقون عذابه فلا تشركوا به أحداً، ولا تنكروا قدرته على إعادتكم إلى الحياة بعد الممات.

وتابعتِ الآياتُ أسلوب السؤال التقريري الملزم، وانتقلت هذه المرة من الخصوصِ إلى العمومِ:

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨﴾.

﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مما ذكر ومما لم يذكر، فملكه تعالى أعظم من السماوات والأرض وما فيهما، وأعظم أيضاً من العرش العظيم، وهو وحدَه جلَّ وعلا المالكُ لكلِّ شيء، وملكه تام كامل، سلطانه عزيز غالبٌ قاهرٌ، ولهذا جاء التعبير عنه بكلمة ﴿مَلَكُوتُ﴾ إذ هي أبلغُ في الدلالة على المعنى من كلمة (مُلْك)، ولا شك أن زيادة المبنَى تدلُّ على زيادة المعنَى، ولهذا ذكرها تعالى في معرض بيان تمام سلطانه على جميع المخلوقات فقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: وهو السيد العظيم في ملكه، الذي يجير، ولا يجار عليه، فله سبحانه الخلق والأمر والملك والحكم، لا معقِّبَ لحكمه،

---

(١) تفسير أبي السعود: ٦/١٤٨.

ولا رادَّ لأمره. وكانت العرب إذا كان السيد فيهم أجار أحداً، لا يُخْفَرُ جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه، لئلا يفتات عليه[1].

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: سيعترفون ويقرون بأنه تعالى هو الرب العظيم، الذي له الأمرُ والحكمُ، كما أقروا بأنه الخالق المالك.

﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي: كيف تُخدعون وتُصرفون عن توحيدِهِ وطاعته؟! فيخيَّلُ لكم الحق باطلاً.

تدلُّ كلمة ﴿تُسْحَرُونَ﴾ على مدى الاضطراب والخلل والتخبط في تفكيرهم، كما تدل على شدة القلق والحيرة في نفوسهم.

* * *

إثبات التوحيد ونفي الشرك

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

وبعد أن أثبتت الآيات، بأسلوبها التقريري الملزم، التوحيد بالدلائل القطعية، نفت نفياً قاطعاً جازماً أن يكون لله تعالى ولد أو شريك، وبينت كذب أصحاب هذه الدعاوى الباطلة:

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

أي: الدين الحق القائم على التوحيد والتكليف والمسؤولية، وإنهم لكاذبون

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٧٣.

في إنكارهم لحقيقة التوحيد، ولمسؤوليتهم يوم القيامة، وقدرته تعالى على بعثهم وحسابهم.

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ لأنه منزه عن الاتصاف بصفات المخلوقات، فهو الواحد الأحد، المنزه عن الصاحبة والولد.

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾ أي: وما كان معه من إلٰه يشاركه في استحقاق العبادة والطاعة، فهو أيضاً منزه عن الشريك، وهو سبحانه وحده المعبود بحق.

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ أي: لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق، واختل نظام الكون، وما وجد التعاون والتناسق بين سننه.

والمشاهَدُ أنَّ للمكونات كلها، الأرضية والسماوية، نظماً متناسقة غاية التناسق والكمال، وهذا ما تؤيده الكشوفات العلمية الحديثة، مما يدل على وحدانية الخالق المدبر جل وعلا، كما في قوله الكريم: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقوله أيضاً: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء].

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: يتنزه الله ويتقدَّس عما يصفه المشركون بصفات لا تليق بجلاله وكماله ووحدانيته.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

أي: له سبحانه كمالُ العلم، يعلمُ ما يغيب عن العباد، وما يظهر لهم، فهو أعلى وأعظم من صفات الشرك التي يصفه بها المشركون.

* * *

تذكير وتأديب

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

فالإشراك بالله تعالى أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، وهو ذنب لا يُغفر لمن مات عليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وشؤمُ الشركِ في الدنيا كبيرٌ، قد يتعدَّى بسبب ذلك إلى غير المشركين، ولهذا توجهت الآياتُ إلى النبيِّ ﷺ تأمره أن يلجأ إلى ربه تعالى، مستعيذاً به أن يصيبه شيء من العذاب الذي ينزله تعالى بالمشركين:

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

أي: إن قدَّرت لي أن أرى ما وعدت المشركين من العذاب.

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

أي: ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي﴾ قريناً معهم في العذاب، ولا تعذبني بعذابهم.

ولهذا كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «**اللهمَّ أصلحْ لي ديني الذي هو عصمةُ أمري، وأصلحْ لي دنيايَ التي فيها معاشي، وأصلحْ لي آخرتي التي فيها معادِي، واجعلِ الحياةَ زيادةً لي في كلِّ خيرٍ، واجعلِ الموتَ راحةً لي من كُلِّ شرٍّ**» [رواه مسلم (٢٧٢٠)].

وورد من دعائه أيضاً: «**وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً فتوفَّني إليكَ غيرَ مفتونٍ**» [رواه أحمد (٥/ ٢٤٣) والترمذي (٣٢٣٥) وصححه].

ولا يخفى ما في الآيات من موعظة قوية مؤثرة في المؤمنين، فإذا كان هذا حال النبي ﷺ، وشدة خوفه من ربه، فكيف ينبغي أن يكون حال المؤمنين؟! أسأل الله تعالى أن يلطف بنا، ويجنبنا الفتن الظاهرة والخفية.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

أي: ولو شئنا لأريناك العذاب الذي ننزله بهم، فإنا قادرون على ذلك، لكننا نؤخِّره عنهم، ونأمرك أن تصبر على أذاهم، وأن تقابله بالصفح والإحسان، لعل ذلك يكون سبباً لهدايتهم.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: قابل السيئة بالحسنة، وعامل المسيء بالإحسان، فهو تأديبٌ كريم رفيع، أدَّبَ الله به نبيه عليه الصلاة والسلام، وأمره به في **سورة فصلت** في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

وكان هذا من أخلاقه الكريمة الشريفة ﷺ، فعَلَه عليه الصلاة والسلام حتَّى مع ألدِّ أعدائه من مشركي قريش، فعندما فتحَ مكةَ، وتمكَّن من الانتقام منهم، عفا عنهم، وقال لهم كلمته المشهورة: «**يا معشرَ قريشٍ، ما ترونَ أنِّي فاعلٌ فيكم؟**» قالوا: خيراً، أخٌ كريمٌ، وابنُ أخٍ كريمٍ، قال: «**اذهبوا فأنتمُ الطلقاءُ**»[1].

والجدير بالذكر أنه تعالى وصف المؤمنين بهذا الخلق الكريم في معرض الثناء عليهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: نحن أعلم بالذي يصفونك به، ويذكرونك به

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/٤١.

من السوء، وقد مرَّ معنا حكاية بعض أوصافهم له في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ولا شكَّ أنَّ هذا الخلق الكريم، وهو مقابلة الإساءة بالإحسان، إذا فشا بين الناس، يؤدي إلى المحبة والسلام، ويدفع كثيراً من أسباب الخصام والنزاع، ويفوِّتُ على الشياطين فرصاً كثيرة لإثارة الفتن والمنازعات بين الناس، ولهذا أضافت الآيات الكريمة تبين السبيل المُنجي من وساوسهم ومكرهم وكيدهم:

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾﴾.

أي: من وساوسهم ونزغاتهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

والهمز في اللغة: النخس، ومنه مهماز الرائض الذي يهمز به الدابة، حثّاً لها على المشي.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

أي: أن يكونوا معي حاضرين، فإنَّهم عند حضورهم يتمكنون من الوسوسة والمكر.

وفي الحديث الشريف: عن **جابر** ﷺ: أن النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ الشيطانَ يحضُرُ أحدَكم عندَ كُلِّ شيءٍ مِنْ شأنِهِ، حتَّى يحضرَهُ عندَ طعامِهِ، فإذا سقطتْ مِنْ أحدِكُم اللقمةُ، فليُمِطْ ما كان بها من أذًى، ثم ليأكُلها، ولا يَدَعْها للشيطانِ، فإذا فرغَ فليلعقْ أصابعَهُ، فإنَّه لا يدري في أيِّ طعامِهِ تكونُ البركةُ**» [رواه مسلم (٢٠٣٣)].

ولهذا يُسَنُّ التعوُّذُ من الشيطان في كثير من الأمور والحالات، وخاصة عند النوم، روى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ يعلِّمنا كلماتٍ يقولهنَّ عندَ النومِ مِنَ الفزعِ: «**بسم اللهِ، أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامَّةِ مِنْ غضبِهِ وعقابِهِ، وَمِنْ شَرِّ عبادِهِ، ومِنْ همزاتِ الشياطينِ وأَنْ يَحْضُرُوْن**» فكان

عبد الله بن عمرو يعلِّمُها من بلغَ من ولدِهِ، أن يقولها عندَ نومِهِ، ومَنْ كان منهم صغيراً لا يَعْقِلُ أن يحفظَها، كتبَها له فعلَّقها في عُنُقِهِ. [رواه أبو داود (٣٨٩٣) والترمذي (٣٥٢٨) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٦٥) والحاكم (٢٠١٠) وصححه].

والجدير بالذكر أنَّ الشيطان لا تَسَلُّطَ له على النبيِّ ﷺ؛ لأنَّ الله تعالى عصمه من الإنس والجن، وفي الحديث الشريف: عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**ما مِنْكُم مِنْ أحدٍ إلا وَقَدْ وُكلَ به قرينُهُ مِنَ الجِنِّ**» قالوا: وإيَّاكَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**وإيَّايَ، إلا أنَّ اللهَ أعانني عليه فأسلم، فلا يأمُرُني إلا بخيرٍ**» [رواه مسلم (٢٨١٤)].

وتوجيه الخطاب للنبي ﷺ بالاستعاذة من الشيطان، تعليم لأمته ومبالغة في التوقِّي من شر الشيطان ومكره.

* * *

سؤال الرجوع إلى الدنيا

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٠٠﴾.

وبعد أن بينت الآيات مواقف المشركين من دعوة النبي ﷺ عادت مرة ثانية تصف أحوالهم عند الموت بنفس الأسلوب الأول، ففي المرة السابقة قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ۝٦٤﴾ وفي هذه المرة قال تعالى أيضاً:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩﴾.

أي: ردوني إلى الحياة الدنيا.

وكلمة ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هنا، كما هي هناك؛ لبيان غاية لمقدَّرٍ محذوف دلَّ عليه

ما سبق، وتقديره في المرة الأولى: ولا يزالُ القومُ في غمرتهم وغفلتهم وأعمالهم المترفةِ الفاسدةِ، حتى نأخذَهُم بالعذاب، فإذا هم يجأرون. وتقديره هنا: لا يزالون متمسكين بعنادهم وإعراضهم، ووصفهم للنبي ﷺ بما لا يليق به من الأوصاف المذمومة، حتى يأتيهم الموت، فحينئذ يقول كل واحد منهم: ربِّ ارجعون.

والمراد من مجيء الموت مجيء مقدماته وسكراته.

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾.

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾ أي: فيما ضيعتُ، وهي حياته الدنيا التي ضيعها في غير طاعة الله تعالى، فهي فرصةٌ لا تعوَّضُ ولا تتكرر، وقد سبق في علم الله وتعلَّقت به إرادته ومشيئته، أنه عندما يخرجُ الإنسانُ من العدم، ويضعه على طريق الحياة، أن يكون هذا الطريق في اتجاه واحد، لا رجوعَ فيه إلى الوراء أبداً، وأن يمتد إلى الخلود في الجنة أو في النار.

وسؤال الرجعة إلى الدنيا يتكرر منهم أكثر من مرة:

ـ **عند الاحتضار**، كما في قوله تعالى هنا، وفي قوله أيضاً: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

ـ وكذلك **عند الحساب في أرض المحشر**، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

ـ ويتكرر أيضاً منهم وهم **يعذَّبون في جهنم**، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

وسيأتي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧].

﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ أي: لا رجعةَ له أبداً، وسؤاله الرجعة كلمة لا بدَّ أن يقولها في مثل هذا الموقف، بسبب ما يعاين من الهول والفزع. إنَّها كلمةُ الموقف الرهيب، لا كلمة الإخلاص المنيب، كلمة تقال في لحظة الضيق، ليس لها في القلب رصيد(١).

وقد أكد سبحانه هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: ومن أمامهم حاجز بينهم وبين الرجعة، إلى يوم يبعثون من قبورهم، وهذا الحاجز هو البرزخ الممتد من موتهم إلى يوم بعثهم من قبورهم، وهو إقناط كلي لهم عن الرجوع إلى الدنيا، إذ هي دار الفناء، والله تعالى خلقهم لدار الخلود والبقاء.

* * *

في يوم الخلود

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾.

وماذا يحدث إذا ما انقضى البرزخ، وجاء يوم الخلود؟:

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٤٨٠.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

أي: إذا نُفخ في الصور نفخة النشور، وبعث الناس من القبور، لا يتساءلون سؤال تواصل، كما كانوا يتساءلون في الدنيا، فلا تنفعهم أنسابهم ولا أرحامهم، ولا يسأل أحد عن أحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠].

وقوله سبحانه أيضاً: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس].

ولا تناقض بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، فللقيامةِ مواطن، ففي موطن يشتدُّ عليهم الخوف فلا يتساءلون، وفي موطن يفيقون فيتساءلون[١].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

أي: من ثقلت موازينه بالحسنات، فرجحت على سيئاته، أو: من ثقلت موزوناته من الأعمال الصالحة، لأنَّ لها قدراً ووزناً عند الله تعالى، فأولئك هم الفائزون بالخلود والبقاء والخير والنعيم، كما في أول آيات السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: من خفت موازينه بالحسنات، فرجحت عليها سيئاته.

أو: لم يكن معه من الأعمال الصالحة ما يكون له وزن وقدر عند الله تعالى.

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٣٥٩.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ فأولئك غبنوا أنفسهم، وعرَّضوها لخسارةٍ لا عوضَ لها.

﴿فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ فهم ماكثون أبداً في جهنم، لا يخرجون منها.

﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾.

﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تحرق وجوههم النار.

﴿وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ وهم فيها عابسون قد بدت أسنانُهم، وتقلَّصت شفاههم، كالرأس المشوي على النار.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**تشويه النارُ فتتقلَّصُ شفته العليا، حتى تبلغَ وَسَطَ رأسِهِ، وتسترخي السُّفلى حتى تضربَ سُرَّتَهُ**» [أخرجها الترمذي (٢٥٨٧) وصححه].

وتخصيص الوجه بالذكر لأنَّه أشرف الأعضاء، وإلا فالنار تحرق جميع أجسامهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

ويقال لهم تبكيتاً وتقريعاً:

﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥﴾.

فما يملكون في الجواب إلا أن يعترفوا بسوء اختيارهم:

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦﴾.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ أي: سيطرت علينا أعمالنا التي شقينا بها، فصدتنا عن الحق وأبعدتنا عنه. ولا شك أن أعمالهم من كسبهم واختيارهم.

﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أي: وكنا بعيدين عن طريق الحق والصراط المستقيم. ولا يخفى ما في كلماتهم من مرارة وندم وخوف.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي: أخرجنا من جهنم.

﴿فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ فإن عدنا إلى الكفر والتكذيب، فإنا حينئذٍ متجاوزون الحد في الظلم عريقون فيه.

ولكنهم سألوا أمراً مستحيلاً كما مر معنا في الآية: (١٠٠).

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾.

أي: اسكتوا سكوت هوان في جهنم، وانزجروا انزجار الكلاب، ولا تكلِّموني في رفع العذاب عنكم، أو لا تتكلمون مطلقاً.

ثم ذكَّرهم سبحانه ببعض مواقف عنادهم وظلمهم، التي كانوا عليها في الدنيا؛ ليبيِّن لهم أنهم يستحقون هذا العذاب، وأنه تعالى ما ظلمهم:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي: سخرتم منهم واستهزأتم بهم، لأنهم آمنوا بي وسألوني المغفرة والرحمة.

﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ أي: من فرط تشاغلكم بالاستهزاء بهم، نسيتم ذكري وأعرضتم عن طاعتي وعبادتي.

﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي: تضحكون منهم؛ استهزاء بهم وسخرية، كما

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين].

﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝١١١﴾.

أي: إني جزيتهم وأنعمت عليهم بسبب صبرهم على أذاكم، وثباتهم على إيمانهم، فوزهم بالفلاح والخلود في النعيم. وهذا على قراءة ﴿أَنَّهُمْ﴾ بالفتح، وأما على قراءة ﴿إِنَّهُمْ﴾ بالكسر، فالمعنى: قد فازوا حيث صبروا[(١)].

* * *

الأعمار والخلود

﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۝١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١٤﴾.

ولمّا كان اغترارهم بالدنيا، وانهماكهم بشهواتها، سبب إعراضهم عن الآخرة وإنكارهم لها، كما مرَّ معنا فيما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧﴾ [المؤمنون]، سألهم تعالى عن مقدار حياتهم التي عاشوها في الدنيا، ليبين لهم أنهم اغتروا بشيء قليل حقير:

﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢﴾.

أي: كم كانت إقامتكم في الدنيا؟ وكم كان عدد السنين فيها؟.

فأجابوا مستقصرين أعمارهم في الدنيا، بالنسبة إلى خلودهم في العذاب،

---

(١) تفسير النيسابوري: ١٨/ ٣٤.

فالزائلُ المنتهي مهما طال قصيرٌ جدّاً بالنسبة للخالد الذي لا ينتهي، فكيف إذا كان خلوداً في العذاب؟! والإنسان عادةً يستطيل أيام المحنة، ويستقصر أيام الرخاء والراحة:

﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾.

أي: فاسأل الحفظة المهتمين بإحصاء الأعمار، فإنا لا ندري مقدارَ ما سلفَ من أعمارنا، بسبب ما نحن فيه من ألم وشقاء وعذاب.

وقولهم: ﴿فَسْئَلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ يدل على شدة ضيقهم وتبرمهم وأساهم.

وجاء تقديرهم لأعمارهم في آيات أخرى متفاوتاً، بسبب تفاوت أحوالهم، فعندما يحشرون من قبورهم، يتفاوت تقديرهم ما بين عشرة أيام إلى يوم واحد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه].

وكلما اشتد بهم العذاب وتمادى، زاد استقصارهم لأعمارهم، حتى تصبحَ في نظرهم ساعةً من نهار، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥].

ويأتي قسَمُهم هذا تصديقاً لما سبق في الآيات الكريمة، وهي تثبِّت النبي ﷺ في مواجهة عنادهم، وكما أخبر تعالى في **سورة الأحقاف** في قوله الكريم: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

صدَّقهم سبحانه على استقصارهم لأعمارهم، ووبَّخهم على اغترارهم بهذه الأعمار القصيرة الحقيرة، وجهلهم بحقيقتها.

* * *

تنبيه وتقرير

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

والحياة الدنيا ـ مهما امتدت ـ ساعة من نهار أو أقل بالنسبة للخلود والبقاء، ويتعالَى الله الحكيم العليم أن يخلق الخلق على هذا النظام البديع المحكم، لهذه الأعمار القصيرة الحقيرة الزائلة الفانية، فالإنسان لا ينتهي بالموت.

هكذا مهدت الآيات الكريمة لهذا التقرير الحازم الجازم، الذي يواجه الناس بقوة وصراحة وصرامة لا نظير لها:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾.

فكأن الآية تقول لهم: انتبهوا أيها اللاهون العابثون المغترون بحياتكم وأعماركم، فحياتكم قصيرة زائلة، ومصيركم ومرجعكم إلى خالقكم، إلى واهب الحياة ومبدع الكائنات.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي: تنزَّه وتقدس أن يخلق الملك الحق شيئاً عبثاً ولعباً، فهو الملك الحق الذي لا يزول ملكه، المستحق للعبادة والطاعة.

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ وهو رب العرش الكريم، فكيف يعبث ويلهو مالك وخالق العرش الكريم، أعظم المكونات وأكبرها، وقد مر معنا وصفه بالعظمة بجانب ذكره مع السماوات السبع: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦].

فالعرش كريم لجماله وكماله ولنسبته إلى أكرم الأكرمين، وعظيم لضخامته

وفخامته وسعته، جل جلال خالقه ومبدعه.

ولا بد للملك الحق المستحق وحده للعبادة والطاعة، أن يحاسب عبيده الذين يعبدون غيره:

﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ أي: لا حجة له ولا برهان بدعوة غيره تعالى، فهي صفة لازمة لكلِّ عبادةٍ باطلةٍ جيء بها للتأكيد، فلا يمكن وجود آلهة غير الله تستحق العبادة، يؤيدها دليل أو برهان، والتدين بما لا دليل عليه ممنوع، فضلاً عما دل الدليل على بطلانه[1].

﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ﴾ أي: إنما حسابه وجزاؤه عند ربه في الآخرة، وفي هذا الحساب لا فلاح للكافرين، وهو ما قرره تعالى في ختام هذه السورة الكريمة.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي: فلا فلاحَ للكافرين أبداً، بينما هو مقرر وثابت للمؤمنين، كما سبق في أول السورة: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾﴾، فشتَّان ما بين الفاتحة والخاتمة، الفاتحة التي تقرر الفلاح للمؤمنين، والخاتمة التي تنفيه عن الكافرين.

ثم علَّمنا جلَّ وعلا أن نتوجَّه إليه دائماً بسؤال المغفرة والرحمة، لنبقى على طريق الفلاح، فلا غنى لنا عن مغفرته ورحمته جلَّ وعلا:

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

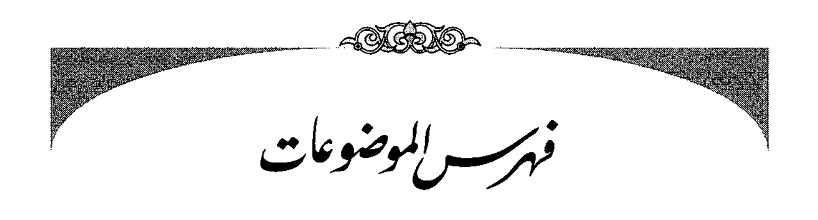
فرحمته سبحانه تغني عن رحمة غيره، بينما رحمة غيره لا تغني عن رحمته.

اللهم آمين، وصلِّ وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.



---

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٤/ ٣٦٢.



فهرس الموضوعات

تفسير سورة الكهف

العَواصِمُ مِنَ الفِتَنِ في سُورَةِ الكَهْفِ

تفسير سورة مريم

التَّوْحِيدُ والتَّنْزِيهُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ

تفسير سورة طه

سَبِيلُ السَّعَادَةِ فِي سُورَةِ طه

تفسير سورة الأنبياء

كَلِمَةُ التَّوحِيدِ وَأُمَّةُ التَّوحِيدِ فِي سُورَةِ الأَنْبِيَاءِ

تفسير سورة الحج

الطَّرِيقُ إلى الأُمَّةِ المُسْلِمَةِ في سُورَةِ الحَجِّ

تفسير سورة المؤمنون

الإِنْسَانُ مِنَ البِدَايَةِ إِلَى الخُلُودِ فِي سُورَةِ المُؤْمِنُونَ

